نبيل مرعي
رواية
يَنُّور

هتوحشيني يا ماما

تنبيه

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يسمح بإعادة نشر أو إصدار هذا الكتاب ، أو أى جزء منه أو تقليده أو تخزينه فى نطاق إعادة المعلومات ، أو نقله بأى شكل من الأشكال دون إذن مسبق موقع من المؤلف

ينور

هتوحشيني يا ماما

رحلة فتاة من التشرد والضياع إلى نوبل

تأليف

نبيل مرعى

إِهْدَاء

إلى من كنت دونها ..

أنتظر دون أمل ، أضحك دون رغبة ، أبكى لأتفه الأسباب

فجاءتنى على غير موعد ..

بـ " رغبة ، حلم ، مدد ، هدف "

إلى من رأيت فى إبتساماتها كل الوجع ..

ما إزددتُ فيها إلا حباً

إلى من أهدتنى الصدق .. دون مقابل

لأجلكى أكسر كل قواعدى ، وأخترق محاذيرى

إلى كل البدايات ، إلى كل حروفها .. وبكامل وعيىّ وإرادتى

أهديها هذه الرواية ..

فإنها تستحق .

بسم الله الرحمن الرحيم

تنويه

لا ينبغى الإلتفات لأى مساس لمعتقد أو فكر ورد بهذه الرواية .. وذلك أن كل الأحداث والحوارات سيقت على لسان طفلة لا تتعدى العاشرة ، مع الوضع فى الإعتبار أن إيراد بعض الأحداث على عواهنها لم يتم بعين القصد .. وإنما للإقتراب من واقع الأشياء وتحقيقاً للمصداقية ليس أكثر ، لذا خطورة هذه الرواية لاتكمن فى كونها واقعية فقط .. بل حقيقية ! ، مع العلم بأن أى تشابه بين أحداث وشخصيات الرواية وما يضاهيها فى الواقع هو تشابه مقصود .

ملحوظة ..

قد تكون بعض إنتقالات هذه الرواية سريعة وصادمة .. غير أنها لا تضاهى شيئاً حيال إنتقالات الواقع القاسية ! .

تمهيد

عذراً حبيبتى ..

لم أكن أعرف أن ثمة كلمة .. قد تفوق فى تأثيرها ما قد يُقال فى العمر كله ! ، عند كلماتك توقف العمر برهات ، وحاد فى وجهة أخرى .. مِلؤها دموع وألم .

" هتوحشينى ياماما " ..

جملة أليمة .. حاضرة بمشاهدها وصراخها ، تحتاج وحدها إلى رواية طويلة .. طول الزمان ، هى أخر جملة ودعتْ بها الصغيرة ، إبنة الثمانى سنوات ، أمها .. وجسمانها الطاهر يغادر باب البيت ، كان صراخاً عميقاً .. أبكى كل من كان له قلب ! .

وكلما تردد صداها .. صرخت الطفلة التى فقدت أماً ، لا تعرف إلى أين هى ذاهبة ، وهل ستعود كعادتها بعد روحتها كل مرة إلى السوق ، لكنها لم تعد ! .. فقط غادرت ، وإلى الأبد .

الكل ظل يتألم .. لكنها وحدها تألمت أكثر ! .

" هنيئاً للذين سعدوا بالأمومة ، حتى ولو فى الخيال ، يوم إنتبهوا إلى الوجود فرأوا أنفسهم بلا أمهات ، ثم حدثهم الناس عن حنان الأم .. فخلعوه على قلوب أمهات لهم توسدن الثرى منذ أمد بعيد "

محمد عبد الحليم عبد الله

شمس الخريف

(١)

صباح السابع والعشرون من اكتوبر ٢٠١٩ م

تصاعد الحفيف فى أذنى إلى همهمات وغمغمة ، ثم إلى وشوشات .. قبل أن تضحى ضجة وبغبغة فى " سوق الخميس " ، ضجة .. وكأنى للتو أسمعها ، أفهمها ، كما يتداعى الحديث فى رأس طفلة .. للتو وُلدت ، للتو أفرجت جفنيها فرأت الدنيا ، وللتو حبتْ .. ثم مَشتْ .

وإنتشر الباعة والسابلة ، يزيدون المشهد فى عينى زحاماً وصخباً .. وذلك قبل أن تأتينى جلجلة عربة الحلوى المثلجة ، حينها وفى وثبة نَدِيّة إلتفت مشدوهة صوب العربة ، فإنفلتت يدى دون إرادة من راحة أمى .. تتقافز فى صدرى بهجة الحلوى الباردة المسكرة ، وعيناى ترومان هناك .. فى شغف ولهفة ! .

جذبتنى أمى إليها فى رفق .. دون أن تكترث فتلوى عنقها جانباً لتعاين ما للتو شدهنى ، فلا يزال سجالها دائر مع بائع متجول ، كانت تخشى إغتراقى بين نسوة السوق .. ففى السوق تيه الصغار ، غير أن وثباتى الموتورة أرقتها وإنتهبتْ إلتفاتها ، فحدقت إلى ذاك الشيئ الذى أخذنى فجعلنى لا أقر فى قرار .. لتجد لُجة لا تعنى شيئ ولا تستحق عناء الإلتفات ، فحدجتنى ضائقة .. وأطبقت يدها على أناملى .

إنتزعتُ راحتى من قبضتها عنوة ، ولازالت عيناى فى شده تدوران فى فلك لا يستقر سوى هناك ، حيث عربة " الآيس كريم " ، فتوقفتْ .. وراحتْ تتصفح وجهى ، وبعيون بليدة تظاهرتْ بأنها لا تعرف مأربى .. كعهد كل الأمهات فى هذا اليوم اللاتى نشبت أيدى صغارهن فى أناملهن صباحاً دون داع ، وبما لا تتفق فيه سخافاتهم مع ميزانية الشراء .

- **إلام تتطلعين ؟!** ، " قالتها فى هدوء مفضوح "

- **أريد شراء الحلوى**

إمتدت ببصرها حائرة فى أنحاء السوق .. فتحجرت عيناها صوب العربة ، ثم أرجأت طويلاً .. تفكر فيمن يُغيثها من ورطتها ، فَغَيّبتُ عينى عنها صاغية .. لأرفعها خجلى من تارة لأخرى أتظاهر بأنى أيضاً لا أعرف ما تعرف ، وتحاول بإحتيال التغاضى عنه ، لازالتْ تفكر .. وأنا عند سفحها أحترق شغفاً ، فغمغمت ضائقة " **أمى لا وقت لتراخيكى هذا ، فالحلوى تنفذ** " ، وأتتنى أجراس " المزلقان " تتردد .. تنذر بقطار قد شارف الأرصفة ، فأنعمتْ تنظر هناك .. حيث كان النسوة اللائى إفترشن القضبان ببضاعتهن يلملمنها .. خشية أن يدهسهن القطار ! .

حدقت فى وجه أمى أستنطق تلك النظرة الغامضة التى لاحت فى عينيها .. ولا تلوى إلى شيئ ، لأقرأ المخفى فيهما وما تشيا به ، والحيرة تكاد تلتهمنى .. هى ولاريب تدرك جيداً أن جميع الصغار على عهد قديم مع بائع الحلوى المثلجة منذ أن إنزرع " سوق الخميس " فى هذه البقعة .

غضت جفنيها ، تتوارى بحدقاتها عنى فى عبث هنا وهناك ، ثم أردفت

- **فيما بعد ، فثمة الكثير من الأغراض .. للحين لم نبتعها**

وإنتهب صفير القطار جلجلة عربة الحلوى فى باطنه .. فضقت ذرعاً ، لكنى لم أرخ إرادتى ، قرأت فى اللحظة ذاتها هُنات وجهها بملئ عينى .. ثم شرعت أرجوها وأستجديها ، وأُقسم عليها بما تُعِزْ ولا تملك ألا تُبِرَهُ من أيمان " أمى وكنت أعرف ثغراتها ونقاط ضعفها " ، ظللت أُلحُ .. حتى رمقتنى بعين شافقة ، فألفتنى جنيهان ناهضان من حافظة نقـودها ..

- **إذهبى سريعاً ولا تتلكأى ، فعيناى فى إثرك .. ترقبانك ملياً ريثما تعودين**

فأشرفت ألثم راحتها شاكرة متوددة .. ووثبت لتوى إلى وجهتى ، ولم أكد أفعل .. حتى قرع هتافها ظهرى !

- **على هونك .. وإنظرى أمامك**

فتوقفت للحظة أنظرها مضطربة " **ما بالها أمى ؟ ، أأركض .. أم أمشى على مهل ؟!** " قلت لنفسى ، لم أكن أدر ما ينبغى علىّ فعله لأسترضيها .

هرعت إلى العربة ، ولازالت تتردد فى رأسى تحذيراتها " **لا تركضى ، لا تتسكعى ، إشترى الحلوى وعودى سريعاً .. وهأنذا أتابعك** " ، كانت قدماى تتحسس الأرض فى رهف كالسائر على قشر البيض .. لا يخلو الأمر من قفزة غنج من فينة إلى أخرى ، وعقب كل خطوتين تحين منى إلتفاتة حذرة إليها .. لأرى بأى الأعين تنظرنى ، وفى إحداها جاءنى صياحها .. فتوقفت لأنظرها ، كانت تتعجلنى ، فإرتبكت وإستدرت سريعاً صوب العربة .. لأصطدم بخالتى نعمات ، كعادتى فى سوق كل خميس ، لوحت لها بإيماءة تحية فى حرج ودهش ، أحدث نفسى " **ما بالها ترصد نسوة السوق .. فلا تجد سواى هزيلة لتصدمها** " .

خايلنى صوت أمى .. فإنطلقت أخترق تلافيف النساء ، كأنشوجة تهرع إلى طُعم سقط فى الماء سهواً ، وفى أقل من خفقة عين كنت إلى جوار العربة الخشبية .. يجأر فى أذنى نعيب بوقها الملحون ، وترقص فى صدري أهازيج بائع " الآيس كريم " وغنجه .

نفحته الجنيهان ، وإلتقطتُ منه حلوتى المثلجة .. التى ذاب سكرها وزبدها فى فمى قبل حتى أن تحط إليه ، وما كدت حتى إلتصقت تارة أخرى بصدر العربة .. إثر دفعة رهيفة أتتنى من الخلف ، أستدرت لأجد صديقتى هند فى ذيل ثوبى .. تلاهينى كعادتها أيضاً ، وتعجبت " **ما بال الأشياء تتكرر كل خميس .. دون أن تحيد ؟!** " .

إبتسمت ، وطالعتها بحلوتى تموج بينى شفتىّ ولسانى .. قبل أن تُشرف فتلوك حلوتها أمامى ، فتثير غيظى ، وهذه كانت أقصى أمنيتى ، ذاك التحدى الذى لا نقوم بغيره يوم الخميس ، وبعدها يرفأ قطارى وقطارها ..

قطار رحلة الخميس الممتعة ، وكأن اليوم للتو قد إنتهى .. فما عدت أنتظر منه أكثر من ذلك ليسعدنى ، ويكلل أسبوعى بألوان زاهية مفرحة .

غير أن القطار لم يركن إلى مرفأ هذه المرة ، ففى غمرة إنشغالى وغفلتى .. سارع الخطو على نحو لم ألحظه ، وما كدت لأنتبه لولا أن عجلاته صفّرت وإصطخبت .. فتصدعت أرجاء السوق ، إكتسحت الحوانيت والفرش .. وطوحت ثلل النسوة اللاهية على جانبيها ، فمضت البقية الباقية منهن يركضن أمامها .. بعد أن دهست ما دهست وتركت ما تركت من الباعة والسابلة ، فتبدل تمطى السوق وتراخييه بغتة إلى شد عنيف لاهث .
سألتُ نفسى " **ما بال النسوة يركضن ؟!** " ، كنت لا أزال فى غفلتى ، تكهنت أن يكون القطار هذا الوحش الحديدى قد باغت ثلة منهن فلم يمهلها ، خانها الوقت قبل أن تلملم بضاعتها .. فأجهز عليها ودهسها كعادته كل عام ، وإلا فلماذا يركضن ؟! .
كانت عربات القطار تدبدب وتصخب فى رقع ودوى عنيف .. فلم ألتفت إلى الهمهمات التى كانت تموج على ألسنة البقية الناجية ، كن يرغين ويزبدن " **المرأة سقطت** " ، " **أى مرأة تلك ؟!** " ، لم يكن حينها يسترعينى إن سقطن نسوة السوق جميعاً .. فلا شيئ يستأهل عناء الإلتفات سوى قُمع الحلوى الساحرة فى يدى ، وإنسياب زبدها فوق باحة اللسان فى حلاوة وطلاوة ، يفتقدها كثيراً حليب أمى .
لم ألتفت ، كما لم ألتفت لأشياء كثيرة ، إلى قُمع الحلوى وهو ينضغط بين أناملى فى عصبية .. ليمج عن رأسه زبده وسكره ، فيسقط وينساح تحت أقدام لاهثة .. لازالت تردد " **المرأة سقطت** " ، رمقت حلوتى متأخراً وهى تُدهس وتمتزج بالثرى ، فإنكببتُ أجمع لمامها .. ألعن أولاء النسوة اللاتى لم يرون رجلاً خشناً يجمع لمامهن ، فرتعن سافرين هنا وهناك .

جثوت على ركبتى بين الأقدام المائجة .. أتحسر ، وكم من الركلات وقتئذ تلقيتها فى جذعى وكتفى ، غير أن الوقت قد إنتهى .. فما عادت الحلوى تصلح حتى لإطعام القطط الشاردة .
شعرتُ بغصة ثقيلة فى صدرى ، وقبل أن أحاول النهوض خائبة الرجاء ، وبعد فوات الأوان .. تحجرتْ عينى، سبقتنى راكضة إلى هناك ، زهاء بضع مترات ، حيث ذاك الوجه الغائم المطروح بين ذراعىّ إحداهن ، إنها أمى !! ، كانت غامضة العين ، ساكنة ، لا تختلج ، وثمة زحام نسوى تكدس حولها .. ضجة ولمام وبلبلة ، ولاح لى أنه سبب وجيه لغيامها وغيابها عن الوعى .. غير أنه ظل محض شك لا يميل إلى يقين جازم .
حينها ، دار فى رأسى ألف سؤال يجر فى أذياله آلاف الإجابات ، **" كيف سقطت ؟ " ، " ربما ركلتها إحداهن فى غمرة ركضهن المكروب ، ربما إختنقت فى غمرة تكدسهن ، ربما تعاركت مع إحداهن ، ربما كانت أُضحية هذا العام .. فصدمها القطار ، لكنه إن فعل فلن يُبقى منها شيئاً ، فهذا الغاشم لا يصدم .. بل يدهس ويهرس ، وهأنذا أرى وجهها سليماً ، ربما يكون قد بتر شيئ منها ... ربما ربما "** ، ففزعت واقفة لأتبيّن الأمر .. علّى أوقف هذا السيل الجارف من الإجابات النزقة ، العابثة ! ، التى ما زادتْ الشكوك سوى غوصاً فى صدرى ! .
هرعت لتوى نحوها ، فإنسحق ما بقى من الحلوى البيضاء فى نعل حذائى فتردتْ قاتمة .. بعد أن كانت تزهو فى يدى منذ لحظات بزبدها الأبيض الناصع ، ظل صدرى يعلو ويهبط مكروباً .. إلى أن حط عند رأسى أمى

- **أمى .. ما بالك يا أمى ؟! ، ماذا جرى لأمى ؟! .**

سألت النسوة فى ذهول .. غير أن جميعهن كان ينظر ولا يجيب ، يصطفقن بأياديهن أسفاً .. لترتخى أجفانهن فى صمت .
صمت أطاح بالضجة والبغبغة ، الوشوشات والهمهمة ، فتحول الحفيف

إلى خرس كئيب ، رتيب ، لم يبتره سوى صوت خالتى نعمات .. يتحشرج جاهداً

- **أم يَنُّور ماتت .**

توقف الزمن حينها لبرهات ..

بات صدرى يدق برقع مخيف ، كآلة عنيفة ترفع مطرقة تزن عشرات الأطنان لتسقط بها فى دوىّ عظيم ، **" أم يَنُّور ماتت "** قيلة ظلت تتردد فى رأسى برجيع هائل ، رفعت عينى .. كانت ثقيلة ، شردت إلى أخر بقعة فى السوق .. فرأيت أمى واقفة هناك وفى يدها حقيبة خضروات ، وفى اليد الأخرى تحمل قمع حلوتى الذى للتو إنسحق ، تطوحتْ رأسى يميناً .. فرمقت أقرب جُرم أمامى ، لسيدة بدينة ، يتباعد إلى ما لا نهاية ، ليصير نقطة ثم لا شيئ ، ولازال الرجيع الهائل يتماوج مرتداً مع الأثير ، مختلطاً بنعيق القطار .. يدوىّ ويخفت ، يعلو ويهبط .

دارت عينى فى وجوه الواقفين .. ينظرننى فى أسف ، لتطوف فى دورة أخرى فى أسارير أمى .. التى تجمدت وغابت بغتة ، عينها وأنفها وثغرها ما عادت بعينها وأنفها وثغرها ، لم تعد تنتمى إليها ، باتت حجارة على وجه واجم .. للتو كنت أرجوه وأقسم عليه ..

كانت أمى من هؤلاء .. ذوى الوجوه الكذوبة ، الوجوه الحمولة والمثقلة دوماً ، مهما تفطر قلبها .. لا ينبو للحزن أثر على صفحتها ، ولا ينبض فى محجريها عبرات ، وإن نبضت فلا تسيل .. وإن سالت تذوب فى أديم طلتها قبل أن تبدو لها لمعات ، تسقط فى خنادقها وتعرجاتها .. فى تلك التجاعيد التى خطتها الخطوب والنوازل ..

" بربك يا أمى ، لا وقت للكذب اليوم ، إنطقى .. أفصحى عما أصابك ، قولى ماذا جرى "

لكنها لم تنطق ، لم تنبس لها بنت شفة .. تخشبت ، ماتت ! .

تخدلت ذراعاى وأكتافى وثقلت رجلاى .. كفرس جامح إلتقم رصاصة فى مفرق رأسه ، وما كدت حتى ذهلت عيناى .. وأُسدلت على صفحتيهما غيامات قاتمة وضباب كثيف ، شعرت بحدقتىّ حينها تنسحبا لأعلى نقطة فى رأسى .. فإنساحتْ هامتى للخلف .. وإنطرح جسدى خامداً ليسقط بين مرفقى خالتى نعمات ، أخر وجه رأيته فى سوق الخميس ، ولازالت شفتاها تردد بقسوة **" أم يَنُّور .. ماتت "** ، وعلى الطرف الأخر تهمس أمى فى أذنى .. **" متى كبرتى يَنُّور ؟! "** .

(٢)

بعد ساعات مرت سنوات عجاف ..

إنسلت أجفانى عن أعين مرخية مجهدة ، أمضت ليلها نائمة فى غطيط وتيه .. كليلٍ ينحسر عن موج هادر ، تصل لآذانى ضجاته ورعداته ، وإنزاح الغيام المطبق عن صفحة شارعنا .. وكانت الناصية البعيدة أول ما رأيت فيه ! .

ثمة زحام مقبض ، وهمهمة غزيرة .. تقتحم رأسى كجراد كثيف يئز ، تقلقلت من محطى فوجدتُ نفسى مطروحة بين كتفى جسد نسوى رخو ، أقمت ناظرى ولازالت أجفانى ترتجف .. فإذا برمقتى بين أحضان خالتى نعمات جارتنا ، تلك التى إلتقطتنى فى السوق .

وللحظة قاسية تسللتْ المشاهد عن مخازن ذاكرتى .. من ركن يتوارى إلى عمق ليس ببعيد ، وثمة همهمة لازالت تطن فى أذنى لها صدى ورجيع مخيف .. " **أم يَنُّور ماتت** " ، فإرتجفت مذعورة ، إنتفضت فى محطى .. كأن جوارحى للتو ألفت مس كهربائى ..

- **ماتت ! .. أين أمى ؟**

وما كدت حتى دق فى أذنى بغتة صراخ مدوى أطاح برأسى هناك عند ناصية الشارع ثم عاد بها سريعاً كالبندول ، لويت عنقى ، فرمقت ثلة من نساء أعرفهن .. متوشحين بالسواد ينعقن كالغربان .

تزحزحت قليلاً ثم جلست ، تلفت حولى فى وجوه نساء أحطن بى " **أين أمى ؟** " ، فضمتنى خالى نعمات تلوح فى ثغرها إبتسامة أليمة تحمل وجعاً عميقاً ..

- **أمك ذهبت إلى ربها .. فلتدعى لها بالرحمة .**

وردد النسوة ، يرتسم الآسى بادياً على أساريرهن " **ربنا يصبرك** " ،

ونظرت لى إحداهن فى وجـوم تضم شيئاً رهيباً فى صدرها .. تتحشرج الكلمـات فى حلقها " **لازالت صغـيرة .. كيف ستتحمل هذا كلـه** " ، فإنخلع قلبى وترقرقت عينى غير مصدقة .. وما لبثت حتى إنفجرت منها عبرات حارة غزيرة من هول ما أسمع ، أبحث عن أمى بينهن .. كمن يبحث عن قطاره بين عربات تلهث أمام ناظرية .

إتسعت حدقتاى فى ذهول " **ماذا يعنون بأن أمى ماتت ؟** " .. أيقصدون أنها مريضة ؟! ، وما الجديد ؟ ، فمنذ عقد من الزمان وهى معتلة بمرض عضال ينهش جسدها رويداً ، لم أكن أعرف حينها أن الموت غياب بالكامل .. أقسى من الهجرة لعشرات السنين .

حينها أصررتُ على رؤيتها ، وعيناى على ديدنها وعنادها .. تطفر دموعاً مدرارة ، طمتْ كسيل جارف .. حتى غـرقتُ فى تشنجـات ورعشة ، فما وجـدتْ خالتـى نعمات إلا أن تصطحبنى إلى باب دارنا متألمة ، تموج فى حلقها غُصص جاسية ، قمت معها وتباريح ضليعة تفعل بجسدى فعلها على أقسى ما يكون .. كشاة كسيرة تُساق إلى الذبح .

كنت مرتبكة متلعثمة .. كلما ضاق الهواء فى صدرى .. تعثرتْ ، شعرت أن الطريق إلى دارنا طويل .. برغم أنه لا يتعدى بضع خطوات ، كانت الأعين هنا وهناك ترمقنى .. وتتنافح لمواراة عبرات جاءت على الأعتاب ، الجميع يواسوننى فى مُصاب للتو لا أفهمه ، فلم أملك سوى التطلع إلى مسحاتهم علىّ أعرف ما جرى على حقيقته ، غير أنى بالأخير لم أفهم شيئ .

شارفنا عتبة الدار ، ولجت بى خالتى نعمات إلى الباحة المؤدية إلى الغرف مباشرة .. ثم أدخلتنى إلى غرفة الضيوف ، وعند الردهة لاح لى جسد مسجى على حصير ومغطى بملاءة بيضاء ، نَظرتُه للوهلة الأولى فقفز قلبى عن صدرى ، وما كاد حتى تخلخلت ركبتاى .. وجرتْ فى جسدى قشعريرة وإرتعاش مخيف ، لحينها لم أكن أعرف أن بجسدى تفاعلات

قاسية كهذه ، وبغتة تحجرت قدماى .. أبت أن تتحركا قيد أنملة دون قِياد خالتى نعمات .

مدت يدها لما عاينت روعى وسحبتنى رويداً نحو الجسد الراقد ، ودقات متواترة ترقع داخلى .. لا أعرف لها كنة ، أهى شفقة أم حسرة أم توتر .. أم ماذا ؟ ، ماذا ينبغى علىّ فعله الأن ، بضع خطوات ثم جثتْ معى على ركبتيها إلى أن أقعدتنى قبالة وجه أمى مباشرة ، فى غضون ذلك إجتاحتنى هواجس جمة " **تُرى ماذا أحدث الموت بوجهك يا أمى ؟!** " ، ولسوء ما تخيلت سقطت دمعة مرتجفة عند طرف الملاءة .. فشربتها ظمآى .

رفعت خالتى نعمات الغطاء عنها .. تهمس فى رفق " **فلتودعيها بهدوء** " ، ولمعت فى عينها عبرة قاسية برغم رقتها .. لن أنساها ما حييت ، حينها تاهت كل الكلمات عن معانيها ، أو قل لم أكن أعرف لها معناً ، رمقت وجه أمى صحيحاً ، لازالت بيضاء ثرية .. بضة دون إبتقاع ، وكأنها طفلة بريئة براءة الثلج ، كان جفناها مُسبلين فى هدوء ، تخيم على أساريرها مخايل وداعة وطمأنينة

تنفست الصعداء هامسة " **إنها نائمة** " ، جاهدت لتصديق ذلك .. أو قل لم أصدق هذه الوجوه التى تدعى أنها ماتت ، على عكس ما رأيت .. نائمة ! ، وحالماً ستفرج جفنيها ، وربما فعلتها الأن فلننتظر ، حدقت فى وجهها لهنيهة فلم يحدث شيئ ، أشفقتْ خالتى نعمات علىّ ، فقد كانت تعلم أن التحديق فى وجوه الموتى يوحى بأن أساريرها تتحرك ، فما كان إلا أن شعرتُ بوجه أمى يتقلص وينبسط .. برغم أن أواصلها كانت متصلبة ، لم أكن أعرف أنها تقلصات الموت المعروفة ! .

إنتظرت أن تُفرج أجفانها فلم تفعل .. فأرجأت الأمر مذعنة لوقت أخر ، فربما راعها هذا الحشد القاسى بالخارج .. تلك اللمة المقبضة من نساء ورجال القرية ، فأجلت ذلك لحين إنفضاضه وإنتشاره .

لثمت وجنتها ، كانت باردة .. لا ينبض فيها خيط حرارة واحد ، ثم جلست لثوان قليلة قبل أن أقف بهدوء وتؤدة .. لأخرج دون أن تختلج فى وجهى جارحة واحدة ، وذلك على نحو أدهش خالتى نعمات .. والتى ظنت أنه ما إن أجد أمى فلن أبرحها أبداً ، وهى التى تجشمت عناء التفكير فى كيفية أن تزيحنى عنها قبل أن تسوء حالتى .

غطت وجهها بالملاءة ثم تبعتنى سريعاً ، ظننت أننى سأركض ، سأصرخ ، سأُصرع .. لكن شيئ من هذا لم يحدث .

تردد فى نفسى أن " **إطمئنى .. إنتهى الأمر ، أملكِ ماتت** " ، فهمت أن روحها قد فاضت إلى ربها .. لكن جسدها هنا بالداخل ، وقتما إحتجت إليها وجدته ، أهكذا هو الموت .. يالا بساطته ! ، فلماذا إذن يبكون ؟! ، لماذا تجمع الجيران والأقارب ؟! ، لماذا ينظروننى بحسرة ؟! ، أمى بالداخل ولم تغادر دارها ، هى فقط نامت .. فأغمضت عينيها ، وسأقوم أنا على خدمتها ! .

كان مفهوم الموت جديداً على ذهنى ، ظننته فى بادئ الأمر يعنى أن جسد أمى قد إختفى وما عاد له من أثر ، ضاع كما ضاع إسمها عن الوجود ، وما عدت لأراه تارة أخرى ، لذا صُرعت عندما وافانى صراخ النسوة أمام الدار .. وغامت عينى ، ثم إنفجرت بدموع مدرارة .. لأنى لم أكن أعرف أين سأجدها إن أنا إحتجت لها ، لكنها هنا بالداخل .. لم تفارقنى ، وهذا يكفينى ! ، غير أنى كنت مدهوشة بغريب أفعالهم ، صراخ ونواح ونعيب ، والأكثر ذاك الإختلاج المضطرب النابض فى صدرى .. وهذه الوكزة التى لم تفارقنى منذ أن سمعت الخبر .

ما إن رأى النسوة هدوئى ورزانتى ، وخاصة خالتى نعمات .. حتى حررننى من أيديهن وأحضانهن ، ولثماتـهن الكثـيرة على غير العـادة ، لكن

ظلت العبرات تنبض فى محاجرهن .. ولا أفهم داعيها .
وقتئذ لم يكن موت أمى هو ما يخيفنى ، لكن تداعى الرجال المكرور أمام الدار .. وإحتشاد النسوة داخلها ، طلاتهم الباهتة الحزينة ، وأسفهم .. وتلك العبرات التى لا تنفك أن تهدأ على مسحاتهم .. حتى تثور تارة أخرى ، وبخاصة جدتى ، تلك التى كلما رمقتنى ضمتنى إليها بشدة .. وناحتْ ببكائيات وعبارات قاسية ، لا أفهمها ، إلا خالى .. ظلا محجراه جافين ، عهدته عصى الدمع ! .. غير أنى ما ظننتُ أن تضن عيناه ويرقأ الدمع فيهما فى يوم كهذا ، ليس إلا هالات سود كانت ترقد عند سفحهما ! .
كل هذا كان يرهبنى ويقبض صدرى ، يجعلنى أرتاب بأن ثمة شيئ ما لا أعرفه ، خطر محدق وكارثة داهمة على وشك أن تغشى الدار .. وهو الأمر الذى حدانى أن أرمق غرفة أمى من فينة لأخرى ، لكنى بالنهاية كنت أقول **" هى لم تفارق من باب ولا من شرفة .. إذن فهى لازالت بالداخل ، وهذا يُطمئننى "** .
غير أن هذه اللجة والجمهرة داخلتنى بإنطوائها على ضيف غريب ، هائل فى كيانه .. وإلا لما إحتشدتْ له كل هذه الجموع ، وخايلنى أن هذا الضيف هو ملاك الموت .. قابض الأرواح الذى طالما حكت لى أمى عنه فيما سبق ، جاء ليرينى عظيم أفعاله فيها .. ليأخذها إلى حيث لا يكون لها وجود ، ومذ أن لاح لى هذا الخاطر لم يغب عن ناظرى باب الدار والشرفة .. سوى برهات نسيان ، دون إرادة ، فأعود لأتذكر .
وفى غضون برهات نسيان كهذه .. نفحتنى خالتى نعمات عشرة جنيهات ، فنظرتها حائرة ..

- **وما عسانى أن أفعل بها ؟! .**
- **إشترى حلوى .**

كانت عينى ومعدتى قد إمتلأتا بشيئ مهول ! ، وبات لسانى كلحاء صبار

مرير ، أو قطعة مطاط لدنة .. لا تشتهى ولا تتذوق ، فزهدت كل شيئ ..

- **لا أريد الشراء .**
- **إذن فلتبتاعى كيس حلوى ووزعيه على الصبايا .. صدقة على روح أمك ، ليرحمها الله .**

" **ليرحمها الله !** " .. ما إن سمعت هذه العبارة حتى ركضت لتوى والصبايا فى إثرى نبتاع كيس الحلوى ، علّ الله أن يرحمها فيرد عليها روحها .. رأفة بها ، وبى ! ، وما إن جلبته حتى طفقت أوزعه واحدة واحدة على الصبايا ، ثم النسوة ، ثم الرجال ، والكل ينظرننى بشفقة .. ويرموننى بعبرات تُسرع إليها أيديهم لتمسحها ، لكنى كنت أراها .. ولازلت لا أفهم داعيها ، كانت تثير فى صدرى رهبة على رهبة .

مرت ساعتين من صباح الجمعة ولازال الحشد يموج ويتواتر ، والمشهد المزحوم يهدأ ليعود لإرتعاشه وإرتجافه ، وهالات دائرة على الوجوه .. لا تخمد ولا تكف عن الإضطراب ، غير أنى سئمت هذا كله ، فإلتجأت بعيداً إلى ثلة الصبايا ولذنا جميعاً أمام دار خالتى نعمات .. نتحادث عن الموت وحكاياه ، ومن وافتهم المنية قريباً من ناس القرية ، ومن باتوا " يتامى " من الصبايا ، ورغم غرابة الكلمة إستهلكتها معهم .. دون أن آبه لمعنى وتبعات أنى بتُ فى عدادهم " يتيمة " ، وظلت جدتى بين الفينة وأختها ترسل ورائى من يسأل عنى .. بعد أن أبيت أن أجلس معها فى رحاب هذا الزخم الموتور ، ليعود بالأخير ويطمئنها .

غير أن عيناى ظلت متعلقة بالوجوه وهى تنظرنى خلسة وتلوح فى صمت .. تنضح ملامحها بكل معانى الشفقة التى لم ترق لى ولم أطمئن لها ، رأيتها درب من المغالاة يضخمون به ما حدث ! ، ورغم ذلك لم أستطع منع عينى أن تنبض لعدة مرات من هول رمقاتهم الحزينة المُسددة نحوى .

ولمزيد من الوقت .. ظل المشهد على حاله ، حديث وهمهمات وبكاء .. وطلات عابسة واجمة ، فإنساح صمم رتيب إلى أذنىّ ، حتى أضحت المشاهد وما يَجِدُ عليها وكأنها لوحة صامتة .. أفرادها يتحركون ، فما عدت أسمع غير ضحكات الصبايا حولى وهزجهن .. وهن يتبارين فيما يفهمنه وأفهمه ، إنخرطت معهن عامدة ريثما تنتهى هذه التحركات الرتيبة الداعية للملل .. وتنفض هذه الوجوه الكئيبة فأدخل لأمى وأسامرها ، تلك التى غُلِقَت عليها الأبواب بغتة .. وإنتصب أمامها ألف حارس ، كلما إقتربت من الشرفة الموصدة .. سمعت بالداخل خرير ماء وصليل أوعية ، وحديث هامس ، **" ترى ماذا يفعلون بأمى ؟! "** ..

ظننت أنهم كانوا يحممونها .. نعم فقد سقطت فى السوق صباح البارحة وإتسخت ثيابها ، ولبرهة إستفقتْ **" أمى لم تسقط فى السوق ! .. أمى ماتت على فراشها إثر نزيف حاد إنفجر فى سُرتها المعلولة ، بعدها ماتت "** ، وهذا ما باشرته بأم عينى بعد رحلة مرض طويلة .

ولكن كيف غاب عن عقلى كل هذا ؟! ، وماذا عما جرى البارحة ؟! ..

وهنا إستدركت أن السوق ووقائعه لم يكن سوى حلم راودنى بين أحضان خالتى نعمات ، تلك التى أنهى الحلم مأساته على ساعدها .. ليستأنفه الواقع على الساعد الأخر .. **" يا لا ذهول عقلـ ... "**

وما كادت أن تلتئم العبارة حتى صرعنى الرجال وهم يهمون إلى باب الدار فازعين ، الجالسون وقفوا ، والواقفون تقلقلوا فتحركوا ، والصامتون علت حناجرهم بأدعية شتى .. تتلقفها ضجة ثارت بغتة بين النسوة بالداخل على نحو حرَّك فى نفسى الشك والريبة ..

ساورنى قلق أليم ، فإنتصبت مشدوهة ترفث الهواجس بمخيالى ، وهكذا الصبايا ، سرت إرتجافة متواترة فى جسدى .. فإصطكتْ قدمى ..

- **ماذا دهاهم ؟!** ..

وطافت صورة أمى أمام عينى تسبح فى مخايل عدة ، مخايل صادمة ! .. جعلت بينى وبين الهاوية أشبار ، إقتربتُ منهم بقلب موتور يهدهده الخوف .. أتوسل لو أن هذا كله شذرات شيطانية باقية من كابوس السوق ! ، حتماً ستنتهى ، وكأن شيئاً لم يكن .
وفى غمرة تيهتى ، رمقت شيئاً يتحرك خارجاً من باب الدار .. وكأنه صندوق ، وتسربلت إلى أذنى همسات تردد " **لقد خرجوا بنعشها** " ! ..
فلفظت أهة قوية " **أمـى ؟!** " ..
أنئذ ، وفى رمقة عين .. تكدست أشياء جمة فى رأسى الضيق ، أطنان من المعانى والمشاهد ، فهمت أنها ماتت ، والميت يغسلونه ، يصلون عليه ويلقنونه ، ثم يدفنونه فيهيلون عليه التراب ، وبالنهاية .. يغلقون على جسده قبر يعلوه شاهد ! ..
ما بال تلك الأشياء كانت غائبة ! ..
ما إن لمحت نعشها خارجا من باب الدار حتى قفز قلبى يركض إليها ، دقاته مدوية مرعبة .. يستصرخ بى أن أستتبعه ، إستعر صدرى فوثبت مسعورة أخترق الزحام إلى أمى علىّ ألحقها " **إلى أين تأخذونها ؟** " ، غير أن ذات الحراس لازالوا بينى وبينها .
دفعت الواقفين عنى كرصاصة تخترق ثوب مهترئ ، ركضتُ حتى باتت على مرأى منى ، وما كدت أشارف ثلل النسوة الباكين خلفها .. حتى قبضتْ خالتى نعمات على ذراعى ، فإنتزعتنى للخلف ، كدت أنطرح إلى الأرض لولا أنها تلقفتنى ، وما لبثت أن أثب لأكمل رحلتى الطويلة راكضة على أرض تميد بى .. حتى وجدت ألف ذراع يقبضنى ، وأنا أترنح بينهم .. أفلت من ذراع ليمسك بى الأخر .
" أواه يا أمى ، كان التحليق إليكى البارحة سهلاً .. أما اليوم فألف ذراع يقبضى "

كنت على بعد خطوة منها ، غير أن النعش حلق فوق أكتاف الرجال إلى سيارة نقل ، وسريعاً ، كما حدث كل شيئ سريعاً ! .. إرتفع إلى الصندوق ومكن ، وإنتصب إلى جواره رهط من وجوه آسية .
لاحت لى السيارة تتحرك .. فتساندت بكل ما أوتيت من عزم وهمة على سواعد مازالت تمزقنى ، يكاد قلبى يتوقف من فرط الإختلاج .. يشهق ويزفر فى تلاحق مكروب ، إنتفضتُ بلوعة ما كنت أحسبها ماكنة بى حتى إنفرط عقد النسوة وتهدل .. فتراجعوا عنى ، وصراخهم المرتعش يتردد فى أذنى مؤلماً ، يتماهى مع صفير قطار قادم على رصيف المحطة .
وعلى مرأى خطوة واحدة من زحامهم ، رمقتْ عيناى النعش يُفارق .. دون وداع ، فجمدنى الذهول ، وحانت منى شهقة هزتنى برعشة صادمة .. وإنفجرت ذاكرتى بملئ ما فيها تارة واحدة ! ، فركضت مصعوقة خلفها .. يزدحم صدرى بشهقات وجع عظيم ، أحجل وأطوى بقدمين ثقيلتين .. أقوم تارة وأسقط تارة ، كعيدان تضطرب وتتكسر .. توشك أن تضحى حطام مبثوث ، تعلقتْ عيناى بشفير النعش .. فإرتجفتْ ، حتى كدت أنطرح لولا أن خالتى نعمات أمسكت بى تارة أخرى ، حاولت التوسل إليها أو الإفلات منها .. دون سبيل ، فالوقت كان قد إنتهى ..
غرقت لأذنى فى روع مهول ، وتفاقم صوت القطار فى رأسى يطن بأجراس تأبينية ، شعرتُ حينها بضعفى وإنهزامى حيال ألف يدٍ تمزقنى .. فصرخت بأعلى صوتى ..
" هتوحشينى يا ماما .. هتوحشينى يا ماما "

فتوقفت السيارة بغتة قبل أن يُشارف النعش ناصية الشارع ، وإهتاج الناس باكين بحرقة ، مهللين **" لا إله إلا الله .. لا إله إلا الله "** .
وجئير صـوتى لازال يتردد ، يردده معى كل شيئ ، علّها تسمعنى فى ساعة

الوداع الأبدية ، تكاد تنفجر حنجرتى وجعاً " **هتوحشينى يا ماما** " ، وما تحركت السيارة سوى بعد أن بح صوتى وتخدل جسدى بين أيادٍ كثيرة لازالت تتنازعنى وتمزق ما بقى منى ، فما كان الموت كافياً لإنتهابى .. حتى إنتزعونى عن أمى ، دون رمقة أخيرة ! .

ظلت السيارة تبتعد وتبتعد حتى غابت عند ناصية الشارع ، فإنتهب القطار المشهد مفارقاً يصرخ بصفير مؤلم ، أذوناً برحلة جديدة تتكرر كل يوم ! ، رمقتُه يُغير وجهته حتى تخطى الناصية ودخل الشارع ، كاد أن يدهسنى .. لولا أنى ألفيت أخر عرباته لازالت تمر هناك على القضبان ، مغادرة إلى وجهة بعيدة .

وعند أخر رمقة ، وقبل أن تختفى العربة .. إرتفعت الناصية بغتة إلى السماء ، ثم إنقلبت ، ودارت البيوت كالرحى حتى ذابت تفاصيلها فتماوهتْ ، ثم إختفت ، وغاب عنى كل شيئ ..

الهمهمات ، البكاء ، الإصطفاك ، الوجوه العابسة ! .

(٣)

بعد نصف نهار من الإغماء .. صَحوتْ .. إذ كان لابد أن أصحو ، ومرت الساعات .. فلا حيلة لها أن تمر .

لازال الخدر يُهدهد رأسى ، إنفرجت عيناى على غرفة مظلمة ، هامدة .. كبحر أسود راكد يتنفس بعمق ، آذانى ملغومة بشيئ ثقيل .. بالكاد تصلنى أنفاسى .

كانت الدلجة تغشى كل شيئ حولى ، تلفت جانباً ، ثمة خيط ضوء رفيع يتسلل من فرجة باب موارب ، سرحت مخدورة فى سقف الغرفة ، كان الطقس محقوناً ببرودة مركومة ، بالكاد أتنفس ، تساندتُ على راحتى حتى أقمت جذعى ، جلستُ .. فإنغلقت عيناى مجهدة ، وند حلقى أهة مكتومة ، شعرت بوجع يؤلم رئتيّى وضلوعى .. حدانى إلى الميل بجذعى للأمام مكروبة .. لا أملك مدَّ عظامى ، فثمة ثقل يرزح فوق أكتافى يكاد يفتت ذراعىّ .

جاءتنى همهمة ولغط مختلط يموج بصالة الدار ، فلم أكترث ، إذ كانت آلامى وتباريح جسدى أكثر وطأة من أن آبه لشيئ ، راودنى ضيق شديد ، أتنفس بصعوبة ، فتنهدت بعمق وزفرت طويلاً ، وقبل أن أسترد شهقة التنهيدة الثانية .. طاف وجه أمى إلى مقدمة رأسى .

وما أصعب أن أصف ما جسرته وشعرت به فى تلك اللحظة القاسية ..

من فورها زاغت عينى ، وتوشح أسفلها بحمرة قاتمة .. فطافتْ حدقتىّ فى دوائر شتى ، أحسست ببرودة تكتسح وجهى .. فإبتقعت جبهتى ووجنتاى فى شحوب ، شعرت به وكأنى أراه فى مرآة ، وما هى إلا لحظات حتى راودتنى أطياف النعش وهو يفارق ساحة دارنا .. فتقلصت معدتى ، وسقط هَـمٌ رزيح إلى قاع صـدرى ، فباغتتنى وخـذة نافـذة ، طعنة خنجر

مسموم خاضت فى أحشائى فمزقتها .

لاح لى أن كل شيئ قد إنتهى ! ، فإضطرمت نيران نزقة فى قلبى .. كلما خمدت لبرهة ثارت تارة أخرى ، أز صدرى أزيز هرة ثكلى للتو فقدت أمها ، فلفظ حلقى نهنهة لها صوت مكرور ، غمغمة طفلة ضاعت فى صخب المدينة .. " **إنتهيتُ قبل أن أبدأ !** " .

تناوبت على ذهنى مشاهد اليوم ، ويوم أمس .. مشاهد ثمانى سنوات هم حصيلة عمرى كله ، كلما مستْ رأسى مشهد إنفجر .. كلغم إذا مسست شيئ منه إنفجر كله .

جاد الأزيز بصدرى وعلت زمزمتى ، فمال جذعى للأمام عنوة تنسكب العبرات من عينى سكباً ، فى هذه اللحظة لمحت خالتى نعمات من فرجة الباب تهم من مكانها بين النسوة .. مُفْتزعة لغمغمة جاءتها من الداخل ، وما كادت تفعل حتى نافحها شيئ فنكست رأسها مذعنة فى أسى ، كأن أحد كفكفها ، وإذا بباب الغرفة الموارب يُفسح فرجته لجدتى وفى إثرها زوجة خالى ، والنسوة فى ظهورهن يملن بجذوعهن برؤوس مشرعة إلى الباب المفتوح ، ليرقبوا الصغيرة المكلومة بعيون متطفلة .. تنتحب على هامش الأحداث .

ما إن شعرت جدتى بتلصصهن حتى حدجتهن مستنفرة .. برمقة تنثر شذراً ، ثم أوصدت الباب فوراً قبل أن يتفاقم الأمر ، وما كادت تركن إلى جوارى لتهدء من روعى حتى جاءتها دقات رهيفة ، وقبل أن تومئ لزوجة خالى بألا تفتح الباب كانت خالتى نعمات عند عتبته ، فرمقتها بصلف ..

- **ما الخطب ؟ ، أتبتغين شيئاً ؟ .**

فإقتربت خالتى نعمات تحاول أن تُرخِى حدة الموقف

- **على هونك خالتى ، أريد أن أطمئن على البنت .. هى بمثابة إبنتى ، وتعرفين أن أمها كانت لى خير أخت ورفيقة .**

أغرق الحرج جدتى فنكست رأسها ، ودعتها للدخول على مضض .

- **ادخلى .**

وفى ضجر قالت لزوجة خالى ..

- **أوصدى الباب فلسنا فى مَشهدةٍ .**

ثم أخذتنى إلى صدرها تطوقنى ذراعيها فى حنو ، فزادت غمغمتى وعلا صوتى .

- **إهدأى حبيبتى .. ستمرضين ، كفانا وجيعتنا فى أمك .**

فما كان إلا أن تناوحت آهاتى ونهنهتى ، فأماءت جدتى برأسها لزوجة خالى ..

- **خلى سبيل النسوة إلى دورهن .. فلسنا مفيقين لثرثرتهن .**
- **هذا لا يجوز خالتى ، لقد جاءوا ليُعزونا فى مُصابنا .. وما علينا سوى أن نتلقى عزاءهم برفق .**

فأذعنت جدتى فى حرج .. ملتاعة لما آلت إليه حالى ، جعلت تُكفكف عبراتى ، وتجبر خاطرى بكلمات لم أشعر سوى أنها تزعجنى وتزيد همى هماً ، فجراحى آنها لم تكن لتُدملها محض عبارات تسلية ومواساه .

وما هى سوى برهات حتى خمد صوتى .. ونضحتْ جبهتى بعرق بارد ، فما كدت حتى إغترقت فى وهن وحُمى ، ظللت أرتجف .. حتى فح جسدى بسخونة أرخته وجعلته يُسلِم ناصيته إلى سقوط سريع .

ثوانٍ ، وطاحت بى تشنجات جامحة أذهبت وعيىّ ، فإندك تحت أثقال خدر لحوح ، زاغتْ عينى وإرتخت أجفانى .. فلم أر إلا بحراً هادراً يموج بعنف على جانبى قارب يحملنى أنا وأمى ، كانت ترمقنى على الدفة الأخرى بوجه بشوش .. تشوبه هالات من الإبتسام ، وبرغم أن دمدمة الموج كانت تغطى على ما تفوه به ، فبدا كحديث صامت ملغوز .. غير أن صوتها فى رأسى كان كزفات الأعراس وترديد الأهازيج .

تواثبت الفرحة فى صدرى أكثر مما كانت تفعل فى سوق كل خميس .. فغشيتى ضحكة طفولية " **ها أنتى ذا يا أمى لم تموتين ، كما يدعون** " ، وهممتُ أن أرتمى بين ذراعيها .. لولا أن البحر دمدم مزمجراً ، تجبر الموج واثباً .. ففاض إلى لج بعيد ، وما لبث أن إنكب إلى موجة أخرى حملتنا عالياً .. فجمح القارب يعلو ويهبط ، يتأرجح ، فصرخت أمى تُكفكفنى عنها .. وحال الموج الغاشم بينى وبينها ، وكأنها تقف عند شاطئ بعيد " **خذى حذرك يَنُّور** " .

وما كادت حتى تمطى الماء فلطم القارب بموجة عفيّة .. أطاحتنى ، ووارت أمى عن ناظرى ، فسقطتُ إلى قاع القارب الذى إغتمر قسط كبير منه بدفقات الماء الرعناء .. غائصة فيها لرأسى .

تماسكت قابضة بمؤخرة القارب أبحث عن أمى .. لكنها لم تكن موجودة ، إختفت ، فنظرتُ أمى فى الماء حول القارب المرتعش مذعناً تحت رحمة الموج الهادر .. فلم أجد لها أثر ، فقط الماء يرغى ويزبد ، والموج يعلو ويهبط .

طافت عينى بعيداً .. فرأيتها تترقرق على سطح الماء ، لاحت على بعد خطوات من القارب الذى شق طريقه سريعاً إلى جهة أخرى .. دفعها الموج الرجراج بعيداً ، إنساحتْ إلى غور البحر ، تضربها دفقاته المرتحلة .. وتتجاذبها الدوامات إلى خضم هائج وخلاء سحيق .

تفجرت من حلقى صرخة ، أشعر بتتالى صوتى فى قاع رأسى .. تتناوح فى أرجاء اليم الغاضب " **أمى .. أمى** " ، لازالت تبتعد وأنا أصرخ .. والرجيع يتردد ، حتى خبا صوتى فأوشك على الإختفاء ..

فتحشرج حلقى ، وندَّ صرخة أخـرى تفلتت منه عنوة .. لتلتقفها جدتى براحتيها ، تلك التى ضمتنى للتو إلى صدرها ، تُهدئ خيفتى وروعى .

- **أنا هاهنا بجوارك حبيبتى ، إهدأى ، رُحماك ربى .**

تلفت حولى شاردة مذهـولة ، وبقايا فزع لازالت تتناهبنى ، فلم أجد بحـر

ولا موج .. بل خرطوم بلاستيكى رفيع يشتبك بظاهر يدى ، يتعلق طرفه الأخر بقارورة شفيفة .. تحوى محلولاً يصب فى أوردتى .

بأنفاس مكروبة زفرت أخر فقاعة محبوسة بصدرى .. باقية من كابوس يمتطى قارباً فى بحر هادر ، فإرتمتْ رأسى ثقيلة بين ذراعىّ جدتى ، وفى أقل من طرفة عين إستسلمت لمخدر .. حقنه الطبيب منذ بضع ساعة فى ذراعى .

لعدة ساعات مضت ، ظلت جدتى إلى جوارى حائرة فى نوبات الحُمى التى تضربنى من آن لأخر ، ما إن تهبط حرارتى حتى تتسربل إلى جسدى كأفعوان مسعور ، ولازالوا على إتصال بالطبيب الذى تفضل بمباشرتى مرتين فى تلك الليلة .. على غير عادة الأطباء فى بلادنا المنسية .

بعد رحلة طويلة قطعتها وحيدة بين هذيان وسخونة ، صحوت .. تتناوح فى رأسى أطياف الفجر وإبتهالاته المنغومة ، بالكاد عقلى ينفض عن كاهله الغيوم ، الوعى ينهض بصعوبة ، إنزاح جفناى لثوان معدودة كانت كافية لأن أنطق إسم أمى هاذية .. ثم ما لبثا أن إرتخيا وتكاسلا ، فإنسحب الوعى بأسرع ما ينسحب ضوء الشمس خلف غيامات الشتاء .

وفى برهات طويلة تالية ، وبين سحائب النعاس والغفى .. لم تنقطع عن رأسى الهلاوس والضلالات ، فالحمى لم تكف عن تقريعى بحرابها اللافحة ، كما لم يتوقف لسانى عن ذكر أمى بنبرات ملحونة غائمة ، ما ينفك الهذيان أن يخمد حتى يعود ويتكرر فى نوبات متقطعة .. لا يبتر سيلها سوى نظرات ناعسة ترمق سقف الغرفة للحظات ، لتتوه إلى سقوف أخرى ، تغرق فى شفافيات وأطياف لاهثة .. بها صراخ ونحيب ووجوه عابسة ، نعوش تغدو ولا تعود ، ونسوة يطوحهن البكاء ويُهمدهن العويل ، وأشياء أخرى .

(٤)

ما توقعت جدتى أن أفيق فى السادسة من صباح السبت ، وقد ذهبت عنى كثير من أعراض الحُمى ، غير أن عيناى بحران من دموع تنبض ولا تكف ، أفرجتهما فألفيتها إلى جوارى .. تغط فى نوم موسوم بالإجهاد والكلل ، ما إن شعرتْ بحراكى حتى إستفاقت من فورها تربت على شعرى وظهرى ..

- **بما تشعرين حبيبتى ؟ .. أمازلتى مُتعبة ؟ .**

وقبل أن أنبس بكلمة إنفتح الباب بغتة .. فظهرت زوجة خالى تقاوم نُعاس يُرخى أهدابها عنوة ، غير أنها ما إن نظرتنى حتى إستفاقت بعينين جحظتا دون إرادة ، مصدومة بقيلتى ..

- **الأن صِرتُ يتيمة ، واليوم أول عهدى مع اليُتْم .**

فأجهشت بالبكاء لولا أن جدتى نهرتها ، فأدارت وجهها إلى الحائط تهوى العبرات من مدامعها قسراً .. فما بتر سجالها وإنتثارها غير صمتى وأسيانى آنها ، أدركتُ كيف يضحى الفرد .. جزء من إنسان ! ، ربع إنسان ، نصف إنسان ، عرفتُ كيف يفقد إنسانيته بفقدانه أصل جاء منه .. كما يفقد الفرع طبيعته وكماله إذا نُحر جـذع شجرته ، والأهم أنى أدركتُ لماذا يُسمون من ماتت أمها " **يتيمة** " ..

إنتثرت الكلمة من ثغرى فسمعتها جدتى ، إلتفتت نحوى بعد شرود طويل إلى لا شيئ ، فقالت تواسينى ..

- **حبيبتى لا تحزنى .. الرسول وُلد يتيماً .**
- **أين أبى ؟ .. وأين ذهبت أمى ؟ ، لماذا تركتنى ؟! .**
- **هى لم تتركك .. ولكن الله طلبها ، إسترد وديعته فيها ، وهكذا سيطلبنا جميعاً .**
- **ولماذا يطلبنا ؟ .. وأين يتركنا ؟ ، أين ترك الله أمى ؟ .**

- **هى فى مكان أفضل .. هى عند الله فى رحابه ومعيته .**

فوقعت الكلمات إلى صدرى على أسوأ ما يكون ، كحال مرتحل فى قفراء مجدبة .. للتو ماتت راحلته ، فتخضلت عيناى بدموع حارة .. أوقن بضياعى بعد أمى ، وتيهتى المحتومة فى هذه الدنيا .

- **حبيبتى أوجعتى قلبى .. لا أوجع الله قلبك ، لا تبك .. فأمك تحزن ، يقهرها وطيس دمعاتك .**
- **سأظل أبكى وأبكى حتى تسمع أمى ، حتى يسمع الله بكائى ، علّها تسأل عنى ، علّ الله يرحمنى فيخلى سبيلها .**

شدهت زوجة خالى أسية .. تهمهم

- **ترى ماذا ينتظرك ؟ ، الدنيا أدارت لها ظهرها .. وأعدت لها أحلك الأيام .**

ضاقت بها جدتى .. فنهرتها إلى خارج الغرفة ، تلك التى لا تكف عن التغابى والثرثرة ، بينما أسندتْ رأسى بكفها ثم مالتْ بى إلى الوسادة ..

- **نامى حبيبتى .. لعل الله يُحدثُ فى أمره أمراً ، لعل خيراً ينتظرك غداً**
- **أستأتى أمى غداً ؟! .**
- **حبيبتى .. أمك ماتت ، ذهبت إلى ربها ، وما علينا سوى أن ندعوا لها ونتذكرها بخير .**

طنت كلماتها فى أذنى ، وغارت بصدرى إلى أعمق محط فيه .. تتردد وتتردد ، صدمتنى ! ، كنت أنتظر منها أن تطالعنى بشيئ أخر .. فضربتنى بخيبة أذهبت كل أمل أرجوه ليمحى أثر ما حدث ، لن أنسى ما حييتُ هذا القهر الذى أحسسته حينئذ ، والمرارة اللاذعة التى هوت إلى فمى .

ظلت كلماتـها تتـردد .. حتى تصدعت رأسى لصـداها ورجيعـها ، وجثم فى أحشائى هَـمٌ رزيح فلم أدر بالسخونة وقد عاودتنى ترغى فى جبهتى ، وقسراً أغمضت عينى محمومة .. فنمتْ .

مكثت لثلاث ساعات أخرى غامية .. لا أشعر بشيئ ، تتناوب جدتى على صفحة وجهى بالكمادات والثلج ، الخدر ينحسر دقائق ليعود فيغشانى تارة أخرى ، تضربنى كوابيس شيطانية ترتع فيها أحداثٌ كُثر ، تُهيئ لى كيف سقطت أمى .. وودعتها أعين المشيعين لتُهيل عليها التراب ، رأيت ما حدث على أشكال عدة ، ولا أُخفيكم كم أزعجتنى .. وأفاقتنى لعدة مرات مرهوبة مفتزعة ، أدركت خلالها أقسى الأوجاع .. وأصعب تجربة جسرتها فى حياتى ، وبؤس مقادير اليتامى فى هذه الدنيا .

كان علىّ إبتلاع كل ما حدث .. ولو على مضض ! ، موت أمى ، يُتْمِى ، وأشياء أخرى يصعب وصفها ، كنت ولعدة ساعات غارقة فى اللاشيئ ، لا أشعر بإنتمائى لزمن محدد .. لا ماضٍ ولا حاضرٍ ولا مستقبل .

ففى رحاب الموت يتسع كل شيئ ويضيق فى آن ، يتسعُ .. فلا تضيق سوى الحياة بؤسها ومسلماتها السخيفة ، لتجد أنك بالأخير على شفير الإنتحار ، ويضيق حينما تدرك أنه أخر عهدك بالأعزاء .. فلا الحياة تحلو ولا العيش يستمرى ، والكل يؤدى إلى معنى واحد .. هو الفقد ، فما أصعب أن تدفن أمك ، كل أهلك ، ولازالوا فى خلدك على قيد الحياة .

تنبهت من إغماءاتى المكرورة قرابة التاسعة ، وكعادة الغرفة .. كانت موصدة ومظلمة ، وكأنهم يتعمدون إخمادها معى ، تلفتُ حولى فلم أتبيّن شيئ .. ليس إلا ظلالاً حالكة لا يشوبها بقعة ضوء واحدة ، فهممتُ بالقيام ، كان الكلل والهزال يتنازعانى .. يضربانى بأمضى سهامهما ، والخمول يركض فى عظامى ركض جِمَالٍ مكروبة ، فمنذ زهاء يومين لم أتناول من الزاد غير القليل .. وبضع قطرات من محلول سُكرىّ يصب فى وريدى ، قرابة قارورتين .

شردت للحظات أرمق الضوء المنسل من فرجة الباب .. شعورى بالغربة

يتفاقم بأسرع مما ينتهب الهزال جسدى ، ووخذة القلب على ديدنها .. لا تكن ولا تهدأ بل تتعمق كنصل يزداد نفاذه فى الحشا فى إثر كل ساعة تمر .
كانت الوحدة تجتاحنى وتُضيّق خناقها حولى ، ورغم ذلك تقت أن أظل وحيدة .. فقد كانت الوحدة لى وقتئذ دواءاً ناجعاً ، فى حين كانت الضجة تثير إنزعاجى ، برغم حاجتى الماسة كذا إلى من يسمعنى ، إلى إلتفافهم حولى ، وفى الحقيقة لم يكن إشتياقى لهم لذاتهم .. أو لسلوان أجده فى صحبتهم ، بل لحديث ربما يموج على ألسنتهم .. تجول فيه سيرة أمى ، تلك التى داخلنى بأن الأرض لو إمتلأت خلقاً ، وشغل حديثهم وضجيجهم رأسى وصدرى .. فلن يشغل لبى أويُلهيه إن لم تدرج على أفواههم حكاية فى السابق حكتها أمى ، ولن يعادل إلتفافهم فراغاً تركته .
كان فؤادى دوماً قلقاً متوتراً .. متقلقلاً فى مكمنه ، لا يطمئن ! ، يرتجف على أوتار شتى ، متذبذبة ، وبوتيرة متباينة ، تعلو تارة فكأنها دبدبة قطار مصروع ، وتهبط أخرى وكأن القطار قد إنقلب على ذاته .. فهمدت دبَّاته ، كأنه الموت بعينه ! .
وداخلنى ضيق وإختناق شديد .. فهممتُ بمغادرة السرير ، رفعت الغطاء عنى ، وما كادت قدماى أن تمسا الأرض حتى خانتنى .. فإنطوتا أسفلى ، فإنكببتُ على وجهى لولا أن ذراعىّ جدتى تلقفانى ، حينها كانت الغرفة مُضاءة .
ولا أعرف ما الذى إختلج داخلى حينما رفعتُ هامتى لأجد وجه جدتى قبالة عينى مباشرة ، حينها لم تكن جدتى .. بل كانت أمى وقتما كانت توقظنى كل صباح بوجهها المشبوب ، كانت لا تمل عن هدهدتى ومناغاتى **" إستيقظى حبيبتى .. أفيقى يَنُّور ، الشمس أقسمت ألا تشرق سوى على وجهك الصبوح ، هيا صغيرتى الحلوة "** ، وتظل تداعب أنفى ومبسمى حتى تنبلج عينى على وجهها ، ولم تتغير عادتها تلك معى أبداً حتى فى أسوأ

أحوالها .
غير أنى ما إن فطنت أن الوجه الماثل أمامى وجه جدتى ، وليست أمى .. حتى أطرقتُ كسيرة ، فإنتفضتْ فى صدرى وخذة مباغتة تؤكد لى أن أمى بالفعل قد ماتت ، عرفت أن الأقدار قد إنتوتْ أن تُشعرنى بموتها على مهلٍ .. وبرفق ، وحتى هذا الرفق لم أكن أتحمله ! ، تلك هى جدتى وليست أمى .. ولن تكون أى إمرأة أخرى بمحل أمى ، وربما كانت هذه الصدمة أولى الدروس التى تلقيتها على هامش غيابها ، حينها تمنيت لو أن لى إخوة .. يشاركوننى غربتى .
مسحت جدتى على شعرى ..
- **هيا يا نور عينى .. كفاكى نوماً ، صديقاتك لازالوا يسألوننى عنك ، إنهضى حبيبتى أوجعتى قلبى ، الدار مظلمة دون صوتك .. كفاها فقدان أمك .**

ولم تتماسك فذفرت عبرة مخنوقة ، وندت عن صدرها دون إرادة أهة مأدومة بتنهيدة فرت من محبسها عنوة ، لطالما قاومتها طيلة عدة ساعات مضتْ .. غير أنها تلك المرة جمحت وإنفلتت عن قيادها ، فساقت معها عبرة سقطت من عينى .. تجر فى أذيالها أخواتها المقهورات .
تنبهتْ ، فمسحتْ عن وجهها تلك العبرات المتعثرة بطرف جلبابها ، وحينئذ جاءنا صوت الصبايا يتضاحكن ويتغانجن أمام الدار ..
- **أَنْصِـتى حبيبتى .. إنهـن سارة وهنـد ، طال مكـوثهن بالخارج .. منذ باكر وهن يسألن عنكى ، ألم تقولى دوماً أنهن أعز صديقاتك ، فهاهن جئن خصيصاً لأجـــ ...**

وقبل أن تتم إسترسالها .. بَترتُ قيلتها
- **ماذا يعنى الجَمَلْ ياجدتى ؟ .**
- **جَمَلْ ! .. أى جمل ؟! .**

فسمعت زوجة خالى تهمهم ..

- **عجباً ! .. أمازالتْ تهذى ؟! .**

فإلتفتت إليها جدتى فى سخط

- **صهٍ ، من الأن وصاعداً لا تتفوهى بأيٍ من سخافاتك تلك .**

ثم توجهت نحوى ..

- **أى جَمَلٍ تقصدين يا نور عينى ؟ ..**
- **لقد أتانى جَمَلٌ فى الحلم ، كان يعضنى .. لولا أن أمى زجرته عنى ، وأطعمته نصف تفاحة .. وأعطتنى النصف الأخر .**
- **الجَمَلُ هو خادم الصلاة .**
- **خادم الصلاة ! .. وماذا يعنى هذا ؟!**

شعرتْ بورطتها ، فإستدركتْ ..

- **لا عليكى حبيبتى .. هذا مجرد حلم ، لا مقصد وراءه**
- **لكن أمى جاءتنى فيه ! .**
- **حقاً ، كنت أعلم أنها ستأتى ، فلقد جاءتنى أيضاً عاتبة حزينة .**

وقد كان الكذب بادياً فى كل حرف تقوله .. لكنى بالأخير أصغيت ، فقد كنت أتوق لأى حديث تجول فيه سيرة أمى ، فتظاهرت بالإندهاش

- **جاءتكى ! .**
- **نعم ، إنها فى غاية الحزن والترح لأنكى مازلتى نائمة ، مازلتى تبكين ، لا تُلبين نداء صديقاتك ، قالت .. حسبها سعادةً أن تراكى تمرحين بينهن .**

شدهت للحظات ، فحديثها يمس شيئاً من الصدق ، حقاً كانت أمى تنتشى فرحاً وهى تنظرنى ألهو وأضحك بين أترابى .

- **لكنى مازلتُ متعبة ، إعتذرى لهن ، وإن جاءتكى أمى قولى لها أنـ ..**

تعلق الحديث فى حلقى بغتة .. فتلعثمت ، وشردت لهنيهة مطرقة ، غير أنى

أردفت ..

- **لا لا ، إن جاءتكى قولى لها أنى أنتظرها ، وأنى حزينة أنها تأتينى وتذهب سريعاً ، لا تخبريها بأنى نائمة .. قولى لها يَنُّور تركض وتلعب ، وتضحك ...**

ثم أطرقتُ آسية ، فأمى التى تحفظ ما يجول بسريرتى عن ظهر قلب .. لن تصدق أبداً مثل هذا الهراء ، هى وحدها التى تعلم متى أضحك ومتى أبكى ، تنهدتُ ..

- **ياليت كل الأمهات يعلمن حال بناتهن بعد موتهن ، وياليت كل الصبايا يدركن وجع فراق أمهاتهن ..**
إن جاءتكى جدتى قولى لها أنى حزينة لفراقها ، موجوعة لأنى لم أدرك قيمة وجودها سوى بعد فوات الأوان .

فشردت جدتى فى تَعمُق حديثى .. ثم همهمتْ بصوت خفيض

- **متى كبرتى حبيبتى ؟! .**

سمعتُها ! ، حاولتُ أن أجيب .. غير أن الرد رقأ على فمى ، لكنه تردد فى نفسى .. " **كَبرتُ منذ عدة ساعات ، كَبرتُ فى عباءة الموت حين إختطف أمى ، وفى ظل ظرف عاتٍ لم يرحم ضعفى ولين روحى ، فأطاح بى يمنة ويسرة .. وكأنى وريقة شجرة خريف بائسة تطوحها ريح قاسية** " .

تهزهزتْ روحى ، فإلتقمتُ دموعاً جاءت على الأعتاب قسراً .. وإنعقدتْ شكوى لحوحة أتت على طرف لسانى ، صَعُبتْ علىّ نفسى وما آلت إليه حالى .. فإنكفأتُ بغتة بين ذراعىّ جدتى ..

- **خذينى إلى صدرك جدتى .. أتنسم فيكى رائحة أمى**

تشبثتُ بذراعيها ، فإنغلقتْ عينى .. وشعرت بروحى تتأوه بين دفافها ، ظللت لبرهة غامضة العين إلى أن حانت منى بالمصادفة إلتفاتة إلى نهديها .. فخاضت يدى دون إرادة بينهما ، أحسست بهذا النتوء الساحر ، تلك

اللُحمة اللينة التى تفيض حباً ورحمة .. لطالما أرختها لى أمى مُداعبة ، فلم أدر بيدى وهى تطوق ثدى جدتى فى عصبية .. كهرة للتو إلتقمت ثدى أمها بعد جوع يوم طويل ، تذكرت وقت أن كنت أرتمى إلى صدر أمى إثر عودتى من المدرسة .. فأسبح بوجهى بين أثدائها فى شغف لا تشعره سوى كل صغيرة ذاقت جرعة من نهله ودفئه .

زاد توترى وتفاقمت لهفتى .. فطفقت أقبض على نهديها فى بهرة فرح بالغة ، هستيرية ، جعلتنى أزفر ضحكات واثبة متقطعة كأنها زقزقة عصفور جائع ، وهو الأمر الذى أغرق جدتى فى حرج شديد ، وخاصة أن ما حدث كان على مرأى من زوجة خالى ، فطفقت تُكفكف راحتىّ عنها ، وما إن شعرتُ بهذا الإستنفار حتى سحبتهما سريعاً .. فإنتفخ أسفل عيناى فى بضع ثوان ، وفى أقل منها تحولتا إلى بحران من ماء رائق ، لكنه كان مرير غاية المرارة .

وفى حياتى ما شعرت قهراً وحسرة مثل تلك التى داخلتنى فى هذه اللحظة ، وما كنت لأشعر مثل هذه الحسرة لو أن أمى ذاتها فعلتها معى ، لقد هدمت جدتى دون أن تدرى كل معانى الأمومة داخلى لبنة لبنة بمعول لا يرحم .. ولا يشفق بصغيرة فى مثل سنى فقدتْ أمها ، ولايزال هذا القهر إلى الآن بضراوته يراودنى .

وثبتُ لتوى إلى السرير ، وسحبت الغطاء إلى رأسى .. أوارى ألمى وإنجراحى ، إستدرت إلى الحائط لا أجرؤ حتى على النهنهة ، بكيتُ كما لم أبك من قبل ، بكيتُ بصمت رغم غزارة دموعى ، إنتفض جسدى متشنجاً ، مرتجفا .. يَرُجُّ فيه إصطفاك وإختلاج عنيف ، لم أملك حينها إصطبار عليه .

حاولت جدتى جاهدة أن تطيب خاطرى .. غير أن يدىّ تشبثتا بأطراف الغطاء ، فماتت عليه ، شرعت تعتذر وتعتذر .. غير أن حديثها كان عذراً أقبح من ذنب ، بارداً .. يؤلمنى أكثر مما فعلت للتو ، فإنغمرت تحت الغطاء

موجوعة ، حينها تأوهت .. صرخت بحرقة فى غرفة صدرى " **أين أنتى يا أمى ؟ .. بأى قبر تقبعين ؟** " .
كانت جدتى كلما لمستنى .. إزددتُ إرتجافاً ، حتى علت نهنهتى فكادت أن تتصدع لها الجدران .
رفعتْ يدها عنى ، وأطرقت للحظة تنسال دموعها فى قهر وإنهزام ، وخزى من أُعطيت أمانة لتصونها .. فأهدرتها ، هزيمة أدت بها أن تتمنى لو أنها مزقتْ قلبها الصلف تمزيقاً .
حينها كانت أسارير زوجة خالى قد تغضنتْ .. فإرتكنتْ إلى حلق الباب وقد تشنج ذراعها على صدرها ، تقبض بيدها الأخرى على رأس صغيرها الذى إنتصب محملقاً مشدوهاً .. لا يفهم لماذا تبكيان ، وتفاقمت حيرته عندما أدارت أمه رأسه عنوة إلى الجهة الأخرى ! .
تساندت جدتى متثاقلة ، وإنزاحت من جوارى خزيانة ، أخذت بذارع زوجة خالى وخرجا بعدما أوصدتْ الغرفة .. لتعود إلى ظلامها الذى ما عاد ينقشع مذ أن فارقت صاحبة الدار .
بردت العبرات على وجنتى بعد أن غَفتْ عيناى إثر خروجهما بدقائق زهيدة ، لأسافر أنا إلى عالم أخر موازٍ يراودنى منذ ثلاث ليال ، أتتنى أمى فى هذا الصباح عدة مرات ، ولولا مجيئها لما كف دمعى وإرتجافى .
لم يطل نومى سوى ساعة زمن ، على عكس ما توقعوا .. حتى بوغتوا بى فى صالة الدار أتوجه مباشرة صوب الغرفة التى لطالما سهرت فيها أمى ، تلك التى كانت تخيط بين جدرانها أردية نسوة القرية ، غرفة الحياكة ، وما إن لمحتنى جدتى حتى لحقت بى .. تظن أنى أسير نائمة ..

- **يَنُّور ، أين تذهبين حبيبتى ؟! .**

وهتفت فى زوجة خالى

- **إلحقى بها .. البنت لازالت نائمة .**

غير أنى مضيت لا أكترث لجدالهما ، إنتصبت لبرهة عند العتبة أرمق ماكينة الخياطة والقصاصات المبعثرة .. ثم ترجلت أتحسس الأشياء فى أسى ، وهم ينظروننى دون حراك ، طافت عينى بأرجاء الغرفة حتى هوت على شيئ أعرفه حق المعرفة ، لطالما أسجته أمى على ظهرى فى ليالى الشتاء القارصة حينما كنت أصرُ أن أبقى بجوارها وهى تخيط أقمشتها ..

" **وشاح أمى !** " ، هتفتُ بها فى لهفة إسترعتهم ! ..

ما إن لمحته حتى نما فى أنفى عبيرها ، كان مرخياً عند حافة أريكة بالجوار ، إلتقطته فى طرفة أسرع من تلك التى رأيته فيها ، دققت فى نسيجه .. وكأنها الأيام مجدولة يوم إثر يوم ، إرتقيت به إلى أنفى .. أَشْتَمُ وأَشْتَمْ ، ملأت رئتاى بشهقات ربما تكون باقية فيه ، فجاءنى شذى أمى ، عبيرها ودفئها ، تخلخل إلى روحى فملأ قلبى برياحين الأيام المنصرمة ودفئها ، وما كدت حتى تسلل العبير إلى أوردتى .. فأفرج أساريرى بشغف وأمل ظننته هو الأخر قد إلتقط أنفاسه الأخيرة .

وفى طرفة ثالثة ، إقتربتُ به إلى جدتى التى إرتكنت بين دفتى مقعد بالجوار .. تتأملنى ملياً بأسارير مرتاحة أنى أخيراً قد خرجت من غرفتى المظلمة ..

- **انظرى جدتى .. مازال عبير أمى فيه ، لازلت أَشتمُ رائحتها .**

فكادت مآقيها أن تستعبر لولا أنها تماسكت ، ترجلت نحوى بهدوء ، وأمسكتْ بطرف الوشاح ثم رفعته إلى أنفها وهى تنظرنى فى حنو وشجن ، ثم طوقتنى بذراعيها بينما إحتضنت أنا الوشاح بين ذراعىّ ، حينها رمقت زوجة خالى عند ردهة الباب كعادتها .. وكأنها تستغيث " **ماذا نفعل ؟** " ، لسوء ما آلت إليه حالى ، وتسربت إلى أذنى وقتئذ همهمات نسوة كن بصالة الدار لم أنتبه لوجودهن ، هؤلاء اللائى لم تكف همهماتهن منذ أن رحلت أمى " **لازالت تبحث عن ريح أمها ، رحماك ربى بصغيرة لازالت روحها تتعلق بأهداب روح رحلت** " .

إبتعدت بى جدتى عن الغرفة قبل أن يتفاقم الأمر .. فأخذتنى إلى صالة الدار ، وما إن باشرت وشوشات النسوة ورمقاتهن المتلصصة حتى مضت بى إلى مصطبة أمام الدار وجلست إلى جوارى ، غير أن أذنى تعلقت بما يثرثرن به هؤلاء المتطفلات بالداخل .

كانوا يظنون أنى لا أفقه ما تفوه به سرائرهن ، رغم أنى كنت أفقه الحاضرات بأوجاع كلماتهن .. غير أنى لم أعن لحظة واحدة بشفقتهن ، كم كانت ثقيلة على أذنى .. أمقتها ، حتى كدت أميز أولئك اللائى إصطفقن أسفاً من اللائى آثرن الصمت فى حضرة الموت المهيب ، بيد أنى ضقت ذرعاً بجميعهن فى غياب أمى .. كانوا لروحى كأشواك الصبار تمس جلداً مهترئاً .

ولم تكن جدتى وزجة خالى ببراء من هذه الجراح التى يجددونها فى قلبى ، فما بين ساعة أمى التى حانت فى صباح الخميس وكابوس السوق فى مساءه بضع ساعات .. آثرن فيها موارتى عما حدث برمته ، خدعوننى فأخبرونى بأن أمى فقط مريضة ، وأنها حالماً ستكون على مايُرام ، برغم أنى باشرتها صباحاً وهى تبك الدم من أحشائها لتلتقط أخر أنفاسها.

طافوا بعقلى ، وهزءوا بسليقتى لعدة ساعات ، وياليتهم قالوها لى على عِهنها " **أملكِ ماتت** " .. دون تزييل أو تطييب خاطر ، لم أكن لأتلقاها على أسوأ ما يكون .. كما تلقيتها فى غداة الجمعة ، ففى رمقة منى حانت بقبيل المصادفة تجاه تلك الجلبة أمام باب دارنا ، لمحتها ، رمقت نعشها يتحرك مُفرداً على أكتاف الرجال من باب الدار ، شممتُ ريحها يموج بين تلافيف المذعورين قاطبى القسمات .

وكذا تكرار جدتى بين النسوة أن أمى ماتت ، وأن الأمر قد إنتهى ، ولاسيما حين سألتها " **أعلم أن أمى كانت مريضة بمرض عضال .. ولكن هل كل المرضى يموتون ؟!** " ، ردت بصلف وبرود بأن ما حدث تجربة قاسية لن

أنساها طيلة ما عشت ، وأنه قدماً سأُدرك أنى تعلمت منها الكثير ، حينها تأسيت " **وهل بات موت أمى .. محض تجربة** " ، قالتها وكأنها لا تعنى بموتها أو حياتها .. وكأنها لم تنبت يوماً فى أحشاءها ، أو حملت غلاوة فى قلبها ، أشعرتنى بأنى وأمى أرخص من أن تعنى حتى بالتفكير فينا وفى أوجاعنا ، ولكم أوجعنى هذا كله وآلمنى .

فى تلك الأيام القاسية كنت على شفير إدراك إلتباسات .. لم أكن لألتفت إليها سابقاً ، وإثارة أسئلة شائكة فى غير موعدها ، لماذا لم تكن جدتى تزورنا أنا وأمى ؟ ، لماذا كنا نحن دوماً الزائرين لها فى دار خالى .. رغم صلفه وسوء منطقه وإستقباله ؟ ، وما سر وجودها الدائم فى داره بالأساس .. برغم أنه ليس إلا إبن زوجها المتوفى ؟ ، فى حين كانت أمى الأولى بها .. وهى إبنتها ! .

بطبيعة الحال لم يكن سوء حالى ليسمح بمثل هذه الجدالات فى رأسى ، غير أن إيماءات وتلميحات ومواقف بعينها فى الماضى جعلتنى فى سن مبكرة ، وعقب موت أمى ببضع ساعات ، أتنبه لوجه العملة الأخر ، وبرغم أنى كنت أوارى مثل هذه الوساوس فى صدرى غير أنها كانت تطوف رغماً عنى إلى مقدمة رأسى ، وكنت أتوقع أن تصعد من الأعماق الكثير منها ، مما زاد خوفى خوفاً ، وكأن أمى كانت باب السرداب المغلق على كل الأسرار ، وموتها كان الميعاد المرتقب لإنفراج هذا الباب .

(٥)

إنتصف نهار السبت .. اليوم الثالث لموت أمى ،
إستيقظت بعد نوبة إغفاءة أخرى داهمتنى إثر إهتياج وساوسى من مكامنها بغتة ، أفاقتنى أمى بوجهها الزاهر كعادتها كل صباح " **يَنُّور حبيبتى ، إستيقظى ، ستتأخرين على مدرستك ، هيا حبيبتى أعددت لكى فطورك الذى تحبينه** " وألفيتُ أناملها تداعب أنفى ومبسمى ، أفرجت عينىّ لثوان على وجهها الذى تآكل فى لحظات ، تبخر ، إنتهبته ظلمة الغرفة ! .
جلست مفتزعة مقبوضة ، ولازال غنجها فى أذنى " **يَنُّور حبيبتى ، إستيقظـ** ... " ، حتى حديثها باد وتلاشى سريعاً عن رأسى وحل مكانه تلك الجلبة الفجة التى إعتدتها فى صالة دارنا .
رفعت الغطاء وإمتطيتُ نعلى .. وتحركت إلى الباب ، أفرجته على نسوة من العائلة قائمين على أوعية ماء .. كانوا يغسلن أردية أمى ، إنسلت جدتى من بينهم ودنت منى ..

- **أسعد الله صباحكِ حبيبتى ، هيا لقد أعددتُ لكِ فطورك .**

تغضنت أساريرى .. فقلت بإقتضاب

- **لا شهية لى لطعام أو شراب ، ماذا يفعلن أولاءِ بأردية أمى ؟ .**
- **إنهن يغسلنها ، ينظفنها لأجل أن ترد إليها روح أمك .**
- **ترد إليها روح أمى ! .. ماذا يعنى هذا ؟! .**
- **تلك عاداتنا حبيبتى التى ربينا عليها ، لا أعرف سوى أنه لابد من غسل ملابس الميت فى اليوم الثالث لوفاته .**

لم أفهم شيئ مما قالت ، ولم أملك كذا ما أقول .. فآثرت الصمت ، فخلت سبيلى قبل أن أضيق بثرثرتها .
ترجلت بضع خطوات إلى مصطبة صغيرة قبالة الفُرنْ .. وجلست أباشر

ملياً ما يفعل هؤلاء ، إنهن يتعمدن أن يُهدرن عبير أمى ويمحون أثرها حتى من أرديتها ، تحالفن جميعاً على هذا بما فيهن جدتى ، ولا أدرى متى تواطئن على أفعالهن هذه .. غير أنى رأيت جدتى مراراً تلوح على رأسهن فى إثر كل حدث يوجعنى .

كانت كل قطعة يُمسكنها من أردية أمى .. تسوق فى أذيالها مشاهد كثيرة باقية من الماضى ، لم تكن لتروق كثيراً لمن أراد إسترجاعها ، فذكرياتى عما مضى .. كانت أليمة حد الصمت ، منقوشة بجراح وندوب غائرة لا تنمحى .

خُلقت وأنا أحمل فى مضغتى رصيداً زاحماً من الوقائع الآسية ، فلقد روتنى أمى بعصارة عمرها ، نُقشت فى روحى آلامها .. وضنى رحلتها ، كنتُ فى رَحِمُها شاهداً على ما رأت وما عانت من عائلة أبى ، باشرت كل شيئ ! ، أعرف أولئك الذين تنصلوا منها بخسة .. وخانوا عيشها وملحها .

عاينت أمى وهى تعسف الليالى وحيدة بائسة .. مُثقلة بجسدى الرحراح فى رحمها ، سمعتها تبكى وتشنج وترفع راحتيها إلى السماء تستجدى آيات الله فيمن ظلموها وشردوها ، وقبل هذا كله باشرت زهرة عمرها وهى تذبل وتضيع تحت أقدامهم ، وندمها على تلك الرحلة المُضنية التى جسرتها قسراً .. دون أن يحق لها أن تُبدى رأياً فى حياتها ، برغم أنها حياتها ! .

ولعلى وأنا فى الأتياه البعيدة ، قبل أن أتكون مضغة فى أحشائها ، كنت أيضاً شاهدة على سنوات طفولتها الأولى ، وبكائها المرير وهم يسوقونها كالذبيحة إلى من أُريد أن يكون لها يوماً ما زوجاً .. أبى ، حسرتها وقهرها فى ساعات كان من المفترض أن تطوى فى رحابها أجمل لحظات عمرها ، ليلة العُرسْ ! .

لقد عاينت كل شيئ ، لازلت أختزن عبراتها التى سكبتها صبيحة يوم فض بكارتها وهى غارقة فى دماؤها ، مشدوهة حائرة .. لا تجد من يعنى بها أو

يُفهمها ما حدث ، لازالت فى ذاكرتى فظاظة ليلة البناء وهى تحفر أثاراً جسيمة على أديمها .. خطوطاً وتعرجات وإحتقانات دموية .

وإلى اليوم لازلت أحترق وألتاع كلما تذكرت ما كانت تقصه لى أمى عن أيامها القاسية فى بيت العائلة ، وكم أنها لم تُعاين يوماً حلا لها الضحك فيه بملئ ثغرها ! .

غير أن كل هذا لا يُقاس بلحظة رأيت جسمانها وهو يغادر باب دارنا ، لازالت وثباتـى تدق آذانى دقاً عنيفاً .. وأنا أركض خلف نعشها صارخـة " **هتوحشينى ياماما** " ، أتساءل .. تُرى ما الذى أصمها وأوصد آذانها ، الموت !! ، إلى الساعة لازلت غير مقتنعة ، لو كان الموت يُفقد الأجسام إنتباهها .. فكيف توقف نعشها بغتة وأنا أصرخ ؟! ، كيف ؟ .

(٦)

غداة يوم الأحد ..

كان الجو صحواً ، والشمس تعلن حضورها بقوة فى قبة السماء ، حينها كنت جالسة على المصطبة أمام الدار بعدما جاءتنى سارة وبرفقتها هند .. وفى إلحاح ساقانى معهما إلى الخارج بغية اللهو والتسامر ، غير أنى كنت غير مفيقة ومُتعبة .. فإكتفينا بالجلوس وإجتذاب أطراف الحكايات .

وقتئذ ، كان اليوم الثالث قد مر بما فيه من مشاغل لم أر فيها شيئاً ضرورياً .. رغم عناية جدتى بإجرائها ، تلك التى بُوغت بها فى هذا الصباح وقبل حتى أن ينهضا جفناى من غفوتهما تهمهم ، وكأنها تخبرنى أنه " **ماعاد لنا من أرب فى الدار** " ، أصغيت .. غير أنى لم أستوعب ماذا يقتضى مثل هذا الحديث ، وما هى تبعاته .

بعدها جرت الأحداث سريعاً ..

ففى إثر إنقضاء ساعة واجدة بصحبة رفيقتىّ ، آثرت خلالها الصمت ليس إلا بضع كلمات زهيدة لفظتها على مضض ، إقتربت من ساحة الدار دراجة نارية بصندوق خلفى " تروسيكل " .. وهبط من متنها رجل فى طور الأربعين ، سأل عن جدتى فأخبرته سارة أنها بالدار .

دق على الباب عدة دقات رهيفة حتى جاءته جدتى ، وسمعتها تقول " **نحن جاهزين !** " .. ثم ولجت إلى الدار لعدة دقائق وخرجت وفى إثرها زوجة خالى يحملن بُؤَجَاً مكتنزة ألقتاها إلى صندوق الدراجة ، ثم ترجلت دانية مِنا .. فى حين رمقت زوجة خالى توصد باب الدار بمغلاق غليظ .

إستشرفتْ جدتى سارة وهند مبتسمة ، ثم قالت ..

- **هيا حبيبتاى إلى دوركن .. فيَنُّور ذاهبة الأن ، وإذا ما أردتما التلاهى معها فلتذهبا إلى دارها الجديدة ، دار عمكما هلال ! .**

فدنت الفتاتان تلثماني ثم غادرا ، أما جدتى فقد إقتربت منى بعد أن إسترعى إنتباهها سحائب الشده والتيه التى دارت على وجهى بغتة .

- **هيا يَنُّور .. سنرحل إلى دار خالك .**
- **سنترك دارنا ؟! .**
- **لا ترتاعى ، سنزورها من آن لأخر .. فلا مجال أن نمكث هنا وحدنا ، دار خالكِ هلال ملآى .. ستجدين فيها الرفقة والعائلة ، هيا فيوسف إبن خالكِ يتوق شوقاً لرؤيتك .**

نظرتها فى عجب " **كيف سأترك دارى ؟!** " ، ثم أن يوسف هذا الذى تتذرع به كان البارحة فى دارنا ، حاولت أن أستدرك الأمر ..

- **ولكن ..**
- **هيا حبيبتى سنتأخر .**

لم تُمهلنى هنيهة لأفهم الغرض المخبوء فى طى تلك الروحة .. حملتنى إلى صندوق الدراجة ثم ركبت فى إثرى إلى جوار زوجة خالى ، وسريعاً أدار الرجل المُحرِّك .. فمضت تنفث دخاناً كثيفاً ، ولازلت لا أستوعب من الأمر شيئ .

وكأنه حُلم ، رمقت دارنا تبتعد شيئاً فشيئاً .. وراودنى باب الدار أمام عينى ينغلق لعدة مرات ، وزوجة خالى عند حرفه كالسجان .. تنتشى لدوّيه الذى بات يتردد فى آذانى ويرتجع فى تتالى رقع عنيف .

لاحت لى التفاصيل تتبسط .. وتتموه ، باب دارنا العتيق ، الشُرفات ، أحجارها الطينية المكشوفة عن ملاط الجدران المنحسر ، عرائس الفحم التى أمضيت صباحات طويلة أرسمها على حوائط الدار ، تذكرت حينها كم أضنيت أمى وصديقاتى بحثاً عن جزازات الخشب المحروق .. لأسبح بها فوق ملاط الطين ، أرسم وجوهاً حالمة ، وصبايا تلهو بين الزروع .. يرمقن قطار الصباح اللاهث فوق القضبان ، كأفعوان لطالما أرهبتنا

روحاته وغدواته .
كان كل شيئ يبتعد ويتصاغر .. يغترق فى أشياء كثيرة راحلة ، دارنا ، دار خالتى نعمات ، دور الشارع كلها ، الأمر الذى يؤكد حقيقة الرحيل والفراق ، خايلنى أنى لن أرى دارنا مرة أخرى ، فإنقبضت ، إستدرت إلى السائق أستمهله علّهُ يسمعنى ، لكن الصمت ألجم لسانى .
فإلتفت إلى الدار أرمقها الرمقة الأخيرة ، أودعها ، أجول فى نواحيها ، الردهة ، الباب ، المصباح المُعلق أعلاه ، شرفات غرفة الأضياف .. كلها كانت ترحل ، ولست أنا الراحلة ! .
إنغلقت عيناى رغماً عنى .. فأطرقت فى ترح وأسى ، إصطفك صدرى عدة مرات ، أحصيتها .. حتى تذكرت أنها الرمقة الأخيرة ، فرفعت هامتى تارة أخرى ألتهم ببصرى ما لم أودعه ، مررت سريعاً بمتن الدار حتى تحجرت عيناى عند حظيرة الدجاج المشرعة هناك فى أعلى سطح الدار .
لمحت طائرتى الورقية مدلاة من جانب الحظيرة الماكنة عالياً ، تذكرت أن خيوطها فرت من يدى فى رأس يوم الأربعاء ، قُتلت بحثاً عنها فلم أستدل على مكمنها سوى الأن ، غاصت عيناى فى مثلثات الأحمر والأزرق
والأخضر على صدرها .. تحدها أضلاع مجلوبة من بوص الجسر ، تدلى بصرى إلى الذيل .. كانت قصاصات النايلون تتماوج برفق ، لاحظتُ أنه يتأرجح ثقيلاً منهكاً ، ولاح لى وكأن شيئاً معلقاً من عرقوبه فى أهداب الذيل ، إنها دُميتى ! ، تلك التى إبتاعتها لى أمى .. بدلاً من أختها التى إنتزعها خالى منى عنوة ، ليأسرها فى قبو داره .
شردت عيناى لبرهات فى جرم الدُمية المعلقة فى ذيل الطائرة ، تُرى من إنتهب الأخر منى ؟ ، الدُمية هى من سرقت طائرتى وفرت بها إلى سطح الدار ، أم أن الطائرة هى من سلبتنى دُميتى فى غفلة منى فصعدت بها ؟ ، تلك التى ما عرفت يوماً أن أجعلها تحلق بعيداً إلى السماء .. كما يفعل

الصبية ، فخايلنى أن بها تلف يُعرقل عروجها ، فبالكاد كانت تعلو بضع أمتار ثم تسقطُ سقوطاً مذرياً .. رغم مهارة جميع أترابى فى هذا ، وقدرتهم الفائقة على إرغام طائراتهم أن تخترق عنان السماء .. إلى حد كان يصعب معه أحياناً تمييز رؤوسها من أعقابها ، وكان شأنى فى هذا الإخفاق المكرور .. شأن هؤلاء الصبية الذين حاولوا مراراً تعلم الصيد على حواف الترع ، فما إستطاعوا ، لينتهى بهم الأمر فى كل مرة إلى إلقاء سنارة الصيد فى الماء يأساً وإحباطاً ، وسأماً .

اليوم فقط أدركت أن طائرتى لم تكن تالفة ، بل كانت طوال نهار الأربعاء تُراوغنى وتُحايل لبى .. تتآمر لتسلبنى دُميتى ! ، تذكرتُ كم أَضْنيتُها شداً وجذباً لتسبح إلى السماء كباقى أخواتها السابحات فى قياد الصبايا ، بدا لى أنها كانت مُتعبة ، لو أنى أمهلتها لتلتقط أنفاسُها .. لحلقت كأسراب الطيور التى أرمقها دوماً تلوح فى شمس العصارى .

إختلج جفناى لبرهة ، فلمحت بضع يمامات يمتطين سلك الكهرباء السارح خلف دارنا ، كن يتَمَطَّيّن ويرفرفن بأجنحتهن فى أريحية وسكون ، أمان وسـلام كنت على مشارف فقدانـهما .. فتمنيتُ لو أنى يمامة أرف مُطمئنة بينهن ! .

سقطت عيناى إلى الدُمية المعلقة فى أهداب الطائرة .. فإطمأننتُ أنى بالأخير سأعود يوماً ما إلى دارى لأستقر فيها ، فلا يزال لى غرض ماكنٌ بالدار .. وربما أشياء أخرى ، كان علىّ فقط الإصطبار .. لأكبُر ، طريق طويل ، رمقته محطة محطة بين صغيرة فى سن الزهور وشابة يافعة تقرر مصيرها .

ناهزت الدراجة ناصية الشارع ، ظل الباب البادى من جانبه يتضاءل حتى إستحال إلى خط رفيع ، حتى الدار ذاتها لم تصمد كثيراً .. تقزمت حتى باتت بقعة يتلاشى جرمها ، إلى أن تحولت بالأخير إلى نقطة إغترقت فى

عبرة نبضت فى عينى بغتة ، غاصت فى قطرة ماء ، تلك الدار التى لطالما لهيتُ فى رحابها وعلى سطحها .. باتت ذرة رمل غائصة فى يم سحيق .
حينها سألتُ جدتى ..

- **متى سنزور الدار ؟ .**

هكذا سريعاً .. إشتقتُ إليها ، قبل حتى أن تصل مطيتنا إلى نهاية شوطها ، فأجابتنى بهدوء ، فما كانت تظن أنى سأرحل معها هكذا .. وبهذه السهولة ، دون صراخ أو بكاء ، أو وجه عابس .. أو قل هى لم تر شيئ من هذا .

- **الخميس القادم ميقاتنا معها ، فهو أول خميس لأمك .**

إطمأن قلبى ، فإستدرتُ تارة أخرى أباشر الطريق الذى غادرنا منه .. فخايلتنى تلك الطائرة الهاربة المعلقة فى سطح حظيرة دجاج ! ، دجاج يملك أن يعلو بأجنحته العاجزة لأكثر مما تستطيع هى ، وتكرر السؤال .. لماذا لم أستطع يوماً أن أجعلها تحلق فى السماء ؟! ، فبرزت الدُمية تثقلها وينوء بها كاهلها .

إتخذت الدراجة طريقاً أخر .. فإختفت الدار تماماً ، وتوارى الشارع فما بقى منه غير ناصيته ، حرف طويل طفق ينخسف إلى الأرض .. حتى وئدت الدراجة أخر نقطة فيه حين عرجت لتسير بمحاذاة شريط القطار ، فترددت فى أذنى دبدباته وصفيره اللذان لم أسمعهما منذ اليوم الذى غادرتْ فيه أمى ! ، وفى تلك اللحظة العصيبة .. إتجفتُ فرقاً ، هاجمتنى المآسى كحجارة وابلة .. تنقذف إلى صدرى قذفاً ، فشعرتُ بدوَّار يُطوح رأسى عن عنقى .. وغثيان يموج فى حلقى مَوْجاً .

إثَّاقلَ جسدى متهدلاً إلى قاع الصندوق ، إرتخى .. فأوصدتُ أبواب عينى على ما يروغ فيهما ، ولايزال الدوَّار يلف برأسى أرجاء القرية كلها ، أفرجتهما ثقيلتين .. فرمقتُ الطريق من خصاص الصندوق ، كان شريط القطار قد زال عن وجه الأفق تماماً .. ليحل مكانه زراعات رحيبة تملأ

المدى إلى أقصاه ، وهناك كانت السماء ، جاهدةٌ .. تنافح للنهوض بقبتها الشاهقة .

ذهلت عيناى ، وشردت بين سحائب السماء الرمادية .. فخايلتنى أشياء عجيبة ، عاينت فى خدرى قوانين الطبيعة تنقلب على ذاتها ، رأيتُ سمكاً عظيم الجرمِ يموء ويعوى بشراسة .. هارعاً فى إثر الهررة والكلاب ، يلتهمها ويمزقها تمزيقاً ، وفى ثُلة مركومة من سحائب أخرى .. كانت الأسود والذئاب تركض مفتزعة ، تئز كالفئران ، وفى أعقابها ظباء تطاردها .. تزأر وتُزمجر كسباع ضارية ، ورأيت أشياء آبدة أخرى .. أفرجتْ عينىّ عنوة ، رهط من دجاجات ثمان يأكلن الفئران والثعابين .. ينفضنها فى عنف لتفرغ أحشاءها ، وتثقب جلودها بمناقير ومخالف حادة كالمناشير ، وأخر ما بدا لى أطفالاً دون العام تركض كعدائى المارثون .. وفى إثرها شباب يُفوع يزحفون ويحبون ، إلى أن إلتهمتهم سحابة شاردة تجرُ فى أذيالها ظلاماً دامساً .. غشى الأفق فى لحظات .

(٧)

إستشعرت من بضع أحلام قصيرة راودتنى .. وكأننى قد غفيت لدهر من الزمان ، بيد أنه لم يكن إلا تِيه قصير .. أخذنى ، فجسره عقلى جاهداً ، إلى أن إنتفضت بغتة .. لأجد راحة جدتى تمسح على شعرى ..

- **أفيقى يَنُّور .. لقد ناهزنا دار خالكِ هلال**

إنفرجت عينى على الدار التى أعرفها ، دار رحيبة ، ترتع فى كنفها الخيل .. ولا تجد للهناء فيه موضع قدم ، ذكرياتى عنها قاتمةٌ لأقصى حد ، فما عهدت أمى فى رحابها سوى فى جدالات حادة مع خالى .. ومشاحنات ناهزت بعضها حد الصراخ والسُباب ، ليسود فى إثر كل لقاء قطيعة قد تدوم لأشهر طويلة .. لا يُخلِصُ ماؤها من الكدر سوى مبادرات تستهل بها جدتى دوماً .

ما إن لفظتنا الدارجة أمام الدار حتى ألفيت يوسف إبن خالى يطوقنى بذراعيه .. ليَسِمُ على وجنتى لثمة حانية ، إستقبلنى بحفاوة بالغة أزالت عن جأشى كثير من وطأة المكان ورهبته ، جعلتنى رغماً عنى أبتسم .. بيد أنه كان إبتساماً مبهوتاً لا روح فيه ! ، وبرغم أنه كان يشاركنى ذات الفصل الدراسى ، وكثيرة هى الأفانين والحكايا والأحاديث التى دارت فى السابق بيننا .. غير أنى ألفيته هذه المرة غريباً ، وكأنى للتو أراه .

كان الأمر من جملة إغترابى فى هذا المكان الذى أعرفه .. بينما أجهلُ طباع قاطنيه ، فلم أجد فيه سلواناً .. سوى أنى بالأخير دخلت الدار التى أُسرت فيها دُميتى ، تلك التى سلبها خالى منى فى إحدى زياراتنا له .. بدعوى أنها تجعلنى أكثر إزعاجاً ، حينها أخبرتنى أمى أنه يأسرها فى قبو الدار ، وفى كل زيارة كنا نحاول تحريرها .. غير أن هذا لم يحدث يوماً ، فوعدتُ أمى بأن أحرر أسرها حينما أكبر ، لكن يبدو أنها ستسترد حريتها قبل هذا بكثير .

أدخلتنى جدتى برفق .. تُشاطرها زوجة خالى ببضع عبارات جاهزة ولمسات حانية ، لم نجد خالى فى إستقبالنا كما تكهنت .. لم يظهر إلا بمضى النصف ساعة الأولى من حضورنا ، خرج من غرفته متجهماً .. تدعم لحيته الكثة عبوسه وتغضن مسحته ، حتى أنه لم يلق بنظرة واحدة تجاهى .. ولو بسبيل الخطأ ، كما تجاهل حضور جدتى تماماً ، ليس إلا بضع عبارات مقتضبة ألقاها إلى زوجته عن عِلة تأخيرها ، والدار التى باتت كمربض الغنم .. وأشياء أخرى عابثة كان يستجلبها من قيعان رأسه ليوارى بصره عنا ، وهو الأمر الذى جعل الدار تضيق بى إلى حد لم أستطع معه إلتقاط أنفاسى بإنتظام .

لم أشعر بالإرتياح منذ اللحظة الأولى من ولوجى إلى باحة هذه المكان .. فسريعاً ما بدت على تصرفاتى أثار الغربة ، برغم محاولات جدتى وزوجة خالى المكرورة لأجل أن يُزيحا عن كاهلى هذا الضيق .

وحتى تُهون جدتى على نفسى حدة هذا الإنتقال .. أوفت بوعدها لى ، فكانت أولى مرات خروجى من دار خالى إلى دار أمى .. فى الخميس التالى ، غير أنى ما إن عدت إلى دار خالى تارة أخرى حتى إكتنفتنى مسحات من الحزن والكآبة .. لم تجد لها جدتى سبيل ، فما تكهنت أن أنطوى على نفسى .. وأزدرد الطعام .

شعرتُ أن سعادتى بزيارة دارنا لم تكن كافية لمحو شعورى بالغربة .. فإنطفأت شعلتى ، وباتت نفسى تتمزق يأساً ووحشة .. أحمل على عاتقى هماً يتفاقم بمرور الأيام ، والتى لم تكن أبداً كفيلة بمدواة جراحٍ تتسع .

وفى الحقيقة لم تكن الدار ذاتها هى عِلة ترحى وإنكفائى .. بل جهومة خالى التى كانت تطالعنى فى كل بقعة أحط فيها ، ذاك الرجل الذى كان لى دوماً شيئاً غير ذا معنى ، موجود بجسده وثرثرته وضجته .. أما روحه فكانت

فى مرسى أخر ! ، لا أجد لى فيه موضع قدم يُريحنى .. أو يُزيح غربتى .
وأكـثر ما جعلنـى أستنفر من وجـوده أنه كان أسوأ نظـير للرجل المتدين .. الذى يتاجر بمظهره ولحيته ، وإرتياده المساجد والصلاة على أوقاتها .. لينتهب عَرَض الدنيا نهباً ، رِبَاً وسُحتاً ومباهاة ، ورغم ذلك كان الناس يُكنون له إحترام وإجلال فى غير محله ، يلوذون به فى شدائدهم وكرباتهم .. ويزهون بحضوره أعراسهم وعظيم مواكبهم ومحافلهم ، إذ يعدونه قطباً راسخاً فيهم ! ، ودوماً ما يُلقون إليه بدفاف الأحاديث والأقوال ، ويعوِّلون كثيراً على حصافته وطلاقة لسانه .

خلتْ أيام أخرى .. وطوى بعضها بعضاً ، وكنت أدور فى رحاها كشبح ليلى ينزف ، فبرغم أن خالى ما عاد يكترث بوجودى من عدمه .. لم أستطع أبداً الإنخراط فى أى حراك يدور بتلك الدار ، حينها كان الجميع يحاولون مناغاتى فى كل روحة وغدوة .. بيد أن أحد منهم لم يسألنى عما أشعر به وأعانيه ، كنت غريبة بين أغراب ، وحيدة رغم ضجتهم .
ورغم ذلك أمضيت أياماً طويلة أبحثُ عن أمى فى أعينهم ، كلماتهم ، طلاتهم ورائحتهم .. فلاريب أنهم بالأخير يحملون شيئاً منها ! .
أبحثُ عنها فى أحضان جدتى الطويلة ، فى غنج زوجة خالى لرضيعها .. وفى دفئ ثديها وهى تُلقمه إياه ، فى فرحة جارتنا التى كنت أباشرها من باحـة الدار وهى تستقبل صبيّتها ، يكاد وجهها يجن بشاشة وسروراً .. بعد يوم عمل طويل .
بحثت عن أمـى كثـيراً ولم أجـدها ، كنتُ أمضـى يومى شاردة من جدتـى إلى زوجة خالى إلى إبنها .. لأعود إلى جدتى تارة أخرى ، ومن غرفة إلى غرفة ، ومن عتبة إلى عتبة ، ومن باحة إلى باحة ، ومن هنا إلى هنا كالملسوع .. لا أَقِرُ فى قرار ، أُغَلِّظ جلدى تارة .. وأتسلل تارة ، لأنسحبُ بعـد ثـوانٍ

زهيدة بلا وجهة .

" أين هى أمى ؟! " ..

لازلتُ أرفض أنها ماتت .. وأستنفر من يحدثنى بهذا ، هى فى مكان ما .. لا أعرفه ، لازلتُ أتنسمُ رائحة ماء الورد التى إعتدتُ أن أشْتمُها تفوح من جسدها الناعم ، لازلتُ أسمع أهات أيامها الأخيرة على فراش المرض ، إنها هاهنا فى الجوار القريب .. يحجزنى عنها فقط جدار من العزلة والجفاء . ويالا عجبى اليوم من صمتها وجمودها ! ، تلك التى لم تُطقْ يوماً أن ترى دمعى يسيل على وجنتى .. كانت تبترُ خيطه قبل أن يكتمل ، ألم تر ما فعلت الأيام بى ؟! .. تحولت مقلتىّ لبحرين تاهت فيهما الوجوه ، وبات ذِكرُها يؤلمنى بوخذات متعاقبة .. ينافح بعضها بعضاً ، وبرغم إرتياع جدتى كلما رأتنى على هذه الحال ، وعبراتها التى تسقط لتوها .. غير أنى كنت فى غير حاجة لدموعها ، كنت أريد أمى ، وفقط .

مرت الأسابيع لاهثة ، وحضرت أربعين أمى فى دارنا .. تلك الروحة التى أشعلت فى قلبى بعض ما داوته الأيام السابقة ، فنبضت جميع الذكريات تارة واحدة وبذات القوة .. حتى ولجت فى نوبات بكاء لا تنقطع .. وخاصة بعدما إعتمد أهل الدار فكرة أن أمى بالفعل قد ماتت ، وباتت محض ذكرى ، تلك التى ما عاد منها سوى أنى أصبحتُ **" يتيمة "** ، ومراراً أكد لى الجميع ذاك .

تعاقبتْ الساعات وتداولت الأيام ولازالت الأوجاع بصدرى كما هى ، بقوتها وكامل طاقتها ، نافذة إلى عمقٍ ما عاد سبيل يُجدى لإنتشالها .. مغترقة فيها وغارقة فىّ ، تعاقبتْ فى دار خالى الخيبات تُجدد بعضها بعضاً .. وذات الحديث الذى من شأنه أن يُخمد ألاماً تجوس بنفسى .. يشق جراحها ويُدميها ، فجدتى لا تكف عن تطييب خاطرى بكلمات هى ذاتها تؤلمنى ،

وضحكات يوسف ما عادت تزيدنى سوى إشتياقاً لأمى ، أما خالى وزوجته فقد إتخذا منحاً أخر .. يموج بين التجاهل والصلف ، فبرغم حدته من جانب خالى .. يلين أحايين كثيرة من جانب زوجته ، والتى كانت بين حين وأخر تذكرنى فى حديثها بشيئ يجبر كسرى ، ويُهون على قلبى أوجاع الفراق ، غير أن أكثر أوقاتها كانت تتجاهلنى .. وتُشيح بناظرها عن وجهى ، دائم العبوس ! ، وسريعاً تغير كل شيئ .. إلى الأسوأ .

راعنى جداً أنهم جميعاً أهملونى ، ووخذنى وجع ضليع كلما رمقت زوجة خالى تدللُ أولادها وتعتنى بهم ، فما عاد أحدٌ يعنى بى ، لم يفكر أحدهم أن يُحممنى أو يُرجِّل شعرى .. كما كانت تفعل أمى .

وبمرور الوقت ..

بتُ أخدمُ جميع من حولى .. أُهادنهم حتى لا يتجهموا فى وجهى ، وما عاد صوتى يعلو .. أخرستهُ عنوة ، ففيما مضى كانت أمى لى سنداً عند مُلاقاة الأغراب ، حائطاً صلداً أتكئُ عليه إن أغرقنى الحرج أو هَويتُ فى بعض السخافات ، أما اليوم فلا حائط خلفى .. بتُ أستندُ إلى خـواء ، فلا أفعل ما كنت أفعله فى السابق .. مما يفعله الصغـار ، لا أتمنع ولا أتدلل ولا أعترض ! ، بت أسيرة منهكة ، وكأن قلبى شُق إلى نصفين .. أُلبى رغباتهم دون إمتعاض ، فلم أعد أطلب من جدتى نقوداً أو أتدلل إليها .. رغم محاولاتها لإسترضائى ، فى أحايين إنتباهها لى ، وبرغم أن الجميع إستبدلوا إهتمامهم بإغراقى بالنقود .. فقد زهدتُ فيها وما عدت أبذلها فى شيئ ، حتى تكدست لدىّ نقوداً كثيرة ! .. غير أنها كانت أزهد من أن تشترى قلباً كقلبُ أمى .

وكثيرة هى تلك الأشباح التى كانت تهاجمنى فى نومى .. تنهرنى وتُفزعنى ! ، أتلفتُ حـولى فى أنصـاف الليل .. فأجدُ الجمـيع نـيام وأنا وحـدى يقظـة ، وكثيرة هى تلك الليالى التى أمضيتها مُمعنة أحدق إلى سقف الغرفة ،

الحائط ، الباب .. إلى روحى ، ثم إلى لاشيئ ! ، كنتُ أبحث عن دارنا لليلة واحدة .. واحدة فقط ! .

موت أمى كان قابعاً داخلى كجسد ثقيل .. أحمله مع جسدى ، كل منا ضائق بالأخر ! ، وما بين ليلة وأخرى .. مضت الأيام كخيطٍ بالٍ يُراد به لململة ثوب قديم ، لا الخيط يمتد .. ولا هو يتحمل الشد والجذب ، ولا الثوب يلتئم ! .

لقد تعلمتُ فى دار خالى أن الضمادات قد تُدمل أقسى الجراحات .. غير أنها لا تستطيع تضميد أوجاع أصغر قلب فيه ، وأن أشد الأحزان هى تلك التى توافيك عندما تتذكر أيام السرور والهناء ، وهذا ما ألفيته بأقصى معانيه فى بضع أسابيع مضت .

ففى ذات القلب الذى إستشعرتُ به الدفئ على صدر أمى .. تحطمتْ كل قصور الأمانى الواطنة فيه ، إحتملتُ صراخ سكانها بتبلد شديد .. وقلت فى أسى " **عذراً .. إحتملوا قلباً يحترق ، فللمشاعر حق** " ، فبات الكون على سعته .. لا يسع ليلة حزن واحدة فى قلبى ، أذكاها نزوح الأيام .. وتداولها السريع .

(٨)

بدأ خالى يضيق بى كلما أبديت رغبتى فى زيارة قبر أمى ، كان كلما أبديت إشتياقى لها نهرنى .. وضاق بجدتى وزوجته كلما حاولا جبر كسرى ، شعرتُ بفجاجته تسرى فى روحى إلى أقصى حد يمكن تصوره .

وما أسْفَرته الصُدف كان أدهى أعظم ، ففى ذات صباح ألفيته يتسلل بهدوء إلى الدرج المؤدى إلى قبو الدار ، فشعرتُ أنها الفرصة واتتنى لأُحرر دُميتى .. تلك التى لم تغب عن خلدى منذ أن وجلت هذه الدار ، خايلنى أنه يأسرُ الكثير من الأشياء فى قبوه ، كل لُعبة أو غرض فقده صاحبه .. لابد وأنه خالى هو من إنتهبها إلى قبوه المظلم .

تسللتُ خلفه دون أن يرانى ، وإسترعى إلتفاتى أنه كان ينظر خلفه مراراً متحرياً الدرج على نحو يثير الريبة .. فبدا وكأنه يطوى سراً وبيلاً فى هذا المخبأ ، ومما أكد ظنونى أنه ما إن أفرج باب القبو .. حتى ولج خلسة وأوصده خلفه ! ، حينها هويتُ فى إثره تفعل الحيرة فى رأسى فعلها .. غير أن أكثر ما شغلنى هو كيفية تحرير دميتى ! ، حينها رمقتُ نافذة صغيرة إلى الجوار من الباب ، فى الأعلى ، فخايلنى أن النظر خلالها سيتيح لى المجال ، على أقل تقدير .. أن أعرف أين يوثقها ، وفى فرصة أخرى ربما أتمكن من تحريرها .

إعتليتُ خواناً بالجوار ، ونظرت خلال خصاص النافذة الحديدية .. فأسفرت ما يخبئه الرجل فى سجنه ، ويخشى عليه من أعين الناس ! ، وما خاب حدسى .. رأيت الكثير من الدُمى .. غير أن دُميتى لم تكن بينهم ، كان الرجل يتفحصها ويقلبها بعناية .. وكأنه يتأكد من تمام خلوها من النقص ، غير أنه ما إسترعنى سوى أنها كانت دُمى عجيبة .. جيدة الصنع وكأنها حقيقية ، كانت ملامحها ناهضة .. على نحو يشبه كثيراً تلك التى

كنت أراها مراراً فى كتاب التاريخ ، تصطف متراصة على طاولة رحيبة .. الأمر الذى فاقم من زهوها وروعتها ، وكأنها عرائس مزدانة فى كرنفال إحتفالى .

ما إن تأكد هذا السفاح من تمامهن .. حتى هم بالخروج ، فركضت عبر الدرج ، ومنه إلى غرفتى ، كانت رؤيتى لهذه الدُمى قد زادت يقينى بأن دُميتى مخبوءة فى مكان ما بالجوار .

جعلتنى هذه الواقعة أوقن بأنه رجل بلاقلب ، هذا الذى إستساغ لنفسه أن ينتهب كل هذا الدُمى سارقاً سعادة أصحابها .. ليسجنها بالأخير فى قبو مظلم ، حينها تأكد لى علة نزاعاته المكرورة مع أمى ، تلك التى كانت تملك قلباً عظيماً .. ما ساغ له أبداً أن يفطر قلباً صغيراً .

غير أن أكثر ما أزعجنى وفاقم قبحه فى رأسى .. هو كِبره وتعاليه ، وتبختره الدائم فى كل مرة أنضم فيها إلى مائدة طعامهم ، قائلاً " **رحمكِ الله يا أمى ، كنتى تذكريننى دوماً فى دعائك .. اللهم إجعله يُعطى ولا يأخذ ، يلجأ الناس إليه ولا يحتاج إليهم** " ، وكأنه عنتاً أراد بهذا القول إذلالى وقهر جدتى ، زوجة أبيه ! .

ففى أول أيام رمضان ، الشهر المعظم ، وإبان مرور زهاء الخمسة أشهر على موت أمى ، وافتنى جدتى تدعونى لمائدة الإفطار ، حينما وبمجرد أن جلست بينهم شعرتُ بحنين تلك الأيام وقت أن كنت إلى جوار أمى ، فنضحت على وجهى إبتسامة سجية .. وطفقتُ أجول بعينى على مسحاتهم التى تهش بنفحات الشهر الكريم ، فإختلج صدرى رِضَاً وإمتلأ دفئاً .. فارقنى لبضع شهور ، ونظرت إلى جدتى أصطفق بِشراً ..

- **ألسنا جدتى بهذه اللُمة عائلة واحدة ؟ .**
- **بلى حبيتى ، أدام الله عليكى أُلفته وأُنسه .**

فحدجنى خالى مُزدرياً برمقة تنضحُ نفوراً وإمتقاعاً .. الأمر الذى جعلنى أنكفئ إلى جوار جدتى أشعر بحرج جديد ، فبادرتنى بكوب تمر لتزيل عنى هذا الحرج ..

- **هيا حبيبتى .. إشربى .**

أطرقتُ خزيانة ، وما داخلتنى الطمأنينة إلا عندما أشاح بناظره عنى ، حينها مدت زوجة خالى يدها لتُعطينى مما تأكل .. فإحمرَّ وجهى تارة أخرى وشعرتُ بحياء وخجل شديد ، تذكرتُ حينها خالتى نعمات وقتما كانت تلج إلى دارنا بطبق طعام ، وكانت أمى لا تنتظر خروجها .. لتوها تُعطينى مما فيه ، لم أكن أتذوقه أو أخذ منه شيئاً حتى تنصرف جارتنا من صحن الدار والردهة الخارجية تماماً .

غير أنه فى إحدى هذه المرات أعطتنى أمى قطعة " مخبوزٍ " ، وما كِدتُ أقضم منها .. حتى فوجئت بخالتى نعمات تقف عند رأس الباحة الداخلية ، حينها تمنيتُ لو أن الأرض إنشقت وإبتلعتنى .. قبل أن ألوك بقايا طعامها ، وتحولت قطعة الـ " مخبوزٍ " فى يدى لكتلة من اللباد .. لا طعم لها ولا لون أو رائحة ، وأنا من أنا .. كنتُ أشتهيها وأستسيغها .

حينئذ تمنيتُ لو أنى أعرف الأشياء قبل وقوعها ، لم أكن لأرمق خالى فى لحظة .. كان فيها يرمقنى ، سأنكفئ قبل أن تمتد لى يد بمساعدة قد تكشف سترى ، وبقدر ما كنتُ سأنزعج لو وهبنى الله هذه الحاسة .. لسوء ما كانت تطالعنى به الأيام ، بقدر ما كنت تائقة لأن أتنبأ بقادم الأحداث ، تلك الحاسة الغيبية التى كانت من أكثر ما تميز به أمى ، كان لديها حدس شديد ونظرة ثاقبة ، وفى ذلك أذكر أنها طالعتنى ذات مرة ونحن غافيين فى صحن الدار بشعورها بأن سقفه الخشبى سينهار ، فإنهدم لتوه .. وقبل حتى أن تتم عبارتها ، فلم أدر بنفسى إلا وذراعها تطوقنى هارعة إلى الردهة ، وفى راحتها الأخرى تحمل جهاز راديو قديم ، ولكم ضحكنا آنها أنها لم تعن

من متاع الدار سوى براديو .. لا يستحق حتى مشقة حمله .

غير أنى فى ساعة الإفطار هذه ، وإبان تمدد راحة زوجة خالى لتنفحنى مما تأكل ، لم أشعر فى ورطتى بما يدعو للضحك ، بل كان الأمر أدعى للشفقة ، حينها زممتُ شفتىّ يكاد الوجع أن يقتلنى .. لكنى بالأخير مددت يدى قسراً لأخذ مما تأكل ! .

وكان الأمر كله تحت عين خالى .. ذاك الذى ما ينفك أن يضايقنى بنظراته الكارهة ، دون أن يعنى بظرفى وقلة حيلتى فى دنيا أدارت لى ظهرها بغتة ، لذا لم يكن بالشيئ الغريب أن يجازيه الله بزوجة لا تصونه فى نفسها ، وذاك أيضاً ما إكتشفته بمحض المصادفة .. فكان وبالاً على وجودى بهذه الدار ، ففى حين كنت أتريض على سطح الدار هاربة من ضجتهم وصحوتهم .. التى ما كانت أبداً تليق بحزنى وترحى ، وصَمْتِى الدائم ، وأثناء تجولى ببصرى بين الأبنية المشرعة بمحيط الدار .. حانت منى إلتفاتة ، ما كان لها أبداً أن تحين ، إلى نافذة دار الأستاذ " أحمد فراج " معلم الرياضيات بالمدرسة ، فصُدمتُ بزوجة خالى بردائها الداخلى بين ذراعيه ، يتحسس فيها ما شاء .

فى البداية ظننت أن الأمر يخال لى ، غير أنى وبعد عدة رمقات ألقيتها عبر النافذة .. تأكدت أنها هى " زوجة خالى بعينها ! " ، ومما زاد يقينى أنها بمجرد أن لاحظت تلصصى عليهما .. حدجتنى برمقة مباغتة ، ثم إنفكت من عقال الرجل هارعة ، ربما إلى خارج الدار .

على أنهما أبدلا محط رذيلتهما إلى النصف الخلفى من قبو الدار ، وهو نصف مفصول عن القبو الداخلى خُصص كمخزن للإيجار ، وله طلة ومنفذٍ على الشارع الخلفى .. مما يتيح لهما ممارسة فعلهما دون أن يلتفت إليهما أحد ، وخاصة وأن خالى قد خصص هذا الجزء لزوجته لتستخدمه كحظيرة ولأغراض التخزين لحين يأتى من يستأجره .

غير أنى لم أعرف شيئاً عن أنباء هذا الوكر الجديد ، فظننتُ أنها كفتْ عن فعلها .. وخاصة بعد رؤيتى لهما ، إلا أن ظنى هذا لم يُزل من رأسى عظيم تأثرى وذهولى مما رأيتْ ، فساورتنى الريبة والشكوك فى أمرها ..

كانت صدمتى فيها بالغة ، وهو الأمر الذى حدانى إلى أن أتوارى عنها لعدة أيام .. ظَنتْ خلالها وفى أكثر من مناسبة أنى سأُفشى سرها ، غير أنى ما كنت أملك الجرأة لأفعلها .. فتكتمت على الأمر برمته خوفاً ووجلاً ، لكنها لم تر فى موقفى معروفاً أسديه لها بلا مقابل .. بل أسفرت فى هذا ضعفى وخذلانى منذ اللحظة الأولى ، غير أن صمتى بات لها كالبركان الثائر بين الركام .. لا بد له يوماً أن ينفجر ، وهى أول من ستتلقى باكورة حِممه ، فلم
تُشفق بى أو ترحمنى .

شعرت بعينها تتربص بى لعدة أيام ، حتى ألفتنى ذات صباح فأعربت لى عن رغبتها فى أن أقضى لها غرضاً ما ، فوافقتْ ، فما كان منها إلا أن تأخرت بى إلى حيث حديقة الدار الخلفية ، وهناك لمحتُ سُلماً خشبياً يعادل إرتفاعه زهاء طابق ونصف .. إذ كانت أرض الحديقة تهبط لما يُعادل النصف طابق عن منسوب الدار .

دنت منى ، ثم طوقت وجهى بكفيها .. وكأنهما نصلان عِراض يكادا أن ينحرا عنقى ، فنفحتنى قبلة جافة .. وكأنها جمرة نار إخترقت رأسى ، فصدعتنى بجفافها وملمسها الخشن ..

- **حبيبتى يَنُّور ، أريد منكى أن تُسدى لى معروفاً .. هل لكى أن تُساعدينى .**
- **أجل خالتى .. أنا رهن إشارتك .**
- **لقد أوصانى خالكى هلال بأن أقيم حظيرة بسطح الدار .. لبضع خِراف سيجلبها صباح غدٍ .**

- **وكيف لى أن أساعدك ؟ ، ماذا ينبغى علىّ فعله ؟ .**
- **الأمرُ جد بسيط ، فقط سأصعد إلى سطح الدار .. وأريدك أن تحملى لى هذه الأحجار وترتقى السلم وتعطينها هناك ، فى الأعلى .**

وأشارت إلى بضع أحجار منتثرة .. يضاهى الواحد منها نصف وزنى .

فى الوهلة الأولى ، ولا أنكر ، شعرت بشيئ من الإطمئنان .. إذ كان ظنى بها أنها ستُكمم فمى بخرقة أو تصفعنى بعصاةٍ أو تُوجِعْ عنقى بسكينٍ ، أو حتى تُهشم رأسى بأحد هذه الأحجار الضخمة .. لتتخلص تماماً من هذا التهديد الذى يراودها فى غدواتـى وروحاتى بصحن الدار ، غير أنها لم تفعل .. تريد منى

أن أجلب لها بضع أحجارٍ إلى سطح الدار ، وفقط .

صَعدتْ الدرج فوراً .. حتى إنتصبتْ عند حافة السلم العليا ، ثم أماءتْ لى بأن أحمل إليها حجر بعينه ..

- **هلم حبيبتى .. إحمليه إلىّ .**

طوقت الحجر بين ذراعىّ وأقمتهُ عن الأرض ، وسبحان من رفع السماء بلا عمد ، إرتفع الحجر بين دفتىّ سهلاً خفيفاً .. وكأنه بأمر من رب السماء قد نفض عن جُرمه أرطالاً إلى الأرض قبل أن يطن بين ذراعىّ ، فبدا الأمر برغم غرابته عادياً .. ولا أنكر عجبى آنها بخفته رغم كتلته الكبيرة ، ثقيلاً شيئاً ما .. لكنه بالنهاية لم يُرفِتَ عظامى .

أقمتُ هامتى لأعلى أعاين طريقى .. فلاحت لى زوجة خالى مشدوهة فاغره الفاه ، لا يختلف عجبها كثيراً عما كنت فيه ، وقبل أن أرتقى به السلم .. أرغمتنى كتلته الرحيبة إلى أن أُفرجَ ذراعى لأقصى مداه ، وبالذارع الأخر كنتُ ألتقطُ الدرج براحتى صاعدة ، وما إن وافيت حافة السلم العليا حتى إلتقفت زوجة خالى الحجر منى ، تكاد الحيرة أن تقتلها أنى لم أسقـط .. ولم يسقـط الحجر عنـى أو بـى ، لكنـها تداركتـنى قبل أن ألحـظ

دهشها

- **هيا حبيبتى .. اجلبى لى حجراً أخر .**

لم يُرهقنى الحجر بقدر ما أرهقنى صعود السلم ثم هبوطه .

ما كدت ألمس الأرض وأرفع ناظرى إليها .. لأتبين أى الأحجار سأحملها ، حتى شعرتُ وكأن لوحاً ثقيلاً قد كدمنى فى رأسى .. فإنغلقت عيناى مُفتزعة متأثرة ، ثم أفرجتهما لأجد الحجر الذى رفعته للتو إلى جانبى .. مُنغرساً لربع جرمه فى الأرض .

رمقته مشدوهة .. لا درى ماذا حدث ! ، أسقط الحجر أم أنه حجرٌ أخر ؟! ، فأقمت ناظرى لأتبين الأمر ، فبادرتنى يراوغها دهش وذهول ..

- **عذراً حبيبتى .. لقد سقط الحجر ، اجلبيه لى تارة أخرى .**

فرفعته وصعدت به إليها .. ثم هبضت ، فما دريت إلا والحجر يهوى فوق رأسى تارة أخرى ، وبدلاً من أن يهوى كالطامة .. بات كحصاة تسقط فوق وسادة هوائية .

إنتصبت المرأة مذهولة تضربها أفكار شتى ، وصل بها الأمر أن إرتابتْ فى كونى بالأساس آدمية ، غير أنها لم تعتبر ، تكرر الأمر لأكثر من عشر مرات .. وفى كل مرة كانت عناية السماء ترعانى وتتخذُ جانبى .

حينها وبسذاجة الصغار .. خايلنى أنها لم تُحسن تأدية مهمتها فى إنشاء الحظيرة برغم أنى أديتُ دورى على أكمل وجه ، لم أتبين حقيقة نيتها وما تطويه سريرتها سوى مع أخر حجر إرتطم برأسى ، إذ هبطتْ السلم مذعورة تنتهب الدرج نهباً ، وقد تغضنتْ ملامحها فى إبتقاع وسخط ، وأنا فى عجب ودهش مما تصنع ، وما إن مست قدمها الأرض حتى دنت منى فركلتنى مغتاظة فى جانب ساقى .. فإنزلقت قدمى وإنطرحت إلى الأرض

- **ما جِنسُكِ أَبادَكِ الله ؟! .. مثل القطط بسبعةِ أرواح .**

أوجعتنى ركلتها أكثر مما أرهقنى حمل الحجارة وصعود الدرج .. غير أن

أكثر ما أوجعنى سريرتها التى أعلنت بفجاجة عما تطويه ، لقد أيقنتُ أن المرأة كانت تبتغى قتلى .. لينمحى أثر فضيحتها مع معلم الرياضيات ، ويندفن سرها المُشين بين طيات أكفانى .

غير أنها لم تكف .. بعدما باءت محاولتها الأولى بالفشل ، ففى صبيحة اليوم التالى وفى غضون غياب خالى الذى إتضح أنه لا علاقة له بجلب خرافٍ كما إدعت .. بل لقضاء أرب بالمدينة خاص بتجارته ، إنتهزت فرصة خلاء الدار من جدتى التى ذهبت لصرف معاشها .. للنيل منى .

كان الشتاء آنها قارصاً .. والسمـاء محتقنة بغيـوم متراكبة ، والسديم والريح يُبشران بمطر غزير ، وما هى إلا لحظات بعد إنقضاء تمام العاشرة حتى رعـدت السمـاء وإصطخبتْ ، ولاح الـبرق يمـزق طـى نسيجها تمزيقـاً ، فعصفت الريح وهطل المطر متدفقاً .

لم أر يوماً أشد قتامة من هذا اليوم ، نفضت السماء عن كاهلها أطنان من الماء الموسوم بحبات الثلج الثقيل ، بدى الأمر وكأنها تنثر ملحاً مباركاً لتُطهر أرض أصابتها عِلات النفوس ومخبوئها السيئ ، غير أنه ما كان مباركاً أبداً بالنسبة لى ! ، فقد وجدتها زوجة خالى فرصة سانحة لإزهاق روحى دون أن تُصم يدها بإهدار قطرة دم واحدة .

ففى حين هجع الجيران إلى دورهم وأوصدوا الأبواب ، وأضرموا النار فى مواقد الخشب .. يستجدون نسائمها الدافئة ، وبات الشارع خلاءاً من الرجل والمطايا .. جردتنى هذه السيدة الآثمة من ثيابى كلها ثم لفظتنى إلى عرض الشارع عارية تماماً ، وأوصدت هى الأخرى بابها .. ثم لملمت أولادها إلى الدار لتقيهم لفحات هذا البرد القارص .

هكذا بكل سهولة وبقلب بارد .. وكأنها لم تفعل شيئ ! ، كأنها لم تخلف ورائها طفلة لم تتعدى التسعة أعوام ملتصقة بالحائط .. فى صقيع فرَّ للتو

من ويلاته أشد الرجال ، أفترشُ الأرض وألتحفُ سماوات مطويات تضربنى بلسعات برد قاصمة ، صَمتْ آذانها عن صراخى المدوى .. رغم أن الدور بحيطانها سمعتهُ فتصدعت منه ، وطفقت معى تئن وتبكى .
نبا صراخى إلى الجيران .. ففُتحتْ الأبواب وفُرجتْ الشرفات الواطئة ، لا يُصدقون ما يرون ، وسريعاً كما هجعوا إلى بطون دورهم .. نفروا إلى ساحة الشارع ، فإحتشدوا إلى جوارى يتطلعون إلى عرائى ، وبغلظة وغباء فائق طفقوا يسألوننى عما حدث وما أتى بى إلى هنا .. والبرد لازال يطعن جلدى بكرابيج حادة المضاء ، يضرب جسدى الهزيل العارى برعشات وإرتجاف .. لم تتحمله أجسادهم الغليظة المستدفرة .
كنت فى غمرة بكائى أرقبهم فى خزى بأعين منكسرة .. ملأى بالذل والهوان ، أُلملمُ أشلائى وعوراتى فى حياء جم .. وأوارى سوءاتها عن أعينهم المترصدة ، إلى أن إنكببتُ فى محطى أضمُ رجليّ بذراعين متهدلين وجعاً وألماً .. لا أجرؤ أن أقيم عيناً فى أعينهم .
إلى أن إقتربت جارة رحيمة فإنحنتْ إلى جسدى تمسح على رأسى لتخمد رهبتى ، ثم خلعت عنها وشاحها وأسجته فوق ظهرى .. وأقامتنى ، سحبتنى رويداً إلى دارها تجسر لجة الهمهمات العابثة .. وإصطفاق الأكف أسفاً ، ظل الجيران يصبون جام لعناتهم على رأس زوجة خالى .. علّ السماء أن تُصغى لدعاءهم .. فتستجيب فى هذا اليوم المطير .
كانت هذه الواقعة من أقسى ما وافيتُ فى دار خالى ، وما عداها أهون بكثير ، رأيتُ فى إستذكارها لاحقاً الصبر والسلوان على خطوب حسبتها أخف منها وطأة وإيلاما .
غير أن أكثر ما حزَّ فى نفسى أن الأمر برمته مر مرور الكرام على خالى .. إبان شكوى الجيران له ، ولم تصمد جدتى عنده كثيراً .. ليس إلا بضعُ عبارات تعنيف وعتاب لزوجة خالى ، وتذكيرها بأن لها مثلى صغار ..

قد ينتقم الله منها فيهم ، ثم إرتدمت الواقعـة على ما فيها ، وكأن شيئاً لم يحدث ! .

أما أنا فقد أوغلت فى سحب ، مختنقة من هذا الدار التى تضم أسوأ النفوس وأكـثرها إنحـرافاً .. خال مُبتذل وزوجـة خائنـة ، وجدة ضعيفة .. لاتملك لنفسها شيئاً ، ولا لى ! ، جحيم ما بعده جحيم .

(٩)

إستفاقت جدتى للخطر الذى يحيق بى ويتربص بروحى ليقتنصها ، فما عادت تتركنى أو تُغيّب ناظرها عنى .. وخاصة بعدما رويت لها واقعة حظيرة الخراف ، فمثلُ خالى وزوجته لا يُستأمنون على غريب .. خاصة لو كان صغيراً مقطوعاً مثلى ، لم تدرك حقيقة هذا السلوك العدوانى الذى تمارسه زوجة خالى نحوى .. وكِنة سخطها الذى تصبهُ فوق رأسى صباً ، فى بادئ الأمر خايلها أنها ربما كانت تشاطر خالى مقته لى .. بيد أن المقتَ وحده ما كان أبداً ذريعة دافعة لقتلى .

واجهتها بما فعلت .. فأنكرت ! ، متحججة بأنى أبتكر من بنات أفكارى أشياء لم تحدث ، فما قِيل على لسانى .. ما هو إلا محض هلاوس تضربُ خلد صغيرة لازالت مصدومة برحيل أمها ، وأشياء أخرى أكثر هراءاً .

لم تجد جدتى سوى أن تُحاصرنى بعينيها فى روحاتى وغدواتى .. كقلعة تُحاصر مدينة معرضة للهجوم من فينة لأخرى ، كانت تجذبنى إليها جذباً ، فلا تُخلى سبيلى وحدى سواء فى غرفتى أو ممرات الدار أو حديقته ، حتى فِراشى كانت تُلازمنى فيه .

خايلها أن شيئاً مما تهذى به زوجة خالى ، حول تلك الهلاوس .. قد يكون حقيقة ، فمنعتنى من الصعود إلى سطح الدار ، فالصدمة قد تؤدى بالفرد للإقدام على الإنتحار .. وخاصة مع كونى صغيرة ، وفى إثر رحيل أمى .. لابد وأنى أشتاق إلى رؤيتها ، خشيتْ لحظة ضعف يُداعب فيها الشيطان خلدى .. فأقفز من سطح البناية ، وأشياء أخرى تكهنت بإحتمالية وقوعها .. قد تودى بالأخير بحياتى .

تفرغت لمُهادنتى ومحادثتى ، تقربت منى أكثر من ذى قبل ، وفى ذلك تحملتْ كثيراً من كآبتى وإنطوائى .. وإغترقت لرأسها بنوبات بكائى

ونحيبى ، لكنها إصطبرتْ وتحملتْ .. فى سبيل صون أمانة يتربص الجميع لإهدارها .
وفى ظلال صلف خالى وقسوة زوجته .. كان يوسف إبن خالى يختلف ! ، رمقاته كانت تنفذ إلى صدرى فتقرأ ما يجول بأغواره ، كان شديد الحساسية تجاهى ، ما إن يستشعر الأتراح تطرق أبوابى .. حتى يهرع فيضمنى إليه ضمات طويلة ، لطالما إنتظرتها من خالى ! ، ذاك الذى يُرحِّب صدره لجميع الصغار .. وما يضيق سوى فى وجهى ، يَضيقُ من ذاته دون إرادة ، وبرغم أن يوسف كان مثلى صغيراً .. بيد أن مشاعره كانت كبحر رحيب رجراج ، وحديثه براقاً .. يَمسُ جراح القلب بعينها .
ولا أنسى حين جُرحتُ فى قدمى عقب إنغراس شقفة بلور فى كاحلها .. أثناء إلتهائى بحديقة الدار ، حينها كانت جدتى تتآزفنى إلى مائدة الغداء ، وما كدت أسفر لها جُرحى حتى رمقتُ خالى عند ناصية المائدة .. فإلتقمت شكوتى وجلستُ فى هدوء ، حينها نظرنى يوسف آنياً .. فأدرك لتوه بأن خطباً ما أعانيه ، فى إلماحة ثاقبة إفتقدتها جدتى آنها ، وما هى إلا برهات حتى رمق خالى خيط من الدماء قد إنسال عن كاحلى بارزاً إلى خارج المقعد ، فإنزاح فوراً عن المائدة ليكشف الأمر ، رأى بقعة من الدماء تفترش الأرض أسفل مقعدى .
حينها ظل يوبخنى بإهانات لاذعة .. دون أن يُعنى بجرحى الذى لازال ينزف ، ثم نهرنى عن مائدته ، فركضت لتوى إلى غرفة جدتى .. تسبقنى دموعى صامتة ، كقطرات ندى تتسربل عن ورقة جافة .. أذوناً بيوم مطير .
وقتئذ ، وافيت يوسف ينسل فى هدوء إلى الغرفة ليجلس إلى جوارى ، وبراحته يمسح تلك العبرات ، دنا منى وواجهنى برمقة حانية ..

- **لا تتكدرى يَنُّور ، هكذا دوماً أبى .. لا يعنى بأحد ، ألازلتى لا تعتادين تقلباته ؟ .**

نظرته بعين مُغترقة تفر عبراتها راكضة .. دون أن أتكلم ، فإستطرد ..

- **أنا لا أملك أن أُزيل عن روحك تلك الأثار السيئة التى دوماً ما يُخلفها أبى فى صدرك .. غير أنى ما عهدتك ضعيفة على هذا النحو**

فتمطتْ إبتسامة يائسة على جانب فمى .. يتردد داخلى " **هذا كله كان فى الماضى .. أما اليوم فلا أضعف منى على هذه الأرض** " .

فأطرق واجماً للحظات ، ثم قال ..

- **أنا لا أعرف عِلة إستياءه الدائم .. ولم يرق لى يوماً سلوكه تجاهك ، لكنى أنا وأمى لا نشاطره نفوره وضيقه ، لسنا مثله ، فأنا كنتُ أحب عمتى رحمها الله حباً جماً .. ولكم تمنيتُ أن تُشاركونا دارنا ، وكذا أمى .. أوقنُ أنها تحبكى وتُكن لكى الكثير من المودة .**

ند صدرى تنهيدة سخرية ، وإفتر فمى عن إبتسامة هازئـة .. أردد فى صمت " **من فرط حبها .. سعتْ إلى قتلى ، يالا السخرية !** " .

لم يعن بأساريرى التى تُكذبُ كل حرف يفوه به عن أمه .. فأردف

- **أعرف أن رفقتى لم ترق لكى يوماً .. وكنتُ ألحظ نفورك من صحبتى فى المدرسة ، غير أنى ما إحتسبتُك أبداً إبنة عمتى .. بل أختى ، ولأجل ذلك ما عَددتُ تجاهلك لى سوى عتاب يُفضى بالأخير إلى رغبة فى الإقتراب .. ووسيلة لمحو ما كان بين أبى وعمتى من قطيعة لا طائل لنا بها ، ولم ألتفتُ يوماً لعدم إكتراثُك بكونى إبن خالك .**

غير أن حديثه لم يُزل ذاك الأسى الذى غشينى ، لولا أنه باغتنى بشيئ إنسل بين يديه من طى جيبه .

- **أتتذكرين هذه ؟ ..**

فشردتُ للحظات ، هامسة بصوت لم ينبو " **وكيف لى أن أنساها ؟!** " .

" صندوق الدنيا " .. لعبة بلاستيكية فى حجم راحة اليد علـى هيئة كامـيرا

تصوير فوتوغرافى ، تلك التى إنتقتها أمى لأجله بعد أن أبتْ زوجة خالى أن تبتاعها له .. فى يوم عيدٍ تصدع الجيران فيه من حدة بكائه وصراخه ، ولا أنكرُ غيرتى آنها .. فما عهدتُ أمى تجلبُ شيئاً سوى لى ، فكان من الإستحالة بمكان أن أنسى شيئاً جلبتهُ لغيرى .

كانت رؤيتى لتلك اللُعبة بين يديه فارقة لى ، هَشَّ لها صدرى خافقاً ، فما أصعب أن يحتفظ الصغار بأحجياتهم .. إلا ما كان منها بحق يمسُ شيئاً عزيزاً فى أخلادهم .

شعرتُ بلهفة وشغف يوخذان صدرى ..

- **أمازلت تحتفظُ بها ؟! .**
- **وكيف لى أن أُهملها أو أُبددها وقد إبتاعتها لى عمتى خصيصاً ؟! ، هى أقرب حاجياتى إلى قلبى ، كنتُ أريد أن أبديها لكى عقب طعامنا ، غير أن أبى أفسد ما كنتُ أرجوه من فرحة .. تقتُ إلى رؤيتها تلوح على وجهك .**
- **بالعكس .. بل أسعدنى الأمر كثيراً .**

وظللتُ لبرهة أتأملُ اللُعبة ، أقلبها وأفحصها وكأنى أختبر جودتها .. غير أنه باغتنى تارة أخرى وهو يسْتَلُها من يدى ..

- **دعكى من هذه الأن ، ما بال جُرح قدمكِ ؟ .**

لكن عينىّ كانت قد تعلقتْ بها ، أتنسمُ فيها رائحة أمى ، فإفتزعتُ ..

- **هل ستأخذها ؟! .. دعها قليلاً .**
- **هى لكى يَنُّور ، لكن الأن ينبغى أن نُطهِّر هذا الجُرح ونلفهُ بشيئ ما**
- **وكيف لنا أن نفعلُ ذلك ؟ .**
- **أنا أعرف ، إنتظرينى قليلاً .**

فتسلل إلى باحة المطبخ وأحضر ضمادة من شاش وقطن وقارورة مطهر .. من صندوق قد أعدوه مسبقاً للأدوية وما شابه ، ثم طفق يُطهِّر الجُرح

ويلفه كما علمته زوجة خالى .
حاول يوسف مراراً أن يؤكد لى مودته ، وبحق لم يكن مثلهم ، كان صغيراً .. لكنه يطوى لى فى صدره رحابة وألفة لم أجدها فى أكناف الكبار ، ولا أُنكر .. لكم باغتنى دوماً بقُربهِ ومحبته وسعة صدره .
لكن وبرغم كل هذا ، لازال الخطر هناك يحوم حولى ويتربص بى .. بين يدىّ خالى وزوجته ، وهو الأمر الذى جعل جدتى تنزعج كثيراً لفكرة أن ضرراً ما قد يحيق بى وأنا فى زمتها ، فلازمتنى .. وجعلتنى لا أبرح محطها أبداً .

(١٠)

وذات صباح ، كان صبرى قد أتى بأخر ما فى جعابه .. فغشينى ضيق فائق إمتد لبضعة أيام ، إكتنفتنى خلالها نوبات طويلة من صمت مطبق .. وكآبة مبهمة ، وإنزويتُ فى غرفتى لا أبرحها طيلة النهار .. لأقضى الليل بين الأرق والأفكار المزعجة ، فطالعتنى برغبتها فى التنزه والتسلى لبعض الوقت .. وجلب أغراض ما من سوق القرية .

وقتئذ ، كنتُ أدركُ أن الأمر برمته ذريعة لتسليتى والترفيه عنى .. وللحقيقة لم أجد أكثر منها فرصة ذهبية لزيارة دارنا ، تمنيتُ أن أرمقها ولو من بعيد ، فبادرتُها أنا برغبتى فى الذهاب وحدى ، دهشتْ للأمر فى بادئه .. غير أنها ولفرط إلحاحى خايلتنى بأنها قد تنازلتْ عن الأغراض التى أرادت إبتياعها من السوق ، فخلت سبيلى لأتروَّح بمفردى وأشترى الحلوى المثلجة التى أحبها .. على أن أبتاع لها بعضٍ من سعوط " النشوق " من حانوت " عم سعيد البقَّال " ، وهو دقيق التبغ الذى إعتادت أن تستنشقه لتُريح أعصابها ، على ألا أتأخر .

فهرعتُ من فورى فارةٌ من هذا السجنُ الكئيب .. الذى لم أبرحه منذ بضع شهور ، غير أن ما وجدته كان صادماً ، فما ألفيته خارج قضبان هذا السجن .. كان أشد إحباطاً وكآبة ، وكأنى لأول مرة ألمح وجوه الأشياء بعد رحيل أمى .

ما إن برحتُ باب الدار حتى طالعتنى شمس القرية بازغة وضاءة .. تنبض بإنتظام لا تأبه لشيئ ، لم تختنق ولم تأسى ، وفى الساحة وافيتُ الناس قد ذهبوا إلى السوق دائبين ، مُنطلقين .. يتحركون هنا وهناك كأسراب النمل ، وجوههم ضاحكة وكأن شيئاً لم يحدث .. لم أر فى أساريرهم علائم الأسى لموت أمى ، فتساءلتُ " **كيف لم ألحظ هذا الجحود والنكران ؟!** " ، كيف خايلنى فى عدة أشهر مضت أنهم يحزنون لفراقها ؟! ، حتى الحيـوانات

تحـزن لموت رفقائها وأحبائها " **فما بال هؤلاء هكذا .. جامدين** " ، وكأن أمى لم تمت ..

راحت الكلاب تعوى ، والنساء تبغبغ ، والرجال يتهاترون .. عادى ، وكأن شيئاً لم يكن ! ، غنج الصغار يملأ أسماع الدنيا فَيصُمُّها ، وأصداء الأعراس والمحافل لازالت تدكُ أرجاء البلد ، عادى ! ، وكأنها لم تكنْ يوماً بينهم .. ولها صوت يُشاركهم ويُشاطرهم ، بالنهاية ماتت ! ، والناس فى ذات لإنغمارهم .. لازالوا يكذبون ويضحكون ويبكون ويصمتون ! ..

وكأنها بقعة لون مهملة سقطت من لوحة عابثة ، أو نقش هوى وإنمحى أثره سهواً من رداء صبية تغنج ، فلم تأبه ، لازالت تلهو وتغنج وكأن هذا النقش لم يكن موجوداً فى ردائها .

لم يكن فى تصوراتى يوماً أن الأشخاص يذهبون هكذا عن وجه الحياة .. دون أن يرفع لهم الناس ذِكرٌ تارة أخرى ، فهكذا تُمحى الآثار ، للتو رأيتُ حقيقة لم أرها من قبل .. فعرفتُ أننا جميعاً عبثٌ فى عبث ، كلنا جاحدون ، وهكذا الناس ولازالوا .. تتلقفهم الحياة وملهياتها ، فينسون كل ما كان ! .

حينها تأملتُ .. كيف يسقطُ من ذاكرة الناس أن الفقد الذى يتناسونه .. يوماً ما أنبض بكاءاً حارقاً فى مدامعهم ، ومزق شغاف قلوبهم ، كيف لكل هذا أن يسقط سهواً ؟! ..

جالت قدمى فى شوارع القرية وحاراتها ، وافيتُ ما كان يُسعدنى بالأمس .. مزعجاً ومُقبضاً اليوم ، لم يعد اللهو بين الصبايا يأسرنى ويُحرك شغفى كما كان ، إمتلأت الحارات لأفمامها بالسخافات والموجعات ، وعلت فيها أصوات فجة غليظة ، قادمة من أرض أخرى .. غير تلك التى ربيت ونشأت فيـها ، إكتسحنى حينئذ شعـور بالغـربة .. يتماهى مع هذا الفيض من عاديات الحياة السخيفة الذى أغرق القرية وناسها .

فى الطريق وافيتُ صديقاتى ، فهرعن نحوى صديقاتى يسألننى .. إن كنتُ

أرغب فى اللهو معهن ، فلا يليق لمثل من هن فى أعمارنا غير اللهو والعبث ، لكن اليوم لم يكن يوم لهو ولا عبث ! ، لا أتذكرُ بأى الرمقات رشقتهن ! ، لا أتذكر سوى هذا الشعور المروع الذى غشينى بالوحدة والإنقباض ، وكأن عينى لأول مرة تنظرهنْ .. تساءلت " **كيف لا يشعرن بحالى .. وهن صديقاتى ؟! ، ما بال تلك الآلام المفجعة التى تمزق فى أعماقى .. لا تستلفتهم ؟!** " .

كان أتوناً من نار تنصب صباً فى فؤادى .. يهتاج كلما رأيت السعادة ترقص فى أعينهن ، شعرتُ وكأنهن كذا من أرض أخرى ، أرض جحودة ناكرة ، ظالمة ، فصببتُ جام سخطى ولعناتى على رؤسهن .. وعلى بطون تلك الأرض الغريبة التى إنسلوا منها .

لم أدر بعينىّ وهما تسوقانى إلى مديات بعيدة ، شردتُ إلى مرفأ القطارات ، الزراعات المنبسطة الرحيبة هناك ، شَممتُ هبوباً لافحة حملتها الريح إلى أنفى .. لم أعتادها حارة إلا اليوم ، سقطتْ عبرة من حواف عينى ثقيلة .. وكأنها صبية تنتحر من حافة بناية سامقة ، تبعتها أختها ، ثم باقى أخواتها ، ففاضت عينى بسيل لا أعرف متى ينقطع ، وإنطلق صدرى ينشج مكروبا ، لم أعن بالصبايا خلفى .. فخليت سبيل جوارحى ، كانت أصداء نهنهتى قد ضربتْ مسامعهن فركضن نحوى .

غير أنى وقبل أن تلحق خُطاهن بمحطى أو تتلقف خطاى .. بوغِتُ بقدمىّ تركضُ وتركضُ نحو المجهول ، نحو لا شيئ ، لا أرى سوى زراعات حادة كالأنصال تنتصب أمامى فتضرب وجهى ، لينتثر الندى على قسماتى ممتزجاً بما تذرف عينى ، كنت أبحثُ عن مرسى فى يم بلا مراسٍ ، علا صوتى ونعيبى ، وتأوه صدرى بحرقة مؤلمة .. نافذة إلى أقصى حد ، لم أعهد نفسى يوماً تطلق آهات بهذا الجلاء .. والوضوح الصارخ ! .

ظلتْ الآهات تنفجر فى حلقى حتى كاد صدرى أن يتمزق من إرتدادها ،

ظللتُ أعدو وأعدو .. لكن الطريق كانت بعيدة ، بالكاد ينزاح الهواء خلفى ثقيلاً .. وكأنى أسبحُ فى بحر من الطين ! .
لم تنفضْ تلك الغمامة عن وجهى إلا وأنا قبالة البئر القديم ، تلك التى رأت فيه أمى يوماً ما سمكاً حيّاً فى صباها .. برغم أن قاعه لم يرتو بماء منذ ما يعدو مئات السنين ، كونها بئر أثرية لا يزورها سوى الجِنان والضوارى .
للحظة إنتفضتْ عن أساريرى ما روعها وأثار جأشها .. فأطرقت أنظر إلى قاع البئر الجافة المتربة ، كانت بعيدة لكنى أراها ، كم كانت أمى بحق جسورة ، كيف جَرُأتْ على هبوط هذه الهوة المقبضة ، تأملت كيف كانت لأمى أوابد عجيبة " **هل يُعقلُ أن تُنْبتْ هذه القاع القاحلة سمكٌ حَىّ أو ميت ؟!** " ، أخبرتنى أمى فيما قالت أنها أخرجتْ منه حِفنة من سمك صغار .. كاد خالى هلال أن يُجنْ وهو يُطالعه يختلج فى راحتها .
شردتْ عيناى فى أديم البئر المربعة .. فتماهتْ جدرانه الحجرية فى قاعه المترب ، وللحظات خالت لى أسراب متفرقة من أسماك صغار تموج فى ماء رائق ، فذهلتْ عيناى تتابعها وتجول بينها .. حتى إستفقتُ على صفير القطار .. فهربت الأسماك منسلة إلى القاع والأركان ، وتسربلتْ المياه فجفتْ البئر وعادت الجدران تنتصبْ على قاعها القاحل .

كان الوقت قد تأخر عما يقتضى مروره لنزهة قصيرة ، وجلب سعوط " النشوق " الذى طلبته جدتى ، فقصدتُ من فورى حانوت " عم سعيد البقال " .. ذاك الرجل الذى كثيراً ما حذرتنى أمى من الركون إلى حانوته أكثر من اللازم ، ولم أكن حينها أستوعب دواعى هذا التحذير .. غير أنى إلتزمتُ به ، صيانة لعهدى معها ، وهو ما عزمتُ فعله آنها .
كان صدر الحانوت شاغراً ببعض الزبائن .. فلم أجد مناصاً من الإنتظار ، إلى أن بدا لى وجه " عم سعيد " بين أكتاف الواقفين ، فإبتسم لى إبتسامة

سمجة لم أجد لها داعٍ .. فتجاهلتها ، وبعدأن إنفض الزبائن من أغراضهم .. أتيح لى رؤيته عن كثب ، فهلل برؤيتى ..

- **مرحباً يَنُّور .. الغالية بنت الغالية " رحمها الله " .**

فأبرزت له ثلاث عملات فضية ..

- **أريد لفافة نشوق ..**
- **على رسلك .. ألا ترحبى بعمكى سعيد أولاً ؟ .**

وأفرج باب صغير .. دعانى للولوج منه ماداً راحتيه ، فتحجر الحديث على لسانى وشعرت بإرتباك شديد ، غير أنى أملك سوى الدخول .. فدخلتْ ، حينها بادرنى ..

- **ما بالك تتجهمين فى وجه عمكِ سعيد ؟! .. ألا تعلمين أن أمكِ كانت من أعز جيرانى وأخص زبائنى ..**

وإلتقطَ من المبرد قمعاً من الحلوى المثلجة .. ومد يده به إلىّ ، فى صمت ودون تعليق مددتُ يدى بعملتين ثمنها ..

- **وهل يجوز أن آأخذ ثمن الهدية ؟ ، هاك .. هذه لكى خالصة هدية من عمكِ سعيد .**

فأبيتُ فى بادئ الأمر أن آأخُذها من يده ، بيد أنه ألحَ فى العطية .. وأفرج راحتى عنوة ثم وضع بها قمع الحلوى ، فشكرته متلعثمة ، غير أنى بوغتُ به يسحب يدى ويجذبنى إلى ما بين فخذيه ، ثم أجلسنى على رجله ..

- **ما بالكِ كَبُرتى يَنُّور .. صِرتى عروسة .**

كانت هند صادقة ، تذكرت أنها مراراً ما كانت تُحدثنا بأن سعيد البقال كلما رأها قال لها " **ما بالك كبرتى يا هند** " ، ترى ما خطب هذا الرجل ؟! .

شعرتُ بعرق بارد ينضح من جبهتى وأنا أستشعره يشهق ويزفر مكروباً .. ويهمهم مبحوحاً بحديث ملغزٍ لا أفهمه ، حاولت التفلت منه .. غير أنه قبض علـى يدىّ براحتيه ، يحـركنى مراراً وكأنه يُهدهـدنى ، إلى أن تحركتْ

إحدى يديه إلى ملابسى .. فرأيت ردائى ينحسر عن نصفى الأسفل .
شعرتُ حينها بإهتياج يجتاح أواصلى ، فجاهدتُ بكل ما أوتيتُ من عزم أن أنفلت من بين براثنه .. فما إن إستشعر محاولاتى .. حتى قبض بذراعه على صدرى يتحسس أثدائى ، ورأيته يلتقطُ ورقة نقدية فئة العشرة جنيهات من دُرجْ النقود .. ليعطينى إياها ، فتفاقم إهتياجى .. وند حلقى بصرخة أرغمته على تحرير جسدى ، وهنا فطنتُ لما كان يريد هذا الدنِسْ .
فهرعتُ فور تَحرُرِى من قبضته إلى خارج الحانوت .. وقد إنفلتتْ من يدى لفافة السعوط ، ركضتُ أتنفس الصعداء باحثة عن مهرب من وكر هذا الحيوان الضارى ، غير أنى بعد عدة خطوت كررتُ إليه راجعة .. فقذفتُ بقمع الحلوى فى وجهه ، ثم فررتُ بجلدى قبل أن يلتقطنى .

جلبت السعـوط من حانوت أخر .. ثم توجهتُ فوراً إلى بيت خالى ، دون أن أستشرف دارنا ! ، فما حدث كان كفيلاً ألا أحاول السير وحدى فى شوارع البلدة تارة أخرى ، غير أنى تداركتُ الأمر سريعاً وقبل أن أصل إلى الدار ، **" لِمَ الخوف ؟ ، كم من المرات التى سرتُ فيها وحدى ، ناس البلدة ليسوا جميعهم كسعيد الدنس ، أنا أستحقُ ما جرى ، حذرتنى أمى منه .. لكنى لم أحتذر "** ، لكنها كانت مرة ولن تتكرر .. هكذا عاهدتُ نفسى .

(١١)

ما إن ألفيتُ ناصية الشارع البعيدة لدار خالى حتى لمحت عجوزاً أشعث .. يلوح أمام باب الدار ، بدا وأنه شحاذاً ..

دنوتُ منه فسمعتهُ يُهمهم فى إستياء ..

- **الشحاذ قلبه يُوجعه .. وصاحب الدار على مهل**

حينها كان ينتظر خروج أحدهم من دار خالى بنفحة .. لكن يبدو أنهم أطالوا عليه التأخير ، رمقته ، تتناوح عينى ما بين الشفقة والنفور .. إلى أن جائتنى همهمة أخرى من شرفة جدتى القريبة ..

- **من عرف الشحاذ داره .. يا طول عذابه .**

فإفْتَر ثغرى عن إبتسامة ثقيلة يائسة ، خمشتْ صدرى هذه المناوشة التى تجول داخل الدار وخارجها بين الشحاذ وجدتى ، وأنا وحدى أباشرها .

وما زاد إبتسامى بغتة أن إقتربتْ عجوز كفيفة إشتمتْ رائحة رجل يقف بالقرب ، كان هو الشحاذ ذاته ، فدنت منه تعطيه نقوداً ليجلب لها غرضاً من حانوت البقالة بناصية الشارع ، فنهرها ..

- **إبحثى عن صغير تُلقى عليه بمثاقيلك .. فلستُ بصغير .**

فأقامتْ هامتها ترمق الأفق البعيد وكأنها تراه ، تُبغبغ فى هزء ..

- **هب أنى كبيرة وأنت كبير .. فمن إذن يسوق الحمير .**

فإهتاج الرجل ساخطاً يُشيح بيده يميناً ويساراً .

كان سجال العجائز هذا مثير للضحك إلى حد أردتُ فيه ألا يكف ، ظلت الردهة تتهدهد أسفل قدمى .. أنظرهم فى مرح من طرافة تلاقفهم ، لولا أن جدالاً أخر جاءنى من الداخل ، كان خالى ضجراً يُحادثُ إحداهما .. تأكدتُ فيما بعد أنها جدتى ..

- **ألم يكفيك تسول إبنتك طوال سنوات مضت .. حتى تُبلينا بإبنتها ؟**

فتحجرت قدماى فى محطها ، ضربتنى قيلتهُ فى مقتل .. كسهم نافذ مضى بعيداً إلى أعمق محط داخلى " **يقصدنى أنا ؟ .. أمى متسولة ؟!** " .
غير أنى لبرهة إستفقتُ لحالى .. فلفظتُ عن وجهى وقع كلماته المهينة ، أغمضتُ عينى وسحبتُ شهيقاً غزيراً .. ثم أفرجتهما ثقيلتان ، غلظتُ جلدى .. فأمسكتُ بمقبض الباب ثم دلفتُ إلى الداخل غير آبهة ، فقابلتنى جدتى وقد تلونتْ مسحتها بسحائب غائمة ، بدتْ أساريرها محتقنة بجرح عميق .. غير أنها وفى حركة لا إرادية دنت منى تستهلُ بقدومى ..

- **جئتى حبيبتى ، خذى هذه لكِ .**

وألفتنى عملة معدنية .. كانت منذ ثوانٍ تنتوى أن تنفحها للشحاذ ، ففطنتُ وقتئذ أنها كانت تحاول ترميم ما أفسده خالى .. فى حال كانت أذنى قد إلتقطتْ كلماته ، لكنها حقاً إلتقطتها ! .. وما من شيئ قد يرممُ صدعاً كهذا ، للتو تشدق .
أشحتُ بعينى مستعبرة إلى بلور الشرفة .. فرمقتُ الشحاذ يبتعد حاملاً معه كبرياؤه ، قبل أن تخدشه عملة جدتى ، حينها تأوهتُ فى نفسى بأنين مكتوم صامت " **أين أنتى يا أمى ؟** " .

وهنا تحرك كل شيئ على أسرع ما يكون .. فركضتْ حكايتى فى إثره لاهثة مكروبة .

حاولت جدتى قدر إستطاعتها مداواة ما أفسده خالى بكلماته العابثة .. غير أن ما حدث كان فوق قدرتها ، فعلى مائدة خالى كان التقريع يدق رأسى دقاً ، وبدأ الأمر حينما أبديتُ لجدتى رغبتى فى زيارة قبر أمى الذى كنتُ لحينه لا أعرف له موطئ ، فما إن سمع خالى مواساة جدتى لى حتى إنفجر صارخاً ..

- **أوكلما نسيناها ذكرتمونا بها ؟ ، إستوعبوا .. لقد ذهبت فإستراحتْ**

، وأراحتنا من همها .

فهتفتْ جدتى ..

- كفاك إساءة إليها .. هى فى بيت الحق ونحن فى بيت الباطل ، وكفاك تجريحاً فينا وسخريةٌ من أحزاننا ، أى هم ذاك الذى ترمى إليه ؟ ، وأى راحة تلك التى تدعيها .. وهل بعد موتها من راحة ؟ ، ألا تُحجم لسانك عنها ؟ .. ألا تلتفتْ إلى إبنتها التى لازالت تلتاع بفقدها قبالة ناظريك ؟ .

فإنزاح عن المائدة واقفاً ، يُشيح بيديه ..

- أما كنتُ لأستريح منها .. حتى تُصدعي رأسى بأتراح إبنتها ، لقد فاض كيلى ، هى لم تكن فى الأساس لتُعنينى .. حتى أعن بهذه .

وأشار إلىّ غير آبه ، فبادرته جدتى ..

- كفاها أنها أختك ، يوماً ما سيعيرُك الناس بهراءك هذا الذى تتبختر به على مسامعهم .
- الناس تعرف ما شقيت به لأجل من هم ليسوا فى زمتى .. أنتى وهى ! ، ولا ذنب لى حتى أزيد فوق مثاقيلى ثقلاً .
- ألا تتذكر لها معروفاً أسدته لك ، رحمها الله كم لها من أيادٍ بيضاء طالتك وأسرتك .

فأدار ظهره لنا .. كمن يزمع أن يلقى بقنبلة يتقى موجاتها الإنفجارية ..

- أنا لا أذكر لها طيباً فعلته ، فمذ أن بُليتُ بها .. وظهرى ينوء بهمومها ، ما رأيت وجهاً أشأم من وجهها .. كانت وجه كدر ، كلما حلت بدارى .. خلفت فى أعقابها مصائب لا طائل لى بها .

فإنتفضت جدتى محتدة ..

- الضيق من لدن نفسك أنت ، هى الغيرة التى لم تستطع يوماً مواراتها ، " أم يَنُّور " رحمها الله من يومها وأفضالها تُحرجك وتُسود وجهك

، فسوء أفعالك جعل الناس يرفعون منزلتها ويحطون من قدرك .. بل ويمقتون مجاورتك ، ما أهمها غير وجيعتها فى أبيك .. الذى مات كمداً أنه أخلف ولداً عاقاً مثلك ، فبرغم أنك ربيب يده ، وأنه أهملها وأفنى عليك زهرة عمره .. كانت أبرُ به منك ، رحمها الله كانت خير ذرية .. تتوق لإنجابها الأرحام .

- **لا رحمها الله ولا غفر ، لوّحها الله بناره .. وحفر بها أرضه .**

وما كدتُ أسمعه يدعو على أمى .. حتى هممتُ إليه ، كشاةٍ تنقضُ بأظلافها على ذئب عاتٍ ، نشبتُ بساقه .. فطفقتُ أركله وألكمه ..

- **لا تدعوا على أمى .. حفرك الله أنت فى أرضه .**

فزجنى بساقه ..

- **اغربى عن وجهى .. أسكت الله حسك .**

فإنطرحتُ إلى الأرض متألمة ، فهرعت جدتى إلىّ ..

- **معاذ الله .. ياسوء ما تفعل ! ، البنت صغيرة .. لا تتحمل غشامتك ، أنجاها الله من بوائقك .**

غير أنى لم أركن إلى الأرض طويلاً ، إنتصبتُ واثبة إلى المائدة فإلتقطتُ طبق حساء .. ولفظته إلى وجهه ..

- **لا تدعو على أمى .. هى أفضل منك ، أنت أسوأ خالٍ رأته عينى ، أنت ظالم وجائر .. وأنا لستُ بحاجة لمثلك .**

فأثارت فعلتى وقيلتى ثائره ، فما كدت أركض إلى باب الدار ، فحتماً سيقتلنى ! .. حتى أمسك بنحرى عند الردهة ، فإنهال على وجهى صفعاً متعسفاً .. وأبرحنى ركلاً إلى خارج الدار ، صارخاً ..

- **اغربى عن دارى .. لن تمكثى فيها دقيقة واحدة .**

فإنطرحتُ لصدى ركلاته إلى الأرض .. أتضور من الأوجاع ، فهجعت جدتى إلىّ ، تنهرهُ ..

- **وامصيبتى ، كُفْ أذاك عنها .. البنت ستموت .**

وهمتْ إليه زوجته تحاول صد رعونته ..

- **كفاك .. ستُبلينا بها .**

غير أنه ما كف ، إنتزعنى من أحضان جدتى وأطبق يديه حول عنقى حتى رفعنى عن الأرض .. ثم ألقى بى كخرقة بالية ، ثم أمسك بتلابيبى وسحبنى .. طرحنى إلى خارج الدار ، ولازال لسانه يموج بالسب واللعن وأقذع الشتائم .

حينها هوى جسدى يئن بتباريح عظيمة ، يرغى فمى ويزبد ! ، كان صدرى يعلو ويهبط متآزفاً .. بالكاد ألتقط أنفاسى .

وما هى سوى لحظات أطرقتُ فيها ، كان الرجل قد إرتمى إلى مقعد بالجوار يلهث مكروباً .. حتى بغتْ الدماء فى عروقى ، ولا أدرى كيف نهضت دُميتى إلى مقدمة رأسى ! ، لابد وأن أحررها معى من وثاق هذا السفاح .. حينها كنت قد إنتويت ألا أمكث فى هذه الدار أبداً ، فلم أدر بحالى وأنا أهتف ..

- **أريد ما تخبئوه بالقبو .**

وياليتنى ما تفوهتُ بها ! ، لكنى ألقيتها على عِهنها .. وركضتْ ، غير أن ما لاح لى فى عينه .. ما كان ليتحمله أعتى الرجال .

ما كدتُ أطأ الدرج الخارجى حتى تدحرجتُ .. فتكومتُ عند سفحه بالباحة الخارجية وقد تمرغت ثيابى لأعقابها بالتراب ، فإلتقطنى الشحاذ الذى عاد لتوه ! ، أقامنى عن الأرض وطفق ينفض العفر عن ردائى ، غير أن عينى إلتقطتْ خالى يهرع فى إثرى .

جن جنونه ، ظن أنى أقصد بها يُخبئه فى القبو .. تلك القطع الأثرية المكنونة هناك بالأسفل ، حقاً ، لم تكن تلك العرائس التى رأيتها بدُمى .. بل قطع أثرية يتاجر بها منذ سنوات خلت ، فركض خلفى حتى لا ألقى كلمة هنا أو

هناك .. فأُسفر ستره .

فلحقت به جدتى ، توسوسُ لها نفسها بأن ثمة من أخبرنى بأن خالى يُخبئ وثائق الميراث فى قبوه .. تلك التى إنتهب بها حقوق أمى ، لابد وأنها هى ، ركضتْ خلفه قبل أن يُلحق أذاه بى .. فلا أقل من القتل ! ، كاد أن يفعلها مع أمى .. حينما ألمحت فيما سبق لمثل هذا الأمر .

وما توقعتُ أن تظن زوجته أننى أرمى إلى شأن خيانتها .. بعدما إستبدلت لقاءاتها الغرامية إلى القبو الخلفى للدار ، حينها شعرتْ بإرتباك شديد ! ، فبعد أن حدَّثت نفسها بأنه من الأمثل أن أترك البيت حتى لا أُفشى سرها لأهله .. فخلتْ سبيلى لأفرْ ، ركضتْ هى الأخرى فى إثرى خشية أن أفشى ذات السر لأحد من أهل البلدة .

وفى لحظة لا تمت للطرافة بصلة .. وجدتُ حالى أفر بنفسى هاربة من ثلاثة ، ذئب وأنثاه أقل ما يريدانه قتلى .. وشاة عجوزة تبتغى حمايتى ، وربما أخرين ، فقد كان فى إثرى يوسف وخالتى نعمات وهند وسارة .. بعد أن نبا إليهم أنباء جنون خالى الذى يريد قتلى .

بينما لم أكن أريد سوى دُميتى التى سلبها منى هذا الذئب ، فبقدر سذاجة مطلبى ونزقه .. كان يعنى لى الكثير ! .

(١٢)

تاه أثرى عن الثلاثة الراكضين خلفى ، جدتى وخالى وزوجته ، فما أصعب أن تقتفى أثر صغير .. خاصة وإن كان خائفاً وجائعاً .

إنتهى بى المطاف إلى حيث شريط القطار ، ذاك المكان الذى ما تجرأتُ يوماً على الإقتراب منه .. اليوم تجرأتْ ، اليوم فررتُ من هذا السجن الذى كان يُذمع صاحبه أن يلقينى فى غياهبه .. كما ألقى دُميتى ، فررتُ قبل أن أصحو يوماً فأرى القضبان قبالة عينى .. حائلاً بينى وبين دنيا الصغار .

القضبان ! ، تأملتُ ملياً هذين القضيبين السارحين أمامى .. تُرى إلى أين ينتهى سفرهما ؟ ، ربما إلى بلد ليس فيها أمثال خالى .. وفيها الكثيرات مثل أمى ، ما كنتُ أخشى فى هذه القضبان غير إصطراع القطارات عليها ، دبدباتها اللاهثة وهديرها المرعب ، وعجلاتها التى قطعتْ عهداً ألا تزور بلدنا إلا وفى إثرها روح تُزهقها كل عام .

إلتفتُ مذعورة .. ربما أكون أنا صبية هذا العام ، فلمحتُ قطاراً ينعق قادماً من بعيد .. فوثبت لتوى إلى خارج القضيبين ، ياله من إحساس مرعب أن تنتظر الموت لبضع ثوان ، قطار قادم تعرف أنه سيسحق جسدك بعجلاته ، كان خالى بالنسبة لى هو قطار الموت ، نفق مظلم ، مهما طال إنتظارك فيه .. فالموت يترصد فى نهايته ! .

لم أكن ببلهاء حتى تنطوى علىّ كلمات جدتى .. أو تنطلى على قريحتى حيلها الساذجة لتُسكن روعى " **هذا بيتك .. وأنا أمك ، ونحن جميعاً هنا فى خدمتك** ... " وغيرها من الأحاديث الخاوية التى كانت تطرق بها مسامعى مراراً ، فسريعاً ما أسفرت الأيام عما تنطوى عليه سرائر خالى وزوجته .. اللص والخائنة ، وسريعاً ما أسفرتُ أنا ضعف جدتى .. عن ضعفها وزهد يدها أمام سطوة خالى ، فما هى إلا زوجة أبيه ! .. التى تركها والده قبيل

موته وديعة لديه ، غير مرغوب فيها ! ، وذاك قبل موت أمه بسنوات .
خالى .. ذلك الذى ملَّكهُ أباه الدارين ، داره التى رَبَى هو وأمى فى كنفها ويعيش فيها الأن ، ودار أمى التى منحها جدى لأمى وأبى ريثما تتيسر أحوالهما .. وهى التى ربيتُ أنا فيها ، فما كانت جدتى سوى ضيفة ثقيلة فى بيت خالى .. إبن ضُرتِها ، لا تملك شيئاً .. ولا يجوز لها إستضافة أخرين ، وإن كنتُ حفيدتها وإبنة وحيدتها ، وإبنة أخته لأبيه فى آن .
وبرغم أن جدتى كانت تُحابيه وتُحاول ترقيق قلبه .. إلا أنه كان يُجافيها ويُعاملها على أسوأ ما يكون ، متغاضياً عن وصية أبيه ، فبات هو وأمه وبالاً على جدتى وأمى ، أما جدتى فقد طلقها جدى طلاقاً بائناً بوشاية مكذوبة من زوجته الثانية ، فعاشت بأمى عاماً كاملاً فى بيت مأجور .
أما عن قسمة أمى فقد كانت أشد وأنكى ، فقد ربتْ فى كنف زوجة أب قاسية القلب معدومة الرحمة .. بعدما إنتزعها جدى من جدتى قبل أن تُكمل عامها الثالث ، وذلك بدعوى أنها لا بد وأن تعيش حياة كريمة .. فعاشت أقسى أيامها مع زوجته .
كان ذلك من جملة ما ذكرته لى أمى عن تاريخ هذه العائلة المهيبة .. ولصغر سنى لم أحسب له حساباً ! ، ويبدو أن أمى حينما رَوتْنِى بهذا التاريخ جرعة واحدة .. كان تستشعر قرب ساعتها .

دوى قطاران متقابلان يلهثا .. فإنتهبانى من رفات الذكريات التى أَلحتْ على الإستشراف ، فوثبت ، إنسللتُ مبتعدة عن هذه الضجة التى ما تلبث أن تهدأ حتى تهدر وترعد ، تنتزعها القطارات إلى بلاد الغربة بلا فيئة .. لتطوى بها الأرض طياً ، تلفظ الناس عن بلدانها ، تقلهم .. لترميهم إلى بلاد أخرى ، يتوطنون بها بلا وطن ! .
ظللتُ سائرة بمحـاذاة شريط القطـار حائـرة ، فبقدر سعادتى بفـرارى من

سجن خالى ، أو قل طردى وإستنفارى ، بقدر ما كنتُ خائفة وجائعة .. لا أعرف نهاية مطافى ، ولم أدرك حينها لماذا لم تطفو دار أمى إلى أديم رأسى ! .. تلك الدار التى ظننتُ أنها أول ما سيجول بخلدى وقت أن أفر بجلدى من دار خالى ، إذ كان لابد لى أن أهرب من هذه الدار يوماً ما ، ربما هى فرحتى التى أذهبتْ وعييّ ، وربما الخوف ، فلقد باشرتُ هجوعهم خلفى متجهين صوب دارنا .. فآثرتُ أن أبقى بعيداً لبعض الوقت ، فى الحقيقة لا أعرف ، كنتُ أتصرف لبضع ساعات لا إرادياً .. دون وجهة أو هدف ، دون وعىّ .

غير أنى وبمجرد أن أتتنى ذكرى أمى راكضة ، فطافت فى رحابى .. تنبهتُ إلى دارنا ، حينها كنتُ قد قطعتُ نصف شوطى إليها أيضاً لا إرادياً ، فمضيتُ لتوى أجسر النصف الأخر لوطنى .. وما أرحمه من وطن ! ، ذاك الذى جمعتنى جدرانه يوماً ما بأمى .

لم أستطع تفادى رمقات ناس القرية المتلصصة ، كانت نظرات أحدهم ترشقنى حتى أغيب عن ناظره ، حينها كان نبأ محاولة خالى لقتلى .. قد طاف ربوع البلدة من أقصاها لأدناها ، وما هالنى أن بعضهم كان يقترب منى يتفحصنى .. وكأنهم يتأكدون إن كنت على قيد الحياة ، أم أنهم يتوهمون ! ، وهو الأمر الذى حدانى إلى أن أركض بعيداً حتى تدثرتُ فى أكناف الدور .. أسير مطرقة بمحازاة جدرانها ، أتخفى تارة .. وأظهر أخرى عندما تخلو الدروب من المارة .

وأخيراً ناهزتُ دارنا ، فتواريتُ فى ظلالها الجانبية .. غير أنه تحتم علىّ الظهور لقارعة الحارة حتى أتمكن من الولوج من باب الدار ، ففعلتْ ، وحمدتُ الله أن أحداً لم يلحظ وجودى فى غمرة الصبية والصبايا اللاهين ، لكنى بوغتُ بأن الباب موصداً بهذا المغلاق الغليظ الذى أنشبتهُ زوجة خالى بعد " أربعين أمى " ، فتراخيتُ مريجة حائرة .. أسندتُ رأسى إلى

الباب فى أسى .. غير آبهة بالأعين التى قد تلمحنى فتخبر خالى .

وما زاد الطين بلة أن رأتنى سارة وهند .. فَقدِما يُهللان بإسمى ، فلم أرفع هامتى إليهما .. وطفقتُ أكفكفهما عن الهتاف ..

– **إخفضا صوتكن ، أنا هاربة من دار خالى .**

فتداركتْ سارة ..

– **حقاً ، لقد قُتل بحثاً عنكى .. سأل الجيران حتى الصبايا ، ماذا حدث ؟! .**

– **ضربنى حتى أوجعنى .. كاد أن يقتلنى ، لن أعود لهذه الدار ما حَيِيّتْ .**

فأمسكتْ هند بساعدى تُقيمنى ..

– **يجب أن تختبئِى .. فحتماً سيعود ، لم يكن وحده كانت جدتكِ وزوجة خالكِ فى إثره .**

– **أعرف ، لذا أريد أن أدخل دارنا .. لكنها موصدة بمغلاق غليظ .**

فأردفتْ سارة ..

– **لا سبيل لدخولها .. فلتأتى معى وسأواريكى أنا فى دارنا .**

فنهرتها هند محتدة ..

– **ما هذا بالرأى السديد ، وهل داركم ببعيدة عنه ؟ .. لن يهدأ ثائر أملِكِ حتى تُخبره ، دارها هى الموطئ الوحيد الذى لن يخطر لأحد على بال .. ولكن كيف نُدْخِلُها ؟! .**

فعادت سارة لتُشاكسها كعادتها ، تهزء من حديثها ..

– **وما هذا أيضاً بالرأى السديد ، لا تُجيدين سوى مُعارضتى ، لقد عدنا لذات الدائرة المغلقـــ ..**

فصرختُ فى وجهيهما ..

– **كُفا عن هذه المهاترة ، فالأمر لا يحتمل ..**

وهنا تذكرتُ مسقط الدرج الخشبى ، ذاك الذى لطالما أزعجتنا منه وجوه الصبية المتسكعين .. لإنخفاض جداره ، فهتفتْ ..

- **لقد وجدتها ..**

فركضتُ وهم فى إثرى ، وعند الجانب الخارجى لجدار الدرج الخشبى بنهاية دارنا .. أومأتُ بيدى

- **سأقفز من هذه الهوة ، عليكما فقط أن تُساعدانى .**

فشبّكن راحتيهما ، ثم إرتقيتُ بقدمٌ تلوى الأخرى .. حتى رسوتُ عند حافة الدرج العليا ، تطلعتُ برهة إلى جوف الدار المظلمة .. ثم إستدرتُ إليهما ..

- **هذا سِر بيننا لا ينبغى إفشاؤه ، وعليكما إذا نبا إليكما أخبار جديدة أن تأتيا وتطلعانى عليها ، لا ينبغى أن يُمسك بى هذا الظالم .. وإلا سيقتلنى .**

فقالت سارة ..

- **لا تخافى .. سرك فى بئرين مكنونين .**

ووعدانى أن يطمئنا على أحوالى من آن لأخر ، فقط يرشقان الهوة بحجرين .. فأعلم بقدومهما ، ثم غادرا فى هدوء .

كانت سارة وهند يتقاسمان نصف فؤادى بعد أمى ، خير رفيقتين أهدتهما لى الدنيا .. وأخر ما تبقى لى منها ، ولم أكن لأستأمن دونهما على سرى .. حتى جدتى ! .

برغم أنهما كانا يُدركان جيداً أن وضعى هذا لن يستمر كثيراً ، ولا ينبغى له .. غير أننا وبعقول الصغار تآمرنا على قوانين الواقع .. وكأنى سأمضى الباقى من عمرى هاربة فى هذا المكان ، راقت لنا هذه المراوغة .. كلعبة جديدة نختبرها ، وقتئذ لم نكن نعلم أن الواقع أدهى من أن يتمكن صغارٌ مثلنا من التآمر عليه وخداعه ، لكن من يعرف .. ربما ! .

هبطتُ متثاقلة عبر الدرج الخشبى .. وعند أخر درجة تهدلتُ جالسة ، ولبضع لحظات أطرقتُ أسترجع ما حدث سريعاً منذ صبيحة هذا النهار .
وقعتْ عيناى على مزلاج الباب الداخلى .. فتنبهتُ إلى الخطر الذى قد يباغتنى على حين غفلة .. إن فضَّ أحدهم مغلاق الباب من الخارج ، لذا تحتم غلق الباب بالمزلاج الداخلى ، ففعلتْ ، أوصدته بمزلاجين كانا مثبتين بالباب .. فقد كنتُ أتوقع أن يعلم أحدهم بمكمنى داخل الدار ، فإذا ما تسنى له فض المغلاق بالخارج .. فلن يتمكن من إفراج المزلاج الموصد من الداخل ، أعلم أنه حتماً سيتكهن من خلال إنغلاقه أنى بالدار .. ولكن على أقل تقدير سأتمكن من الفرار ريثما يتمكن من كسره .
تنهدتُ بعمق ، ثم ترجلتُ بضع خطوات لأجلس على حشيتين متراصتين رأسياً بصحن الدار ، حينها تساءلت " **والأن ماذا علىّ أن أفعل ؟!** " ، لم تخبرنى أمى عما ينبغى علىّ فعله فى مثل هذه الظروف ، لم تقل سوى أنه يتحتم علىّ أن أبقى فى الدار ريثما تعود .. إن هى راحتْ ، فتأخرتْ ، وهاأنذا فى صحن الدار .. فهل ستعود ؟! .
أطرقتُ فى حيرة وترح شديد ، دارت عينى فى جنبات الدار وأكنافه حتى تحجرتا هناك فى الزاوية البعيدة .. حيث إنكفأت حاوية الخضروات ، فإنتثر ما فيها ، لاح لى أنها حقيبة السوق .. رفيقتنا الثالثة أنا وأمى فى اليوم الموعود ، يوم رحيلها فى سوق الخميس ، كيف لم ألحظها فى زيارتين من قبل ؟! ، إلتجت رجلاى .. فخطوت نحوها مرتجفة كمن يخطو صوب عبوة متفجرة ، كان الوجل يحدونى ويؤخرنى فى آن ، جلستُ عند حافة مصطبة ناهضة بالجوار .. وطفقتُ بيدٍ مرتعشة أتحرى الحقيبة ، تلك الأغراض هى أخر ما لمستْ يدىّ أمى ، كانت بقايا متعفنة مما إبتعناه فى السوق ، طماطم وباذنجان وبطاطس .. وأشياء أخرى رخوة ، أشياء قليلة

.. إذ لم تُسعفها الأقدار لملئ الحقيبة ، سبق خطوه خطوها .. فكانت ساعتها إلتقطتُ باذنجانة جف ماؤها فتحجرت ، ودون أن آبه بعفنها ، طفقتُ أتشممها .. وأمتصُ عبيرها بأنفى ، سريعاً ما زال شذى أمى عنها .. وهى التى إنتقتها بيدها ! ، شعرت بالأسى يغمرنى .. فإنسدلت عبرة تشق طريقها إلى وجنتى كالأخدود ، لتتسربل بالأخير إلى أديم الثمرة الأسود المبهوت بالبكتريا والفطريات ، لتقطر سيلاً رفيعاً إلى الأرض .

ألقيتُ الباذنجانة فى قنوط لتدحرج هناك بعيداً عن مودعها ، وحانت منى رمقة أخيرة إلى الحقيبة فى غير قصد .. فلاح لى شيئ أعرفة ، لطالما إنتهبت منه جنيهات زهيدة بإذن أمى ، حافظة نقودها ، سريعاً وفى لهفة لم أدرك داعيها فضضتُ ملئ الحقيبة .. وإلتقطتُ الحافظة ، طفقتُ أتحرى محتوياتها .. أوراق ونقود وصورة لى وإيصال كهرباء ، وصورة لأمى تنزوى فى جيب سرى .. تشرع منها قسماتها على إستحياء ، أخرجتها ودنوت بها إلى عينى .. وذاك قبل أن تنسل الحافظة من يدى ، فتهوى بما حُملتْ .

تأملتُ فى شغف عين أمى ووجنتها .. وثغرها الناهض عن فم موارب ، وشاح رأسها ، ومدلاة كانت فى السابق ترتخى على صدرها .. تنتهى بإطار صغير إحتفظت فيه بصورة لى .

حينها شعرتُ بوخذة فى صدرى ، وخذة بطعم جديد تختلف عن أخواتها السابقات .. لم أعهدها من قبل ، فإنفجرتْ فى إثرها أفياض من ذكريات ومشاهد وصور ، لتنتهى بالأخير عند باب دارنا .. حيث غادر النعش .

إرتخت يدى ، ولازالت أناملى تقبض على الصورة .. بعدما نبض فى مآقى عينى دمع من نوع خاص وبمذاق خاص .. أغرق صفحتها ، أرخيتُ جفناى كمداً .. فتثاقلتْ رأسى إلى الجدار خلفى تتكئ إلى منكبى الأيسر .

ظلت القطرات تركض وتركض ، أفرجت جفناى بصعوبة .. فإنحسرا عن يم لجوج ، وخيمت غيامات شفيفة .. ترقرق لها محجرى عينى مائجاً ، وبين

هذه السحائب المركومة التى غشيتنى .. رمقتُ أفقاً بعيداً يتخلف ظلالاً لأُمٍ تعقدُ يدها براحة صغيرتها ، كانا يقفان بين زروع .. قبالة شمس غاربة ، يلوح الأمل فى ظلالهما .. ويرف الحلم كهالة برتقالية تكللهما ، وشفق مصفر بعيد يوشك على الإغفاء .

كففت الدمع بيدى .. فإنجلتْ الرؤية وإنحسر الضباب عن مشهد أثير ، رأيتُ الصورة بجلاء .. تلك التى رسمتها يدىّ فيما سبق على الجدار خلف الفرن بفحم متبقى من خشب محروق ، لطالما كانت أنيسى فى مرات كثيرة أطالتْ فيها أمى الغياب عن الدار ، فى السابق كنتُ أقف أمامها .. أهامسها وأتسرَّى إليها ، فأرى شخوصاً من لحم ودم ، أم وصغيرتها ، " يَنُّور وأمها " بين زراعات كثيفة يتأملان شمس ماضية إلى أفول .

تساندتُ إلى راحتيّ وإنتصبتُ قبالة الصورة كما كنت أفعل من قبل ، تحسستُ خطوطها بأطراف أنامل رهيفة ، كانت تذوب شيئاً فشيئاً .. وتنمو لها أهداب وتعرجات تنمُ عن حياة ماضية إلى زوال ، خطوط تنمحى .. لتفسح المجال لصفحة الجدار الطينى الذى للتو إعتزم أن يعلو صوته ، فتماهتْ الصورة بشخوصها فى تشققاته وتصدعاته ، فما عادت من لحم ودم .

حملقتُ ، لم أعد أميز شيئاً مما كان مائزاً فيما مضى ، السيدة وصغيرتها والشمس الغاربة .. الجميع تاه فى شفق الرحيل ، ذهب النبض وزال الإختلاج ، ضاعت قسمات الحياة ، وما كدتُ أبصر رحيلهم حتى دارت رأسى فى أتياه عميقة ، فثَقُلتْ هامتى .. وإنكفأتُ إلى الجدار أمامى .

رفعتُ رأسى تارة أخرى أتأمل الصورة ملياً بحدقات مجهدة ضائقة ، تحسستها بأناملى .. فشعرتُ أن أسارير أمى تتداخل فيما بينها فى تماوج عجيب ، تمازجتْ حتى تاهتْ ملامحها بعضها فى بعض ، إنمحت شيئاً فشيئاً .. وكأنى أنظرها بعين مخدورة ، زالت .. على نحـو ما غـادرت سيدة

الدار دارها .
ضرب رأسى دوار طفيف ، فكِدتُ من رجيعه أن أتطوح .. لولا أنى أرخيت جسدى إلى وسادة من الخيش فى السابق خاطتها لى أمى ، إتكأت بظهرى إلى هوة الفرن .. فعادت الصورة المرسومة بطبشور الفحم جلية أمام عينى ، فجاس ناظرى فينة أخرى يموج بين الأم وصغيرتها ، ذهلتُ فى وجه أمى .. فخال لى أنها تبتسم برغم أن ظاهرها كان لى ! ، ولتوها نبضتْ فى حلقى شكوى تتدثر فى أردية لوم حزين ، فثار على لسانى حديث شجى يتهدج بالدموع .. متلعثماً بنشيج لحوح ، لا تُمهله أنفاس صدرى المكروبة ..

- **أتصدقى يا أمى .. ضربنى خالى وإستنفرنى من داره ! ، وجدتى ، أمكِ .. وقفتْ مكتـوفة الأيدى لا تجرؤ لرده عنى ، هى حتى لم تُحاول ! .**

صغيرتك يا أمى لم تتحمل أن يدعو عليكِ باللعنة ، رحمكِ الله .. فإنتصرتُ لكِى ، فخورةٌ أنى رددتُ غيبتك .. لكنى مقهورة .

وغلبنى البكاء ..

- **لماذا رحلتى يا أمى ؟ ، إلى من تكلينى ؟ .. إلى خالى ! ، إلى عدوٍ تجهمنى وإستنفرنى من داره ، أم إلى جدتى التى سخرتْ منى .. فإدعتْ أنها أمى ، لا تعلم أنه ما من شيئ فى هذه الدنيا يجسر أن يملأ فراغ تركته أمٌ .. فى قلب طفلة مكلومة ، هاك قلبى المفطور يا أمى ..**

فى السابق كنت أظن أنكِ لى حصن أمان يستحيل بمكان أن ينهدم .. لكنه إنهدم ! ، وبقسوة ، أترين يا أمى ، باتت دارنا خاوية حزينة .. دون صوتكِ وضحككِ ، وما عاد من سامر يجمع فضفضتنا .

ماذا لو كنتُ مِتُ أنا .. هل كنتى ستُطيقين فراقى ؟ ، فلماذا إذن ساغ لكى أن تتركينى ؟ ، كيف كان الفراق بهذه السرعة .. دون

حتى أن تستمهلينى ؟ ، لِمَ لمْ تُوقفكِ صرخاتى وركضى خلفك ؟ .. ألم توجعك ؟! .. فراقكِ أوجعنى يا أمى .

لكننى لم أتلق الرد ..
إنتظرت كثيراً .. فلم تنبو الصورة بصوت ، كانت خطوطها صماء .. أخرسها صمت كئيب ، خيم على دارنا فأحالها إلى أطلال ميتة ! ، كانت فى السابق تجمع أمٍ وصغيرتها .
كففتُ دمعى وأطرقتُ للحظات .. فلم أتبيّن وأنا أغفو دون إرادة ، فجاءتنى أمى زائرة .
فى مرج كثيف الإخضرار ، كانت تدنو منى بخطو رتيب ، تتدثر فى رداء أبيض فضفاض .. منقوش بورود بارزة ، جاءتنى كطفلة صغيرة .. تصغرنى سناً وطولاً ، حملقتُ فى جرمها المتقزم مذهولة ، فما قطع إندهاشى .. سوى إقترابها منى تجذب مئزرى كما يفعل الصغار ، تطلبُ منى أن أحملها وأُهدهدها ! .
كنتُ مذعورة من هيئتها الصغيرة ، وما إن إستشعرتْ هى نفورى .. حتى دنتْ منى قائلة " **أعيدينى إلى رَحمكْ .. كما أخرجتكِ أنا سابقاً من رحمى** " ، حينها ركضتُ مفتزعة بين الأشجار وهى فى إثرى تهتف " **أعيدينى إلى رحمكْ** " .
وبعد برهة من العدو ، حانتْ منى إلتفاتة .. فوجدتها فى إثرى ، تكادُ تلتقف ذيل ردائى ! ، فإستدرتُ أتحرى مهرباً .. فإذا بى أصطدم بها وقد إستحالتْ إلى أمى على حقيقتها ، سنها وطولها كما عهدتها ، فهتفتُ ملهوفة " **أمى** " ، ثم أدرتُ رأسى أبحث عن الطفلة التى كانت على هيئتها .. فلم أجدها ، بينما تلقفتنى أمى بين ذراعيها ..
فشهقتُ شهقـة من وجد عزيز بعد فراق ، فلما إستشفتْ وجدى وإشتياقى

أخذت برأسى إلى صدرها ، ووضعت راحتها برفق على فمى .. لتكف شدهى وإندهاشى ، قالت " **أنا هاهنا لأجلك** " ، وأبرزت تفاحة مشطورة إلى نصفين ، أعطتنى نصف .. وطفقت تقضم من النصف الأخر ، ثم دنت بنصفها إلى فمى .. فشرعتُ أقضم منها ، أستسيغ حلاوتها .

حينها تذكرتُ تلك التفاحة التى أتتنى بها فى حلم الجمل ، ذاك الذى قصصته على جدتى .. فقالت لى بأن الجمل هو خادم الصلاة ، وفقط ! ، وإلى اليوم لا أعرف دليلة هذه التفاحة بالواقع ، وخاصة إذا شُطرت إلى نصفين ، وعلاقتها بما كنت أعانيه حينها ! .

وقتئذ ، إستشعرتُ وخذة فى ظاهر قدمى ، ونبا إلى أذنى أزيز كأزير الفئران ، أفرجتُ عينى مذعورة لأجد " بسيمة " تشبُ بمخالبها الصغيرة فوق قدمى .. تلتقمُ صورة أمى الماكنة بين أناملى ، تقضم أطرافها ، تلك أرنبتى الأثيرة التى خصصتها لى أمى فيما سبق .

حررتُ الصورة من فمها .. وقد تحول أكثرها إلى جزازات تلوكها ، ثم رفعتها إلى صدرى أتحرى جنبات الدار ، وبعقل طفولى تحدوه سذاجة مفرطة .. تساءلتْ .. كيف نجت تلك الصغيرة من الجوع ؟! ، وهل من ناجين غيرها ، من عائلتها ، أم أن الجائحة لم تستبق غيرها ؟ .

لأكتشف بالنهاية من وشم موسوم بظهرها أنها ليست " بسيمة " .. ربما إبنتها أو حفيدتها ، فلا يُعقل أن تظل على حالها طوال هذه الشهور ، وعاد السؤال .. كيف لم ألحظ أنا أو غيرى ممن ولجوا هذه الدار خلال بضع مرات .. هذه الأشياء الباقية ! .

فترجلتُ إلى الحظيرة لأجدُ أن الدجاج والأرانب قد نفقوا جميعاً ، ويبدو أن الكثير منها قد هرب إلى سقوف الجيران بحثاً عن الطعام ، فجلستُ أداعب حفيدة " بسيمة " التى فرت من هذه المجاعة ! .

(١٣)

بغتنى أزيز حاد ودقات عنيفة ..
دوىّ هائل يتردد فى جنبات الدار " **ما هذا ؟!** " ، تطلعتُ مذعورة .. الرقع قادم من باب الدار ، الباب يرتجُ رجاً ! ، أحدهم يزجهُ من الخارج بقوة غشيمة ، وسريعاً أدركتُ أن خالى قد أسفر مخبئى .. فمن غيره قد يأبه بأمر تعيسة مثلى ، فيلاحقها .
أرهفتُ السمع صاغية .. فجاءتنى أصداء ضجة وضغضغة ، تنم عن زحام مركوم تآجل أمام باب الدار ، لكنى إستطعتُ بالأخير أن ألتقط صوت خالى وجدتى .. ميزتهما بجلاء رغم هذه اللجة الصاخبة ، كان ينعقُ كالغربان " **مُوقن أنها بالداخل** " وهى تُكفكفه ، أحسستُ بغتة بشتات وحيرة ، كنت أعلم أنه ساعة ما سيعلم بمخبأى .. ولكن من ذا الذى وشى بى ، حينها همهمتُ محتدة " **لن تُخرجانى عنوة .. أنا فى دارى** ".
علا هتافه ، ظل يستفزنى عن الدار .. وجدتى فى بكاء أشبه بالنحيب تحدونى أن أفتح الباب ، كانت قد جفلتْ فى إثره عارية الرأس .. خشية أن يتفاقم ضيق هذا المعتوه فيقتلنى إن أمسك بى ، فما رأته وسمعته منه فى إثر فرارى .. كان يُنذر بكارثة لا محال واقعة ، وأنا الضحية فيها ! .
دفعاتُ هائلة تكاتفت على صدر الباب .. تزجه جاهده ، غير أن المزاليج الداخلية حالت دون إنفراج هذا الباب العتيق ، عظيم الكتلة .
حينها أتانى صوت جدتى ..

- **اخرجى يَنُّور .. إفتحى الباب حبيبتى ، لن يؤذيكى أحد .**

فإنطلق صوتى فى حلقى دون إرادة

- **تكذبين .. لقد ضربنى فى حضوركِ وتحت عينيكى .**

وكأن الرجل يتحقق من وجودى بالفعل .. ما إن سمع صوتى حتى إستعرتْ طرقاته ، ينعق بأعلى صوته ..

- **إفتحى الباب وإلا كسرته .**

وإنطلق لسانه الزلق بوابل من أقذع الشتائم .. إنتشرت على مسمع من الناس ومرآهم ، جاءتنى كطلقات الرصاص فإخترقت صدرى قبل سمعى ، رفث وإستفاض فى السُباب حتى أنه ما تورع عن سبَّ أبى وأمى .
إنضمت لمة من ناس القرية يكفونه عن فعله الأثيم .. فطاح فيهم غير آبهٍ سباً ولعناً ، غير أن خالتى نعمات إخترقتْ الجمع فأزاحته عن الباب ..

- **إتق الله ، كفاك نزقاً وصبيانية .. البنت ستموت رعباً .**

فما كان منه إلا أن زجها بيده حتى سقطتْ أرضاً ، ثم إندفع إلى الباب كالمسعور يُلقى بأحماله إليه ، كنتُ أعرف أن الباب لن ينفتح وإن تحامل عليه عشرة رجال .. هكذا قالت لى أمى ، وحمدتُ الله أنه لم يكن يعتاد زيارتنا وإلا لكان قد تنبه إلى هوة الدرج .. وهذا أقصى ما كنت أخشاه ، بيد أنه كان بالفعل قد بعث بعض الصبية يتحرون نواحى الدار ، وما هى إلا برهات ويكتشفون ثغرتها .
تفاقمت الدفعات وإشتدت حتى كاد الباب أن يتحرك ، وهنا جاءنى صوته صارخاً ..

- **أقسم بالله إن لم ينفتح المزلاح .. سأحرق الدار وأنتِ فيها .**

كنت أعرفه لا يُبر أيمانه سوى شراً ! ، لكنه هو القدر الذى زج إلى رأسى ذكرى قديمة كانت راسية فى قيعانها ، هنا تذكرتُ قيلة أمى له عقب واقعة قديمة هددها فيها بأن يبيع الدار بأبخس الأثمان .. بحُكم أنه مالكها ، حينها صرختْ فى وجهه " **سأحرقه بيدى .. قبل أن تمتد إليه يدك** " ، فهمهمت بيقين راسخ .

- **نعم يا أمى .. سأحرقه بيدى قبل أن يحرقه بيده .**

وقتئذٍ كانت جلبة الصبية قد جاتنى خلف هوة الدرج .. فتيقنت أنه ما من وقت للتفكّر فى الأمر ، فهرعتُ لتوى أبحث عن " السهارى " .. تلك المصابيح البدائية التى كنا نستعين بها فى الليالى الظلماء ، حتماً سأجد بها

كيروسين ، وها هى أعواد الثقاب فى درج الخوان .. كما إعتادتْ أمى أن تتركها .

عثرتُ عليها .. فطفقتُ أنثر الكيروسين فوق القضب وأكـوام القش بجـوار الفرن ، لكن " السهارية " فرغتْ ! ، حككتُ عود الثقاب وألقيته .. فإستعرت النار فيها ، ثم هرعتُ أتحرى عن بقية السهارى .

وسريعاً ما إمتد وميض النار وألسنة الدخان إلى خارج الدار ، فسمعتُ جدتى تصرخ ..

- **الدار تحترق ، يَنُّور ، أغيثونا .. الدار تحترق .**

حينها ، ولا أُنكر ، عندما سمعتُ صراخ جدتى الملهوف .. إختلطتْ عندى كل المشاعر ، إرتبكتْ ! ، تذكرتُ لهفة أمى علىّ فى أوقات الخطر .. ولهفتى عليها فى أيام مرضها ، رأيتُ لهفتها لجدتى بعد حرمان طويل عاشته فى كنف جدى .. ذلك الحرمان الذى يتماهى الأن مع مرارة يُتمى وحسرتى على فقدانها ، عشتُ صراخى مع صراخ طفولتها .. وخاض إهتمامى فى عمق همومها ، وفى معين واحد إنصهر قهرى وقهرها ! ، وكأننا جميعاً خلقنا على نفس الدرب ، قطعتْ جدتى وأمى فيه شوطاً طويلاً .. وريثما تعبا تركانى لأكمل مسيرهما ، كان صراخ جدتى علىّ ينذرنى بصراخ مماثل .. قد يكون سبيلى الوحيد خوفاً على حفيدتى .

وأنبهنى هذا الصراخ .. أنه لم ينبو صوت من حلق خالى ، هذا الظالم ، غير أنى لمحتُ عينيه ترمقنى من فرجة صغيرة بالباب أحدثتها شدة الدفع ، حدجنى شذراً يكز على أضراسه .. مغتاظاً للنار التى تشى بظلالها كحيات تسعى على وجهى .

فإلتقطتُ " سهراية " غرفة الجلوس وسهارى الغرف الأخرى ، وألفيتُ قاروة الكيروسين فى مخنة الحمام ، ومضيتُ كالمجنونة أنثر السائل السحرى فى جميع الغرف .. فوق الأسرة والأثاث والفرش والوسائد ، لم أترك شيئاً

خالياً ، ثم هرعتُ إلى مسقط الدرج .. وعبر النافذة المطلة عليه ألقيتُ عود ثقاب مشتعل إلى غرفة النوم .

زحفت النيران كأفعوان داهٍ من غرفة إلى غرفة .. تلتقم كل شيئ فى طريقها حتى تحولت الدار لأتون مشتعل ، وأبقيتُ " سهراية " لسقف الدار الخشبية .. سكبتُ مابها فوق القش المخزون والألواح البارزة ، وبعود ثقاب واحد .. فعلتْ النار فعلها ، وكساحرة مجنونة حملتُ بين منكبىّ رأس الشيطان ثم وثبتُ سريعاً إلى هوة الدرج .. ومنها إلى الجهة الخلفية للدار .

" ماذا حدث ؟ " ..

بمجرد أن حطت قدمى إلى الأرض .. إنتفضتْ ، لا أدرى ماذا دهانى ، جثوتُ جافلة ، مختنقة ، إحتقن صدرى بالهواء .. فإنفجرت من حلقى أهة مقهورة أتت من العمق ، أكاد ألفظ قلبى عن صدرى .

طفرتْ عينى من فورها الدموع .. متعاقبة ، **" ماذا دهانى ؟! "** ، وكأنى للتو فطنتُ للفاجعة ، لفظتُ أهة أخرى .. فإغترق وجهى بدموع لم تُزل عن صفحته ما فعل الدخان فيه بح حلقى ولازال يتأوه ، ولازلت على حالى مطرقة .. حتى حفرت الدموع خندق فى الأرض .

رفعتُ هامتى .. فرمقتُ سارة وهند على بعد خطوات منى يصرخان وقد إلتف حولهما الناس ، كانا قد سمعا جئير آهاتى تخترق الحشد الكيثف ، سمعاها دون جميع الناس الذين جاءوا أبابيل بقضهم وقضيضهم .. فإفتزعا فرقاً ، وما كادتْ سارة أن تهرع إلىّ .. حتى أطبقتْ هند على ساعدها ، أومأت لها ، فطفقا يصرخان بجهد حلوقهما حتى لا يلتفتْ الناس لوجودى ، لآهاتى الصاخبة ، فإلتفوا حولهما يتحروا أمرهما ، وهما بأعين ذاهلة وأجساد مكتوفة .. يختلسان النظر إلى صديقتهما المقهورة ، يستجديانها أن تكف .

توقف الزمن لبرهات ، للمرة الثانية بعد رحيل أمى ..
للتو أحرقتُ داركِ يا أمى .. وطنى الأخير بهذه الدنيا ، إجتاحنى شعور غريب بالعدمية والمحو ، كطائرٍ عاد لعشه فلم يجده ، مزيج من فزع وضياع وقهر ومباهاة .. لا تبدو على مسحتى علائم محددة .
لكن سرعان ما أفقتُ على حلول الكارثة ، وسرعان ما جسا الدمع فى محجرىّ .. فإنقطع ، بعد أن إكفهر دون إرادتى ، شعرتُ بصدرى مشروخاً وكأنه للتو شُقَ إلى نصفين ، وبقايا شهيق ألتقطه مكروباً ، حينها كان ظهرى قد إلتفح بحرارة فائقة .. فتحاملتُ على قهر يأمرنى أن أقعى ، إنتصبتُ .. فتحركتْ ، ولازالت هند وسارة ترمقانى فى كمد .. أقل ما كانا يتمنيانه فى هذه اللحظة أن يلتقطانى فى أحضانهما ، لكنى كنت قد ركضت مبتعدة .
كان ناس البلدة لازالوا يتقاطرون إلى الدار المشتعلة .. يجلبون الأغطية وأوعية المياه ، بينما كنت أجوس بين تلافيفهم راكضة إلى جهة أخرى ، لم يلحظ أحدهم فى غمرة الهرج والتدافع .. صغيرة فازعة بين الصغار ، وهو الأمر الذى أتاح لى أن أتوارى على مبعدة .. خلف دار خالتى نعمات ، أرمق دارنا وهى تلتاع بين ألسنة النيران .
لبرهات ظلت النيران تتصاعد وتتفاقم مسعورة من الأكناف والنوافذ .. وناس القرية ينتشرون عند سفح الدار وأعلاها يسكبون مياه جلبوها فى أوعية دورهم ، إصطفوا .. يتناولون الأوعية من بعضهم البعض ، وما هى إلا دقائق حتى تلبدت السماء بدخان كثيف طغى على ألسنة النيران ، ثم هدأ كل شيئ بعد ساعة زمن .. ليس إلا لغط يجول على أفهام الحاضرين ، فهرعتُ أجسر الظلام دون وجهة .
علمتُ أن الدار لم تحترق عن أخرها .. فالماء أجهز على كثير منها ، غير أنها لم تعد تصلح للسكنى ، خالجنى حينها شعور غريب بالفخر والمباهاة ، فبرغم كل شيئ لقد أنفذتُ قيلة قالتها أمى يوماً ما .. لقهر خالى وكسر

شوكته ، فهمستُ لنفسى مراراً " **ها أنا قهرته لأجلكى يا أمى** " .. غير أن حسرة وخيبة كانتا تجوسان بصدرى كالثعبان ، لليوم لم أملك ردهما .

ومن جملة ما حدث أنه شاع بين الناس ، بعد عدة محاولات لإستخراج جسدى من البيت المتفحم .. أن النار قد أودت بحياتى ، وهو الأمر الذى طاح برأس جدتى .. فإصطرعت موغلة فى سحائب من التعديد والنواح ، وجاست خلال ذلك فى الحطام المحترق .. فإحترقت هى بحثاً ثم سقطتْ فى إغماء طويل ، أما خالى فكان قد برح المكان مذ رمقنى شذراً من فرجة الباب .. حين تأكد لى أنى بالأخير سأحرق دارى بيدى .

(١٤)

لم أدر بقدمى وهى تقودنى إلى قبر أمى ، ففى لحظة كهذه ما كان ينبغى أن تقودنى سوى إلى هناك ، وبرغم الليل البهيم لم أجفل من السير إلى جبانة القرية وحدى .. تلك البقعة المقبضة التى طالما سمعنا عنها من الخرافات ما تشيب لها رؤوس الصغار ، كنت مدفوعة بطاقة تفوق كل طاقات الخوف والإفتزاع ، كان كل ما قد يوافينى فى جهمة هذا المكان أقل بكثير مما يجوس فى صدرى من مشاعر إختلطت .. فما عاد من سبيل لإنتقاءها أو فرزها .

لم أكن أعرف موطئ قبرها .. فبعنت خالى ونكايته لم أزره من قبل ، غير أنى راهنتُ أن قلبى المكلوم سيدلنى على مرقدها ، هى لن تتركنى كثيراً فى حيرتى وإلتياعى .. ستسوقنى إليها .

شارفتُ الجبانة ، وبقلب بليد ، فقد الإحساس بسخافات الخرافة .. إخترقتُ القباب المشرعة ، بدتْ وكأنها دور صغيرة مغلقة على ساكنيها الآمنين .. الذين إختاروا الإنزواء وعدم الإختلاط بالأخرين ، لم أخشها أو أجفلُ من تراصها المرعب .. فى بقعة يستوحش منها الإنسان ، كنت كذئبة جبلية .. وما سمعنا يوماً عن ذئبٍ يهاب ساكنى القبور ، سرت بين هذه الأبنية المقببة التى تعلو قامتى بقلب يفح إشتياقاً وألماً ، وما كنت أُمانع أبداً أن تغتالنى الأشباح لأجل أن أكون واحدة من ساكنيها .. فأشاطر أمى حياتها الجديدة الآمنة ، فهى أحب كثيراً مما وافيته من جبروت خالى وخذلان جدتى .. وآخرين تربصوا لى دون أن أعاديهم .

تجاوزتُ الكثير من القبور دون أن تأتينى نسائم أمى ، غير أنى عند قبر بزاوية الجبانة ، يُطل رأساً على درب رملى من جهتها الأخرى .. شعرتُ وكأن قلبى ينقبض ، ينتفض ، شيئاً ما يُمسكه ويُحرره .. يكاد يهوى توقاً وفرقاً إلى قدمى ، قدمى تلك التى تحجرت بغتة .. فإنغرست فى محطها تأبى أن تنتقل قيد أنملة ، برهة وإجتاحتنى لهفة ولوعة لم أستشعرها من قبل ..

" هاك أنتى يا أمى "

فهويتُ رأساً فى محطى .. ولتوها نبضت عينى ، أنا قبالة مرقدها ، كان القبر شفيفاً .. فرمقتها وادعة مسجاة فى قاعه .

تناوح فى صدرى إرتياع وإلتياع مهيب ، وما لبثتُ حتى باشرتها وقد جلستْ تنظرنى ، جميلة كعادتها .. وفى ركن فمها تقعى إبتسامة هادئة أعرفها ، نظرتُ إليها ملهوفة .. يتفطر قلبى شوقاً ..

ولعدة لحظات إلتجم لسانى .. فإنعقد عن الكلام ، **" أهذه أنا ؟! "** أقسمتُ أن أبوح لأمى بأشياء كثيرة .. فقط لو أراها تارة أخرى ، تاه الحديث وجسا فى حلقى ! .

لم أطق .. ففاضت عينى مدرارة ، داهمتها عبرات مخنوقة ..

- **ألم تشتاقى إلىّ يا أمى ؟! .. فلقد إشتقتُ إليكِ .**

دمدم صدرى ، فطفطفت عينى وإنتفضتْ مآقيها بدفقة أخرى ، فاضتْ ، بالكاد يظهر صوتى ..

- **ألم تُعاهدينى ألا نفترق ؟ ، ألم أخبركِ بأنى أهاب الدنيا وحدى ؟ ، لمَ تركتينى ؟ ، بكيتُ لفراقكِ كثيراً .. بكيتُ كما لم أبك من قبل .**

فإنتصبتْ أمى من رقدتها واقفة ، ثم دنت منى وجلست إلى جوارى ، فإبتدرت عينى وأنا أرى بسمة هادئة تلوح على محياها ، تمنيتُ حينها أن تربتْ على ظهرى أو تأخذى إلى أحضانها .. لكنها لم تفعل

- **لا تتركينى يا أمى ، لا تُخلى سبيلى وحدى ، فبعدكِ لم يعد لى أهل ولا دار ، لقد أذاقونى أمرّ العذاب وحاولوا قتلى ، فى غيابكِ شتتوا شملى ، وبلغ بهم الأمر أن أجبرونى على إحراق دارنا .**

فخال لى أن أساريرها قد تغضنت .. كما كانت تفعل فى فينات غضبها منى ، ثم إنزاحت تُشيحُ بناظرها عنى وقد ساد الكدر وجهها ، وما لبثتْ حتى تساندت قائمة ..

– **أغضبتى يا أمى ؟! ، لقد أجبرونى ، ألم تنتوى يوماً فعلها قبل أن تمتد يد خالى إليه ، وها أنا فعلـ ...**

غير أنها لم تُمهلنى ، طأطأت رأسها ونكصت هادئة إلى مرقدها ، وما هى إلا ثوانٍ حتى إختفتْ وزال أثرها ، فهرعتُ ورائها واثبة ، كدت ألحقها .. لولا أن رأسى إصطدمت بحائط القبر .

حينها جن جنونى ، عصفت رأسى .. فإجتاحنى سعار ونوبة غضب هستيرية ، ظللت أهتف بإسمها .. أدق على حائط القبر لعلها تسمع ، أو أتمكن من دهدمته ! ، دون جدوى ، القبر أوصد جدرانه عليها ! .

لم أكن أعرف أن للقبور أبواب .. إلى أن إلتقطتْ عينى ثلة الطوب المرصوصة .. المدفونة إلى منتصفها بالرمال ، لم أطق صبراً .. فهرعت إليها .

غمرتُ كلتا يدىّ فى كومة الرمال الرطبة .. وطفقتُ أزيحها حفنة تلو الأخرى ، أحثوها وأُهيلها بعيداً ، كنت ألهثُ بصوت مسموع .. كوحش للتو إلتقم سهم نافذ ، تعج الجبانة بصراخى وجئيرى .

لم أنتظر حتى تنزاح كومة الرمال عن أخرها ، فبراحتىّ شرعتُ مُستميتة ، وبكل ما أوتيتُ من عزم .. أزج الطوب المرصوص، لكن الجدار كان صلداً محكماً ، فنهضتُ واثبة أتحرى عن حجر كبير .. فألفيتُ واحداً عند الضفة الأخرى للمدق الرملى ، فجلبته ثم رفعته عالياً ، يلتجُ صدرى .. وألقمتُ به ثلة الطوب ، فتهدم ثلثها ، ثم واحدة وأخرى .. حتى أضحى باب القبر مُفرجاً عن أخره .

إرتخيتُ أمامه ألتقطُ أنفاسى .. ثم تسربلتُ مسعورة إلى الهوة الغائرة ، فتكومت داخلها ..

الظلام راسخ فى كل مكان .. وكأنه بحر فاحم ثقيل ، هنا المعنى الحقيقى للأسود ، كنت أجوس فى أشياء مبهمة ، أكفان وعظام وأشلاء .. ثم لا

شيئ ، " **أين السكان الآمنين ؟!** " ، لعلهم رقدوا ! ، صرختُ أستفزهم .. فلم يجيبنى أحد ، " **للتو رأيتُ أمى .. متى نامت ؟!** " ، كان رشدى على المحك ، أطلقتُ صرخة مدوية أخرى .. لم يفتزع أحد ، ليس إلا صمت كئيب .. مخيف ، ورائحة عطنة ..

شعرتُ بحسرة من جسر رحلة طويلة بحثاً عن الماء .. فلم يجد إلا السراب ، ثقُلَ على روحى أن أشقى فى البحث عن أمى .. وإذا بى حين أجدها تختفى ، شعور مرير بالظلمة والجدب ، أهكذا تُطلق صافرة النهاية .. ليخيم شبح الفراق تارة أخرى ، فأرحل وحيدة ، " **لم أطلبُ شيئاً مستحيلاً .. فقط أريد أمى** "

ثار ثائرى .. وهبتْ داخلى نار غاشمة ..

فإنطرحتُ بين الرفاتُ أُذريها ، أزيحها وأقلبها .. " **أين أنتى يا أمى ؟** " ، ظللت أزحف فى جنبات القبر المظلم .. وأقذف كل ما تقع عليه يدى ، سمعت صوت أزيز وخشخشة .. ثم تتالتْ أصوات أخرى غريبة تخلع القلب ، وبالأخير لاحت لى عين براقة ترمقنى فى حلكة الظلام عند زاوية القبر .. فتجمدت عينى كصنم ، وبغتة جاءنى حفيف شيئ يسعى فى الجوار .. فتوقف قلبى هاوياً إلى قدمى ، هزتنى رعشة صادمة .. فإنتفضتُ صارخة .

غرقتُ فى شيئ مهول ، روع مهيب ، كابوس شيطانى يتحقق ، أوغلتُ فى إرتعاش وتشنجات وشهقات مرتجفة ، موجة إنفجار ، وذروة الأمر صراخ ثم صراخ .. ثم صرخات مدوية هستيرية ، إفتزعت قبور الجبانة .. وما إختلج ناس القبر .

لم يكن فى الحسبان أن تكون خالتى نعمات قد إنسلتْ من الحشد المركوم أما دارنا المحترقة .. لتنفر فى إثرى بعدما أتاها خبرى من هند وسارة ، ما

تكهنتْ وقتئذٍ أن تجدنى سوى هنا .. حيث قبر أمى ، وما خاب حدسها ، غير أنها ما إفتجعتْ سوى لهذا الصراخ الذى أتاها لاهثاً من أخر بقعة بالجبانة .

توقعتْ أن تجدنى جاثية قبالة قبر أمى .. وليس هناك فى أخر الجبانة حيث مقابر عائلتنا ، تلك التى دُفن بها أبى .. كما كنتُ أظن ! ، وأثبتت الأيام لاحقاً أنه وهماً فى وهم .

لم تفهم خالتى نعمات حكمة أن يسوقنى القدر إلى قبر أبى .. ليبعدنى كثيراً عن قبر أمى ، أهى الصدفة المحضة ! .. لا يبدو الأمر بهذه البساطة ، وكأن شيئاً كان خافياً عنى .. أن الأوان له أن يتكشف .

بدأ الأمر حينما كانت تركض عند جسر الجبانة بالقرب من قبر أمى .. تتحرى عنى ، فإفتزعت بصراخ مسعور ، يرتد برجيع مدوى مخيف .. آتياً من أخر الجبانة ، وراعها وقتئذٍ أن الصراخ بدا وأنه لصغير يستغيث .. فهرعتْ إلى غرفة متهدمة بالكاد تتماسك جدرانها المتصدعة ، ضريح المقابر ، إستصرخت الخادم وإستفزته ليستعلم الأمر ، وكان الرجل نائماً فلم تأته تلك الأصداء المدوية ، همَّ مصعوقاً إلى أخر حدود الجبانة .. وفى عقبه كانت خالتى نعمات تتعثر فى خطواتها .

فى تلك الآونة ، كانت إحدى السيارات المارة على الدرب الرملى قد توقفتْ .. إثر إفتزاع صاحبها بهذا الجئير الذى يجوس الجبانة من أقصاها إلى أدناها ، فتسللتْ إلى الموقع تُرسل أضويتها الباهرة .. لتغشى قبة القبر الذى إصطرعتُ فيه .

برهاتٌ وكان خادم الضريح قد شارف القبر بسراج بدائى .. ليجده منقوباً وثمة صبيّة مصروعة فى غوره ، تصرخ بملء حلقها وكأن جِنيّاً تلبسها ، جفل للحظات إلى أن تأكد أنها آدمية .. ثم هوى إليها من الفوهة المهدمة يجسر ظلمة القبر ، ليجد الصبيّة مركومة برفات الموتى وعظامهم ، أزاح

عنها هذه اللمة بقلب مرتجف .. ثم حملها إلى خارج القبر ، تتلوى بين ذراعية كحية مسمومة .

فى غضون ذلك كانت خالتى نعمات عند رأس القبر .. تستطلع الأمر مرتاعة ، فهالها جسدى المطروح بين ذراعى الخادم ، مغموراً بغبار كثيف ، قطرها المشهد فصرختْ ..

- **وامصيبتى ، يَنُّور .. ماذا دهاكِ حبيبتى ؟!**

فإنتزعتنى من الرجل .. تُزيح الغبار الدقيق الذى أنشب مخالبه بوجهى

- **أتعرفينها ؟ .**
- **هى إبنتى ، ينتقم الله منك يا هلال .**
- **ومن هلال هذا ؟! .. فليرفق الله بنا .**

لم ينتظر الرد ، إنصرف الخادم دون أن يعن بنا .. ليحضر فأساً يسد به هوة القبر ، يصطفق أسفاً وسخرية على أمهات هذا الزمن .. اللائى يتركن صغارهن ليرتعوا بساحات القبور .

كان الخادم قد أمعن نظره صوب الطريق فوجد أن السيارة قد تسللت خلسة .. دون أن يلتفتْ لرحيلها ، فخايله أن بالأمر شيئ مريب ، توجس أن ما جرى للتو لا تتنزهُ أيادى سائق السيارة عنه .. ذاك الذى باشر الواقعة دون أن تختلج له جارحة ، ثم إنسل كالمجرمين دون أن يلتفت إليه أحد .

أما خالتى نعمات فقد كانت تعرف تماماً ما ينبغى عليها فعله .. أخذتنى إلى دارها ، وأقسمتْ ألا تُخلى سبيلى لأحد .. لا خالٍ ولا جَدة ، فهذا ما كان يتوجب عليها فعله منذ أن رحلتْ أمى ، أمى التى تسارتْ إليها مراراً عن علاقتها المتوترة بأخيها .. ذاك الذى إن تسنت له فى السابق فرصة لِقَتْلِها ، لَقَتلَها ! ، لكن الأقدار حالت دون أن تواتيه بهذه الفرصة .

(١٥)

ليال طوال ظللتُ فيها طريحة الفراش بدار خالتى نعمات .. أستردُ وعيىّ لدقائق خاطفة ثم أغيب لساعات لا تنتهى ، أيام مأزومة .. لم تكن أجواء القبر والحريق غائبة عنى ، هذا اليوم المشؤم الذى تكالبتْ فيه الشياطين على روحى .. منذ بدايته .

لم يجرؤ خالى على السؤال عنى أو طلبى لأعيش بحوذته .. وذلك أن خالتى نعمات هددته بإبلاغ الشرطة بوقائع هذا اليوم المشهود الذى أودى بى حيّةٌ إلى غور القبر ، وشهود العيان فى ذلك لا حصر لهم .

إستفقتْ .. فبرغبتى لم يدم غيابى كثيراً ، بوعىّ صغيرة مريجة .. كنت حائرة أريد أن أعرف لماذا غضبتْ منى أمى ، وأين هى فى ذاك القبر الخاوى .. الذى تشدقوا بأنها تسكن فيه ؟ ، للحظة شعرت أن الجميع كانوا يسخرون بعقلى .. فأمى لم تكن راقدة بهذا القبر ، لا هى ولا كائن من كان .. ليس إلا ركام وقماش ، إذن فأين ذهبوا بها ؟! ، أين يوارون جثمانها عنى ؟ .. هذا الذى رأيته فى دارنا مسجى فى غرفة الجلوس ، وماذا يعنى أنهم دفنوها ؟ .. هل أنزلـوها تحت التراب ؟ ، وإن كان فلأبحث عنها تحت التراب .. ولكـن أين ؟! ، فى أى قبر .. وأى بقعة فيه ؟ .

خايلنى لساعات طويلة أنهم يُراوغوننى ويلهون معى .. ولكن ما أسخفها ملهاة ، فبالنهاية لم يستسيغها عقلى .. كانت بالنسبة له محض سخرية فى سخرية .

كاد عقلى أن ينفجر إلى أن أتم وعيىّ نهوضه ، كان علىّ أن أتحرى الأمر من خالتى نعمات ، لم أكدْ أطلبها حتى وجدتُها إلى جوارى .. تُطبقُ ذراعيها برفق حول جسدى ، بهرنى حضنها .. أخذنى أخذة قوية ، لم أر فى إطباقه ودفئه مثيل منذ أن رحلتْ أمـى .. شعـرتُ وكأن قلبى يكـاد يلجُ فى قلبها ،

ذاك الإحساس الذى خايلنى بأنى سأجدُ جميع الإجابات عندها .

- **حمداً لله على سلامتك حبيبتى .. إنتظرناكِ طويلاً ، لكنى كنت أعرف أنكِ قوية .**
- **لمَ تتضاحكون على عقلى خالتى نعمات ؟ .**
- **وهل يجرؤ من يفعل ذلك ؟ ، لمَ تقولين هذا الكلام ؟ .**
- **أنا لم أجد أمى فى قبرها .. أين أسكنتموها ؟ .**

فجفلتْ خالتى نعمات ، كانت تتوقع منى هذا الدرب من الأسئلة .. ولكن ليس على هذا النحو من السذاجة والسجية ، لم تجد سوى الصراحة لإسكات هواجسى الثائرة ، فمهما كانت الحقيقة قاسية .. فبالأخير ستخرج بعقلى من هذه العنق الضيقة من الجهل وعدم الإدراك ، ربتتْ على ظهرى ..

- **ومنْ أخبركِ بأن ما وجدناكِ فيه هو قبر أمكِ ؟ .**

شدهتُ للحظات ثم بادرتُها ..

- **لكنى رأيتها ، إبتسمتْ لى ثم رحلتْ غاضبة .**
- **حبيبتى لقد وجدناك بقبرٍ أخر ، ثم أن الميت لا يظهر للأحياء بأى حال من الأحوال ، هو إشتياقكِ لها الذى هيأها لكى .. وكأنكِ تُباشرينها ، لا ينبغى لها تحت أى ظرف أن تبرح قبرها أو مرقدها .**

حينها لم أكن لأقتنع بتلك الإجابة المختصرة ، غير أن الحياة أقنعتنى بها لاحقاً رغماً عنى .

- **ولمنْ إذن هذا القبر الذى وجدتمونى فيه ؟ ، ولمَ كان فارغاً .. ألم يُدفن به أحد ؟ ، وإن كان لمَ أغلقوه على ركام وأحفان تُراب .**
- **بل دُفن به كثيرين ، حبيبتى هذا قبر عائلة والدك .**

فإلتجتْ رأسى وإرتبكتُ ..

- **عائلة والدى ! ، لكنه كان فارغاً ، أليس هو ذاته بالقبر الذى دُفن به**

والدى ؟ .. أين ذهب ؟ ، أين ذهبوا جميعاً ؟! .

- **حبيبتى .. هنا بيت القصيد ، فلتتفهمى ما سآتيك به جيداً ..**

الموت لا يعنى فقط إنقطاع الأنفاس وهمود القلب .. بل يعنى فى الأساس مغادرة الروح للجسد لتصعد إلى بارئها ، أما الجسد فيُغلق عليه القبر .. وبتعاقب الأحوال يأكله التراب ليتحول إلى رفات ، عظام وقماش .. ثم إلى تراب ، هذا الذى خُلقنا منه .

فوثبت رأسى من قبر أبى إلى قبر أمى ..

- **أتقصدين أن أمى لم يبق منها سوى عظام وقماش .**
- **هاك حبيبتى حال كل إنسان يموت ، أبى وأباكِ أمى وأمك ، وأجدادنا .. وغداً أنا وأنتى ، وغيرنا الكثيرين .**

كان النبأ كالصاعقة .. أردانى لبضعة أيام فى طوية الإكتئاب واليأس ، لقد بتُ بالفعل وحيدة .. فحتى جثمان أمى الذى كنت أتشبثُ به بات رفاتاً ، وقدماً سيصير تراباً ، أو ربما صار ! ، وقتئذٍ كنت قد عرفتُ المعنى الحقيقى للفقد ، للعدم واللاوجود .

ثَقُل على نفسى أنهم جميعاً خدعونى .. فأوهمونى بأن أمى ترقد بقبرها ، وهالنى حقيقة أنه لا معنى أن نزور قبر بعينه .. طالما أن جميع القبور بمرور الزمن تصير خاوية ، أو حاوية لذات الشيئ .. ركام وتراب ، تساءلتُ كثيراً .. ما المائز بين قبر وأخر ؟ ، كيف أُميز رفات أمى عن رفات أبى .. والباقى منهما شيئ واحد ؟! .

ظلتْ الهواجس تعتصر رأسى عصراً .. إلى أن وافتنى خالتى نعمات بحديث جديد حينما طالعتها بهواجسى ، قالتْ ..

- **برغم أن الجميع صاروا رفاتاً وتراباً .. إلا أن لكلٍ نفحاته الخاصة ورائحته المائزة ، أثره فى الدنيا الذى يجعلنا عمداً نميز بين رفات**

وأخر .

وصادف حديثها هوى فى قلبى ، فرفات خالى لن تكون يوماً كرفات أمى ، والمائز هنا آثارهما فى الحياة والتى تتباين كل التباين .. فشتان بين هذا وذاك

- **حبيبتى هى كلمة السر التى يحملها كل جسد .. وتتباين من واحد لأخر ، هل يروق لكى أن تزورين رفات خالكِ مثلاً على أنها رفات أمك .. طالما أنهما صارا نفس الشيئ ؟ .**

تصلد السؤال فى رأسى ، فقلت بملئ فمى ..

- **لا ثم لا .. أمى شيئ أخر .**

فطالعتنى بإرتياح .

- **وهذا ما أقصده .**
- **إذن أريد أن أزور قبر أمى .**
- **غداً سنزورها سوياً**

وفى رحاب خالتى نعمات زرتُ قبر أمى لعدة مرات ، وفى كل مرة كنت أشتمُ ريحها الطيب .. وأوقنُ بأن آثارها فى الدنيا باقية .

توقفتُ كثيراً عند أفانين القدر التى ألقت بى من ضيق دار خالى إلى رحابة دار خالتى نعمات .. فكانت الجارة أكثر رأفة ورحمة من الأهل ، وما أقسى أن يموت أهلك وهم على قيد الحياة .. فيلجئوك عنوة إلى غريب تشكو له ! ، هى أقسى الأوجاع ، لذا لم أستوحش أن أركن كثيراً إلى دار خالتى نعمات .. أو دار أخرى غيرها ، وعزوت شعورى هذا أن أمى كانت كثيراً ما تدعنى بين أحضان نسوة الجيران إذا داهمتها الأشغال .. وكأن الله كان يُعدنى ويجهزنى للحظة فراقها ، لكنى لن أنسى ما حييتُ لوعتها وهتافها **" أين إبنتى ؟ .. أين يَنُّور ؟ "** إذا ما غبتُ عن ناظريها بمحط هى لا تعرفه .

وأذكر جيداً تلك الأخاديد التى حفرتها عـبراتها على وجنتها .. حينما أتيتها

ذات مساء باكية ، كنت قادمة من " الدَرْس " ، وكان ظلام هذه الليلة قد أسدل ستره سريعاً .. فتخاطفتنى الحارات والأزقة حتى تاه عنى الطريق إلى دارنا ، فظللتُ أبكى وأيادى النسوة تتقاذفنى .. وأنا أصرخ بشدة " **أريد أمى** " ، حتى تلقفتنى خالتى نعمات فأخذتنى إلى أمى .

حينها وجدت جميع جاراتنا هناك يبحثن عنى ، حتى صديقاتى بالمدرسة ، ورمقتُ وجه أمى بينهن يلتاع مغترقاً بالدموع .. فلم أدر بحالى وأنا أحلق فوق شُبح الظلام الكئيبة وأخترق تلافيفهم لأرتمى بين ذراعيها ، إلى اليوم لازالتْ سخونة صدرها تسرى كأفياض الأثير فى وجنتى .. ولازلتُ أستشعر حرارة اليد التى إنتزعتنى من التيه إلى رحمها .

أما ما جرى فى أحد الأعوام ، وفى أول أيام رمضان المعظم على وجه الخصوص .. فلا مجال لضياع أثره من خلدى أبداً ، كان الأمر حينما إضطرت أمى للسفر فى فجر هذا اليوم إلى عمتى لتعزيتها فى وفاة وليدها الوحيد .. إثر إصطراعه بصعقة كهرباء أثناء سباحته بإحدى الترع ، وذاك أن بعض الصيادين كانوا يستخدمون أسلاك الكهرباء فى إصراع الأسماك وإصطيادها عنوة .

فى هذا اليوم الآبدُ أودعتنى أمى عند إحدى جاراتنا .. والتى إلتهتْ منذ بواكير صباحها فى إعداد أطعمة الإفطار ، فأطالتْ فى أشغالها حتى أغرقنى الملل ، مما حدانى فى الظهيرة للنفور إلى دارنا .. واللوذ إلى حجرة الكرار ، أتسلى وألتهى ببعض حاجياتى هناك ، وقد كانت مظلمة إلى حد مقبض .. ليس إلا " رَزونة " بالسقف تضيئ ما تيسر لها ، غير أنى وبعد برهات زهيدة ضربنى السأم .. فغلبنى نوم غطيط .

وبينما أنا فى إغفائتى الطويلة إذ إلتقطت أذنى حفيف بالجوار .. فإنتفضتُ مذعورة لأجد أمامى أسوأ ما قد يجد إنسان فى كابوس مرعب ، ثلاثة أشباح سامقة ، تكاد رؤوسها أن تناطح السقف طولاً ، تتدثر بخيام بيضاء

فضفاضة .. وترفُ لأعلى بأجنحة عظام لتعود وترتخى إلى أسفل .
إلتصقتُ بالجدار خلفى منكمشة .. طاوية رجلىّ أطوقهما بذراعىّ ، وأسوأ ما لم أتكهن به .. أن الأشباح الثلاثة كانت تدنو منى ، وتهبط بأجرامها السامقة لتزج ساقى وذراعى بأيادٍ خشنة كأظلاف الماعز .
إنقبض فؤادى .. يكاد أن يتوقف إختلاجه ، ليعود فيتسارع إلى حد ظننته سيثبُ من صدرى ، لم أكن أعرف أن لهذه المتشيطنة وجود بالواقع .. حسبتها محض وحوش خرافية تُطَعِم بها الجدات حكاياهن الأسطورية ، تيقنتُ حينها أنها نمتْ هنا بحجرة الكرار العتيقة .. تلك التى نادراً ما ندخلها أو نشعل فيها سراجاً .
ظلتْ الأشباح تقترب وتلكزنى ثم تبتعد .. وأنا أقذفها بحصيٍ صِغار علّها تخاف فتختفى ، غير أنها ظلت تزوم وتفح بصوت يخلع القلوب .. وتقفز وتترنح يميناً ويساراً فى محطاتها كالمخدور ، ثم تتقزم وتتضاخم على نحو أثار روعى وأنبض الدمع فى عينى ، حاولتُ مراراً أن أصرخ .. غير أن حلقى إلتقم صوته فتحشرج وإنزوى ، فما ملكتُ سوى أن ألتصق بالجدار .. لعلهم يكفون رأفة بى ، كان صدرى يعلو ويهبط مرتاعاً .. وينقبض لا أصدق ما أرى ، ولولا أن حصاة صغيرة أصابتْ أحدهم .. للفظتُ أخر أنفاسى .
فما إن إلتقف أحد الأشباح الثلاثة الحصاة فى جانبه .. حتى إنفجر يُقهقه كالضباع ، إنها هى عرفتها للتو .. هند صديقتى ، وتأكد حدسى عند إنكباب الأشباح الثلاثة فوق بعضهم البعض .. إثر تعثرهم فى أرديتهم البيضاء الفضفاضة ، بعدما إفتضح أمرهم ، فإنحسرتْ وجوههم .. لأجد أن الأخريات كانتا سارة ووسام .
إنتفضتُ من محطى فازعة فى إثرهن .. فحلقن بطول الشارع راكضين ، ولولا أنهن أكثر منى بِنية وأكبر جرماً .. للحقتُ بهن ، غير أنى تهدلتُ

مغتاظة فإرتخيتُ عند سفح جدار ، عزَّ عليّ كثيراً ما فعلنه بى فرحتُ فى نوبة بكاء عميق .

عرفتُ فيما بعد أن الصبايا تحالفن لترويعى من باب الدعابة ، وخاصة عندما نبا إليهن أنى مغترقة فى نوم غطيط لرأسى بغرفة الكرار .. وذاك فى إثر ترصد إحداهن لى وتلصصها علىّ ، فكانت حيلتهن أن يتدثرن بمفارش الأسرة البيضاء ، ويتقنعن بأقنعة المسوخ والشياطين المريعة .. التى جلبنها فى العيد الماضى من مكتبة الحى ، ثم إرتدين فى أياديهن قفازات من ليف خشن ذات أهداب جاسية ، فبدين وكأنهن تلك الأرواح المتشيطنة .. التى ذاعت حكاياها على ألسنة جدات القرية .

هالنى جداً ما إقترفنه بحقى .. فأُوغلتُ فى سحب من الكمد ، مأدومة بعبرات من سُحق كبرياؤه ، وإذا بصوت أمى ينتشلنى من هذه البئر الغائرة .. يهتف فى الجوار " **ماذا حدث يَنُّور ؟!** " ، فقفزتُ إلى صدرها أنشج بحرقة ، وما فطنتْ أمى لما جرى .. إلا بعد أن هدأ روعى وتبخر غيظى ، فطفقتْ كل واحدة منهن تُعلن عن دورها فى هذه الألعوبة .. التى كنتُ أنا بطلتها وضحيتها فى آن ، فأقسمتْ أمى بعدها ألا تتركنى عند الجيران تارة أخرى .. لكنها بالأخير تركتنى ، وإلى الأبد .

(١٦)

علمتْ جدتى أنى لازلت على قيد الحياة ولم أحترق .. كما أقنعها خالى لاهياً بلبها ! ، فركبتْ الريح من فورها إلى دار خالتى نعمات .. وياليتها ما قَدِمتْ ، ففى هذه الزيارة علمتُ بأن خالى قد أبرم عقداً لبيع دارنا لأحد الغرباء ، حينها كان الخزلان قد بلغ منى مبلغه ، فبرغم أنى أنفذتُ وصية أمى ، فأحرقتُ الدار قبل أن يضع يده عليها .. ها هى يده ذاتها قد إمتدت إليها وأبرمتْ عقداً لبيعها " **يالا خيبة ما فعلت !** " .

جعلتنى تلك الأنباء لا أقبل قدومها أو زياراتها لمرات أخرى .. هؤلاء الذين قهروا قلبى فى مخدعه وبكافة الأشكال ، فى قرارتى كنت أعلم أن جدتى مسلوبة الأيدى ، ومنزهة عما إقترفه خالى فى حقى .. غير أنى ما إستطعتُ يوما أن أُبرء ساحتها من المسئولية ، كنت أتوق أن أراها فى مسئولية أمى .. كانت حائطاً صلداً لا ينهدم ، لم تنصاع يوماً لسطوة خالى .. لم يستطع أن يقهرها أو يجبرها على فعل ما لا تريد ، ولكن يبدو أن الحياة تُورثُ الأمهات أكثر مما يرثونه من لبن الجدات ، وهو الأمر الذى أنذرنى مراراً .. بأنى سأرثُ عن هذه الحياة خبرات أكثر مما إدخرته أمى لى .

طويتُ صفحة خالى وجدتى .. وما إستطعتُ طى صفحات دارنا ، محوت كل ذكرى بالماضى .. عدا كل سطر كانت فيه رائحة أمى ، حاولتُ أن أتأقلم مع جديد هذه الحياة كما كانت دوماً تعلمنى ، وهذا ما كانت تحدونى إليه مراراً خالتى نعمات " **لكم أحببتُ هذه السيدة !** " ، فدوناً جميع الجيران ظلت هى على عهدها مع أمى .. تزور قبرها وتدعوا لها ، لذا كان حديثها بالنسبة لى بمثابة توصيات واجبة النفاذ .. لا تختلف كثيراً عما كانت فى السابق تُسديه لى أمى .

كانت العـودة إلى الدراسـة هـى أول درب زجتنى إليـه خالـتى نعمـات ..

وحدتنى إلى السير فيه بإنتظام مهما كانت الظروف ، وكان لها فى ذلك كل الحق .. فلقد إنقطعتُ عن المدرسة عاماً كاملاً ، فى غضونه لم أجد من يُذكرنى بها .. لا خالى ولا جدتى .

ففى مشارف العام الدراسى جلبتْ لى حقيبة وأردية جديدة ، وذهبتْ معى فى اليوم الأول لتُبدى أسباب إنقطاعى خلال العام المنصرم ، إنفردتْ بالمعلمين واحداً تلو الأخر فى منأى عن أسماعى .. تشرح لهم ظرفى ، غير أنى سمعتُ كل إعتذاراتها .. ولا أُخفيكم كم أشعرنى أسفها بالحرج والأسى .

لابد وأنه قد جرى على لسانها بأنى صرتُ " يتيمة " ولا دار لى .. وأنها هى من ترعانى بعدما صفيتُ وحيدة دون أب أو أم ، وخاصة بعدما نفرنى أهلى ، كانت كلماتها دون أن أسمعها موجعة حد الصمت .. أحرقتْ كل زهرة أمل فى بستانى ، وهو الأمر الذى جعل من أيامى الدراسية مدعاة للضيق والضجر ، كانت من فينة لأخرى تُثير حفيظتى .. لكنى بالنهاية تحملتْ ، فوصية أمى لى بأن مستقبلى يكمن فى التعليم .. كانت تستحق .

ولأول مرة ألتفت أنى كنت دوماً بموت أبى .. " يتيمة " ، غير أن أمى كفتنى الأب والأم معاً ، فلم أشعر هذا " اليُتمْ " .. وما تجرأ أحدٌ أن يُشعربى به ، وللحقيقة حاولت خالتى نعمات مراراً أن تُزل عن روحى وطأة هذا الشعور الأليم ، لم تدخر فى جهدها جهد سوى لتوفير سبل الراحة والأمان لى ، وتهيئة الأجواء المثالية للدراسة المنتظمة .

ومن ناحيتى إجتهدتُ قدر إستطاعتى فى أداء واجباتى ، لم أكن متميزة لكنى دواماً كنت أحاول ، غير أن حائلاً رزيحاً ظل يوارينى عن الظهور والتميز بين أترابى ، فبرغم أن المعلمين كانوا يصفوننى بالذكية .. غير أنه كان ذكاءاً مرتبكاً ، يتلعثم عند حافة الجبن وأرصفة الخوف ، يغرق فى أكوام من .. المآسى ورثتها منذ أزمان بعيدة ، ربما قبل أن أولد ! .

مرتْ الأيام الدراسية على منوال رتيب ، كنت أذهب إلى المدرسة كل صباح بصحبة طه " وحيد خالتى نعمات " ، والذى يشاطرنى ذات الفصل الدراسى .. لأجد نفسى برفقة يوسف وهند وسارة ووسام فى كل روحة وغدوة ، وفى نهاية اليوم نترافق جميعنا كلٍ إلى داره .. نتسربل واحداً تلو الأخر ، لأصفى أنا وطه .. فنتوجه إلى بساط خالتى نعمات بسوق الخضار ، فنجلس معها ريثما تنتهى من بيع بضاعتها .. ثم نعود ثلاثتنا فى الأصيل إلى الدار .

إنطوتْ الأسابيع دون سيئٌ يكدر صفوها .. إلى أن وقع شيئ جاءنى كالصاعقة ، ففى صبيحة يوم دراسى فوجئنا بالمعلمة " أفنان " مديرة المدرسة تطالعنا على رأس الفصل .. لتطلب حضور أولياء الأمور فى اليوم التالى ، وفى ظرفى الحرج .. لم أجد سوى خالتى نعمات لتنوب عمن تملصوا من مسئوليتى ! .

وللحقيقة لم تتوان .. ذهبتْ خالتى نعمات إلى المدرسة فى اليوم التالى بالأصالة عنى وعن طه ، غير أن المعلمين رفضوا الإعتراف بولايتها علىّ .. رغماً عنها وفى حضورى ، برغم أنها أبدتْ ملابسات ظرفى تفصيلاً ، وهو الأمر الذى أذرف الدمع من عينى قسراً ، غير أن هذا ليس بأكثر ما أزعجنى ، ففى لُمة من المعلمين بغرفة مديرة المدرسة .. مط أحدهم شفتيه متحذلقاً فى سفهٍ ..

- **أليست هذه بإبنة " عبد الحى " .. الذى مات منتحراً .**

فرمقتُ خالتى نعمات مشدوهة .. فلم أجد شيئاً من وجهها ، كانت قد توارتْ عنى بناظرها لتُرسله إلى المعلم السافر .. كى يكف ، ويلتفتُ إلى أنى حاضرةٌ بمجلسهم .. وتطرق مسامعى زلاقة لسانه ، غير أنه وبكل سماجة أردف ..

- **ما بالكم توارون عنها الخبر ! ، سيحين يوماً وتعرف .. حينها لن تغفر لكم تجهيلها .**

طالت رمقتى إلى خالتى نعمات ، لكنها لم تنبس ببنت كلمة .. فعيناها صرختْ بكل ما كنت أخشى سماعه ، **" أبى مات منتحراً ! "** ، فإنتفضتْ منى عبرة خزيانة مأدومة بتنهيدة أليمة لم أستطع كتمانها ، إنفلتُ من نظراتهم السليطة راكضة إلى خارج الغرفة ، حينها لم أجرؤ على الخروج من بوابة المدرسة .. فحتماً كان الفراش يعرف كل شيئ ، أو هكذا خال لى ، فقفزتُ من السور إلى الخارج ، ولا حديث فى نفسى سوى **" الكل سخر بعقلى .. حتى خالتى نعمات كانت تخدعنى ! "** .

هرعتْ ورائى .. لكنى كنت قد سبقتها بوثبات كثيرة ، أضنتْ قدمها بحثاً عنى .. ولم تتوقع أن تجدنى بالأخير إلى جوار بساط الخضار بالسوق ، ولا أنا كنت أعرف لما ساقتنى قدماى إلى هناك ، ربما لأنه لم يعد لى مأوى سوى كنفها .. لا أعرف ! .

ما إن وافتنى حتى إلتقفتنى إلى صدرها .. تُكفكفُ نهنهتى ونشيجى اللذان إنفجرا دون قياد ، لململتْ بساطها قبل ميعاده .. وبذراع إرتخى حانياً على كتفى ورأسى عادت بى إلى الدار ، فثمة حديث طويل سَيَهِلّ .. وبكاء لا تعرفُ متى ينتهى .

حاولتْ أن تُطعمنى أولاً .. لكنى أبيتُ دون أن توافينى بالأمر كاملاً ، لم تكن تعرف من أين تنطلق والبدايات كلها شائكة ، غير أن رمقاتى اللافحة ككرابيج ثخينة جعلتها تُبادر بالحديث سريعاً قبل أن يتفاقم الأمر ، طوقتنى بذراعها ، ثم قالت ..

- **حبيبتى يَنُّور ، لم نجد أنا وأملكِ جدوى من الإفصاح لكى عن خبر كهذا .. سوى أنه سيكدر عليكِ حياتك من آن لأخر .**

فرمقتها فى لهف .. أستجديها أن تبدأ ، مهما كان ما ستنطق به ، وهـو الأمـر

الذى صعَّب عليها المهمة ، غير أنها تمالكت زمام روعها فقالت ..

- **لم يكن من الرجال من هو يناظر أبيكِ فى حبه وحنانه ورعايته ، غير أنه تعرقل فى بادئ حياته بعثرة خبيثة كدرت عليه عيشة .. عثرة قد يقع فى شِراكها الكثير من الشباب ، وجاءته فرص جمة للنهوض منها غير أنه لم يحاول ..**

وندت عن صدرها تنهيدة عميقة ..

- **لقد أُبتلى أباك بتعاطى المخدرات .. قبل حتى أن يتزوج أمكِ .**
- **مخدرات ! .**

كان من اليسير أن أعرف المخدرات .. فهذا المصطلح ذائع ببلادنا ، لا أعرف تأثيرها .. لكنى كنت أعرف أنها شيئ مضر .

- **حقاً ، وهذا ما أخفاه عن أمكِ ، بيد أن الأمر ما كان يستعصى عليها لتفطن له .. أسفرته بعد عدة أشهر من زواجها ، فلم تتقبله بأى حال من الأحوال .**

إبتلعت ريقها ثم أردفتْ ..

- **لا تُصدقين أن أبيكِ كان فقيراً ، هو من عائلة وثيرة .. ورث عنها دار وأرض رحيبة ، غير أن أمكِ أبتْ أن تبقى فى هذه الدار بعد عام واحد من ميلادك ، هجرته إلى هذه الدار التى كنتم تسكنونها ، ورهنتْ عودتها إلى داره بإقلاعه عن هذه الآفة التى كادت أن تودى بحياته لعدة مرات ، لكنه كان أضعف من أن يتملص من براثن المخدرات ، تفاقم الأمر سوءاً وتدهورت حالته .. وأمكِ ترفض أن تعدل عن قرارها ..**

وفى أخر أيامه لوحظ أنه يحاول الإضرار بحاله أكثر من مرة ، تارة بجرعة زائدة ، وتارة بنصل حاد قطع به أوردته ، وأشياء أخرى ، إلى أن إنقطعتْ أخباره لعـدة أيام .. تلك التـى كانت ترتع بـين كل

لفيف للصغار أو الكبار ..
وفى صباح قاتم بوغتنا بمن يُخبرنا بأنه مات غارقاً فى البحر الكبير ، أخبرنا بعض رفاقه أنه صبيحة يوم غرقه .. كان فى حال لا يُرثى لها من اليأس والخدر ، إستأجر قارباً .. وجأر على متنها بملئ فيه بأنه لن يعود لهذه الدنيا القاسية ، وطفق ينوح ويبكى .. ويغمغم بإسم إبنته " يَنُّور " ، التى لم يرها سوى بضع مرات .
وقيل أن رفاقه وجدوا القارب بعد يوم واحد من هذه الواقعة سائحاً عند الضفة .. يتقاذفه الموج الهادر ! ..
باءت كل محاولات إلتقاطه من الماء بالفشل .. ولم تُسفر بجدوى تُذكر ، لم يُعثر على جثمانه .. أو شيئ من أثره .
وهنا سكت الكلام المباح ، أطرقت خالتى نعمات فى أسى ..
- **تعنين أن أبى كان مدمناً ، ومات منتحراً ، ولم يُدفن فى قبر ! .**
هذا الذى لم تُورثنى أمى عنه درهم ولا دينار .. سوى سيرة طيبة ، دوماً ما كنت أزهو وأفتخر بها .
وكأنها تقرأ أفكارى قالت ..
- **على رسلك حبيبتى .. هوِّنى على نفسك ، فإن أباك رحمه الله كان بحقٍ مدعاة للزهو والفخر ، أنا لم أكن عابثة حين أنبأتك بأنه ليس من الرجال من يناظره ..**
فما لا يعرفه سواى أنا وأمكِ .. قد يشفع له ! ، فحينما منعته أمكِ من رؤيتك لشهور مديدة ، وساعدها خالك هلال فى هذا القرار كثيراً عنتاً ونكاية به .. بلغ منه اليأس والإكتئاب مبلغاً عظيما ، كره معه أن يبقى فى هذه الدنيا دونك ، فآثر أن يرحل عنها بعد أن يترك لكى ما يكفيكِ غدرها ووعثاءها ..

إن أبيك قبل موته بيومين كان قد إنتوى أمراً لأجلكِ .. فأنفذه ، لقد باع أرضه وداره لعمك .. وأجمع كل ما له فى هذه الدنيا فى وديعة عظيمة تركها لأجلكِ فى البنك ، فقط حتى تفتخرى به .. ولا تذكرينه سوى بالخير .

فنظرتُ إليها فى أسى وألم مكبوت ..

- **ليته بقى .. وما ترك شيئاً .**

ثم أطبقتُ عينىّ .

شعرتُ بشيئ قاسٍ ومختلط يجوس فى صدرى " **هل كان أبى حقاً شخصاً عظيماً ؟ .. أم هشاً محبطاً أطاحتْ به الخطوب .. فألجأته إلى الإنتحار ؟! "** .

كانت خالتى نعمات تحاول أن تُرسخ فى نفسى أنه بذل لأجلى حياته وماله .. غير أنى لم أشعر بجلال هذا البذل والتضحية ، من فينة لأخرى كانت تزهو لأجلى بأشياء مائزة فيه .. تجعلنى وهماً أفوق بنات جيلى ، قالت لى ذات مرة ..

- **أتدرين حبيبتى .. أنتى أَثرى صبايا هذه البلدة .**

فتلونتُ حدقتى صاغية ..

- **فى الواقع هم أثرى منى بكثير .. بأبائهم وأمهاتهم .**

كنت أرى طه ويوسف وسارة وهند ووسام وغيرهم الكثيرين أثرى وأغنى منى .. كنتُ أفقرهم وأبأسهم ، برغم أنى الوحيدة التى أملك حساب فى البنك ، ومصروف شهرى باهظ .. لا أعرف عنه شيئاً .

وهنا قفـزتْ فى رأسى " **وأين هذه الثروة التى يدعونها ؟ .. كيف تطالها يدى ؟** " ، فباغتتنى خالتى نعمات بأنها جميعاً فى يد جدتى .. فهى حاضنتى بعد أمى ، " **أهٍ لو علم خالى بأمرها !** " .. لقتلها من فوره وتسلم حضانتى ، وتفرغ لإنتهابى على أسوأ ما يكون .

ومن يدرى بأنه لا يعلم بهذا كله .. ويدبر للجريمة الكبرى ! ، قتل جدتى ثم قتلى .. أو قتلنا معاً ! ، أليس هو أول من غادر دارنا .. بعد أن جاءه أنباء إحتراقى داخلها ، لم يحاول حتى إنقاذى .

لعب الشيطان كثيراً برأسى على أسوأ ما يكون اللعب ..

ربما كان خالى هو المدبر الرئيسى للقطيعة التى حالتْ بين أمى وأبى ، قد يكون هو من أعطاه أول جرعة مخدرات .. وأعطاه منها فيما بعد المزيد ثم المزيد ، حتى أدمنها ! ، فهو يعلم أن أبى كان ثرياً .. وبموته مسموماً بالمخدرات سأرثه أنا وأمى ، وربما هو من أغرق أبى .. فلم يمتْ منتحراً كما يشيع بين الناس ، وليس من الصعوبة بمكان أن يتخلص فيما بعد من أمى ثم جدتى ثم أنا ، **" أووف .. ما هذه القائمة من القتلى "** .

لم أكن أعرف إلى أى ضفة أريد أن أرسو ..

أن يكون خالى قاتلاً ؟ .. هو بالفعل حاول ويريد قتلى ! ..

أن أُزيل عن أبى وصمة الإنتحار ؟ .. لا أُنكر أنها تؤرقنى وتُشعرنى بالأسى والخزى ..

أن أجد مبرراً أكره به خالى وزوجته وجدتى وأبى والدنيا كلها ؟ .. فى هذه الأيام كنت على مشارف أن أكره نفسى معهم ! .

غير أنى وحين أختلى بنفسى وتصفو إلى روحى .. لا أجد ما أكرهُ به أبى ، لو كان يستأهل المقت .. ما رزعت أمى فى نفسى حبه لدرجة الزهو والإفتخار ، أمى لا تكذب .. لم تر فيه يوماً زوجاً أو أباً باطلاً ، هو فقط من جملة كثيرين لم توافى الدنيا طالعهم ، **" أنا لم ولن أكره أبى أبداً ، أحببته كما لم تحب صبيّة أباها "** .. تلك الحقيقة التى لم أستطع إنكارها .

وعلى خلفية هذا الإعتراف ، جالت رأسى إلى ذلك الحين الذى حكت لى أمى فيه .. أن أباها كان يعمل طحَّاناً فى ماكينة لطحن الحبوب الزراعية ، قالت أنه كان كثيراً ما يصطحبها معه إلى المدينة فى سرار كل شهر .. لشحذ

أسنة المدقات التى كان ينقرُ بها حَجَرىّ الرحى ، لإذكاءهما وتعميق نُقَرِهما ، وهو الأمر الذى كان يساعده كثيراً فى سحق حبوب القمح والذرة وما شابه على نحو جيد .. وتحويلها إلى دقيق يخلو من الشوائب والعوالق .

وفى كل روحة كانت زوجته ، زوجة أبيها .. تقف لهما بالمرصاد حائلاً دون ذهابها ، تعترضُ بشدة تنكيداً لأمى ونكاية بها ، ولأن جدى كان يلتهى فى يومه هذا بمهمة شحذ القواديم والمدقات .. فما كان يجلب لها رزقاً ، علاوة على أنه كان يُعد لهذه السفرة قبلها بخمسة عشر يوماً .. كان فى كل يوم يأتمن أمى على عشرة قروش ، لتكتمل إلى جنيهان ونصف هما تكلفة هذه الروحة وسن القواديم .

وبرغم تذمر زوجته ما كان جدى ينصتُ إليها أبداً .. يدعها تبغبغ وتلغو ، وفى الصباح مباشرة ، وبرغبة أمى.. كان جدى يُحمِلُها حِزمة من إثنى عشر قادوماً مختلفة المقاسات ، محزومة بلفافة من الخيش وموثقة بحبل من الليف ، كنوع من مشاركته أعباء اليوم .

وما إن يصلا إلى المدينة حتى يدعا القواديم لدى إحدى ورش الحدادة .. ثم يصطحبها فى جولة إلى الأسواق ليُفرج عنها ويُدخل الفرح إلى سريرتها ، وذلك أنه كان مُدركاً صعوبة أن تعيش صغيرة فى كنف زوجة أب ، وما يلحق ذلك من مآسٍ ووقائع أليمة .. قد لا تصل إليه أنبائها ، لذا كان لابد من نزهة كل شهر .

وفى السوق كان جدى يبتاع لها حلوى بلح الشام وفاكهة العنب أو الجوافة .. ثم يذهبا إلى مطعم شعبى ليتناولا إفطارهما وما تسنى من حلوى وفاكهة ، قالت لى أمى أن جدى كان ينظرها طويلاً وهى تأكل وتتنقل عيناها بين المارة فى بهجة وسرور ، ونشوة فائقة ! ، وما بين الفينة والأخرى يربت على كتفها ويمسح رأسها فى حنو ، ثم يدعها ترقب السابلة والحوانيت والباعة الجائلين .. ومنتوجات المدينة المبهرة ، وحديث النساء فى روحاتهم

وغدواتهم الذى لا ينقطع .
كان يزهو كثيراً عندما تومئ إليها صبيّة من صبايا القرية ، الوافدين إلى المدينة .. فى غبطة وغيرة ، قالت أنها كثيراً ما كانت تلتفتُ بقبيل المصادفة إلى أبيها فتجده شارداً .. تتوشح أساريره بأتراح الدنيا وتقلبات الزمن ، وحينما كانت تسأله عما به .. كانت إجابته دائماً " **لا شيئ حبيبتى .. فقط سهوت** " .
وذات مرة رأته مشدوهاً بين أم وصغيرتها .. كانت تبتاع لها غطاء رأس على شكل مظلة شمسية ، وما إن رمق أمى تبتسم لرؤياهما .. حتى هب من فوره وإبتاع لها واحدة .
كانتْ أمى تنتظر هذه النزهة من الشهر إلى الشهر .. وفى إثرها يتفاقم تنكيد زوجة جدى لها وله فى آن ، وما قطع عادته معها سوى زواجها من أبى .. ذاك الذى تقت أن أراه يوماً يشبك يده فى يدى ونتجول فى هذا السوق ، سوق المدينة ، بيد أن أمى ما حرمتنى هذا الشعور .. كانت تصطحبنى معها فى سوق كل خميس ، ذاك السوق الذى ودعتها فيه .

(١٧)

لم تُضف حادثة معرفتى لإنتحار أبى كثيراً إلى واقعى .. غير أنها إقتطعتْ كثيراً من ثوابت نفسى ، ليس بالهين أن تواتيك الدنيا كل بضعة أيام بما يزعزع شيئاً .. كنت تعتقد فيه وتصدقه ، وأخرها أنه ليس لأبى جثمان أزوره .. وأنه أودع لى ثروة طائلة .

وكأنها الخطوب تتوالى .. فتصب جامها فوق رأسى ، بئراً عميقاً من النوازل أبلج هوته ، بموت أمى ، فى وجهى .. بعد إنغلاق طويل ، فلفظ بأنباءه السيئة تباعاً .. ولازال ! .

غير أنها كانت بالنهاية أيام ومضتْ .. فلم أركن فى ظلالها كثيراً ، بل تماهيتُ فى حياة الدار .. أشارك المتحدثين حديثهم والصامتين صمتهم ، وللحق لم تنسانى خالتى نعمات بإبتسامات كثيرة عابرة .. كانت تُلوِّن تلك الأيام المتشحة دوماً بألوان قاتمة .

كنت أمكثُ فى الدار لحين عودتها من السوق ، وبصحبتها طه ، عائداً من المدرسة ، تلك التى إنقطعتُ عنها لعدة أيام ، وكان الخميس دوماً يحمل عبق مختلف ، فبرغم ما كان يحمله الصباح ومشهد النسوة الرائحات إلى السوق من أصداء مؤسفة باقية من الماضى .. كان المساء دوماً متألقاً بما يحمله من مسرات تسوقها إلى نفسى خالتى نعمات .

إلى أن جاء خميسٌ .. فساق صباحهُ هند وسارة إلى باب الدار ، بعد أكثر من سبعة أيام لا أشاركهم نزهاتهم بالمدرسة ، جاءتا يتوقان إلى رؤيتى .. وفى يدِ سارة ترقد دُميتى ، تلك التى سلبتها الطائرة الورقية وفرت بها إلى سطح حظيرة الدجاج ، كانا قد إنتشلاها من حطام الدار المبثوث .

فرحتُ لإيابها .. وكأن شيئاً عزيزاً رُدَ بعدما فُقد ، رمقتُ وجهها .. كان بكامل أساريره وطلته ، غير أن شيئاً ما تغير فى جرمها ، بقدر ما هش قلبى

لرؤياها .. بقدر ما تهزهز لأطرافها المحترقة ، تلك الأطراف التى فقدتْ مهامها .. فما عادتْ تستطيع التحليق فى الهواء وأنا أُطلقها أو أُهَدْهِدُها ، شعرتُ بأنها باتت تُشاركنى عجزى ، أنا الصغيرة التى باتت تُحلق بأيدى مكتوفة .. وتحجلُ بقدم عرجاء ! .

إستشفت هند الأتراح وهى تنهض على أعتاب وجهى .. فأومأت لسارة بلحاظ عينها ، فأطلقتْ الثانية دعابة سخيفة أعادتنى لسابق عهدى معها ، فأطبقتُ راحتى على ظهرها .. ألكزها وألدغها ، وشاركتنى هند ، تحاول أن تعلو على ما يجوس بصـدرها من تأثرٍ .. حتى لا تُفسد اللحظة فأعود لأتراحى ، وما كدنا حتى بوغتنا بوسام ويوسف يطـرقان باب الدار .. فإكتملتْ لُمتنا .

إقتادونى إلى الباحة الخارجية .. حتى لا تُثرثِر هوجتنا أثاث الدار ، وألفيتُ سارة وهند تجُرانى إلى الركن البعيد .. ظناً أنى لم أفطن لمحاولتهما مُواراة دارنا المحترقة عن مرمى بصرى ، لكنها أبداً ما غابت عنى ! ، أذعنتُ إليهما منقادة حتى لا أُفسد فرحتنا ، ومن لعبة إلى لعبة طاحتْ أيادينا وأرجلنا ، وفى غمرة إنكفائى إلى الحائط بلعبة " الغُماية " .. أفرجتُ يدىّ المكتوفتين على عينى لأجدُ طه يلمس الحائط ليُنهى نوبة فراره ، أفزعنى ، لكنى فرحتُ لإنضمامه إلينا ، وألفيته يهمس فى أذنى " **أمى جلبتُ لكى لُعبة من السوق .. هى تنتظرك بالداخل** " .

هرعتُ إليها فوجدتها فى صحن الدار .. تحمل دُمية بلاستيكية على هيئة عروسة فى رداءٍ زاهٍ كالصبايا ، حينها جفلتُ ، فهتفت ..

- **دُميتى .. أين دُميتى ؟! .**
- **لا تفتزعى .. هذه هى .**

وأشارتْ إلى قدمى ، أطرقتُ .. فوجدتُ قدمى راسية فوق باطن الدمية ، إنزحتُ فوراً .. أشعر بألم شديد أنى لم أعن بها حتى سقطتْ أسفل قدمى ،

كيف لم ألتفتْ لصراخها وأنا أسحقها ؟! ، سمعتُ همهمة بالجوار ، فإلتفتُ .. لأجد الصبايا يرمقننى فى أسى عند باب الدار ، كادتْ عينى أن تستعبر .. لولا أن خالتى نعمات تداركتنى ..

- **لا تفجعى .. هى سليمة لم تتأذى .**

ورفعتْ راحتى بالدُمية البلاستيكية ..

- **اليوم باتتْ لكى دُميتان ، دعى هذه لترتاح فقد تعبتْ كثيراً .. ولتلتهى بصديقتك الجديدة .**

وأخذتْ الدُمية القماشية ، وزجتنى إلى الصبايا ، اللائى إستجبن سريعاً .. فإنتزعن يدى إلى خارج الدار ، ثم إلى الساحة الشعبية حيث يلعب الصبية .

كانت الحياة تُلقِننى دروسها تباعاً ، تُلقينى إلى جديدها قبل أن أودع قديمها ، دُمية جديدة تحل محل دُميتى القديمة التى سلبتها الطائرة ، كما حلتْ الدُمية القديمة محل دُمية أخرى ، أَقْدم .. سرقها خالى إلى قبوه ، بيد أنى ما شعرت يوماً بأن ما تأتينا به الحياة .. قادراً على محو كل قديم عزيز إحتفر فى ذاكرتنا ، لم يكن الشأنُ شأن الدُمية القديمة .. لكن ما ورائها من ذكريات وسطور .

لهذا ، وبذكاء الأمهات .. دفعتنى خالتى نعمات برفق إلى أن أتعايش مع كل جديد ، وأن أحتفظ بكل قديم .. دون أن يُثيرنى أو يُحرك أتراحاً من شأنها عرقلتى ، وشيئاً ما إقتنعتْ .

فى الساحة ، وعلى مقربة من الزراعات وخط السكة الحديد ، وقبالة شاطئ البحر الكبير .. ذهبتْ أحلامنا هنا وهناك ، بين الماء والرمل والحصى .. ركضنا ووثبنا وتدافعنا ، إصطفكنا وصرخنا وقهقهنا ، حلقنا .. وكأنها أخر ملهاة لنا فى الحياة ، وإنضم إلينا الكثير من الصبية والصبايا ، هنا شغف الصغار اللامحدود ! ، لم تفارق الدُمية الجديدة راحتى .. طفقتُ أقذفها إلى

الهواء ثم ألتقطُها ، لهتْ معنا على نحو لامعقول ! ، وبين فينة وأخرى ، كنت أتحرك بعيداً دون إرادة .. ثم أقفُ لأنتبه ، هذا البحر الذى إبتلع أبى.. وهذه أول مرة أمرح فيها بعد موت أمى ! .
تعبنا من الركض والوثوب لأكثر من ساعتين .. فتراخينا ننتهب أقساط من الراحة ، تسامرنا فى أشياء كثيرة ، وجرتْ على ألسنتنا حكايات صبايا البلدة .. إستهلكنا سيرتهم كما يجب أن تُستهلك ، وأوقفتنى طويلاً تلك الصبية التى جاءتنا هند بحكايتها .. وكيف أنها إنتحرتْ بـ " حبة قمح " لا يعدو حجمها قدر حبتين رمل ! ، **" حبة قمح تُزهق روح ! "** ، وفى ظلال سيرتها .. نهض وحش ما ينفكُ يرتع فى رأسى ، الإنتحار ! ، فتجهمتْ أساريرى .
تداركتْ سارة الموقف ، تعقلتْ تلك النزقة على غير عادتها .. فقالت

- **معلمة اللغة العربية لا تنفك تسأل عنكى يَنُّور .**

فتعجبتُ ، فأنا حتى لا أعرف لنا معلمة للعربية .. لفرط من تداولن على فصلنا الدراسى ..

- **أيهن ؟! .**
- **تلك التى ترتدى دوماً رداءاً أفرنجياً .**
- **كلهن يرتدين ذات الرداء .. أفرنجياً ، وهل ثمة من توافينا بجلباب وطرحة ؟! .**

فإنفجر الصبايا يضحكن ضحك هستيرى .. حتى توردت وجنتىّ سارة حرجاً ، فإبتدرتْ ..

- **أنا لا أعرف ، فلتأتى .. وستعرفينها .**
- **لن أذهب لهذه المدرسة تارة أخرى .**

وهنا تدخلتْ هند ضائقة ، توجه حديثها إلى سارة ..

- **ظننتُكِ عاقلة ، لمَ تُراوغين كالثعالب ؟! .. يَنُّور ليست بالغبية .**

ثم أطلقت حديثها نحوى ..

- **كلنا نريدكِ أن تعودى إلى المدرسة ، أضحت أيامنا ثقيلة سخيفة بدونك ، ألم ينبو إليك أن ذاك المعلم ، الذى أزعجكِ .. قد إنتقل من مدرستنا ؟ .**
- **حقاً ! ، وأنا السبب ؟! .**
- **لا أعرف .. لكننا بوغتنا بمعلم أخر يلج إلى حصته ، وهو من أخبرنا بأنه إنتقل ، أما عن أمر معلمة اللغة العربية التى جاءتكِ به هذه المتحذلقة .. فليست وحدها من تتوق لرؤيتك ، جميع المعلمين سألوا عنكِ .. وعلى رأسهم المعلمة " أفنان " مديرة المدرسة .**

أخذتنى الأنباء السارة فى شرود طويل .. جعلتنى أُفكر جدياً فى أمر عزوفى عن المدرسة ، ويبدو أن الأمر لا يخلوا من لمسات خالتى نعمات الساحرة ، تُرى ماذا قالت لهم هذه الداهية ؟! ، كانت أفضالها وعجيب صنائعها تتراكم فوق رأسى .. وما من سبيل لأوفيها .

وبغتة قفز صدرى من موضعه ، فتلفتُ مذعورة لطه .. ذاك الموتور الذى قطعت صرخته شرودى ، إنتفض كالملسوع هاتفاً ..

- **كفى .. ما ينبغى أن نبقى هنا لأكثر من ذلك ..**

إفتزعت " **ماذا دهاه هذا المجنون ؟!** " ، لكنى فطنتُ للأمر بمجرد أن أرسلتُ ناظرى إلى حيث كان يمعن مرتاعاً ، كان خالى هلال عند ناصية الطريق .. وبحوذته أحد الصبية الذين إنضموا إلينا أثناء لهونا ، كان يُومئُ ببنانه نحونا ، أرسل ورائى هذا الباغى ، عامداً .. من يُراقبنى ويترصد خطواتى ، ولو كان يعلم فى يوسف إبنه ما قد يُفيده فى مهمته .. لإستعان به ، غير أنه يُدرك مدى حبه لى .. والذى لن يدفعه يوماً إلى الوشاية بى .. مهما كانت الإغراءات ، يوسف ذلك الذى إنضم إلى صحبتنا مؤخراً .. فتجرع ثمناً لهذا الكثير من الإهانات والصفعات ، فتجشم عناء كل هذا

صابراً .. لأجلى .
كان قُرب خالى على هذا النحو يُنذر بخطب ما .. ربما يقع بين فينة وأخرى ، فلدى الرجل قائمة من الأسباب تحدوه حثيثاً لقتلى ، القبو وما فيه .. والذى يظن وهماً بأنى تنبهتُ إليه ، وحتماً سأفشى سره ، والوديعة ! .. تلك البلية التى أهدانى بها أبى قبل فراره إلى الموت ، وربما أشياء أخرى لا أدرك ضرورتها بالنسبة إليه .
ركضنا جميعاً .. كما لم نركض فى حلقات لهونا بالساحة ، وركض يوسف معنا دون أن يعن بأبيه ، راوغتُ ذاك الصبى الذى أرسله فى إثرنا .. حتى تمكنت من الفرار بعيداً عن مرماه ، بيد أن أفكاراً جامحة رتعت برأسى ، قد ينقضُ الرجل على دار خالتى نعمات ، منتهكاً حُرمتها.. فيخطفنى عنوة ! ، من ذا الذى يملك أن يمنعه عن فعلها ؟ ، ما الذى يحدوه أن ينتظر .. فيُرسل من الصبية من يرقبنى ؟! ، لماذا يُهـدر وقته ؟ ، ماذا يجنى من وراء هذه الأفعال النزقة الصبيانية ؟! ، تُرى من هذا الذى يقف حائـلاً بينى وبينه ؟! .
لابد وأنها جدتى ، أليست بحاضنتى .. كما أخبرتنى خالتى نعمات ؟ ، حقاً هى وحدها من تملك زمام أمورى ومقاليد حياتى ، **" رحماك ربى بها "** ، لا ريب أن خطراً ما ينتظرها ، لن يتركها .
ما بين يوم وليلة .. تحول مقتى لها إلى شفقة عليها ، لقد رفع العقرب ذنبه وَحَدَّ إبرته ليلدغها ، مهما كنت ساخطة عليها .. لم أكن أبداً لأرتضى أن تتأذى بسببى ، لكنى وإلى ذاك الحين لم أكن أملك ما أبذله لأجلها .. فكلانا يترقب نفس الخطر .
عدنا إلى دار خالتى نعمات .. وقصَّ طه عليها ما جرى ، وهنا كانت المفاجأة ، لم يرسل خالى من يرصدنى فقط .. بل بات يُدبر لى المؤمرات ، علمتُ من خالتى نعمات أنه كان وراء قرار إدارة المدرسة بإستدعاء أولياء الأمور ..

بعدما رشى المعلمين وعلى رأسهم مديرة المدرسة ، كانت حيلته أن يُحرج خالتى نعمات ، التى سترفض الإدارة بالطبع ولايتها .. فتضطر حينها أن تُسلمنى إليه يداً بيد ، وخاصة بعدما أبتْ جدتى أن ترضخ لإرادته .. ذاك الذى يتحيّنُ الفرصة لردى إلى داره عنوة ، فباءت جميع محاولاته معها بالفشل .

وما هو أكثر من ذلك وأشده نزقاً .. أنه هو ذاته من ساق هذا المعلم البليد .. ليثير بحماقته فى حضورى وعلى مسمعى نبأً أكل عليه الزمن وشرب ، إنتحار أبى ، لتحدث الوقيعة بينى وبين خالتى نعمات ، حينما تؤكد لى الخبر .. فأنفر من دارها نازحة إلى جدتى يحدونى الغضب ، والرغبة فى معرفة الحقيقة ، فيتمكن هو منى ، أفانين صبيانية دفع لأجلها الكثير ، وأفعال لم أكن لأتصور أن يقترفها الولدان فى الروضة .. لكنها أتت بأفضل ثمارها ، حاربنى بذات أسلحتى .. أسلحة الصغار ، فنال من سكينتى .. وقض مضجعى .

بدأ الخوف يجوس بضراوة فى صدر خالتى نعمات ، ومع هذا الخوف لاح لى خوف مماثل ، عرفته بعد أن رحلت أمى مباشرة .. أن تصحو يوماً فلا تجد لك ظهر ولا سند ، بيد أنى وبرغم زهد يَدِ خالتى نعمات وقلة حيلتها أمام هذا الطوفان الكاسح .. تشبثت فى ردائها ، هى أرملة ضعيفة .. وأنا الأضعف ، لا تملك القوة لحمايتى .. وانا لا أملك أملاً أعيش به لغدٍ ، كانت أسوأ الإحتمالات لكلينا أن يصيب جدتى مكروه ، حينها لن تملك الجسارة لإستبقائى .. وسيكون الموت أفضل ما قد ينتظرنى .

كلها أمور كانت مؤرقة .. أثارتها تلك الواقعة ، وما بين خوفى على جدتى ورجائى فى جَلِدِ خالتى نعمات ، وأثقالى التى بدأ عاتقها ينوء بها .. بتُ أنتظر شيئاً مريباً تطويه الأيام لى ! .

(١٨)

فى غداة يوم الجمعة نفرت خالتى نعمات إلى سوق المدينة حيث " وكالة الخضر " لجلب بضاعة الأسبوع ، وبصحبتها طه كعادته فى هذا اليوم ، أما أنا فقد آثرتُ المكوث بالدار .. فمشقة هذا اليوم لا تحتمل أن تقتادُ السيدة فى ذيلها صغيران ، لا يملكان حتى تدبير أمرهما .

قضيتُ الساعات الأولى فى اللهو ما بين صحن الدار وباحته ، تكهنتُ أن تزورنى سارة أو هند .. لكن أيٍ منهما لم تأتِ ، مر الوقتُ بطيئاً .. وما توقعتُ أن يكون اليوم مملاً وطويلاً على هذا النحو ، لم يكن كتلك الساعات التى كنت أقضيها فى كنف دارنا ، حينما لم يكن صدرى يمتلئ من رحابة جدرانها .. حتى توافينى أمى بقدومها السريع .

" **دارنا !** " ، خايلتنى للحظات .. فشعرتُ برغبة لحوحة فى إلقاء نظرة سريعة عليها ، تلك التى باتت أطلال ميته ! ، رمقة واحدة ولو من بعيد ، فمنذ إنتقلتُ إلى دار خالتى نعمات .. آثرتُ ألا تقع عينى على بقاياها ، ولو بقبيل المصادفة ، فجراحى لم تكن قد إندملتْ بعد .. وما أظنها ستُشفى ! .

واربتُ باب الدار بحجر ثقيل حتى لا ينغلق .. ثم خطوتُ مترسلة إلى ساحة دارنا ، هى فى الجوار .. لا يتطلب المضى إليها سوى بضع خطوات .

بالإقتراب من دارنا وللوهلة الأولى .. يُبهتك إنخسافها ! ، يخايلك وكأنها مرتدمة إلى أنصافها تحت الأرض ، فى الباحة وحول الدار بقايا طين متجمد مختلط برماد محروق ، بسهولة تستطيع أن تتكهن أن هذه الأخاديد السوداء المحفورة بالأرض كانت لدفقات ماء .. تسربل بين خشب وقش محروق ، بائد من نار ناشبة ، فساق معه سفاف من الرماد والركام الأسود .

مزيد من الإقتراب .. تتكشف الدار أولها وأخرها ، هالنى جداً ما أحدثته النيران بالشرفات والباب العتيق ، كل شيئ تآكل ، بقايا محترقة كانت

بالماضى ناهضة رغم قِدَمِها ، تقدمتُ خطوة أخرى .. فشعرتُ بهجوم ثقيل يجثو على صدرى ، كل شيئ هنا يُذكرنى بأمى ، بهذه الدار التى شب فيها عودى ، المشاهد تتداعى .. هنا ضحكت وهنا بكيت ، وهنا كنت أنتظر أمى ، وجدران كثيرة نقشتُ علي أديمها أحلامى البيضاء .. بمداد من الفحم ! .

لم أحتمل الوقوف طويلاً ، المكوث هنا يرجع بى كثيراً .. إلى أيام لا أقوى على إحتمال مشاهدها ، كادت نفسى أن تجهش .. والعبرات هاهنا قد أتت على أعتاب عينى ، فشهقت شهقة مكروبة ، جاءت على غير إرادتها .. فأغلقت الأبواب حتى لا تتسربل دمعاتى ، ثم هرعتُ متوجعة إلى دار خالتى نعمات .

وهناك كانت المفاجأة تنتظرنى .. لقد إنغلق الباب ! ، وقفتُ حائرة للحظات .. ثم تحريت عن مدخل أخر للدار ، غير أنى ما وجدتُ سبيل للولوج لا شرفة ولا باب ، كلها كانت موصدة ، دُرتُ حول الدار وتمعنتُ نواحيها .. فلم أجد تلك الثغرة التى إحتفرها الزمن بدارنا ، ثغرة الدرج .

لأول مرة أشعر بهذا التيه والحيرة ، تذكرتُ حيرتى فى الخلاء .. كانت أهون ، كل الجهات كانت تُفرج أبوابها .. أما هنا فأنا مجبورة على الإنتظار فى مكان بعينه ، وكأنه السجن دون قضبان ، لم أملك سوى الركون إلى سفح جدار ظليل .

الوقت يمر ومكوثى يطول .. رهينة إلى أجل لا أعلمه ، رغم حيرتى البادية لم يسألنى أحدٌ عن خطبى .. الكل يلتهى بحاله ، لم يلتفتْ أحدهم إلى الصغيرة التى أحرقتْ دارها .. وتسولت سكناها عند الجيران ، تمعنتُ فى سحناتهم " **أينفرون منى .. أم هم بالأساس منشغلون ؟!** " ، لم أجد بالنهاية سوى الإذعان .. فإستسلمتْ .

شعرتُ بأصوات غريبة تنبرى من جوفى ، أزيز وقرقرة ، وداهمنى ثقل

رزيح فى معدتى ، أريد أن أقضى حاجتى .. ولكن كيف ؟! ، وعبثاً ذهب ناظرى بطول الحارة أولها وأخرها .. أين عساى أن أجد محلاً هنا لأتغوط فيه ؟ ، لم أجد سوى الصبر سبيلاً .. فكففتُ رجلىّ وربطتُ بيدى على بطنى ، لكنى لم أطق .

فنهضتُ وظللت أذرع جوانب الدار عدة مرات .. علّ هذه الآلام البارحة أن تفارقنى .. دون جدوى ، الأثقال تهبط إلى أسفل ، وهو الأمر الذى حدانى إلى الركض حيث الساحة القريبة .. علّى أتوارى فى بعض الزراعات المتاخمة فأقضى حاجتى ، لكنى وجدتُ الساحة غارقة بالصبية .. وأخر ما كنت أتصوره أن أفعلها على مرآى منهم .

الأثقال وكأنها أطنان .. تجبرنى أن أقعى إلى أسفل ، شعرت وكأن الأمر وشيك الوقوع " **ليس إلا دارنا المحترقة** " ، هممتُ إليها .. لكن الأمر لم يحتمل ، لابد أن أُفرغ معدتى الأن .. والدار فى نهاية الشارع ، لم أملك حتى الوقت للوم نفسى أنى قطعتُ هذا الشوط الطويل بعيداً عن الدار ، رمقتُ ممراً قريباً بين الدور فهرعتُ إليها ، رمقة أخرى يميناً ويساراً .. لا أحد ، فأزحتُ سروالى ثم إنكفأتُ إلى جدار بالقرب ، وما كدتُ أفعل .. حتى بوغت بمن يهتف أعلى سطح الدار التى إنكببتُ إلى جوارها .

أقمتُ سروالى مكروبة ، وحاولت الإنفلات من الشارع الجانبى .. فتلقفنى ثلاثة صبية من أصحاب الدار " **كيف حدث الأمر بهذه السرعة ؟!** " .. شعرتُ بأنهم ثلاثة أشباح وليسوا بصبية ، دفعنى كبيرهم بقوة فإنطرحتُ إلى الأرض ، حينها لم أملك الإعتذار أو الفرار أو الهجوم عليهم .. لم أملك شيئ .

دفعوا بجسدى بينهم كخرقة بالية من يد ليد .. لكم وركل وصفع ، وفى أذنى يسقط سبابهم القاذع .. وبيل من إهانات ساحقة ، أحرجتنى

وسحقت كرامتى ! ، وبنهاية الأمر نادى أحدهم على أصغرهم ، ذاك الذى أسفر فعلتى من سطح الدار ، قائلاً ..

– **فلتقض حاجتك فى فمها .. جزاء فعلتها .**

فإنفجر حلقى بصرخات متتالية طلباً للنجدة .. دون مجيب ، وكأن الناس قد صُموا ، حينها لم أجد سوى أن أطبق فكىّ ، وأُحَجِر راحتى على فمى .. غير أن أحدهم تجالد فنزع يديّ وأدارها إلى ظهرى ، بينما فضَّ كبيرهم مغلاق فكىّ .. فأفرجهما قسراً ، وهَمَّ هذا الصغير .. فأنزل سرواله يُسفر فرجه ، ثم طفق يدفق بوله فى فمى ، وما إن إنتهى .. ركلنى ، وفر الجميع .

ما من شيئ يمكن أن يصف ما شعرت به يسرى فى جسدى وروحى حينها ، شتان بين ما يفعله القبر بجسد الإنسان .. وما فعله هذا القَذَرُ بجسدى ، طفق يجول من أنفى إلى أوردتى .. وعبر شراييني نفذ إلى عمق رأسى ، أما عن روحى ، فكفى أن أخبركم بأنى شعرتُ بأن هذا الصغير .. للتو فَضَّ بكارتى ووطئنى .

أوغلتُ فى نوبة هستيرية من السعال والقيئ .. وظللتُ ألفظ ما فى جوفى لا أملك القدرة على التنفس ، صدرى ينقبض فقط ، زفير طويل دون شهيق .. أنفى لا يجد ما يتنفسه ، ليس إلا رائحة بول هذا العَفِنْ .

وهنا ظهر الناس .. كعادتهم فى الظهور دوماً متأخراً ، إنبروا من جوف الأرض .. وكأنها تبتلعهم لبرهات بعينها ثم تلفظهم بعد فوات الأوان ، شعرتُ بقارورة ماء تنسكبُ فى حلقى وأنا ألفظها مراراً ، ويدٌ جاسية تمسح بالماء على وجهى .. ثم إقتادتنى زحفاً إلى دار خالتى نعمات ، وهناك أمام الباب الموصد .. ألقتنى كخرقة بالية ، عفتْ أن تلمسنى .. بعد أن تغوطتُ فى أرديتى ! .

ظللتُ مستلقية فى خدر .. إلى أن قذفتنى الشمس بحرابها المسننة ، فلوحت وجهى ، وهنا إستردتُ وعيىّ .. فإستندتُ إلى باب الدار ، وفى لحظات

وجيعة كهذهِ .. لا يملك الفرد سوى أن يذرف للسماء دموعاً كثيرة ، يبذلها بسخاء ، ولا أفضل من أن يوارى وجهه عن كل الناس .. يَكِنُّ بما بقى من كرامته فى مكان ما ، لا إعتبار فيه للكبرياء ومثل هذه السخافات .

ساعة كامة دون أن يسترعى قبوعى إلتفاتُ أحدهم .. كخرقة مُلقاة فى قمامة ، إلى أن لاحت خالتى نعمات عند ناصية الشارع ، وما كادت أن تلمحنى .. حتى ألقتُ بأثقالها ثم هرعتْ نحوى ، إفتزعتْ لمشهدى ، تكهنتْ أشياء شتى .. وما توقعتْ أن توافينى مطروحة أمام الدار مغترقة بالماء والقَذَرْ ، أقامتنى بهدوء ، حاولتْ أن تستعلم منى عما حدث .. بيد أن لسانى كان معقوداً ، أبى أن ينطق ببنت كلمة ، ولولا تلك التى جرَّتنى إلى باب الدار ما نبا إليها ما جرى .
أدخلتنى إلى جوف الدار فوراً ، وأَسْجَتْنِى فوق مِهادها .. ثم نفرتْ إلى الشارع قبل حتى أن تُنظفنى .
علمتْ من المارة بماجرى .. فمضتْ مكروبة إلى الدار التى شهدتْ رحابها الواقعة ، ثم هتفت إلى صاحبتها ، فخرجتْ المرأة مذعورة لتجد خالتى نعمات ماثلة أمام باحتها .. تكاد أساريرها تنفجر غضباً ، ففطنتْ للخطب الذى ساقها مكفهرة إلى باب دارها ، وعبثاً ألقتْ خالتى نعمات شكايتها عما إقترف صبيانها .. غير أنها قوبلتْ ببرود جم ورد فاحم ، صرعتها المرأة مُلوحةٌ فى غلظة وسفور ..

- **إن كانت الخفيفة التى تجرعتها صَبيَّتك .. تُضِيمُكِ ، فلدينا الثقيلة .**

جفلتْ خالتى نعمات وغصَّ بريقها .. فإضطربتْ وجحظتْ عيناها ، إعترتها مسحة هائلة من الإزدراء ، لكنها تعلمتْ أنه فى مثل هذه الأحوال ومع نساء كتلك .. فلا خير من الصمت ، لململتْ ثوبها ونفرتْ عن هذه المرأة .. التى شطحتْ سفاهة وسفوراً ! .

هبتْ لاهثة إلى الدار حيث تركتنى .. ثم أنهضتنى إلى دورة المياه وطفقت تزيل ما علق بجسدى من قَذَرٍ وأوساخ ، ثم إستدعتْ الطبيب .. والذى أشار بمداواتى بمطهر معوى وأشياء أخرى ، لأظل طريحة الفراش لعدة أيام لاحقة ، أتلقى الأدوية فى إذعان .. آبية الخروج من عتبة الدار ، يُقلبنى مزيج من الخوف والإشمئزاز ، يحدوانى بين فينة لأخرى أن أميل إلى جانب السرير .. لأتقيئ ملئ معدتى بتمامه .

لم تكن خالتى نعمات أقل جفولاً منى ، فلقد أثارتْ تلك الواقعة فى مخيالها حادثة قديمة .. لطالما جاهدتْ أن تنساها ، وان تمحى أثارها من مخازن ذاكرتها ، برغم أنها لم تجد رابط قوى قد يشى بتشابه الواقعتان ،

وقد بدأ الأمر فى السابق .. إبان إرتباطها بزوجها الثانى والد طه .. ذاك الإرتباط الذى تم فى ظرف غريب ، فقد كانت متزوجة من إبن خالتها عن قصة حب طويلة .. إلى أن جاء هذا الثانى فإختطفها فى سيارة أجرة وهى عائدة من دوامها بالمصنع ، ثم إحتجزها فى شقة له فى ضواحى القاهرة .. وهو الأمر الذى إضطر إبن خالتها أن يُطلقها ليتفادى الفضيحة التى ستلحق به إثر غيابها ، وهنا كان دور زوجها الثانى .. فلقد ألجأها إلى أن تتزوج منه قسراً ، فغيابها جعلها تخشى ذات الفضيحة التى طُلقت بسببها ، إلى أن أنجبتْ طه .. وعادت به إلى البلدة فى ظل قطيعة مع أهلها ، لم يمح أثرها سوى الزمن .

غير أن أكثر ما أحزنها هو ما جاءها عن تلك الفترة التى تغيبتْ فيها ، حينها كان الأهل يموجون بين الفضيحة ولوم الناس ، وعندما جاءهم نبأ زواجها على هذه الشاكلة المهينة .. إنبرى والدها يتشدق لأمها قائلاً " **الحمد لله كُتِبَ كتابها** " ، دون أن يعن بإبنته التى اغتصبت حريتها ، فطُلقتْ عنوة وزوجت عنوة ، وكأنها ذبيحة سيقت إلى النحر قبل أوانها .. وكل ما عنى أصحابها ضرورة أن يُسموا الله عليها .

ولم يكن الزواج نهاية أوجاعها ، فمنذ قرابة الست سنوات وقبل وفاة زوجها الثانى بعام واحد .. كان الرجل قد جن جنونه ، فطفق يصطحب طه ذو الثلاثة أعوام للسير على شريط القطار .. ليعود به فى نهاية اليوم والأورام والكدمات تُغرق وجهه على نحو مثير ، فكان يدعىّ أنه تدحرج من جُرفِ الجسر ، ولما تكرر الأمر لم تجد المرأة سوى أن تستنطق إبنها .. غير أنه كان يرفض أن ينبس بكلمة ، وذاك أن والده كان قد هدده بأن يُلقيه أسفل عجلات القطار لتدهسه .. إن هو باح بالأمر ..

غير أنها وفى إحدى هذه المرات راقبته .. فكان ما رأته كصاعقة كادت أن تُرديها لتوها ، كان الرجل يدعو إبنه للسير على قضيب القطار .. ثم يركله فى مفرق ظهره ليسقط على القضيب الحديدى بجراح دامية ! ، ومراراً يتكرر الأمر .. دون أن يملك الصبى القدرة على الرفض ، وإن فعلها .. كان أبوه بذاته يرفعه عالياً ثم يقذفه على الحديد ! ، حينها هرعتْ الأم إلى وليدها .. ورفضت أن تُسلمه لأبيه تارة أخرى .

وكانت هذه الواقعة مثار جدل وشجار طويل لا ينقطع ، فى كل مرة تسأله عن رغبته فى قتل إبنه .. فيأبى أن يُجيب ، إلى أن جاءها الرد صاعقاً ، الرجل إتهمها بعلاقة آثمة مع طليقها .. ذاك الذى فارقته منذ عدة أعوام ، وفى ذلك كانتْ حجته واهية .. لقد تذرع بأن إبنها أبيض البشرة وشديد الشبه بطليقها ، وأنهما أسمران .. فكيف لهما أن يُنجبا طفلاً على غير شاكلتهما ، ناسياً أن طليقها هو فى الأساس إبن خالتها .. وهذا الشبه قد يكون نتاج عوامل وراثية لا قبل لها بها ، والولد أشبه بجدته - خالتها .. قبل أن يكون شبيهاً بإبنها - طليقها .

غير أن أيٍ من هذه التبريرات .. لم تمنع الرجل عن رغبته اللحوحة فى قتل إبنه ، تارةً بمحاولة إغراقه فى البحر الكبير ، وتارة بإلقامه سلك كهربائى بين أسنانه واضعاً طرفه الأخر فى مأخذ الكهرباء .. لينتفض الولد بالنهاية

غامياً ، وأشياء أخرى لا يقترفها سوى المجانين ، حتى شب الولد يتمنى فى سن صغيرة أن يكبر .. فيدهس أبيه بجرار زراعى ، إلى أن تسبب الصغير فى مقتل أبيه بخمس حبات قمح وضعها له فى كوب الشاى .. وشاء الله أن يموت الرجل وسره معه .

فأزاحتْ خالتى نعمات الأمر برمته إلى طى النسيان .. إلى أن جاءت واقعتى فذكرتها بما كان ، تلك التى ألجأتنى إلى مرض طويل دام شهراً كاملاً .. أتلوى بين الألم وحدة ما جرى ، وليت الأمر إنتهى عند هذا الحد ، رغم ضراوته .. فلقد جاءنى فى غضون هذا الشهر أن ما حدث لى لم يخلو من أفانين خالى وكيده ، حينها أدركتُ أن هذا الرجل لن يُخلى سبيلى .. سوى عند عتبات القبر ، ولا أُنكر ، فإن وجلاً بارحاً تغلغل إلى قاعى .. فبتُ أخشى كل شيئ ، وكل من يقترب ، ساورنى أنه مهما خالجنى الإطمئنان .. علىّ دوماً أن أشعر بالخوف ، والخوف فقط ، فمن هم فى مثل ظرفى عليهم دوماً الإحتياط من الناس .. وأقربهم خاصة ، وترقب الخطر فى كل كنف وزاوية .. إلى حد أنى بين الحين والأخر كنت أستشعر سمائى وهى تنقشع وأرضى وهى تميد ، وتزيد فى ميدها مع كل خطوة أخطوها .. فأشتاق إلى الماضى ، حيث كنت فى عهد أمى .. ألتحف سمائها وأركض على أرضها .

(١٩)

عدتُ إلى المدرسة تارة أخرى ، ولولا عناية السماء وأيدى خالتى نعمات .. ما قامت لى قائمة ! ، وكما كانت ستفعل أمى فى ظرف كهذا .. أخذتنى من يدى ولم تُخلِ سبيلى سوى عند حافة تَخْتِى بالفصل ، ولأجلى هادنتْ الصبايا وأوصتْ المعلمين .. حتى العمال والفرَّاشين ، وبرغم خشيتى ووجلى من هذا اليوم الصعيب ، وشعورى بأنه سيمر ثقيلاً ربما يطول إلى يوم الدين .. غير أن صحبتها لى أبدلتْ كل شيئ ، فمر اليوم سهلاً دون حرج أو منغصات .. مر سريعاً وكأنه نزهة تمنيت أن تطول .

وكسابق عهدنا ، تشابكتْ أيادينا أنا وسارة وهند ووسام ويوسف وطه عائدين كلٍ إلى داره .. حتى صفيتُ أنا وطه نجسر دربنا إلى السوق .

يومها ألفينا خالتى نعمات عند تخوم السوق .. كانت فى طريقها إلينا ، وذاك أن إستفاضتنا فى الحديث أنا وطه أثقل خطونا .. فتأخرنا عليها ، فدفعتها خشيتها لاهثة ، ظنتْ أن خطباً ما قد جرى لى .. فآثرتْ أن تتدارك الأمر قبل أن يُبادرها ، كانت تعرف أن الأنباء تصل إلى خالى تباعاً .. ولا ريب أن قريحته تتفتق عن أمر ما ، لن يتوان عن حكأ مكائده .. ونصبِ فخاخه .

ما إن رأتنا حتى هدأ شطح أفكارها عن يمومه المائجة .. فَرَسى عند محط أقدامنا ، لاحتْ لى وكأنها تتهدل عند جانب الطريق بعد مسير مكروب ، لم ينتظر طه فهرع إليها ، وأنا فى إثره أترجل بأناة ، ألقى بجسده عنوة بين ذراعيها المتهدلتين ، وما إن ألفى إرتخائهما عنه .. حتى نفر إلى الوراء ، وعبثاً قال ..

- **ما بال هذه الرائحة العطنة تفوح من جسدك يا أمى ؟ .**
- **هى عند الله رائحة المسك ، هذه يا ولدى رائحة أرباب الجنة بين أهل الدنيا .**

كان الصوت لأحد البائعين بالسوق .. ممن عهدوا شقاءها وعفتها طوال سنوات مديدة لأجل لقمة العيش ، ويبدو أن طه قد جاد فى دوره .. فبدتْ على أساريره غضون تُنم عن إشمئزاز وتقزز دفين ، فأزاح لى الطريق ، حينها لم أملك منع ضحكة نفرت فجأة .. فإرتميتُ بين ذراعيها أُبدى له قبح ما تفوه به ، غير أن خالتى نعمات لم تكن لتأبه بسخافات صغيرها ، لم تكترث ، أرسلتْ ذراعيها ليرسوان على كتفينا .. ثم ترجلنا سوياً إلى بساط الخضر ، وهناك عرفتُ منبع هذه الرائحة المنتنة .. فأكثر بضاعتها اليوم كانت ثوماً وبصلاً .

تسربلتْ الأيام على ديدنها القديم ، ولا جديد مما قد يُنغص علىّ حياتى .. إلى أن جاءتْ زيارة " أحمد فراج " معلم الرياضيات إلى فصلنا ، ذاك الذى إحتفرتْ صورته فى رأسى وذراعاه يقبضان على جسد زوجة خالى .. يُمارسان الرزيلة فى قبو زوجها المغفل .

فى هذا اليوم جاء يوسف متأخراً ، ولج إلى الفصل على رأس الحصة الثانية وفى عقبه معلم الرياضيات ، كانت ملامحه تموج بأنباء مهولة محزنة ، وبرغم لهفتى لإستبيان الأمر لم أملك أن أسأله .. فأزمعتُ أن أتبيّن ما فى جعبته بعد إنتهاء الحصة ، فلا مجال للهمس فى حضور هذا المعلم الآثم .. الذى يدرك جيداً أنى أسفرتُ فعلته النكراء .

طالعنا المعلم كعادته ممتعض الوجه متغضن الأسارير .. تتعلق شفته السفلى بتلابيب العليا كشفاه القرود ، ألقى حقيبته ودفاتره على طاولة ناهضة بالقرب من الباب .. ثم قذفنا برمقة تنم عن ضيق مضمر ، وكأننا عبيد وإماء فى بلاط جلالته ، رمق لوح الكتابة فوجد صفحته مغترقة بالطبشور والحروف وأشياء أخرى .. فإستدار يبحث بين الصبايا عن أمةٍ تمحى ما علق به ، وذاك أنه إنفرد بين جملة المعلمين بأنه يجعل الصبايا ، خاصة .. يمحون اللوح دون الصبية .

حينها إلتجتْ فى نفسى رهبة غريبة ، ووجدتُ حالى أُرددُ داعية " **ليت الله يكف بصره عنى** " .. فما وجدتْ مقلتاه الذابلتان سواى لتتعلقا به ، حدجنى فى سماجة وإستخفاف .. تلوح على شفتيه إبتسامة غير مهذبة ..

- **تعالِ يَنُّور .. إمسحى اللوح .**

إنتدى وجهى حرجاً بعرق بارد .. ولم أملك سوى الإنصياع ، نهضتُ من تَخْتِىّ ثقلية .. ثم ترجلتُ نحو الطاولة فإلتقطتُ ممحاة الإسفنج ، ثم يَمَّمتُ صوب لوح الكتابة .. وطفقتُ أمحو فى حروف وأرقام ورموز بدتْ متواشجة كبيت عنكبوت كبير ، حينها شعرتُ وكأنى غائصة إلى رأسى فى بحر من الركام الأبيض ، أزيل ما علق بسطح الكرة الأرضية من أدران .. تجمعتْ عبر بضعة ملايين من السنين ، وذاك بمِمْحاة بحجم كف اليد ، طفق اللوح أمامى يمتد ويميل ، كفلاة مُتيهة .. كلما قطعت شوطاً لاحت لى أشواطاً أخرى ، كثبان لا تنتهى .

ألقت عوالق الطبشور بعجاجها على وجهى وأرديتى الرسمية .. كزوابع غبار كثيفة ، غُصْتُ فى لجاج الجير الأبيض حتى لم أعد أملك أن أتنفس .. فسعلتُ عدة مرات ، وهنا جاءتنى أصوات الصبايا يتهامسن .. تطوى همهماتهن ضحكات متقطعة ، مستترة ، وقتئذ كنت قد أنهيتُ محو اللوح كاملاً ، إستدرتُ .. فطالعتنى مسحات الصبايا تنفجر بضحك هستيرى ، هالنى وأفزعنى .. وتخلخلت لصداه ركبتاى ، ولطرافة المشهد السخيف لم تصمدا شفتا المعلم .. فإلتوتا فى إنبعاج تفتر عن إبتسامة سافرة ، ولبرهة خمد الضحك حتى إستحال إلى إبتسامات متفرقة تجول فى أنحاء الغرفة ، حينها طالعنى وجه المعلم بعد أناة .. ساخراً من هيئتى المزرية ، ومعقباً ..

- **لا تحزنى يَنُّور .. هكذا هن المهندسات ، لا توافيهن سوى وأرديتهن متشحة بالأدران .**

فإصطكتْ الغـرفة تارة أخـرى .. تزبد بضحك وكركـرة ماجنـة ، وما كان

الأمر غريباً ، فسخرية معلم الرياضيات من أمنيتى بأن أضحى يوماً ما مهندسة .. أيقظتْ فى نفوسهم هزء وإستياء قديم من جهرى المكرور وتصريحى بها على مسامعهم فى كل روحة وغدوة ، ولاسيما بُرهات الإستراحة .

إغترقتُ حرجاً ، وماجتْ عبراتى فى محجريها .. تبحث مهرباً ، لكنها ما كادتْ حتى هوتْ وذل ركضها على وجنتىّ .. كسارق أردية سقط قسراً فى قبضة الشرطة على مرآى من الجيران ، تصاعد الهرج وتفاقمتْ الضحكات وترامتْ الكركرة هنا وهناك ، وخنع المعلم يحملقُ فى صمتْ .. يرمى برمقاته إلى الصبايا تارة ولى تارة أخرى ، فى تأييد لتداعيات هذه المهزلة ، حينها لم أدر بالمِمْحاة وهى تحلق من يدى ملتصقة بوجهه ، أنا لم أفعلها .. فعلتها يدى متشنجة مغتاظة ، وما أقله إنتقام حيال الهزء بكرامتى وكبريائى ، وما كدت أفعل حتى إنفلتُ لتوى فازعة إلى خارج الغرفة .. أحمل على ظهرى أرطال من الحـرج والخِزى ، جارةٌ فى عقبى صرخات المعلم وسخطه وسبابه ، وما هى إلا هنيهة حتى ألفيتُ يده قابضة على ياقتى .. تسحب أطراف ثوبى عن نحرى لأعلى ، كمن أمسك فأراً هارباً .. فاض منه كيل أهل الدار .

صفعنى بيد كالمطرقة على وجهى ، ثم طفق يكيل لى من الإهانات والتوعدات .. ما تخنع له أصلاب الرجال ، ساقنى يزج جسدى زجاً إلى غرفة مديرة المدرسة المعلمة " أفنان " ، تلك التى ما عهدتها فى السابق سوى أُماً حنوناً .. قبل أن تتلقى رشوة خالى للنيل من مشاعرى ، حين أيدت قرار إستدعاء أولياء الأمور .. لينتهى بإثارة موضوعة إنتحار أبى على مسمعى ، ذاك العرض الهزلى .

ما إن لمحتْهُ ، وهى تجول بين أروقة الطابق الثانى تباشر الغرف الدراسية .. حتى جاءنا هتافها ..

- **أستاذ أحمد .. ماذا تصنع ؟ ، دع البنت .**

ثم هرعتْ إلينا على الدرج يرتج لحمها البدين رجاً ، دفعنى خلالها هذا النزق لبضع خطوات .. حتى إلتقينا عند ردهة السلم ، وهنا قرأتْ المعلمة فى أسارير الرجل علائم سخط وإستياء .. وبقايا طبشور يموج على مسحته ضارباً بهيبته عرض الحائط ، فإجتذبتنى إليها ومالتْ نحوى بجرمها العظيم ، ثم طوقتْ صدغىّ بكفيها الرخيتين .. تمحو بعض عبرات مرتجفة يتعثر خطوها على وجنتى فى خشية ووجل ، ثم حدجته ..

- **ماذا صنعتْ لتقسو عليها بهذه الطريقة ؟! .**

فقص عليها المعلم الفاضل ما جرى من وجهة نظره هو .. بعدما إقتطع من الأحداث وقائع إهانتى ، فنظرتنى آسية لما آلت إليه أخلاقى وحالتى النفسية ، وهو الأمر الذى أوجعنى أيما وجع .. بما يفوق بكثير ما تلقيته فى ردهة الفصل وعلى مرآى من أترابى ، كانت رمقة الشفقة التى لاحت فى عينها كنصل حاد .. مضى فى أحشائى إلى عمق بعيد ، وأكثر من ذلك تلك العبارت التى طيَّبت بها خاطره ، قبل أن تصرفه ..

- **رَحِّبْ صدرك .. إنها يتيمة ، وتعانى ظروف نفسية خاصة .**

فتعكر ماء وجهى وتمزق كبريائى أيما ممزق ، وعزز كل ذلك عبرتان فرا من عينى اللعينة دون إرادة ، سقطتا على كرامتى كاليحموم .. فأبادتا ما بقى منها .

تجرعتُ كل ما قِيل كأساً كأساً ، وفى أناة وإصطبار .. تجلدتُ على شفا الإنفجار ، سرتُ معها إلى غرفتها .. وهناك كانت الطامة الكبرى التى جدعتْ أنفى وسحقتْ هامتى ، فبالنسبة لأمثالى .. فلا أسخف من أن تمنح مسكيناً كِسرة خبز على مرآى من الناس ، لقد إستدعتْ السيدة القديرة ، اللَّماحة ، فراش المدرسة وطلبتْ منه أن يجلب لى حلوى ومشروباً .

حينها فقدتُ صبرى وجلدى .. فإستشطُ غضباً ، خالجنى أن بركاناً قد

إنفجرت فوهته فى رأسى .. وشعرتُ بأوردتى تتمزق واحداً تلو الأخر صائحة ، كانتْ أحشائى تعتصف وتهترئ ..

فإجتاحتنى نوبة إهتياجٍ وغضب عارم جموح ..

لم أتمالك زمام أعصابى فوثبتُ على قدمىّ دفعة واحدة ، مستوحشة .. لم أطق إحتمال هذا القهر الذى إعتمل داخلى ، فإنطلق من حلقى صراخ أعمى .. يتقافز هنا وهناك ، وفى هوجة شعواء ، ورغماً عنى .. تفاقم الأمر وجن جنونى ، فإنتشرا ذراعاى وطفقا يتطوحا بإجحاف .. ليُطيحا بأغراض الغرفة ، فتثرثرتْ عن أخرها .. وشاع الإضطراب فى كل مكان .

حينها صُرعتْ المديرة .. فإنكفأتْ أسفل الطاولة تستصرخُ بالفراش والمعلمين ، تستجدى الدفاتر أن تكف عن تحليقها العابث وإنطراحها الغاشم .. كادت أنصالها أن تجز لحمها المرتهل ، لكنى وقبل أن يحط العجيج بأرض المعركة ، التى أضرمتْ للتو فتيلها .. حلقتُ فوق الزحام إلى خارج المدرسة ، ركضتُ بكل عزم .. وفى ملئ فمى قَسَمٌ بألا أعود لتلك " المهرسة " تارة أخرى .

كانت الواقعة إيذاناً بإنهيارى ، بتفسخ كل قيمة حرصتُ على إستبقائها ، لم يهدأ ثائرى .. تمنيتُ لو أنى ألقمتُ تلك البناية بناسها عبوة ناسفة فأبادتها ، أقل ما فى الأمر سيتخلص الناس من المديرة ومعلم الرياضيات ، سِرتُ غاضبة حزينة أسيفة بعدما إنقطعتْ حبال صبرى ، هؤلاء يظنون أن كل " يتيمة " .. ضعيفة ، تُجيزُ لنفسها الشفقة والعطف .. فأهانونى على أشكال عدة ، تارة حينما تحملوا عنى تكاليف الدراسة ، وتارة عندما أقحمونى على دروسهم الخصوصية مجاناً ، وأخيراً عندما حاولوا إغلاق فمى بحلوى ومشروب " **أنا لست بضعيفة ولا أقبل العطف ، من اليوم سيصير موت أمى مصدر صلابتى ، لن أنهزم لأحدهم تارة أخرى** " ، أقسمتُ أنه كلما تفاقم الطرق على رأسى .. فلن أخرج للدنيا سوى وأنا أكثر جلد وقوة .

جسرتُ الطريق إلى بساط خالتى نعمات باكية ، تتناوح فى صدرى أصداء مشاهد شتى .. أمى ، خالتى نعمات ، زوجة خالى ، معلم الرياضيات ، المديرة ، خالى ، جدتى .. وهنا إقتطع شرودى صرخة أتتنى من الخلف ، كان يوسف ، يتآزف نحوى راكضاً " **ما الذى ساقه ورائى ؟** " ، لازالت علائم السوء ترتع بوجهه .

على بعد خطوات منى تباطأ عن ركضه .. ثم تقدم مترجلاً فى هدوء وأناة ، لم أعن به ولم أسأله عن خطبه .. غير أنه بادرنى بنبأه المشئوم الذى قصم أخر ما تبقى من جسارة وجلد للتو كنت أجمع لمامها ، نطق تتذبذب شفتاه فى بحر من العبرات ..

- **لقد ماتتْ جدتى .**

لم يكن النبأ قد نفذ إلى رأسى ، فحملقتُ للحظات ..

- **ماذا تقول ؟! .**

فإحتربت أساريرى بين الفاجعة .. وما قد ينتظرنى بعدها ، فهمهمت " **لقد فعلها** " .

- **فعلها ! ، تقصدين من ؟! .**

ولازلتُ فى إنغمارى أهمهم " **لقد قتلها** " ، تلفتُ حولى موتورةٌ ثم هرعتُ راكضة دون وجهة محددة .. يُخايلنى أنى سأجده فى إثرى يحمل سكينا مشحوذة تومض ببريق حاد ، أما يوسف فقد عاد إلى داره .. موقناً بأنى ما قصدتُ سوى أبيه " **لاريب أنه هو** " .

جاءنى الخبر كأمثاله على أسوأ ما يكون ، ولا أعرف كلما حاولت إسترداد شيئاً من ثقتى المهضومة .. إنزاح خلفى جدار كنت أطمِئنُ بالإستناد إليه ، " **ماتت جدتى !** " هكذا ظللتُ أكرر غير مُصدقة ، للتو فقط عرفتُ قيمة وجـودها .. كانت أخر ما تبقى لى من رائحة أمى ، كيف لم أفطن لهذا سوى

الأن ؟! ، بعدما خلف موتها فى نفسى جرحاً أخر غائراً .
إسترجعتُ جميع كلماتها ، تذكرتُ أنى لم أكن فى مأمنٍ بدار خالى سوى بعنايتها .. إلى أن جاءت ريح هوجاء فإقتلعتْ جسارتها ، هى لم تُخل سبيلى إلى دار خالتى نعمات .. إلا لتمام إدراكها بالخطر الذى يتربص بى فى دار خالى ، وهو ذاته الخطر الذى أطاح بها .. فأزهق روحها ! .
ليتنى أدركتُ كل هذا .. ما كنتُ لأنكفأ على نفسى سادمة نادمة ، أريد أن أوقظ فيها شيئاً مستحيلاً ! .

(٢٠)

مرت الأحداث سريعاً ..
علمتُ فى غضونها أن جدتى ماتتْ مسمومة بجرعة فاسدة من دوائها .. لم يتحملها قلبها ، فتوقف لتوه ! .
كان كل شيئ يؤكد لى أن أمى لم تمتْ ميتة ربها .. لابد وأنها قُتلتْ ، كما قُتلتْ جدتى ، يداً ضارية آبدة إغتالتها ، كانت أصابع الإتهام تشير بجلاء إلى خالى .. غير أن زوجته طفتْ إلى الصورة ، كلاهما قتلاها بيد واحدة .. فالفائدة أيضاً واحدة ، فما كَشفتْ ستره البنت .. من اليسير جداً أن تكون الأم قد أسفرته سابقاً ! ، " **تآجلا عليها** .. **فأزهقا روحها** " هذا ما كانت تُردده لى نفسى مراراً ، وكانت ملابسات موت جدتى تؤكد هواجسى وتُعززها .
كانت حالتى تسوء يوماً بعد يوم ، وها هى الكوابيس عادت تنتزع النوم عن مقلتى .. فشطحت لما هو أبعد من الواقع ، رأيتُ أبى يخنق أمى .. ثم يثب إلى الماء منتحراً ، وفعلها خالى والشحاذ معاً .. قبضا على ذراعيها وجاءتْ زوجة خالى فنحرت عنقها ، وفى تارة أخرى ألفيتُ جدتى وهى تطعنها فى قلبها .. ثم جاءتْ زوجة خالى فإقتلعتْ رأس جدتى من جذورها .
دائرة من الهلاوس والضلالات .. أطاحتْ بعقلى شتاتاً ، عبثْتْ به لعدة أيام ، وما إنتهى الأمر إلا عندما قذفتنى خالتى نعمات بصدمة أذهبتْ ما بقى من رشدى ، فالمرأة كانت أشدُ وجلاً منى على وليدها ، خشيتْ أن يجن جنون خالى فينتقم منها فيه .. وذاك أنها ناصبته العداء برفضها تسليمى له بعدما إنتقلت حضانتى إليه ، وزِيد الأمر عندما أخفتنى .. مُدعية أنى هربتُ من دارها ، كل هذا جعلها تتقدم نحوى بخطى مرتجفة .. لتهمس فى

أذنى همس الحيات ..

- **حبيبتى ، أكنتى لتظنين يوماً أنى أبتغى أرباً غير ما فيه أمانكِ وصالحك ؟ .**

فقلتُ مندهشة ..

- **بالطبع لا ، ولكن لما تقولين هذا ؟ .**
- **تعرفين أن خالكِ يتحين الفرصة لإقتناصِكِ منى ، وأنه حيال ذلك يُهددنى بالإنتقام فى طه ، إبنى .**

هنا ترقرقتْ عينى ، فتالى الحديث جاءنى قبل ميقاته .. فإختصر كل شيئ

- **وماذا ترتأين خالتى ؟ .**

فتنهدت بعمق ، متوترة .. تزيح عرقاً غزيراً للتو تصبب عن جبهتها ..

- **ثمة سيدة وثيرة من زبائنى ، إمرأة فاضلة ومسنة .. تعيش بمفردها فى دار كبيرة ، ترتع فى رحابها الجمال .**
- **وما شأنى بها ؟!**

وهنا حانتْ المهمة الصعبة ، أطرقتْ المرأة للحظات ، ثم قالت ..

- **هى تتوق لصغيرة ترعاها .. وتعن بها .**
- **من يعن بمن ؟ ، أنا أعنى بها .. أم هى من تعن بى ؟ .**

فسكتتْ مبهوتة ، وطفقت تمسح العرق الناضح بوجهها ، فداركتها ..

- **فهمت ..**

ثم طأطأتُ رأسى هنيهة ، وطالعتها بوجه عجوز .. داهمها الشيب قبل أوانه .

- **لكنى خالتى ما جئتُ لأخدم أحد ، وما قبلتُ المكوث عندك سوى لسابق علمى بما كان بينك وبين أمى .**

لا تحملى لى هماً بعد اليوم .. فمنذ الأن فأثقالى لن يحملها سوى عاتقى .

ثم نهضتُ واقفة .. فربتُ على كتفها المقعى ..

- **بالأخير لا أملك سوى أن أشكرك .. فبدونك لكان الشارع ينتظرنى قبل هذا بكثير .**

فهالنى أنها لم تنطق بكلمة .. لم ترفع حتى ناظرها عن الأرض ، فإرتج جسدى .. ولبرهات شعرتُ أن الدماء ترقأ رويداً فى عروقى ، غير أنى إستفقتُ فأقمتُ عودى عنوة ، ورفعت هامتى عن صدرى .. ثم خرجتُ إلى باب الدار على قدم بدتْ واثقة ، بيد أنها فى الحقيقة كانت خطوات حائرة .. لا تعرف إلى أين الرحيل ! ، هكذا فى بضع لحظات إنتهى كل شيئ ، لم أنظر ورائى ولم ألوى عينى إلى شيئ .. من جملة ما به أقسمتْ ، تساميتُ على كل أوجاعى .. فلا ثمة ما يستأهل عناء التوقف أو الإلتفاتْ .

جسرتُ باحة الدار إلى منتصف الشارع .. ثم توقفتْ ، أطرقتُ أرمق بلحاظ عينى أطلال دارنا البائدة .. نظرتها فى أسف " **ما عاد لى محطٍ أسكنه إلى جوارك** " ، بضع لحظات ثم إستدرتُ نافرة .. مفارقة كل شيئ .

وما كدتُ أفعل .. حتى طالعنى خالى عند ناصية الشارع يتوسط فردين من رجاله ، فغمغمتُ ضائقة " **ماذا أتى بك بحق السماء ؟! .. الأمر لا يحتمل أن تزيد الطين بلة** " .

رمقته يترقب الدار من بعيد ، إلتقتْ عينى بعينه فى نفس اللحظة .. فإصطكتْ ركبتاى ، وما زادنى هلعاً أن رأيته يومئ لرجاله بطرف بنانه ، مشيراً نحوى .. فتآزفتْ أقدامهم لاهثة تدنو منى ، إستدرتُ متوترة لأجد إثنين أخرين يتقدمان من ناصية الشارع المقابلة ، وما هى إلا هنيهة إلتفات موتور ، ما بين اليمين واليسار .. فلم أجد سوى دار خالتى نعمات ، فركضتُ إلى داخلها وأوصدتُ مغاليق الباب من الداخل .

حينها فزعتْ خالتى نعمات ، ألفيتُ وجهها مغترقاً بدموع تنساب كحبات مسبحة إنفرط عقدها .. تحتضن طه بين ذراعيها ، عرفت وقتئذ أن فراقى لم

يكن بالأمر اليسير على نفسها كما خال لى .. كانت مجبورة ! ، لحظة رأتنى والذعر يمزق أساريرى .. فطنتْ إلى أنى بوغتُ بخالى ، عرفتْ أنه بالخارج ، ففزعتْ إلى معصمى .. تَجرنى إلى فوهة فرن قديم مهمل يقبع بركن الدار ، أخرجتْ منه حقيبة خبز من الخيش ، وإبتدرتنى ..

- **إدخلى ها هنا .. ولا تنبسى ببنت شفة .**

فدخلتُ مكروبة .. ثم أوصدتْ الفوهة بحقيبة الخبز الجاف تارة أخرى . حينها كادت الطرقات من الخارج أن ترج الجدران رجاً ، ففزعتْ نحو الباب الذى إنفرج مصراعيه عنوة ، متأثراً بقوة الدفع .. قبل أن تصل إليه ، فإبتدرها خالى وبصحبته رجلان كالبغال ، فناهضته مرتجفة ..

- **ماذا دهاك ؟ ، ألم تتعلم أن للدور حُرمات .**

فباغتها دون أن يلوى إلى شيئ ..

- **أين البنت ؟ .**

وقبل أن تُجيب كان قد أماء إلى رجاله ..

- **إقلبوا هذه الدار رأساً على عقب .. لا تأتونى بدونها .**

فجاس الرجلان فى حشا الدار كالتتر .. يثرثرون كل شيئ ، عاثوا فيها فساداً ، لم يوقفهم صراخ ولا إستجداء .. إقتحموا الغرف فبعثروا أغراضها ، وخاضوا فى الأكناف والزوايا وشرذموا خباياها ، نقبو الحظائر وصعدوا إلى سطح الدار فنفضوا قشها ، إكتسحوا كل غرض نهض أمامهما .. لم يتركوا ركن إلا جاسوا خلاله حتى إنفرط عقد كل شيئ ، وبالنهاية إستسلمت سواعدهم .. دون أن يخطر ببال أحدهم أن يتحرى هناك فى الزاوية البعيدة .. حيث يقعى الفرن المهمل فى سكون ، بالأخير تآجلوا إلى صحن الدار لاهثين ..

- **لا أثر لها فى الدار كلها .**

فدنا الرجل إلى خالتى نعمات .. وأطبق عليها ممسكاً بتلابيبها

- **أين خبأتى البنت ؟ .**

فأجفلت مذعورة ، وإستعبرتْ مآقيها فى فزع .. وخاصة عندما ألفتْ طه وقد تشبث بردائها باكياً ..

- **لا بنت لك عندى ، لماذا تتحرى عنها كالمسعور هكذا ؟ ، دعها وشأنها .. كفاها ما تجرعته منك ومن غيرك .**

أفلتها ضائقاً .. فإنطرحتْ إلى الأرض ، لتقبض على طه بذراعيها إلى صدرها ، وهو الأمر الذى إسترعى إلتفاته .. فأماء إلى أحد رجاله فإنتزع ذراعيها إلى الخلف ، بينما إلتقط خالى طه من نحره .. ثم مدَّ يده إلى الرجل الأخر الذى أعطاه مدية من النوع الذى يُطوى ، فأفرج شفرتها على عنقه ، يرعد مهدداً ..

- **إعلمى إما أن تُعطينى البنت .. وإما تأخذى ولدك هذا مذبوحاً ، الخيار لكى .**

فإهتاجتْ خالتى نعمات صارخة .. حتى كادت أن تنفك من عِقال رَجُلِه ، برهات حرجة .. كان بينها وبين الجهر بمخبأى ضغطة من المدية على عنق طه ، غير أنها أوصدت فمها بصراخه ، لحظات تحملتْ من جَلَدِها ما لا يُطيقه الرجال ، غير أن الفرج جاءها قبل أن ينحل وثاق لسانها .. حين ألقى خالى المدية إلى الأرض ضائقاً ، وخل سبيل الصبى إلى ذراعىّ أمه ، ثم دنا منها غالظاً ..

- **أقسم بالله حتى لو كانت الأرض قد إبتلعتها فى جوفها .. سأُجبرها أن تلفظها ، حينها سأروى ترابها بدماء وحيدك هذا قبل دماءك .**

وأشاح بوجهه ضجراً ، ثم أشار إلى الرجلين عابساً ..

- **لا تبرحا باب هذه الدار إلا والبنت معكما .**

ثم إنسحب تاركاً شرذمته .. مهدداً بالعودة تارة أخرى .

مر النهار محتقناً ، ولم تبرح خالتى نعمات محطها بصحن الدار ، تتقلب

عيناها ما بين فوهة الفرن .. ترتجف أن أموت إختناقاً ، وباب الدار .. تترقب الرجلان من فرجاته ، أقصى ما كانت تتمناه أن يخليا سبيلهم .. أو تهبط فوق رأسيهما صاعقة فتخسف بهما الأرض ، بيد أن الرجلين ظلا على ديدنهما حتى أقبل الليل ، حينها سمعت جلبة خلف الباب ، أتية من الخارج .. وإنفرج باب الدار لتجد خالى أمامها ، رمقها ساخراً ..

- **لا تتأملين كثيراً فى النجاة .. فأنا قليلاً ما أمِلّ ، لن يبرح رجالى داركِ إلا بإحدى إثنتين ، البنت .. أو روحيكما أنتِ وهذا الصغير .**

ثم خرج راقعاً الباب فى إثره ، فتَفِلتْ خالتى نعمات فى موطئه .. متمتمة " **أغرب .. لا أرجعك الله** " ، أمعنت إلى فرجة الباب .. كان الرجلان قد برحا محطهما إلى رجلين أخرين .

ظلتْ خالتى نعمات طوال الليل مترقبة ما بين الفرن وباب الدار ، وقرب إنتصاف الليل ألفتْ إبنها يترنح بين يديها .. فتذكرتْ أنها لم تُطعمه شيئاً منذ صبيحة هذا النهار المشئوم ، وتذكرتنى " **رحماك ربى بها .. لا طعام ولا هواء** " ، فأرقدتْ طه على حشية بصحن الدار ثم نفرتْ إلى المطبخ فجلبت طبقين .. ووضعتْ بكل طبق رغيفاً وقطعة جبن ، أقامتْ طه وأوفدته واحداً ، بينما تظاهرتْ بأنها تُنضد بعضٍ مما بعثره الرجلان من أغراض الدار .. فإقتربت من فوهة الفرن وجرت حقيبة الخيش لتجدها ممزقة من جهتها الأخرى ، فأنا أيضاً لم أحتمل الجوع .. فإنتهبتُ بعض كِسَر الخبز الجاف من الحقيبة ، سريعاً أوفدتنى الطبق .. وهى تشير لى بإصبعها أن إصمتى وإصطبرى ، ثم أرجعتْ الحقيبة إلى وضعها ونهضتْ خلسة إلى وليدها قبل أن يلحظ رجال خالى حِراكها .

وبحلول الفجر كانت أجساد الرجلين قد إرتختا .. فرَكَنا إلى مصطبة الدار فى منأى عن فرجة الباب يتناوحان تثاؤباً لحوحاً ، وقتئذٍ كانت خالتى

نعمات قد إعتصرت رأسها لتجد مخرجاً من هذا المأزق .. فتمخضت عن حيلة قد تكون هى الأنسب .

إستمرأتْ هدأة الليل .. فهبتْ من فورها إلى فوهة الفرن فأخرجتنى خلسة ، كنتُ فى حال لا يُرثى لها .. كاد سعالى المكروب أن يسترعى إلتفات هذين المترقبين بالخارج لولا أنها تداركتْ الأمر فأدخلتنى إلى حظيرة الدجاج بنهاية الدار ، وهناك جلبتْ قفصاً كبيراً ذو غطاء حر ، يمكن إزاحته .. فأسجتنى فى قاعه ، ثم وضعتْ إلى جوارى دجاجتين تقوقين بإستمرار .. كانا على وشك أن يلفظا بيضهما ، ثم قالت ..

- **حبيبتى .. لا تنبسى ببنت شفة ، ومتى وافيت القفص يهتز يميناً ويساراً .. فلتلكزى إحدى هاتين الدجاجتين حتى يقوقا عالياً .**

ثم ثبتتْ الغطاء بأوثقة من الخيش ، وألبستْ القفص جلباباً فضفاضاً من الصوف السميك .. بحيث يلائم جرمه ويُحكِم وَصْدِه ، ويوارى كذا ما خُبأ فى باطنه ، إلى حينه لم أكن قد فطنتُ إلى خلاصة تلك الحيلة التى تمخضت بها قريحتها ، بيد أن صدرى كاد أن يختنق من هذه الأجواء الضائقة والفراغات المغلقة .. التى رُهن بها جسدى منذ صبيحة النهار .

إرتدتْ خالتى نعمات دثارها الأسود .. ثم وضعتْ كفتى الميزان بين يدىّ طه ، ورفعتْ القفص الذى يحوينى على رأسها تسنده بذراعها .. وفى يدها الأخرى حملتْ الميزان من دفته .

تقدمتْ مرتجفة نحو الباب ، وللحظات توقفت أمام صفحته تسترد جأشها .. ثم دفعت الميزان برهف ليطرق الباب ، فلم يسمعها أحد ، فدفعته بقوة تارة أخرى .. حتى فزع الرجلان ، فتأخرت خطوتين .. فإنفرج أحد مصراعيّ الباب .

- **إلى أين أنتى ذاهبة ؟ .. ممنوع الخروج .**
- **وماذا يخصنى بغرضكما .. أنا ذاهبة إلى السوق ، أعتقد أنكما تعرفان**

أنى بائعة خضار ، أفسحا لى الطريق .. وها هى الدار فلتحرقان بها

ودفعتْ الميزان فطرق الضلفة الأخرى .. كإشعار ليُفرجها أحدهما .

- **إنتظرى .. ما هذا الذى تحملينه ؟ .**

فتمايل القفص على رأسها ، حينها فهمتْ ، فلكزت الدجاجتين .. فطفقا يقوقان بصوت ملحوظ .

- **أعميتما ! ، هذا ميزان .. وذاك قفص دجاج .**
- **دجاج ! .. أين هو ؟! .**

وطفق أحدهما يخدش الجلباب .. فلم يُذعن القماش لخمشه ، فراح يحدق فى نسيجه ، فإبتدرته خالتى نعمات ..

- **لست فقط بأعمى .. بل أصم أيضاً ! ، أفسحا لى .. سَتُفَوِتَانى السوق .**

فأفرد ذارعه فى وجهها ..

- **ممنوع .**

فلكزته بالميزان فى فخذه ..

- **إنزاح عنى .. أزاحك الله ، سأتأخر على السوق .**

فكاد الرجل أن يتحمق .. لولا أن رفيقه كفكفه ، فأفرج الضلفة الأخرى وأزاحه عن طريقها ، هامساً ..

- **دعها .. ما شأننا بها ، بالنهاية ستعود ريثما ينفض السوق ، لا نريد سوى البنت .**

وتركاها تجسر الحارة بقفص تقوق فيه دجاجتان بغلاظة .. كادتْ أن توقِظ النيام ، سارتْ خالتى نعمات بأحمال ينوء بها عاتقها .. حتى إبتعدتْ عن ناصية الحارة بعدة حارات ، غير أنها ما قصدتْ ساحة السوق بل عرجتْ إلى درب أخر .

حينها كان خالى قد أدى صلاة الفجر فى المسجد العمومى .. ثم توجه رأساً

إلى دار خالتى نعمات ، ليجد رَجُليه فى محطهما .. وأحدهما يفرك فى فخذٍ موجوعة ، أفرجا له الباب .. بيد أنه لم يجد أحداً بالدار ، فخرج مذعوراً ..

- **أين المرأة .. أذهب الله ريحكم ؟ .**
- **نفرتْ إلى السوق منذ دقائق .**
- **سوق ! .. أى سوق هذا قبح الله وجهيكما ، ألم آمركما ألا تُغَيّبا أبصاركما عنها .**

فنظر الرجل الذى منعها إلى ذاك الذى أتاح لها الطريق .

- **هو من حدانى أن أخلى سبيلها .**

فزمهرت عينىّ خالى .. وهوى على وجهيهما صفعاً ، ثم رعد ضائقاً ..

- **حسابكما معى عسير**

ثم رمق ناصية الحارة متوتراً ..

- **أخرجت وحدها ؟ .**
- **خرج معها إبنها .. فقط .**
- **أذهبت السوق بإبنها فقط .. أيها المغفل ! .**

فنظر أحدهما إلى الأخر ..

- **كانت تحمل ميزاناً وقفص دجاج كبير .**
- **دجاج ! يا أغبى من خلق .. لقد هربتْ بالنبت ، إتبعانى .**

ثم نفروا إلى خارج الحارة .

وقتئذٍ كانت خالتى نعمات على طريق الزراعات .. إلى جوار خط السكة الحديد ، كانت تسير حثيثاً .. لا يعلم أحد وجهتها وأربها ، وبالقرب من المحطة ومرفأ القطارات القديمة .. أثقلتْ خطوها ، وحانت منها إلتفاتة تترقب الطريق خلفها .. فلم تجد من يقتفى أثرها ، فإستدارتْ مطمئنة .. لتجد خالى ورجليه أمامها مباشرة ! .

قبل أن تفزع أو تفكر فى مخرج لمأزقها .. إنقض عليها الرجلان فأنزلا القفص ، وقبض أحدهما على ذراعها .. بينما حدجها خالى ..

- **أعطيتك فرصة للنجاة .. لكنكِ إخترتى نهايتك ، ستُذبحين أنتى وإبنك فى محطكما .. لتدهسكما القطارات فلا يدرى أحدٌ بأمركما .**

وقبل أن تتفوه بكلمة .. أماء إليها بالصمت

- **صهٍ .. لا أريد أن ينبو لكى صوت .**

ثم أشار إلى أحد رجاله .. فأبرز مدية وطفق يمزق الجلباب الذى دثرتْ به القفص ، وهنا كانت الصاعقة ، التى صرعت خالتى نعمات قبل أن تبهته .. لم يجد بالقفص سوى دجاجتين ، ولا أثر لشيئ أخر .

شدهتْ خالتى نعمات ، بينما دنا منها خالى يتميز غيظاً ..

- **أتريدين إقناعى بأنكى إنتويتى الذهاب إلى السوق بهاتين ، ثم متى تركتى تجارة الخضر إلى تجارة الدجاج ؟! .**

أفاقتْ من شرودها على حدة تهكمه ..

- **بالنهاية أنا تاجرة .**

فرمقها شذراً وقد نفذ صبره .

- **إعلمى أنه مهما تأخر حسابك .. فهو قادم لا محالة ، اغربى عن وجهى .**

فإلتقطتْ أشيائها .. وقد ذهب رشدها شتاتاً ، ثم غادرتْ وعيناها إلى كل حدب تتلفتْ ، بينما أشار خالى إلى رجليه عبثاً ..

- **هى فى الجوار .. ثرثرا هذه الزراعات ولا تنكصا حتى تجدانها .**

فتسربل الرجلان كحيّتين راصدتين إلى الزرعات المديدة .. يتحريان طريقى

(٢١)

فى تمام العاشرة كرَّ خالى ورجاله إلى دار خالتى نعمات .. فقد توجس أنى لم أغادر الدار أصلاً ، زجَّ الباب .. ليجد طبلية مفردة وعلى متنها مما لذ من أطايب الطعام ! ، وعلى جانبيها تجلس خالتى نعمات وإبنها فى هناء وإستمراء .. وكأن شيئا لم يكن ، حينها أيقن بأنى لست فى الدار .. وربما البلدة بتمامها ، وأيقن كذا أن يديها غير منزهة عن خطة هروبى ، غير أنه وبعد عدة محاولات لإستنطاقها .. إضطر مجبراً أن يُخلى سبيلها ضائقاً ، إذ لم يجد مفادة من إيذائها .

أما أنا فلقد باشرت رجال خالى .. وهم يتحرون عنى بممرات وأروقة مرفأ القطارات ، وذلك أنى كنت قبلها بدقائق قد ناهزتُ إحدى العربات القديمة .. فتعلقتُ بسندرتها مختبئةٌ أرقبهم من بعيد ! .

فطنتْ خالتى نعمات منذ هبتْ من الدار فارة بى .. أن النبأ لا ريب سيصل إلى خالى بأسرع من البرق ، لم تتكهن بالطبع أنه سينفر من المسجد رأساً إلى دارها ، غير أن أيٍ من هذين المغفلين ، الذين تركهم أمام دارها .. لن يصطبر أن يأتى ولى نعمته فيكيل له كيلاً .

وبرغم أن أحدهما لم يفعل .. كان عليها بنهاية الأمر أن تأخذ حِذرها ، لذا أخرجتنى من القفص فى بقعة مهجورة عند تخوم الزراعات .. لأتخذ طريقى إلى مرفأ القطارات .

وزيادة فى حكأ خطتها .. عَقَدتها بأنشوطة محكمة ، فأكملتْ مسيرها إلى نفس وجهتى - مرفأ القطارات ، فحتماً سيتكهن هذا الداهية أنها تسير فى درب أخر .. غير الذى خلت سبيلى فيه ، وعليه فإن تيممها إلى مرفأ القطارات .. إنما يعنى أنها تركتنى منذ دقائق إلى طريق الزراعات ، وصدق ظنها فيه ! ، فحين ضبطها بأحمالها فى طرق المرفأ .. أرسل رجاله فوراً

ليتحروا عنى بين الزروعات ، وهو الأمر الذى منحنى وقتاً كافياً لأتوطن بمخبأ مناسب بإحدى العربات القديمة ، وعندما كَروا لاحقاً لتمشيط المرفأ .. كان الأمر قد إزداد صعوبة ، كمن يبحث عن إبرة فى كومة قش ، فإنطلت عليه خدعتها ، ونجحتْ خطتها .
علمتنى هذه الليلة ألا أهاب شيئاً ، ولا على شيئ .. كائناً من كان ، فبحسب قاعدة " **الضربة التى لا تهزمكِ .. تُقويكِ** " .. فأنا بعد كل ما جرى بتُ بقوة مارد ، هكذا كنت أقول لنفسى .
أمضيتُ يومى بعربة القطار أموج بين الجوع والخوف .. فلقد نسيتْ خالتى نعمات أن تدع لى شيئاً أتقوتُ به ، فرغبتها فى تهجيرى من دارها كانت أقوى من كل شيئ .. أقوى حتى من خوفها أن يصل لى خالى فيقتلنى ! ، أو يُلحق بى الأذى على أقل تقدير .

بإنتصاف النهار كف رجال خالى سعيهم خلفى ، فإستسلمتُ إلى نوم غطيط حتى إقبال الليل ، وقتئذٍ كنت قد نزلت عن سندرة العربة .. وطفقتُ أتمعنُ القطارات الراكضة من شرفة فى نهايتها ، لكن بطنى لازلت تشتكى جوعاً أطيطاً ، جال نظرى فى الأشياء حولى أتحرى فرصى المتاحة ببيئتى الجديدة .. فلم أجد لى سبيل سوى الزراعات ، الممتدة هناك على الضفة الأخرى لخط السكة الحديد ، فما أكثر ما يصلح لإشباع المعدة وإسكات عوائها .
تسللتُ خلسة إلى تخوم أقرب غيط بالجوار .. لكنى لم أجد سوى قراريط ممتدة من نبات الحلفا ، فى البداية شعرتُ بخيبة ثقيلة .. إلى أن وافتنى لُمَة جرجير بارزة عن الأرض ، فهممتُ أقتلعها بجذورها ، إلتهمتُها بغشم .. كحمار ألفى حزمة برسيم بعد جوع طويل ، فى هذه الليلة عثرت على نباتات عشبية أخرى كالكرفس والكرات والبقدونس والشبت وما شابه ..

فأكلتُ حتى إنتفختْ معدتى ، ثم ترجلت ثقيلة إلى صنبور ماء عند السياج الخارجى لمرفأ القطار ، كنا نرتوى منه فى طريق عودتنا من المدرسة ، فكرعت ماءه ، أدفقه فى حلقى دفقاً .. حتى لم أجد وسعاً لأتنفس .

لم أمكث طويلاً فى هذا الخواء المكشوف ، علاوة على أنى لم أجد موطئ يأوينى ويكفينى الظلمة والتشرد .. فعدتُ سريعاً إلى العربة ، ومن باب الإحتراز صعدتُ إلى السندرة .

لم يأتنى نوم فى هذه الليلة الآبدة .. ظللتُ لساعات طويلة أسترجع أحداث اليوم ، ومرات كثيرة تلك التى تسربل فيها دمعى عنوة .. غير أن الخوف كان أشد وطأة ، فقطع سلسالها مرات أكثر ، بين فينة وأخرى يباغتنى حفيف فى الجوار فيفزعنى .. أو يأتينى طرق مبهم يُردده صفيح العربة ، وما هى إلا برهات من الليل حتى تداول إلى العربة كل ضال شريد ، فما بين أزيز وفحيح ونقيق وخرخرة وصرير ونعيب .. تآجل هنا كل صوت منكور ، إلى أن باغتنى قطان شريدان يتشاكسان على هرة .. وأخر تسلل باحثاً عن مخبأ ، وزيد الطين بلة حين برز كلب ضال .. ففرتْ كل القطط ، بينما ظل هو يرمقنى بأعين براقة ما يقارب النصف ساعة .

حينها تذكرت ما قصته لى أمى يوماً ما .. حينما طلب جدى منها ، فى صباها ، أن تجلب له طبق حامض من حانوت البقالة ، وفى طريق عودتها برز لها كلب ضال مكشراً عن أنيابه .. يستعد للإطباق عليها ، ولولا أنها ألهتهُ بطبق الحامض .. أو بمعنى أدق إنزلق من يدها لإلتهمها الكلب .

حينها تساءلت .. ما الذى يمكن أن أُلهى به هذا الكلب ليترك العربة ، أو يحد نظره عنى على أقل تقدير ؟ ، ثم شدهتُ للحظات .. تُرى من منا الغريب هو أم أنا ؟ .. من منا إنتهب مسكن الأخر ؟ ، بالنهاية لم يرق له وجودى ، ظل يزوم ويكشر لعدة دقائق .. ثم تسلل نافراً عن العربة ، ليسود صمت كئيب أشد خيفة .

ظللتُ أبكى طوال الليل ، الصمت هنا كالضجة .. كلاهما يُحيل العربة إلى بيت من بيوت الأشباح ، العربة ساكنة سكون الأموات بين قاطرات بالجوار تكاد تسحقها .. تلهث على القضبان ليل نهار ، تأملتُ .. حالى لا يختلف كثيراً ! ، فداخلى قضبان أخرى مثلها .. تسحقها هموم جاثمة وأحداث لاهثة ، لا تنفك أن تثور حتى تخمد .. لتثقل أنفاسى فأضحى كالميتة .

لساعات ظل إصطخاب العربات الراكضة .. يأتينى فيفزعنى ، كانت تروح وتغدو على نحو لم أعهده ، كلما لمحتها دارت عينى على أجرامها اللاهثة .. فيتردد سؤال مكرور " **تُرى إلى أين ترحل تلك العربات ؟! .. ومن أين تجيئ ؟! ، وهل ناسها مثل ناس قريتى ؟!** " ، تمنيتُ لو أنى عثرتُ على الكنز الذى طالما داعب ألباب الصغار .. فأهرب من هذه البلدة ، الظالم أهلها ، ومن العالم كله .. إلى عالم أخر يتمنانى ويحتفى بقدومى ، قبل أن أريده .

مرت ساعة زمن قبل أن أستفيق على وجع مبرح بأردافى .. إثر سقوطى من عِل السندرة بعد شرود طويل ، كيف لم أنتبه أنى عالقة .. وأن حركة خاطئة ستُردينى أرضاً ؟! ، جثوت أتأوه بملئ صدرى .. قبل أن أرسل بصرى فأرمق قدمين منبسطتين أمام ساعدى المطروح ، فجفلتُ مرتجفة ، تقهقرتُ سريعاً إلى الخلف .. أشباح ! ، ترى ما الذى ينتظرنى فى هذه العربة المشئومة ؟! ، أقمتُ ناظرى لأجد هذين الغليظين ، رجال خالى .. فتنهدتُ فى ضيق وقد فرغ صبرى ، إلتقطانى من ثيابى كخرقة بالية ، هنيهة .. وأسقطانى تارة أخرى ، إثر رنين هاتف خلوى .. كان خالى ! .

لم أتبين ما قاله للرجل .. غير أنى سمعت بملئ أذنى عبارة " **إتركاها لتأكلها الكلاب .. ما عاد لنا أرب فيها** " ، فإختفى الرجلان كأنهما لم يأتيا ..

يتردد فى إثرهما رقع أقدام مغادرة .

برهة صمت .. " **ماذا حدث ؟** "

هززتُ رأسى فى ذهول .. أحاول أن أعيد وعيّها وأُنهض إداركها ، " **أكانوا هنا .. أم أن السقطة أذهبت عقلى ؟!** " ، فركتُ عينىّ ثم أرسلتها صوب باب العربة .. تلك أثار أقدامهما ، " **أيعقل هذا ؟!** " .. ما الذى حدا هذا الظالم أن يفك عقالى بغتة ؟! .

برهة لا تتعدى دقيقتين زمن .. حتى فطنتُ أن خالى أخيراً قد أخلى سبيلى ، " **ما هذا الجنون ؟!** " ، لم أركن إلى العجب كثيراً .. فمثل خالى لا يُستغرب أن يؤتى أوابد مُتيهة ! ..

" **ولكن ماذا بعد ؟** " ..

كان السؤال الأصعب ، فمن المستحيل أن أنكص لخالتى نعمات .. بعدما إستنفرتنى من دارها ، حتى ومع زوال دافع خوفها وإرتعابها ، كيف أكِرُ إلى دار تضمنى بين جدرانها متى راق لها الحال .. وتلفظنى وقت الخطر ، حين توازن صاحبتها بين حياتى وحياة إبنها ، حتى وعندما أسترجع أياديها التى ساعدتنى على الهرب .. أجد أن لها دوافعها الخاصة التى لا تمت لى بصلة .

قد أكون مخطئة .. غير أنى لم أخطئ أبداً هذا الشعور الذى ألجأنى إلى سكنى الخواء ، وحيدة شريدة ، حَرِىٌ بى أن أكون أكثر إباءٍ .. فحتى الكلب إن تستنفره من دارك مرة لا يكر إليك مرة أخرى ، مهما فعلتْ ، حينها تأملتُ ملياً ، ظللتُ طريدة وأنا بين جدران تحوطنى وتكفل لى شيئاً من الطمأنينة .. وأتتنى حريتى فى ساعة لفظتنى هذه الجدران ، وكأن معنى الحرية يكمن فى الإنطلاق .. مهما لفظتك الأوطان ! .

داهمنى ثُقل رزيح .. يبدو أن سقوطى قد قلقل ما فى أمعائى إلى الأسفل ، وهو الأمر الذى جعلنى أعرج بذاكرتى إلى واقعتى المخزية مع صبية

الجيران ، حاولتُ التماسك .. بيد أن أحشائى لم تمهلنى كثيراً ، لقد فعل الجرجير والكرات وباقى العائلة الكريمة فعلتهم .. كانوا كبركان يفور ويتفجر فى معدتى .
هرعتُ مكروبة إلى باب العربة .. أتحرى موضعاً أفرغ فيه مِلئى ، وما كدتُ أبرحها .. حتى صُدمت بثلةٍ من الصبية المتسكعين يتقاطرون إلى ركن خبيئ بالمرفأ ، كانت هيئاتهم مزرية إلى أقصى حد .. كأنهم لم يتحمموا من سنوات ، ما إن رأيتهم حتى تقهقرت لتوى إلى داخل العربة .. قبل أن يلحظ أحدهم وجودى ، وسريعاً قفزتُ إلى السندرة ، ما عاد لى أرب فى الخارج .. فلقد زال كل شيئ ، أزالته رهبة هذا المشهد .. الذى كرَّ بى إلى حين كانت فيه ثُلة ، أمثال هؤلاء المتسكعين .. يتلصصون على غرفة أمى من خصاص شُرفتها فى ليال الصيف الحارة ، مما إضطرها بالنهاية أن تزرع فراغ الشرفة بأعواد من الحديد كالقضبان .. خشية أن يقفز أحدهم إليها .
ما كنت لأنسى أبداً تلك الليالى .. التى كنت أصحو فيها فأجد الأعين البراقة تترصدنى من شرفة غرفة النوم ، كأنها عفاريت الليل .. جاءت تتحين الفرصة لإلتهامى ! ، حينها كنا نقضى ساعات الليل أنا وأمى فى فرق ورهبة ، متيقظين .. خوفاً من مناوشة هؤلاء الضالين .

هدأت الضجة وسكن العجيج ، فتلصصتُ عبر الشرفة لأجد الصبية فى ثرثرة منكورة .. يبغبغون بأحاجى وحديث هامس مختلط ، بعضهم منطرحاً فى ركن المرفأ .. والبعض الأخر يتطوح ممسكاً إما بسيجارة أو قارورة أو علبة كعلب الدهان ، **" ماذا يفعل هؤلاء بحق السماء ! "** ، وما هى سوى هنيهة .. حتى إنطرح الجميع فى غطيط وخبخبة ، وكأنهم أهل الكهف ! ، يزومون على نحو غليظ ويتبارزون الشخير ، لا يدرى أحدهم بالأخر .. حتى أن كلباً إقترب فطفق يتشمم أياديهم وأفمامهم .. فما ملك

أحدهم صده ، والمثير للضحك أن الكلب فر راكضاً إثر سماعه شخيرهم وخبخبتهم ! .
ظللتُ أرقبهم من شرفة العربة فى شده وذهول .. أزالا الخوف الذى جاس فى صدرى منذ دقائق ، وما هالنى غير هيئاتهم الآبدة .. وتلك الأصوات المنكورة التى تثير الإرتعاب فى النفوس دون إرادة ، وهو الأمر الذى زادتْ وطأته إثر تناغمه مع وحشة الليل البهيم .
هدأ الحراك تماماً .. فما عاد ينبرى عن أوشحة الليل غير صرير الجنادب ، أمعنتُ فى الظلمة البعيدة .. لا أثر لرَجْلٍ ولا ركب ، ولولا هذه الأضوية المصفرة التى ترسلها أعمدة المحطة .. لباتَ الليل كقاع بحر أسود ثقيل ، أرسلت ناظرى إلى مدخل المرفأ ، حيث تتسع بقاع الضوء التى يُرسها مصباح كبير مثبت فى أعلاه .. كانت الرقعة الأكثر أماناً فى المرفأ كله ، ذهلت للحظات .. كأن شبحاً يقـترب ، بقعة ضوء تتضخم ، حملقتُ **" لا أصدق .. إنها أمى "** ، رأيتها تتقدم نحوى من الركن البعيد .. ترتدى دثاراً قرمزياً شفيف ، وتحيط بها هالة من نور صافٍ رهيف .. وكأنها ألاف الأفلاك تدور حول شمس وضاءة .
كانت تبتسم .. نواجذها وكأنها نتوءات من الثلج ، هشَّ قلبى لرؤيتها .. وكاد أن ينفر عن محطه ، كدت أن أقفز إليها .. لو لا أن طيفها تحول بغتة إلى تهويم شديد البياض ، هالة من نور حاد مبهر .. لا أثر لأمى فيه ، حدقتُ .. فإذا هى هالتين متقاربتين .. يكاد ضوءهما أن يُذهبا بصرى ..
" ما هذا ؟! " ..
حملقتُ ، فإكتشفتُ أنها ليست بهالات نور .. بل هى أضوية باهرة لمصباحى سيارة وثيرة ، إقتحمت المرفأ فجأة .. وكأنما هبطتْ من السماء ! ، دنت عجلاتها من الصبية الراقدين فى موات .. ثم سلطتْ أضويتها الكثيفة على أجسادهم المنطرحة ، لتطلق بالأخـير نعير هائل ينداح عن بوق راعد ،

جعلنى أثبُ فى محطى هلعاً ! .
إرتعبت .. وتواثب صدرى ، ولبضع لحظات حاولت أن أسترد أنفاسى المنهوبة ، خال لى وكأنى عاينت مثل هذا الأمر من قبل .. لكن لا شيئ ينبرى عن قاع ذاكرتى .
أفقتُ على مشهد الصبية ينتفضون ، هبوا واثبين .. يكاد الهلع أن يخلع قلوبهم ، النعير وكأنه أبواق إسرافيل تصطخب لتوقظ الموتى من رقادهم الطويل ، لم يملكوا القدرة على السؤال .. فهب أكثرهم كالملسوع ! ، يتلفت بأعين ذاهلة ، صارخاً دون إرادة .. بشفاه مرتعدة تنعب بلسان ملتوى ، جمحوا ! ، حاولوا الهرولة فلم يجدوا طريقاً .. الأرض فرت بغتة ! ، مادتْ بهم فإنكفأوا على وجوههم منطرحين ، إنكب كلٍ على أخيه .
كان الخدر قد لعب بعقولهم .. فبدا كل شيئ مرتعشاً ، يعصف بهم ، رؤوس مخدورة تحاول أن تجمع خيط ما جرى .. لكن الخيط ينقطع ويهترئ ، لم يتمالكوا زمام أعصابهم .. كلما نهضوا وقعوا ، ومن تمكن منهم .. إندفع يظن نفسه يُهرول ليجد نفسه يتطوح فيطرق الأخرين ، أو يلتصق بجدار برز أمام عينه بغتة ، بالنهاية خرجوا من برانسهم ثملين .. فأطاح بعضهم بعضاً إلى خارج المرفأ ، قبل أن يغلبهم النعاس فيُجهز عليهم إسرافيل ! .
ما هى سوى برهات .. حتى إنسحبت السيارة فى هدوء ، وتسللت الأضوية زاحفة فى عقبها .. كحية تكفكف رأسها ، لم أجد فى رأسى تفسيراً لما جرى .. غير أنه جرى ، وأنجع ما فى الأمر أن كل شيئ أنه تسربل منسحباً .. أخذاً عجيجه ومتسكعيه جملة واحدة ، فعاد المرفأ لهدوئه وصمته ، منادياً لكل هامة فرت .. إثر هذه الجلبة التى قضت مضجعهم وكفتْ مرتعهم .

ليلة طويلة ، عاد الجوع يعض بطنى ويصرخ فى معدتى .. وكأن ما باشرته

لأكثر من ساعة زمن قد حفز أمعائى لتلتهم ملئها وتهضمه ، علمتنى أمى فى هذه الظروف أن أربط بطنى لتنكمش معدتى .. فلا أشعر بالجوع ، وهذا ما فعلتْ ، أحكمتُ حزام دثارى القماش حتى أطبق على أمعائى .. ثم إنتظرتْ ، إنتظرت طويلاً .. حتى ما عاد الرباط يُجدى نفعاً ، فعرفت حينها أنى سأمضى أحلك ليالى عمرى .. وأقساها ! .

" **ماذا لو مت الليلة .. جائعة وشريدة ؟** " سؤال داهمنى بغتة ..

أهكذا تكون النهاية ؟! ، وما الجديد .. فأمى ماتت دون أهل يودعونها ، ماتت وحيدة ، ماذا سيحدث إن مت أنا دون مودع .. هل سيتغير الكون ؟ ، لن يحدث شيئ ، فمثل إنعكاس المرايا .. تنعكس حياة ذوينا على حياتنا ، وهكذا إنعكست حياة أمى على حياتى .. فأظلمتها تارة وجعلتها تتألق تارة أخرى ، وبالنهاية ظلت الصورة قاتمة ، معتمة للغاية ، فبقدر ما كانت البدايات جميلة مبهرة .. أجهضتها النهايات بقبحها وسوء الخاتمة .

شعرتُ بالمشاهد تتداعى إلى رأسى .. فهززتُها ، وكأنى أنفض ملئها مشهداً مشهداً ، إنذرت مع الريح ، ترجلت فى العربة إلى الباب المقابل ، لم أكن أريد أن أنسحق تحت وطأة همومى .. على الأقل فى هذه الليلة الموحشة ، فكفانى ما بها ليقبض قلبى .. ويُذكرنى بأنى بتُ وحيدة ، حدقتُ لبضع دقائق أحصى أعمدة الإنارة حتى إنتهيت إلى غبشة فى الأفق البعيد .. ثم ظلام راسخ .

عدت تارة أخرى فإنكمشتُ جاثية فوق المقعد .. ثم أطللتُ من الشرفة أُركن رأسى إلى راحتين متقابلتين ، أرقب محطة القطار من بعيد ، شردت ، كلما تأخر الليل تمخضت القطارات عن أعداد هزيلة من المسافرين .. وهى تقل تباعاً كلما تغول ، باشرتُ الأمر إلى أن هدأ ركض القطارات تماماً ، توقف ، فعلمتُ أن الساعة قد شارفتْ الثانية صباحاً .

هبتْ نسائم باردة .. وكأنها جاءت فى أذيال قطار الثانية ، أفياض متدفقة ، ومن لفحته هذه النسائم .. يعرف جيداً أنها تختلف كثيراً عن تلك التى تسوق النعاس فى أعقابها ، ليس إلا صقيع وصفير .. وهواجس لا تنقطع .
الساعات فى الليل تمر بطيئة ، وخاصة مع من هجر النوم أخلادهم .. فإستسلمت إلى شياطين الأرق ، وبالإنتظار يزيد الأمر ثقلاً ورخامة ، تعاين الأحداث تمر أمامك وكأنها مشاهد تصوير بطيئ .. يتوغل خلالها العقل إلى أدق التفاصيل على نحو غير معقول ! ، لتوافيه بالأخير آلاف الأشياء والأفكار فى الدقيقة الواحدة ، وبرغم أن كل شيئ يتحرك فى أناة وترو وتباطئ شديد .. فإن النعاس لا يناوشك ولو من قبيل المصادفة .
الظلام وكأنه شخصاً أخر .. أُباريه الهمس والهمهمة ، وها هى الأصوات عادت تتناوح ، تبارزنا هسيسنا ، أزيز وصرير ونقيق ... وأشياء أخرى ، يزيدها الصقيع ضراوة .. لتذكى فى نفوسنا الشعور بالتوتر والرهبة .
كنت بين فينة وأخرى أنتهب إلتفاتة صوب المحطة .. ما عاد من رَجْلٍ هناك ، لا إنس ولا جن ، الفئران والعِرَسْ ترتع وكأنها أطفال تلهو .. تركض وتقهقه بصوت حاد من الإستراحة إلى الرصيف إلى شجرة النبق ، لتعود إلى الإستراحة تارة أخرى .
رمقتُ سقف الإستراحة العتيق ، محطات القطار كيانات شبحية مستقلة .. يخايلك وكأنها بقايا قلاع قديمة ، تختلف عن الأبنية المألوفة ، أحجارها من نوع خاص ، وأخشابها من نوع خاص .. تتماهى مع غلاظة القطارات والسكك الحديدية ، تلك الألات الرهيبة .. الكاسحة الغشيمة ، ودبدباتها الصاخبة .. التى لا تهدأ حولها الحكايا المرعبة ، مسرح عظيم للأهوال والمريعات .
حكتْ لنا جَدة سارة ذات مرة أن أرواح القتلى تظل هائمة .. تدور حول المواضع التى قُتلت فيها ، وذات ليلة قالت إن أصوات الضحك والبكاء

والأنين التى يسمعها المارين بجوار السكك الحديدية فى ساعات متأخرة .. ما هى إلا أصوات الصغار الذين إكتسحتهم عربات القطار ، حينها تذكرتُ كم دهستْ القطارات من ناسنا ! .. فإرتعدتُ فرقاً ، وفى الحال طنتْ فى أذنى تلك الأصوات التى لم يهدأ هسيسها منذ أن ولجتُ العربة .. فأكلنى الخوف ، فهمهمتُ ضائقـة ..

- **سحقاً لهذه السخافات التى يملئـون بها رؤوس الصغار .**

وما كدتُ أكمل عبارتى .. حتى باغتنى أزيز خفيض إنبرى من زاوية العربة القريبة ، خايلنى وكأنه صراخ مكتوم .. فإرتعشتُ مُنتفضة ! .

تقلقتُ من محطى ، فإلتصقتُ بجانب المقعد .. أتلفتُ بأرجاء العربة ، أخذتنى أشياء تتحرك بالخارج ، هناك عند شجرة النبق ، حملقتُ فى ذهول .. فرأيت ثلاثة أرانب كبيرة تثب عند سفح الشجرة ، **" ما هذا ؟! "** لم تكن أرانب .. بل هى أقزام صغيرة ، فركتُ عينىّ لعدة مرات ، ظننتُ أن الخوف قد لعب برأسى فهيأ لى أشياء غير موجودة .. لكنها لازالت تتحرك هناك ، تخرج من باطن شجرة النبق ، من عقدة غائرة بالساق .. ثم تصعد واثبة إلى رصيف المحطة .

الذهول دوائر ترتعش فى عينى .. فجمَّدتها ! .

واحد إثنان .. خمسة صغار برؤوس حليقة ، إرتفاع الواحد كطول ساعدى ، يلهون كالأطفال ويقهقهون كالعِرَسْ ، حملقتُ للحظة **" ربما كانت حقاً عِرَسْ ! "** ، لكنها لم تكن كذلك ، أيدرى الناس أن ليل المحطة الجهيم مرتع لأشياء كهذه .. فئران وعرس ، وأقزام ؟! .

للحظات زال إرتعابى ، ولا أعرف من أين أتتنى تلك الجسارة لأتسلل من العربة وأباشرهم عن قرب ، ففى لحظة ما تضحى رؤية مثل هذه الأشياء عن كثب مثاراً للمتعة والنشوة إلى أقصى حد .. يلوحون كولدان لم تُكمل عامها الأول ، تسللتُ خلسة حتى لا يشعرون بوجودى ، تواريتُ فى طى

رصيف المحطة ، إلى الجوار من خط السكة الحديد مباشرة .. فعاينتُ ثلتهم على بعد خطوات ..

كانت تتواثب فوق بعضها بالترتيب ثم يعيدون الكرة .. ومن يقع يجُره الذى يليه إلى الخلف ، لا ريب أنها لُعبة خاصة يدركون قوانينها .. لُعبة لم يأتى خبرها للصغار أمثالنا ، وقع إثنان فوق بعضهما .. فإنفجر الباقين فى قهقهات مجنونة ، حادة النبرات ، أشبه بترديد الأهازيج أو تلك التى نطالعها فى أفلام الكارتون ، رغماً عنى هشت أساريرى .. فغشيتنى ضحكة ملحة ، إلتفتوا إليها .

توقفوا لبرهات مشدوهين .. يتلفتون حولهم ، وبخطو وئيد عادوا إلى لهوهم .. بيد أن الحذر كان بادياً بجلاء على مسحاتهم وطلاتهم ، حتى أنهم تعثروا عدة مرات ، فإضطروا أن يُبدلوا لُعبتهم الأثيرة بلُعبة أخرى أقل حركة .. تمكنهم من الإلتفات لأى خطر قد يتربص بهم ، وتدارك الأمر سريعاً ! ، كان بادياً أنهم يخشون أن يُفشى سرهم .

حدانى إلتفاتهم الحذر أن أنتقى أربع حصاة غلاظ من تلك الحصى المركومة بين القضيبين .. أنتوى مناوشتهم بها ، وتحسباً عدتُ سريعاً إلى العربة .. ثم إنتصبتُ إلى الشرفة فقذفتُ حصاة ، لكنها سقطتْ بين الرصيفين ، فتوقفوا عن اللهو تماما .. وطفقوا يتلفتون حولهم بحركات سريعة ، كما تفعل القطط حين تشعر بالخطر ! ، فإنتقيتُ حصاة أخرى وقذفتها .. فهوتْ إلى جوار شجرة النبق ، فهرعوا لتوهم إلى داخل العقدة ثم إلى باطن الشجرة ، وإنغلقت هوة الساق عليهم .

حينها ، ودون إرادة ، إكتسحنى جفول وإرتجاف .. فلذتُ إلى سفح المقعد ، وكأن رحيلهم السريع أسلمنى إلى ما كانت تقصه علينا جدة سارة .. تلك الخرافات التى إستحالتْ فى دقائق إلى حقيقة ، فعاد السكـون المخيف ينبلج

بأشياءه المرعبة ! .
ذهلت للحظات فى أمر تلك الشجرة .. فنبا إلى خلدى بعض خزعبلاتهم ، قالوا لنا أن داخل كل شجرة نبق تقطن روح زارعها الأول .. أول من رمى بذرتها ، وأن من يبتر جذور شجرة نبق تحل عليه لعنة هذه الروح .. فتَلحقه كارثة حتمية ، تُسلمه إلى كثير من العويل والنواح ، كنت أعلم أنها محض خرافات .. ولكن ما رأيته ليلتها كان هو الأقرب إلى خلدى **" ترى هل هذه الأقزام هى أنسال تلك الروح التى رمت بذرة هذه الشجرة ؟! ، وهل لكل شجرة نبق .. أنسال من الأقزام كهؤلاء ؟! "** .

جاس خلدى بقدم غشيمة إلى سحائب الليل وجهمته .. مُستهيناً بالرعب المكنون فيه ، فطاحت الأشباح الساكنة فى رأسى إلى كل حدب .. ثم عادت تحوم حولى لتبُث الرعب فى كل خلية تُقيمُنى ، وأولها حين تذكرتُ لُعبة من إبتكارى كنت قد إستعرضتُها لأمى قبل عام من موتها.. فأحبتها ، وياليتنى ما فعلت ! ، حينها لم أستطع تأديتها على النحو الجيد .. فإستبدلنا الأدوار وقامت هى بتأديتها ، فرسمتْ على أطراف أصابع يدها اليسرى أعين وأنوف وأفهام وشوارب غليظة .. وكأن كل أصبع هو شخص قائم بذاته ، وباتت تُحركها وتحدوها أن تتحدث وتضحك وتبكى .. وكأنها تحمل أرواحاً حقيقية ، لا أنكر أنها وقتئذٍ أثارتْ شغفى .. لكنها أخافتنى .
والليلة ، وفى هذه الساعة المتأخرة .. تحرك بصدرى ذاك الخوف القديم وطفق يطوف حولى ، فتراءتْ لعينى تلك الأعين والأنوف من كل زاوية وكنف مظلم ، أتية من الأفق البعيد ، المصبوغ بالأسود القاتم .. خلف الزراعات ، تلوح فى هيئات مخيفة .. تتقدم إلى الشرفة تتوعدنى أعينها البراقة بشيئ مهول ، جحيم لا طاقة لى لرد ويلاته ، والنهاية معروفة .. ستلهمنى .

أشحتُ بناظرى ، وأغمضتُ عينىّ مراراً .. غير أنى لم أستطع مقاومة شعورى أنها تقدمتْ ، إقتربتْ ، جاءتْ .. وها هى حولى تُصدر فحيحاً ونعيباً يخلع القلب .

بَلْبَلتُها ووُعْوَاعُها فى أذنى .. وشوشتها المختلطة تكاد تنفجر لها رأسى .

تلفتُ حولى مذعورة .. كنت على وشك أن أغادر العربة ، أشعر بها حولى فى كل مكان ، فى الداخل والخارج .. تتدثر فى أردية شفيفة غير مرئية ، وعواعها يدور فى رأسى ، لا أراها .. لكنها ترانى ! ، وحالماً ستتقدم لتلمسنى .. وتحك أنوفها الخشنة بجلدى ، ودون بادئة إنذار ستُنشب مخالبها ثم أنيابها .. ستلتهمنى حيّة دون رحمة ، بغشامة الضباع وضراوة السباع .

ظلتْ هذه الخيالات تُناوشنى ما بقى من الليل .. فإضطررتُ أن أبقى يقظة ، ذهب جوعى .. ذهب كل ألم وشعور غير الخوف ، أتلفتُ مذعورة لأشياء لا وجود لها .. أترقبها وهى تقترب ثم تبتعد ، وكأنها أشباحاً وجدتْ متعتها فى جفولى وإنكفائى مرتعشة ، فأرجأتْ لحظة إنتهاشى حتى ترتوى من ترويعى وزعزعتى .

تخور وتزووم وتنعق وتعوى ، تَهدل وتُضغضغ وتَثغو وتُصفر.. تداولتْ بكل الأصوات إلى أذنى ، هى تدور بهسيسها فى رأسى بين الخلايا والأعصاب ، تمنيتُ لو أنها كشرتْ عن أنيابها المنشارية .. فأراحتنى من هذا العذاب ، لكنها لم تفعل .. فمازال فى الرعب المزيد .

(٢٢)

إستيقظتُ منتفضة .. أصداء كابوس ليلى

تَلفتُ .. الساعة زهاء السادسة صباحاً ، لم أصدق أن هذه الليلة الآبدة قد إنتهتْ .. لليلةٍ فى جهنم أهون بكثير ، وما لم أصدقه أنى نمتْ .. لا أعرف متى جاءنى النعاس ، ولا كيف ! .

تنهدت ، وشردت عينى إلى الزاوية البعيدة .. بقايا وجل يجوس فى صدرى ، فأشحتُ بناظرى إلى الباب .. أحاول أن أتوارى بنفسى عن شيئ قد ينكدها ويكدر صفوها ، سحبتُ شهيقاً طويلاً فخرج زفيراً أطول .. ثمة تبارح تتداعى إلى جسدى ، ألواح كتفى وظهرى وذراعاى .. كلها كانت تتوجع ، تمطيتُ علَّ بعضها ينذرى عنى .. فشعرتُ بألم حاد فى بطنى ، تحسستُ معدتى .. لازال الحزام معقوداً على خصرى ، وما كدت أُفرده حتى توجعتْ أمعائى .. وكأن لجاماً إنفك عنها ففتحتْ أصداغها صارخة ، لازال الجوع يتناوح بأحشائى .. فنفخت ضائقة " **ليتنى ظللتُ نائمة** " .

جاءنى هسيس وضغضغة ، أصغيتُ .. ثمة جلبة ترعى بالخارج ، فتناهضت يستند بعضى على بعضى ، ثم نظرت من الشرفة .. كانوا أربعة صغار يحملون حقائب طويلة من الخيش يلملمون فيها شيئاً ما ، أرجأت أباشرهم " **ماذا يفعل هؤلاء ؟!** " ، لمحنى أحدهم فأشار إلى رفاقه ، شدهوا للحظات يرقبوننى .. ثم ركضوا جميعاً نحوى ، حينها لم أملك القدرة على الفرار .. فإنكفأتُ فى محطى مستسلمة لما ينتظرنى .

صعد الصبية إلى العربة .. وسريعاً ما تآجلوا حولى ، فدفنتُ رأسى بين ذراعين معقودين ورجلين مضمومتين ، فأماء أحدهم إلى رفاقه مشيراً نحوى فى سخرية ..

- **إنظروا .. إنها خائفة ! .**

فتشدق الباقين بقهقهات مجبورة ، فصرخت ..

- **اغربوا عن وجهى .**

فركلنى أغلظهم فى ردفى ، بينما شدَّ أخر خصلات شعرى حتى إنفك جسدى .. فتتداعى إلى الأرض عنوة تحت قوة الشد ، فأطلقت صرخة أرغمت ثالثهم على تحرير خصلاتى عن أنامل رفيقه ، ثم زجه فى صدره ..

- **ما لك بها ؟ .. دعها وشأنها .**
- **وهل أقامتك محامياً لها ونحن لا نعرف ؟! .**

فزحفتُ خلف ذاك الذى دافع عنى .. وتشبثتُ بردائه ، فنظر إلى رفيقه شاهراً قادوماً حديدياً ..

- **وما رأيك الأن ؟ ، إن لم تنحسرا عنها سأُهشم رؤسكما بهذا .**

فتآذف الإثنان إليه ، كادا أن يعلقا به فيشتجروا .. لولا أن رابعهم زجرهما

- **ماذا دهاكما ؟ دعوه وشأنه .. ولنذهب نحن إلى شئوننا ، سيمر اليوم وأنتما هاهنا تعبثان .**

غير أنهما تحجرا فى محطاتهما ، فأشاح رابعهم لهما بيده وغادر العربة ، حينها تغالظ أحدهما ناظراً نحونا .. يولى ذاك الذى دافع عنى رمقة خاصة

- **لم ينتهى الأمر بعد .. لنا رجعة ، حينها لا تلومن إلا نفسك .**

وجرَّ رفيقه من ساعده إلى خارج العربة ، بينما إستدار غريمهما نحوى .. فإبتعدتُ زاحفة .

- **لا تخافى لن أؤذيكى .. فأنا لست مثلهما ، لم أركِ قبل الأن .. ما الذى ساقكِ إلى هنا ؟! .**

فجفلتُ منكمشة ، فأخرج من حقيبة قماشية ناشبة بعنقه شطيرة محشوة .. ناهضة فى لفافة من ورق الجرائد ، ومدها نحوى .

- **ألستى بجائعة ؟ .**

رمقتها تائقة ، فنطق لسانى .. دون أن أتحرك قيد أنملة عن المقعد .

- **بلى .. سأموت من الجوع .**
- **إذن خذيها .. هى لكى .**

لم أقترب ، فوضعها على فخذى .. ثم تراجع

- **ألازلتى خائفة ؟! .. قلت لكى لن أؤذيكى .**

شعرتُ بوجل .. فلم أنطق بكلمة ، غير أنى لم أملك أن أمنع عينى ألا تتردد مريجة إلى الشطيرة ، فلما رأى إبائى قال ..

- **سأخلى سبيلكِ ، وإن إحْتجتِى شيئاً .. فأنا هنا بالجوار .**

ثم ترجل نحو باب العربة وقفز منها إلى الخارج ، بينما إلتقطتُ أنا الشطيرة .. فإلتقمتُ نصفها فى قضمة واحدة ، فطالعنى بوجهه ضاحكاً .. تشرئب رأسه رويداً عن عتبة الباب ..

- **على رسلكِ .. الشطيرة تصرخ ! .**

فإنتفضتُ ، وألقيتُ الشطيرة أرضاً .. لتنفك عن لفافتها الورقية ، فنظرنى مبتسماً ..

- **رباه .. جائعة وخائفة ! ، أكان يتوجب علىّ أن أنصرف حتى تفترسين الشطيرة على هذا النحو ؟! .**

فعدتُ إلى إنكماشى تارة أخرى ، فبادرنى ..

- **لم نتفق على هذا .**

ثم أرجأ صامتاً للحظات ينتظر أن ألتقط الشطيرة .. فلم أفعل ، فأردف ..

- **كما تريدين .. سأشيح برأسى عنكى حتى تُكملى ما بقى منها .**

وأوطأ رأسه بهدوء إلى أسفل .. كدمية على مسرح العرائس ، فإفتَّر فمى عن إبتسامة دون إرادتى ، فإشرأب برأسه بغتة .

- **الأن أنتى جائعة وضاحكة .**

ثم قفز إلى العربة فإلتقط الشطيرة وقضم منها ..

- **عذراً يا شطيرتى .. يلتهمكى كلبان .**

فإنطلقتْ من حلقى ضحكة ، بينما تحجرتْ عيناه هو إلى اللفافة الورقية المفردة على الأرض ، إلتقطتها وأفرج طيها بين يديه .. وطفق يحملق فى وجهى تارة ثم إلى صفحتها تارة أخرى ، ويعيد الكرة كالمعتوه .. هامساً " **ما هذا ؟!** " ، خايلنى أنه يحاول أن يُلاطفنى .. إلا أنه أفرد الورقة إلى وجهى قائلاً ..

- **أرأيتى هذه ؟! .. إنها تُشبهكِ تماماً .**

كانت الصورة لصبيّة يفترش وجهها الصفحة بكاملها .. وثمة شبه ما يلوح بينى وبينها ، غير أن هذا لا يعنى شيئاً البته .. فلم يتحرك لى ساكن ، ولما رأى فتورى .. طوى الورقة مبتسماً وأطاح بها من فرجة الشرفة ..

- **يخلق من الشبه أربعين ! .**

ثم دس يده فى حقيبته وأخرج شطيرة أخرى كاملة .. ومدَّ يده بها نحوى ، بينما رفع هو الناقصة إلى فمه ..

- **هذه لكى .. ودعى لى هذه المسكينة .**

حينها لاحت الطمأنينة بوجهى وهشت أساريرى ، فأخذتُ الشطيرة من يده .. وبعد قضمتين من جانبينا قال ..

- **لم تخبرينى .. من أتى بكى إلى هنا ؟ .**
- **هذه قصة طويلة ! .**
- **مهما يكن الأمر فمنذ الأن أنتى رفيقتى .. فهل تقبلين صديقاً كان للتو كلباً ؟! .**

ضحكتُ لدعابته ، فمد يده مصافحاً ..

- **كما يفعل أولاد الذوات ، أنا زُهِير .. ويلقبوننى بـ " الحنش " .**

فلم أستطع كتم إبتسامتى ..

- **ماذا .. الحنش ؟! .**
- **نعم ، فأنا كالثعبان أتسلل إلى القمائم .. فأجمع سرارها فى طرفة عين**

، وأنتى ؟ .

لم أفهم ما يقول .. فلم ألتفتْ لسؤاله

- **أنا .. أنا ماذا ؟ .**

فهزهز كتفى ..

- **ألازلتى نائمة .. ما إسمك ؟ .**
- **ها .. يَنُّور .**
- **يَنُّور ؟! .. وماذا يعنى يَنُّور هذا ؟ .**
- **فى الحقيقة لا أعرف ، لكن أمى قالت لى ذات مرة أنها إختصار لعبارة " يا هذا النور " .. فأضحتْ بالنهاية " يَنُّور " .**

نظرتُ صوب باب العربة ..

- **ولكن قل لى .. ماذا تفعلون ها هنا ؟ .**

وأشرتُ إلى الخارج .. حيث رمقتُ ثُلتهم فى بادئ الأمر ، فأخرج قطعاً من المعدن والبلاستيك من حقيبة خيش .. كانت بحوذته

- **فقط نُلملم أشياء كهذه من قمائم المحطة .. ثم نبيعها أخر النهار ببضع جنيهات .**
- **تبيعونها ! .. وهل ثمة من يشترى أشياء كهذه ؟! .**
- **نعم ، مخزن للمخلفات هناك .. فى ظهر المحطة .**

وأشار إلى بناية قديمة مغطاة بسقف من الصفيح .

- **هل لى أن أجمع منها مثلكم ؟ .**
- **القمامة للجميع .. ليس هنا من يملكها .**
- **وأبيعها فى أخر النهار مثلكم ؟ .**
- **لا سنأكلها جميعاً على وجبة العشاء ! ، بالطبع ستبيعنها .. وتأخذين ثمنها نقوداً ، هل لديكِ أسئلة أخرى فلقد تأخرنا ؟ .**
- **لا .**

- **إذن هيا بنا .. القمامة فى إنتظارنا .**

لكنى قبل أن ينهض .. أشرتُ إلى حقيبه عنقه فى خجل .

- **ألازال بحوذتك شطائر أخرى ؟ .**
- **هيا .. وسنشترى عربة الشطائر كلها فى رأس هذا النهار .**

إصطحبنى إلى خارج المرفأ صوب الجهة الأخرى .. حيث مدخل البلدة ، تلك التى لم تطأها قدمى سوى القليل من المرات .. حينما كانت تأخذنى أمى إلى المدينة لنشترى أردية العيد ، وهناك ألفيتُ تلة شاهقة .. كومة كبيرة من القمامة ، قيل لى أنها " مقمة المدينة " .. لم يجدوا محطاً ليرموا إليه حسافتهم سوى هنا ، مدخل بلدتنا ! .

صعدنا التلة ، فألفيتُ الكثير من الصبية .. والكثير من الكلاب الضالة كذا ، كانت فى منأى ، كلما إقترب كلباً تلقى ضربة بعصاة أو حجر .. فلا يُعيد كرته ، حتى باتتْ المقمة نصفان ، نصفٌ ينقب فيه الصِبية .. وأخر تبحث فيه الكلاب الشاردة عن رزقها .

- **وماذا ينبغى علينا فعله الأن ؟ .**

قلتُ مستوضحة ، فرمقنى زُهِير يتلفتُ حوله ..

- **لا تتفوهين بمثل هذه العبارات ها هنا .. فهؤلاء أشرس من تلك الكلاب الضالة ، إن رأوكِ لقمة سيغة .. فسيبتلعونكِ دون شربة ماء .**

فإضطررتُ مجبورة أن أوصد فمى ، فأعطانى حقيبة من الخيش ، هامساً ..

- **خذى هذه .. وإجمعى فيها كل ما تجدينه نافعاً من المعادن أو البلاستيك ، حذارى أن تتحدثى إلى أيٍ منهم .. فلا ريب أن خبركِ قد طاف المقمة كلها ، لا نريد أن يصلهم كذا بأنكى خام .. حينها سيأكلونكِ حية .**

- **خام ! .. وما هذه أيضاً ؟! .**

فصرخ بى ضجراً ..

- **صهٍ .. إعملى فى صمتْ ، لا أريد أن أسمع لكى صوتاً .**

ظللتُ أرمقه خلسة بلحاظ عينى ، مشدوهة .. كيف تبدل حاله هكذا من النقيض إلى النقيض ، من اللطف والدعابة إلى الغلظة والفجاجة ، بنهاية الأمر لم أجد سوى أن ألزم غرزه .

باشرتُ عمله .. فتعلمتُ فى أقل من ساعة زمن الفوارق بين المواد ، هذا حديد وهذا نحاس أحمر وهذا ألومونيوم ثقيل وذاك خفيف .. إلى باقى القائمة ، أتقنتُ إنتقاء الثمائن بين ألاف الأشياء عديمة القيمة ، كنت أريد أن أثبت جدارتى لهذا الذى إلتوى لسانه علىّ منذ أن حط بين رفاقه .. فطفقتُ أطوف المقمة كلها صاعدة هابطة ، حتى تمكنتُ من ملئ حقيبتى فى وقت قياسى .. فتحريتُ عنده عن حقيبة أخرى ، وأخرى ، إلى أن إمتلأت أربع حقائب .

هو عمل شاق بحق .. بيد أن رغبتى فى الحصول على نقود أبتاع بها طعاماً كانت أقوى وأعمق ، فلقد باشرتُ ليلة من الجوع الأطيط .. لا أظن أن بين القطط الشريدة من عانتْ ويلاتها مثلى .

لكن أخر ما كنت أتوقعه أن تلفحنى شمس الظهيرة بسنانها الحادة .. حتى جاستْ فى جسدى سخونة قاسية ، لكنى بالنهاية تحملتْ ! ، وقبل المغيب بساعة زمن سحبنى زُهِير بحقائبى الأربع إلى تاجر المخلفات .. وأنا أترنح بين يديه ، فبِعتُ جميع ما فى حوذتى ، وفى طريق العودة عندما بدأت السخونة ترغى فى جسدى .. أخبرنى زُهير أنها أعراض " ضربة شمس " ، وحالماً سأمضى ليلتى راقدة .. قيد هلاوس وضلالات لا تنتهى ، وبرغم هذا تركنى عند ناصية المحطة على نحو فج .. بحجة أن عليه النكوص لداره عند تخوم المدينة حيث ضاحية " الأكشاك " .

رمقتُ شبحه ، مدهوشةٌ .. يجسر الطريق العمومى إلى ضفته الأخرى ، لا أتصور أن يتركنى على حالى هذه ويمضى ! ، حينها ضربنى إعياء شديد فتحجرتُ فى محطى .. وما كدت أخطو بضع خطوات حتى هويتُ أرضاً ، ترعد السخونة فى جسدى رعداً .

لا أعرف كم من الوقت قد مضى وأنا منطرحة ! ، ولولا أن يوسف إبن خالى لمحنى بجوار سور المحطة غامية .. ما إلتفت أحدهم لأمرى ، وبخاصة فى هذه البقعة التى لا يرتادها الكثيرون بعد مغيب الشمس ، وكان يوسف قد هبَّ إليها خصيصاً ، فى هذا الوقت .. ليبحث عنى ، وذاك بعدما سأل طه عنى فى المدرسة .. فأخبره بما كان من أمه وخالى .
أفقتُ للحظة على وجه يوسف .. وهو يقطر على هامتى ماءاً جلبه من صنبور المرفأ ، حينها كانت حرارتى فى تصاعد مستمر ، فلما كدتُ حتى غشيتْ عينى غيامات ثقيلة .. وإنساحتْ رأسى فى دوامات لا تنقطع ، غفيت أو ضربنى إغماء .. لا أعرف ! ، ذهبتُ إلى عالم أخر .. زارتنى فيه أمى كثيراً ، ظل حديثها يتناوح فى خلدى مع صوت الصبية والكلاب فى المقمة ، ما تكاد عينى أن تصحو للحظات .. حتى يجتذبها شيئ كالخطاف ، يظل دائراً برأسى حتى يطوحها إلى إغفاءات طويلة ، ليغمرنى بالأخير عرق غزير .. وكأنه بحر سحيق غائصة فيه لهامتى ، حتى عينى كانت تنضح من داخلها .
كلما تفاقم العرق ضربنى الضيق .. فيقترب وعييّ من النهوض ، إلى أن شعرتُ ببلولة تجوس فى أرديتى .. فتضايقنى كلما تقلبتُ يميناً أو يساراً ، وبعد نزاع طويل .. نهضتُ جالسة ، ولازال الخدر متشبثاً برأسى ، لأجد نفسى منطرحة على مقعد عربة القطار ، تلك العربة المخيفة ! ، وإلى جوارى حقيبة بها طعام وأخرى بها دواء .. فهمهمت **" سحقاً .. من جاء بى إلى هنا**

تارة أخرى ؟! " .
كان وعييّ ينهض مترنحاً .. مخموراً ، تذكرت الصبية المتسكعين ، هؤلاء الذين داهمونى فى الليلة الماضية .. فشعرتُ للتو فقط بما كانوا مغترقين فيه ، لا أملك الركوز دون أن أتكأ على ساعدى .. أو مستندة إلى المقعد خلفى ، رأسى يدور ويدور كالبندول ، رمقتُ حقيبة الطعام فأخذتُ شيئاً لا أعرفه ، قضمتُ منه بضع قضمات .. ثم مِلتُ إلى جانبى رزيحة ، نعاس لحوح يُثقل رأسى .. لأخوض إلى تلك الدوامات المُتيهة من أرحب أبوابها .

بعد بضع ساعات ..
شعرتُ بحرارة قاسية تلفح صدغى .. وبلولة تُغرق أرديتى ، أفرجتُ جفناى .. كانت أشعة الشمس تنسل إلى وجهى مباشرة ، وقعتْ عيناى على سقف العربة فنهضتُ مصروعة " **أين أنا ؟!** " ، سحقاً .. هذه عربة القطار ! ، للتو فقط نهض وعييّ بكامل طاقته .. فأدرك أنى بتُ ليلتى بعربة القطار ، لازالتْ رأسى تترنح .. وكأن ما جرى كان حلماً ، رفعتُ يدى أمسح عن وجهى غياماته .. فإلتقطت أناملى خشخشة شيئ بالجوار ، تلفتُ بناظرى فألفيتُ حقيبة طعام وأخرى بها دواء " **وما هذا أيضاً ؟!** " ، فركتُ جبهتى أحاول أن أسترجع ما حدث .. فإلتقطتْ ذاكرتى نتف مشاهد متناثرة لا تخلو من شطائر وعلب دواء ، أطرقتُ حائرة .. كان يوسف أخر وجه رمقته عينى بعد " ضربة الشمس " .
لم تمض سوى بضع ثوانٍ .. حتى ألفيتُ يوسف ينبلج من باب العربة ، عرفتُ منه أنه وجدنى مطروحة بجوار سور المحطة .. كنت فى حال يرثى لها ، أخبرنى أنه هرع إلى داره فتسلل إلى المطبخ وجلب بعض الشطائر .. ثم هرب خلسة عبر السور الخلفى إلى الخارج ، ثم أتى الصيدلية فإبتاع لى بمصروفه بعض عقاقير الحمى ومخفضات الحرارة ، وهنا فقط إكتملت

المشاهد المنتشرة فى رأسى .. وياليتها ما إكتملتْ ! ..
إفتزعتْ فى الحال ! ..
فطفقتُ أقلب فى ردائى وجيوبى ، لقد كان من جملة هذه المشاهد أنى تذكرتُ النقود التى بِعتُ بها حصيلة يوم شاق فى المقمة ، تلك التى إكتشفتُ للتو أن هذا " الحنش " قد سرقها .. بعد أن ألقانى كخرقة بالية إلى جوار سور المحطة .
إنذرفتْ دموعى عنوة ، شعرتُ بقهر هذه الأيام على وجهها القاسى ، وزيد القهر فى قلبى ضراوة عندما أخبرنى يوسف بأنه لن يملك أن يأتينى تارة أخرى .. فقد أرسل أباه من يتبعه بعد أن أسفر أمر سرقته الطعام من المطبخ ، وبعد ليلة تنكيد طويلة .. إضطر أن يعترف له بما فعل ، وذاك ما كان أباه يعلم نبأه مسبقاً ، لكنه أراد أن يسمعها من فم إبنه .. مصحوبة بوعدٍ بألا يطأ محطى أو يذهب ليرانى تارة أخرى ، ففعل .
وبعد ساعات قليلة .. ألفيتُ نفسى بين جنبات العربة أعانى جوعاً أطيطاً وليل ظليم ، وخوف رزيح يغشانى من إخمص قدمى إلى ذؤابة رأسى ، بيد أن هذا الخوف لم يدم كثيراً .. إندك سريعاً تحت وطأة تفكير لحوح .. فيما ينتظرنى .

(٢٣)

مرتْ نهارات طويلة وليال أطول .. ولم تستمرئ لى الأحوال ، كان الجوع هو الموضوع الأكثر طفواً على ظاهر حياتى ، فى بادئ الأمر ظلت سارة وهند يزورانى يوم بعد يوم .. بأطعمة أكثر ما قد يُقال عنها أنها كانت مقبولة ! ، لكنها بالنهاية كانت تسد رمقى ، كانا قد نبا إليهن خبرى بعد أن تناوشا أمامهن يوسف وطه فى المدرسة .. عما آلت إليه أحوالى من تشرد وضياع ، فتداولا على عربتى واحدة إثر الأخرى ، ولعدة أسابيع أقمتُ صلبى بما كانا يجلبنه لى ، فى كل يوم كنت أنتظر إحداهما عند ناصية المحطة عقب الدوام الدراسى .. إلى أن إنقطع إثنتيهم عنى فى آن واحد ، حينها تكهنت أن تكون إمهاتهن قد علمن بالأمر .. فمنعنهن عنى .

لم تمر ساعات حتى عادت معدتى تشتكى فراغها .. فلم أجد سوى الزراعات لأجوس فى طيها تارة أخرى ، باحثة عن ثمار أستطيع أن أتبلغ بها ، مكثتُ على هذه الحال لعدة ليال ، أتسلل إلى الغيطان ليلاً .. لأعود بملئ ردائى خضر وفاكهة ، حتى جاءت ليلة تعثر فيها حظى .. فأمسك بى أحد الفلاحين أثناء ريه لأرضه ، بعدها تحول نبأ الواقعة إلى لصوص يعيثون فى الزراعات ليلاً .. فيفسدونها وينتهبون خيرها ، وما هى إلا أيام حتى شاع الخبر بين الزُرَّاع وأصحاب الأراضى .. فأضحى كلٍ منهم يبيتُ على رأس أرضه ، يقظاً لمعظم الليل ، فأصبح من الإستحالة بمكان أن تجوس قدمى بشرى أيٍ من هذه الأراضى .

بنهاية الأمر إهتديتُ إلى حيلة جاءتنى بسبيل الصدفة .. كفلتْ لى كل ما أشتهيه من قوائم الخضر ، هناك فى ساحة سوق الخميس ، ففى مساء كل أربعاء كان التجار يُعدون فُرشِهم .. فيتركونها مغطاة على ما بها إستعداداً للسوق فى الصباح ، فكنت أتسلل فى المغارب وأنتظر بالساعات عند ناصية

السوق .. حتى يفرغ الطريق من السابلة وتبرح أخر قدم ساحته ، فأهمُ إلى الفُرش وأسفر أغطيتها وأنتهب ما لذ لى خضر وفاكهة ، وللحقِ كنت أجد كل ما أحبه وأشتهيه .. بل وأدخر منه لعدة أيام مقبلة حتى الأربعاء الذى يليه .

إلى أن حدث أكثر ما كنت أخشاه .. أن تتكرر تجربة الزراعات ، وقد كان ! ، لقد تنبه بعضهم إلى هذا اللص الذى يتسلل فى غبشة الليل إلى فُرشهم فيُسفر أغطيتها .. لتصبح عرضة لكل عابث وشارد من الإنس والحيوان ، ذاك برغم حرصى الشديد على إستعادة الأغطية لسالف عهدها .. ولكن يبدو أن أحدهم قد نصب لى كميناً أو رآنى ذات ليلة رأى العين ، وهو الأمر الذى جعل أرض السوق فى مساء الأربعاء ساحة محرمة علىّ وعلى غيرى من الشاردين .. كان من المستحيل وروده ولو بقبيل المصادفة ، وخاصة بعد أن كادت عِصيهم أن تُطيح برأسى ذات مرة .. إجترأتُ فيها فإخترقت القوانين ! .

حينها ، وفى مراوغة أخرى .. لم أجد سوى المساء الذى يليه ، مساء الخميس .. وذاك بعد إنتهاء السوق ، لأسعى بين نفاياته فألملم أفضل ما إنتثر من فضلاته .. بعد أن كنت أنتقى أشهى ثماره وأفضلها ، وهو الأمر الذى جعل معدتى فى تلبكٍ وإرتباك مستمر .. وخاصة بعد كل مرة ألتقم فيها مثل هذه الحسافة .

راودنى الأمل تارة أخرى فحاولتُ العودة لليال الأربعاء ، فمثلى لا يملك سوى أن يُعاود المرور على موارد المياه مراراً مهما طُرد منها ، غير أن التجار لم يملكوا يوماً قلباً أرق من الزراع .. لقد نصبوا خفيرين عند مقدمة السوق ومؤخرته ، فعدتُ كسيرة إلى عربتى .. ينتظرنى وحش أضرى من السباع ، ينتظرنى الجوع ! .

المترقب لهذه الأيام العسرة من صفحتى .. سيجد أن معضلتى ليست تلك العراقيل التى تنتصب عنوة فى طريقى .. بل فى شُح الناس وصلفهم ، ذاك الذى قَلل أموالهم فى أعينهم ورغبهم فى أموال الناس .. لتعانى مسكينة مثلى حتى تجد موطئ قدم بين أظلافهم ، لم يعد منهم من يأبه لأمرى أو يلتفتُ لتشردى .. رغم أنى طوال النهار أمام أعينهم رائحة غادية ، وقد كنت يوماً مدللة كصغارهم .

حتى خالتى نعمات وإبنها طه أشعرانى بأنى لم أكن سوى حمل رزيح تنوء به كواهلهم .. ضيفة ثقيلة لم يجنيا من ورائها سوى المشقات ، كانوا كلما رأونى سائحة فى طرقاتهم .. ينأون بأعينهما أو يتصنعان الإنشغال ، حتى المرة الوحيدة التى ألجأهما القدر فيها أن يصطدما بى بغتة .. لم تسألنى خالتى نعمات عن أحوالى ، بل أخبرتنى بأن خالى لم يُخل سبيلى رأفة بى .. بل لأنه أخيراً وضع يده على وديعتى التى تركها لى أبى ، وذاك بعد إن تسلم حضانتى بحكم القانون .

ولا أنكر .. فصدمتى حينها كانت صدمتين ! ، أنها أخبرتنى خلسة فى طى حديثها .. بكامل علمها بإنقضاء الظرف التى جعلها تسنفرنى وتُحجم عن ضمى لدارها ، وثانيها شؤم نبأها بضياع وديعتى ، تلك التى لم تكن فى السابق تعن لى شيئاً .. بيد أن ضياعها أشعرنى بضياع أخر قشة قد تنتشلنى من التشرد ، غير أن أيٍ من هذه الأفكار لم تعد تجدى شيئاً .. سوى ذهاب وقتى وفرصى معها .

إن ما عانيته من ناسى .. كان أشد وأنكى من أى شيئ تجشمتُ مشقته منذ أن رحلت أمى ، لم أعرف اليُتم ومعنى أن يكون الفرد يتيماً .. سوى وأنا أتجول فى طرقاتهم ملتصقة بهم ، أن يكون الفرد شريد ووحيد وخائف وجائع .. كل هذا فى آن ، وظل هذا المعنى قائماً فى ذهنى إلى أن كبرت .. فأدركتُ أن لليُتمِ مشقاتٍ ومعانٍ أخرى ، وقد جسرتها كلها .

مكث الجوع معى طويلاً .. حتى خايلنى ذات مرة أنى بالمدينة سأجد ولا ريب طعاماً سهل المنال ، وأناس ودودين أفترش أرضهم وألتحف سمائهم .. دون أن يجد الخوف لصدرى سبيل ، فهناك الدنيا العامرة .. المطاعم والأسواق والحوانيت الكبيرة ، والوجوه التى لا تبرحها الإبتسامات وحلو الكلام ، ومهما كان الوضع .. فإن نفايات المدينة ستكون أشهى وأنظف من سرار سوق الخميس وأفضل منابته ، ولا ريب أن ناسها أرحم جانباً من ناسى ، وفى سبيل ذلك تجشمتُ المسير على قدمى زهاء العشرة كيلو مترات إلى المدينة ، وهناك أقمتُ لعدة ليال بنهاراتها أتجول فى طرقاتها .. غير أنى ما وجدتُ سوى دنيا رحيبة لكنها ضائقة بناسها ، شوارع جافة وناس جامدين .. لا موطئ لضعيفة مثلى بينهم ، فنكصت بخيبتى على عقبى .. لأسير عشرة كيلو مترات أخرى .

عدتُ إلى تلك العربة البائسة ، تلفتُ حولى فوجدتُ أن الجميع قد إنقطع عنى ، سارة وهند ووسام .. أما طه فقد إتخذ درب أمه منذ البداية ، لم يستمر فى دوامه معى سوى يوسف .. ذاك الذى كان يُتحفنى فى كل زيارة بوجبة عامرة ، يدخر ثمنها من مصروفه كل بضعة أيام .. إلى أن ضيّق خالى الخناق حوله ، فرصد له من يرقبه أثناء ذهابه إلى المدرسة .. وبعد إنتهاء الدوام .

وذات خميس قابلته صدفة بساحة السوق ، فنفحنى مائة جنيه .. وأخبرنى هو الأخر بأنه لن يتمكن من زيارتى لعدة أسابيع ، وذلك لإنتهاء العام الدراسى ، حينها ضربنى ذهول وتوهة لم أملك معهما رداً ، فظن أن حزنى الذى طفى إلى وجهى بغتة كان لزياراته التى ستنقطع ، برغم أهميتها .. فظل يُبدى إعتذاراته وأسفه قبل أن يغادر ، غير أن أتراحى كانت تروغ فى درب أخر .

وقفتُ لبضع لحظات ساهمة .. أرقب شبحه الغارب وفى إثره ظلان أخران

يرقبانه ، إلى أن ذاب الجميع فى الناصية البعيدة .

" إنتهى العام الدراسى ! " ..
بزغت من عينى دمعتان يتيمتان .. ركضتا فى ألم على وجنتى .
ما كنت أظنه سينتهى بهذه السرعة ، خايلنى أن ثمة فرصة أخرى ستحين حتماً للعودة والإنتظام .. طالما أن العام لازال ممدوداً ، غير أن هذا لم يحدث .. تآزف القطار سريعاً ، غادر .. ليتركنى أسيرة الأرصفة وزحام المسافرين ، تذكرتُ الأردية الجديدة التى جلبتها لى فى السابق خالتى نعمات .. تلك التى لم أحبها ، ولم أشعر حيالها بسعادة .. كتلك التى كنت أشعرها تجاه أوعية أمى التى كانت تبتاعها لى فى مطلع كل عام دراسى جديد .
تسألتُ فى أسى **" وهل حقاً سيحين لى يوماً .. وتعـود حياتـى لسابق عهدها ؟! "** ، سؤال عنيد لطالما طن فى قرارتى .. وما من إجابة تطفو لتريحنى ، فقط أسئلة وإستفهامات ! .. حلقات متواشجة من الأحاجى والملغزات ، لا تجدى ولا تنفع ، وإن جادت بفائدة .. فإنها لا تتفتق إلا عن إجابات صارخة ، ما أحببتها يوماً ، إجابات تخلق من رحمها آلاف الأسئلة .
ما من يوم يمر إلا وتنتج الحياة فيه أطناناً من المخاوف والمحيرات .. لا تجد النفس فى ظلالها موطئ تقِرُ فيه فى أمن ووطون ، والناس كل يوم فى غطيط وبغبغة .. يركمون آلاف الأسئلة المحيرة ، تنبثق عن أسئلة أخرى ! .
كان إنتهاء الدراسة بالنسبة لى .. مثار لنهايات أخرى ، كنت أظنها فى السابق مستحيلة ، باتت اليوم عند سفح عينى .. ترانى أكثر مما أراها ، نهاية واحدة أذنتْ على غير موعد ودون سابق إشعار .. فتلقفتها جميع النهايات .

رمقتُ ثُلة من الصبايا يجررن حقابهن ، ويحررن أوثقة شعورهن فى غنج .. لتنساح كأذيال المهار ، وثبن راكضين بعيداً عن درب المدرسة .. وكأنما فررن من عقال ، ذات العقال الذى أتوق الأن للقبوع بين أغلاله وحلقاته ،

وقفتُ للحظات أنظرهن ملياً .. كانت شُبحهن تغدو عابثة ، وكأنهن بقع ملونة زاحفة .. تتماهى رويداً فى رماديات الأفق .

مرتْ ثُلة أخرى ، قليل منهن من أومأن لى بأطراف أناملهن دون عناء .. وكثيرات هن اللائى أشحن بوجوههن عنى آنفين ، وكأنما يقُلن فى قرارتهن " **ها هى من تركناها فى قديم الأيام** " ، لكم آلمنى هذا الشعور ونخر فى أعماقى .. فكمد صدرى أيما كمد ، شعور التأخر والركون فى موكب المهار الراكضة .. بت كماضٍ رزيح ينشب فى حاضر يلهث واثباً ، شعرتُ وكأنى خرقة بالية تطأها أقدام المارة ، كل المارة .. حتى من لم أعن قديما بالنظر إليهم ، اليوم تطأنى سحناتهم ورمقاتهم الممتقعة دون إكتراث .

أدرت ظهرى للصبايا منكسرة .. وشرعتُ إلى عكس وجهاتهن ، أنافح جميع السائرين ، ها هى الحياة التى يتأملون كثيراً فيها .. أرغمتنى على السير إلى عكس كل إتجاه طبيعى ، حتى باتت كل الوجهات فى عينى .. ضياع وتيه ، السوق ، محطة القطار ، الزراعات .. الشوارع المكتظة بالمارة والمتزاحمين ، كلها أوطان غريبة .. غزتْ وطنى وإستعمرته ، أو قل أنا من بادرت تحت وطأة العثرات .. فإرتميتُ بغشم فى أحضانها ، حاولت أن أهرب .. ولكن إلى أين ؟ ، ولم يعد لى وطن سوى عربة قطار بالية .. تعاف سكناها الكلاب " **سحقاً .. خرقة بالية فى عربة بالية** " .

(٢٤)

شطيرة تونة .. كانت أول ما إبتعتُ من المائة جنيه التى نفحنيها يوسف ، ركبتُ سيارة أجرة من مدخل البلدة شقتْ طريقها إلى المدينة .. وهناك سرتُ عبر الشارع الرئيسى فى خيلاء أزهو بشطيرتى ، ذلك الشارع .. أول موطئ حطتْ به قدمى في السابق .. حينما قطعت شوط العشرة كيلو مترات سيراً على قدمى ، لم أنس أبداً تلك اليد التى زجتنى إلى عرض الشارع .. عندما جلستُ لأستريح أمام حانوت يبيع أردية جديدة .
فى عناد .. وقفتُ أمام الحانوت أتحرى الأردية المعروضة ، أخذتنى تلك الموديلات المفردة خلف البلور وطريقة قصها .. كانت تختلف كثيراً عما نرتديه نحن هناك ، بالبلدة ، تبدو مبهرة لكنها لا تصلح للسير فى طرقاتنا .. متحررة وسافرة بما لا يليق بصبايا قريتنا ، وكأن صبايا المدينة قد صيغوا من طينة أخرى .. غير تلك التى نزرع بها أعلاف بهائمنا ! .
كثيراً ما كانت تحكى لى أمى أنها كانت صبية غير صبيات سِنها .. كانت ترتدى ما لا يملكون شراؤه ، قالت أنها فى كل مرة عند روحتها إلى الحائكة .. تطلب منها أن تخيط لها ثوباً مختلفاً ، لم تلبس مثله صبية من قبل ، وإذا ما تغمزت عليها الحائكة .. كانت تهتف بوجهها " **أتظنين نفسك بحق حائكة ؟** " ، ثم تذهب لأخرى فتُجزل لها العطاء لتحصل على ثوب لا مثيل له بين أردية الصبايا .
فبرغم فقر جدى وضيق ذات يده .. غير أنه لم يقطع عادته معها يوماً ، كان ينفحها صاغاً أحمر مشرشر على رأس كل يوم ، وهو الأمر الذى ساعدها كثيراً أن تخيط من الأثواب ما راق لها .

للحظات فكرتُ أن أبتاع رداءاً جديداً .. وخاصة أن ثوبى كاد أن يذوب على جسدى ، ذاك الثوب الذى أهدتنيه هند فى أخر زيارة لها ، أعجبنى

ثوباً ينهض خلف البلور .. فدفعتُ باب الحانوت غير آبهه لأستعلم عن ثمنه ، فطالعنى واحداً من هؤلاء ذوى المسحات الممسحقة ، وما كاد أن يرانى .. حتى مد يده إلى درج طاولة بالجوار فأخرج بضع جنيهات ، دفعها نحوى بيدٍ مقبوضة ، يردد ..

- **أرضاكى الله .**

فكففتُ يده مزعوجة ..

- **لا .. لست بشحاذة .**
- **ماذا تريدين إذن ؟.**
- **أريد شِراء هذا الثوب .**

وأشرتُ إلى ثوب معلق بمشجب خلف البلور .. وما كدت حتى طفح وجه الرجل بإبتسامة سافرة ..

- **وهل مثلك يملك ثمن هذا الثوب ؟! .**

فقلت محتدة ..

- **أولستُ كؤلاء الذين يرتادون حانوتك ؟ .**

فرمقنى الرجل فى تحدٍ ..

- **إذن فثمن الثوب أربعمائة وثمانين جنيهاً .**

فجفلتُ وأغرقنى حرج شديد .. وكأن دلواً بارداً إنصب فوق رأسى ، خاصة وأنا أعاين تلمظ الرجل ولمزة .. كانت عيناه الكائدة تحوطنى من كل جانب ، فطأطأتُ رأسى فى خجل جم .. وطفقتُ رويداً أتقهقر بظهرى إلى الخارج ، وما كاد ينكص لأشغاله يُهزهز رأسه ساخراً .. حتى إنسللتُ خلسة إلى الشارع .

قطعتُ الشارع بخطو لاهث مكروب .. تكاد رأسى أن تنفجر غيظاً ، أردد " **ما أسخفك من رجل** " ، إلى أن توقفتُ بغتة " **ما أسخفنى أنا .. ما لى ومال هذه الأثواب السافرة ! ، لا تليق سوى بالغانيات** " .

حينها طرقتْ أذنى لجة وصياح يموج بالجوار .. عند الناصية الأخرى للشارع ، توقفتُ مصغية للحظات .. فشعرتُ بضيق حدانى أن أدفع قدمى فى ضجر " **ما لى ومال هذا أيضاً !** "، غير أن الصياح طفق يعلو ويضج .. حتى تقاطر إليه المارة واحداً تلو الأخر .. فوجدت قدمى تقودنى إليه دون إرادة ، لأباشر الأمر عن كثب .

ألفيتُ لُمَة من الناس وقد تآجلوا حول عجوز ثائر .. ينثر السُباب هنا وهناك ، بينما إنتثرتْ لُمَة أخرى تُزيح بشاب يافع بعيداً عنه .. بدا أنهما للتو كانا يشتجران ، ظل الشاب يُطوح بيده لأعلى وأسفل مُهدداً .. فتكاتفت عليه ثلة من المارة يزجونه إلى أن غادر الشارع تماماً ، أما العجوز فقد تهدل إلى مقعد بالجوار .. يروى لأحدهم علة عِراكه بعبارات لاهثة متعثرة ..

- **أغلقتُ الحانوت على هذا الفسل ليلة أمس ليُنضد صناديق الأحذية إلى المخزن .. وعدتُ الأن لأجد كل شيئ كما تركته ، وهو غارق فى النوم إلى أنفه .**
- **على رسلك .. لا جدوى من الرعد والسباب ، فلتنظر عاملاً أخر ينضدها .**
- **كلهم كسالى أنسال شوارع .. لا يبتغون سوى إنتهاب مالى .**

ثم نهض عن مقعده ضائقاً ..

- **سأقوم أنا بمهامى .. لا حاجة لى بهؤلاء النصابين ، هيا .. ليذهب كلٍ إلى حال سبيله .**

وأشاح بكلتا يديه للحشد الذى تآجل أمام حانوته .. فإنفضَّ الجميع ، بينما لوى هو عنقه إلى الحانوت ضائقاً .. فرأى الصناديق مركومة هنا وهناك ، فطفق يتمتم ..

- **وها هو يوم أخر سيذهب أدراج الرياح بسبب هذا الرذيل .. قبحك الله من فاشل لا يُجيد سوى النخير بأنفه ! .**

حينها طرقتْ رأسى فكرة مجنونة .. فهرعتُ إلى الرجل الذى همَّ بإغلاق الحانوت على نفسه ، ألفيته قبل أن يُشيح الباب إلى منتصف شوطه .. فطأطأت رأسى من الخارج ..

- **إنتظر .**

فحدجنى من الداخل ..

- **وماذا تريدين أنتى أيضاً ؟! .. أرضاكى الله .**

" **سحقاً .. هو الأخر يظننى شحاذة** " ، أشاح لى بيده .. فإستمهلته

- **إنتظر .. لست بشحاذة ، سأُنضد لك الصناديق إلى المخزن بالأجر الذى نتفق عليه .**

لا أنكر ، شدهتنى تلك الطلاقة التى إجترأ بها فاهى وكأنى أزاول مثل هذه الأعمال منذ نعومة أظافرى .. غير أنها لم تُجدى نفعاً من الجولة الأولى ، إذ رمقنى الرجل شذراً ..

- **اغربى عن وجهى .. ما عاد لى غير هزر الصغار .**

كاد أن يغلق الباب .. لولا أنى إستمهلته تارة أخرى

- **جربنى .. فإن لم أستطع فلا تعطنى أجراً .**

فأخلى الرجل سبيل الباب لينفرج لأعلى .. ثم نظرنى ماحصاً ، تفحصنى من ذؤابة رأسى إلى أخمص قدمى .. فوجد حديثى هوى فى نفسه ، فقال

- **لا ضيم .. فلنجرب .**

فبادرته ..

- **ولكن إن أتممتُ المهمة .. فكم ستُعطنى أجراً ؟ .**

فضحك الرجل لحصافتى ، ثم أطرق لثوانٍ يحك جبهته ..

- **حسناً .. سأعطيكِ عشرين جنيهاً .**
- **لا هذا قليل جداً .. للتو قلت أنك ستعطى الشاب مائة وخمسين جنيهاً .**

- **أنا قلت هذا ! .. لا أتذكر .**

كانت محض حيلة ، يبدو أن الرجل لم يتفق مع الشاب على أجر من الأساس .. فنجحتْ حيلتى ، إذ تكهن الرجل أن يكون الشاب هو من تفتق لسانه بهذا الأجر ، تلفت مراوغاً .. لا ينهض بصره إلى عينى

- **إذن سأعطيكِ خمسون جنيهاً .**
- **لا .. بل مائة جنيه .**
- **مائة ! .. كيف هذا ؟! ، ألا تنظرين لحالكِ .. لازلتى صغيرة لا تقدرين على أعمال شاب يافع كذاك .**
- **قلت لك جربنى ، فإما أن أُنجز مهامى .. وإما فلا أجر .**
- **هى سبعين جنيهاً .. ولن أزيد خردلة .**

فأشحتُ له بوجهى ..

- **إذن فإبحث لك عمن ينقذك من ورطتك بسبعين جنيهاً .**

ثم أعطيته ظهرى نافرة إلى عرض الشارع .. أتظاهر بالإستغناء ، سرتُ مترسلة بخطو وئيد .. بينما لوى الرجل عنقه إلى الصناديق المشرعة كتَبْةٍ ناهضة وسط حانوته ، ففزع إلىّ هاتفاً ..

- **موافق .. مائة جنيه .**

فإبتسمتُ " **متى جاءتنى هذه الحنكة .. لأتلاعب بعجوز مخضرم** " ، وقبل أن أستدير إليه إستجمعت غضون وجهى متجهمة .. ثم نظرته فى صرامة مضحكة ..

- **وهو كذلك ، إذن خلى سبيلى إلى هذه الصناديق اللعينة .**

بدأتُ العمل فى عاشرة هذا النهار .. ولا أعرف ماذا تُخبئ لى الأقدار ، كل ما همستْ به نفسى .. أنها محض صناديق أحذية ، وقد حملتُ بالمقمة ما هو أثقل منها ، غير أن المفاجآت جاءتنى تباعاً مع الشوط الأول ، لقد أرادنى

هذا الداهية أن أزيح تبة الصناديق إلى مخزن بالقبو .. وليس بمؤخرة الحانوت كما ظننتْ ، فكرتُ فى التراجع .. إلا أنى بالأخير لم أجد سوى أن أذعن للأمر ، ليس لقيلة حيلتى .. ولكن لأحفظ ماء وجهى أمام عجوز زلق اللسان ، فلاريب أنه سيسلقنى بسبابه اللاذع .. إن أنا أبديتُ إعتراضى ، ليس هذا فحسب .. بل وسيُؤلب الشارع فوق رأسى .

بمرور الظهيرة كنت قد نقلتُ الكثير من الصناديق .. غير أن التبة شاهرة لا تنهزم ، لم تتحرك قيد أنملة ، وقتئذٍ شعرتُ بحقيقة ورطتى .. فرفعتُ هامتى إلى السماء أستجدى عونها ، ثم شرعتُ فى حمل المزيد من الصناديق فى الرصيصة الواحدة ، كانت ثقيلة ولكنى تحملتْ ، مرتْ ساعتين زمن قبل أن تنحسر نصف التَبْة ، والعجوز هناك .. قابع على مقعد بصدر الحانوت ، ينظرنى من فينة لأخرى .. ثم يُشعل لفافة تبغ وينفث دخانها نحوى ، ترتسم على وجهه إبتسامة هزء سمجة ، وله كل الحق ، فأنا ببلاهتى وضيق بصيرتى ، وبعد يوم عمل شاق .. لن أتقاضى أجراً ، فهذه التبة ولا ريب تحتاج إلى أربعة صغار من شاكلتى لثرثرتها .. لا لنقلها .

شارفتُ عصر هذا النهار .. ولايزال النصف الثانى شاهر عنيد ، يُبرز لسانه لى من حين لأخر مُتشفياً فى إندفاعى وغشامتى ! ، أما العجوز فبعد أشواط كثيرة من التثاؤب ، كادت أن تسوق الغفى إلى عينى .. إنزاح إلى داخل الحانوت وإفترش بساطاً من الجلد ، وراح يغط فى نوم عميق ، يرج شخيره جدران الحانوت .. ولا يُحرك صندوقاً واحداً من هذه الكومة الرزيحة قلامة ظفر ، خايلنى لأكثر من مرة أن أتسلل خلسة من الباب .. وأفر إلى حيث أتيت ، غير أنى فى كل مرة ما أكاد أن أحرك قدمى .. حتى يتقلب الرجل مُفرجاً جفنيه لثوان ثم يُرخيهما بهدوء ، وكأنه يهمس لى " **لا تحاولى .. فأنا أراكى** " .

مر الوقتُ سريعـاً ، فما كادت أن تتلاقف المآذن نداء المغـرب .. حتى أذنتْ

ساعة العشاء .. ولا يزال الباقى من الصناديق يُلجم عينى ، وكأنى فى إمتحان دراسى عسير .. شعرتُ بالدقائق تتناقص رويداً كحبات مسبحة تنفرط ، وحالماً سيُعلن إنتهاء الوقت ، لم تنقطع عينى عن السماء ولم يكف لسانى عن ترديد " **رحماك ربى بصبيتك اليتيمة** " .

وبقدرة لا طائل لى بها .. ظلت الكومة تنزاح أجزاءاً أجزاءاً ، حتى تقزمتْ إلى بضع صناديق مبعثرة هنا وهناك ، غير أن الرجل طالعنى بغتة بأذون ساعة الرحيل ! ، فطفقتُ أركض مسعورة صاعدة هابطة .. حتى لم يتبق سوى زهاء ثلاثين صندوقاً ، وإذا به يُصْرِعُنى بهتافه ..

- **كفى .. لن أنتظر مزيداً من الوقت .**

فإستمهلته ..

- **على رسلك ، لم يبق سوى هذه الصناديق .. وينتهى كل شيئ .**
- **لا ضيم .. سأنقلها أنا غداً ، هاك سبعون جنيهاً أجر ما شقيتى به .**
- **ماذا ؟! .. نحن لم نتفق على هذا .**
- **وأنتى لم تنقلى جميع الصناديق ، حرىٌّ بى ألا أعطيكِ شيئاً .. أظن أن هذا أيضاً كان إتفاقنا .**
- **أقل من خمس دقائق وستكون جميعها بالقبو .. فقط ألتمس المهلة .**
- **لا .. لقد إنتظرتُ كثيراً ، وآن لى أن أغلق الحانوت ، خذى أجركِ .**
- **لن أبرح قبل أن تُعطينى ما إتفقنا عليه ، أجرى بالكامل .. مائة جنيه**
- **لكى ما تريدين ، فلتبقِ هنا حتى تأكلكِ العفاريت .**

وهنا أطفأ الأنوار ثم أغلق الحانوت وأنا بداخله ، فصرختُ مفتزعة ، فأفرج الباب تارة أخرى .. ثم حدجنى ضجراً

- **هيا فقد ضاق خلقى ، خذى أجركِ .. واغربى من هنا .**

وألقى بالنقود إلى الأرض ..

- **لا أريد منك نقوداً ، لا أبتغى سوى حقيبتى .. أمهلنى قليلاً حتى**

أحضرها من الداخل .

- **هيا أسرعى .**

فتسللتُ فى الظلمة إلى الداخل .. فالرجل أبى أن يضغط مقبس الإضاءه ، كونه ما أراد إلا إستنفارى ، وهو ذاته ما إبتغيتْ ! ، ظل يتآزفنى من الخارج .. وأنا أردد

- **ها هى وجدتها .**

وفى طرفة عين ، إخترقتُ الدلجة إلى الخارج .. وفى يدى يتعلق صندوقين يفوق ثمن ما يحويانه المائتين جنيه ، فيوم عمل طويل .. كان كافياً لأعرف أسعار كل البضاعة .

ذهل الرجل للحظات .. فما أفاق إلا وأنا أهتف صاخبة

- **سأبيعها وأحضر لك الباقى .. فأنت رجل كاذب ونهَّاب .**

وهنا ركض خلفى كالمصروع ، يصرخ ..

- **أمسكوا هذه السارقة**

وبخطوات جملية كاد أن يلحق بى ، لولا أن سيارة وثيرة ، أعرفها ، أعملتْ مكابحها .. فتوقفتْ أمامه بغتة ، إنفرج بابها .. وإنتشلتنى يدٌ إلى داخلها ، ليسقط الصندوقان على قارعة الطريق ، فهرع الرجل وإلتقطتها .. بعد أن غادرتْ السيارة مخلفة صفير مدوى .

(٢٥)

إنطلقتْ السيارة .. لأجد نفسى بحوذة شاب لا أعرفة ، أخذ الأمر منى عدة دقائق لأتنبه لما جرى ، حاولتُ الصراخ .. غير أن الخوف أوقف النبض فى حلقى ، وبرغم أن الرجل ظل صامتاً طوال الطريق .. غير أن صمته ما زادنى إلا رعباً ، وخاصة عندما كانت عينه تلوح نحوى بنظرات نافذة .. شعرت أنها تجوس إلى قاع رأسى .

ظلتْ عيناى تدوران خلسة إلى النافذة تارة وإليه تارة أخرى ، إلى أن توقفت عند صورة مأطورة .. تتعلق بمدلاة ناشبة بالمرآة الداخلية ، ما كانت عينى لتمر عليها مرور الكرام .. فهى ذاتها الصورة التى أطلعنى عليها زُهير عامل المقمة بصفحة الجريدة ، تلك التى كانت تُشبهنى ، برغم أن المدلاة كانت تتأرجح مع حركة السيارة .. غير أنى تمكنتُ من إلتقاط ملامحها ، فما تحرك فى قرارتى وقتئذٍ .. سوى أن الرجل ما جاءنى إلا قاصداً ، وهو الأمر الذى أسقطنى فى هوة من الحيرة والشده .

وزيد الأمر ريبة عندما إنسلت المشاهد إلى رأسى بغتة .. فتذكرتُ كل شيئ ! ، لقد رأيت هذه السيارة مرتين ، تارة إبان واقعة المتسكعين الذين داهموا المرفأ ، وقبل ذلك بالمقابر .. حينما كنت مصطرعة بين يدىّ خالتى نعمات ، فبرغم أنى كنت حينها غامية .. غير أن عينىّ إلتقطتها بين عشرات المشاهد هناك .

حينها شعرت بالقلق يجوس فى صدرى .. تاركاً جرذانه ترتع ببئره هنا وهناك ! ، فترددت عيناى إلى أساريره ساهمة لبضع لحظات ، توقف عقلى ، فما تمكنت أن أقتنص صمته .. فأصرخ ، ما تمخضتُ بسلوك ذا أهمية ، كان من الصعوبة بمكان أن يتجاوز الصمت خوفى .. متغاضياً عن تلك الأسرار الوبيلة التى تلوح بوجهه ، كلما رمقته خلسة بلحاظ عينى .

ظلت السيارة تنسل من شارع إلى أخر .. والرجل قائم على المقود لا ينبس ببنت شفة ، حاولتُ مقاومة شطحات عقلى وأسباب إرتيابى ، بيد أن إبتساماته التى تتناثر على وجهه من آن لأخر .. أطرحتنى فى دائرة من الوهم والوجل ، كانت إبتسامات ذات مغزى .

وعلى حين غرة إنثال صوته إلى أذنى ، قائلاً ..

- **ما عرفتُ أنكِ تخافين على هذا النحو يَنُّور ! .**

فنظرته منتفضة .. أهمس فى نفسى " **ويعرف إسمى !** " ، غير أن حديثه أنبض الدم فى عروقى .. فهتفتُ بصوت مرتجف ..

- **أنزلنى هنا .**

فطالعنى فى رزانة وجمود ..

- **لا جدوى من الصراخ .. فحالماً سنقف .**

وما هى سوى برهات حتى توقفتْ السيارة ، حاولت أن أفتح الباب لأهرب .. غير أنه كان موصداً من الداخل ، فتشنجتُ يدى على المقبض **كيف يفتح هذا ؟!** .

فبادرنى بإبتسامته المحيرة ..

- **فلتهدأى ، لا داعى للخوف .. فأنا لست بخاطفك ، ما بال صبركِ عند شفير أنفك ! .. لو كنت أريد بكى سوءاً لتركتكِ لهذا العجوز يلتهمك ، أنا من أنقذتكِ .. لا تنسى هذا .**

ثم أبرز من أحد أدراج السيارة حقيبة بلاستيكية .. خايلنى أنها تحوى طعاماً ، مدها نحوى قائلاً ..

- **فلتأكلى أولاً .. فأنا أعلم ما أنتى مغترقة فيه منذ صبيحة هذا النهار .**

غير أن الصمت والجفول لم يبرحانى .. لم أقو على ما يجول فى نفسى من هسيس وظنون ، فلما عاين ذلك منى ، خاصة وأن يدى لم تمتد إلى الحقيبة .. ألقاها إلى جوارى ، حينها تغرتْ فورة فى رأسى .. فنظرته محتدة

- **لا أريد أن أأكل شيئاً ، أريد أن أبرح هذه السيارة .**
- **إهدائى .. ماذا قلت لتهتاجين على هذا النحو ؟! .**

ومد يده ليربت على كتفى .. فإنتفضتُ منكمشة نحو الباب ، قائلة ..

- **يزعمون أن أمثالك يخطفون الصغار ويبيعونهم إرباً .. ولا شك عندى أنك مجرم أو مجنون ، إفتح الباب وإلا صرختُ بأعلى صوتى .. فأجمعتُ عليك الناس ومزقوك .**

فضحك هازئاً ..

- **لماذا تفهمين الأمور على هذه الشاكلة ، إن كنتُ أنتوى سرقة طفل .. فلماذا أشقى بكِ أنتى خصيصاً والشوارع كما ترين تعج بالصغار اللاهين ؟، وما أيسر من إصطيادهم ، ألم تسألى نفسكِ لبرهة .. ما الداعى لأن أتجشم عناء مراقبتك لشهور طوال ؟ ، وإن كنتُ أنتوى خطفك .. ألم تواتينى أكثر من فرصة لفعلها ، خصيصاً وأنتى بمفردك تتقاذفكِ الشوارع هنا وهناك .. وفى أصعب حالاتك .**

ثم أشاح بوجهه ناظراً من شرفة السيارة .. لتسود هنيهة صمت ، وما لبث أن تنهد ناظراً نحوى .

- **إهدأى ولا تتصابى ، لقد أسأتى الفهم .**

وبصوت خفيض حانى توجه نحوى ..

- **أنا هنا لأجلك .. ما جئتكِ إلا بخير ، أنا أخر شخص بهذا العالم يمكن أن يسوءكِ .**

ومد يده إلى رأسى ليهدئ من روعى .. فأطحتُ بها ، فراعه ما بدر منى .. وإضطر أن يُفرج أقفال السيارة ..

- **لكى ما تريدين .. فأنا لا أبتغى إخافتك ، يمكنك النزول الأن .**

وألفيتُ الباب ينفرج مستجيباً لقبضتى ، فوثبتُ لتوى إلى خارج السيارة .. دون أن أعن بيدهِ التى إمتدتْ لتوها إلى المدلاة الناشبة بالمرآه ، إثر نزولى

مباشرة ، حينئذٍ إلتقطت عينى إلتماع هائل يدور فى حدقته .. يُعزِه آساً عميق طاح فى أساريره ، إلا أن أيٍ من هذا لم يُثن عزمى عن الفرار .

أطلقتُ قدميّ إلى الريح .. وركضتْ ، حلقتْ مكروبة ، غير أنه وبعد بضع وثبات توقفتْ .. تثاقلتْ قدمى ، حينها ، ولا أدرى لماذا ساورنى هذا الشعور المخيف ، أحسستُ وكأن أمهات الدنيا كلهن حيضن خصيصاً لأجل إيذاءى بسحر مهول .. وإلا فما بالى أتعثر بالمحيرات هنا وهناك .
ثمة شيئ غريب فى الأمر ! ..
الرجل لم ينقذنى من هذا العجوز النهم .. ليخلى سبيلى بهذا اللين على قارعة الطريق ، ثم ما الذى حداه أن يراقبنى كل هذه الشهور .. لأجده أمامى فى أحلك الظروف ؟! ، وكأنه غوث السماء ! ، يحين فى أوقات بعينها .. لنصرتى وكشف شدائدى ، فتارة جاء ليُلفت المارة إلى تلك الضعيفة المصطرعة بقاع قبر مظلم ، وتارة أخرى لينتشلها من حفنة باغية من المتسكعين .. كانوا قاب قوسين أو أدنى ويُنشِبوا مخالبهم فى جسدها الهزيل ، ولعل ما خفى كان أعظم ! ، فما أكثر تلك الكربات التى وافتنى منذ أن رحلت أمى .
فى ثوانٍ زهيدة لا تعدو خفقة عين ، طاحتْ الأسئلة تتواثب فى رأسى .. فلا أجد فى نهاياتها غير أيادٍ طيبة قد تكون لهذا الرجل الغامض ، ولا أعرف لماذا عزتُ مُعتقدى هذا .. بذاك الخير الماكن دواماً على هامش دنيانا ، فالناس على غير شاكلة واحدة ! ، ليس جميعهم كخالى وزوجته .. أو حتى خالتى نعمات ، ليسوا كنَاس قريتنا الجاحدة ! .
ولا أدرى لماذا دفعنى فؤادى أن أحيله على غير هذا النمط المخزى .. الذى ما عهدته سوى فى أهلى وجيرانى ، رغم إباء عقلى ورفضه للفكرة برمتها .
وزيد الأمر حينما إستدرتُ بغتة نحو السيارة .. فرأيتُ الرجل يلثم المدلاة ،

خايلنى أن دمعات تموج على صفحته ، ولا أنكر ، لوهلة .. تهزهز قلبى لشيئ ما لا أعرف كنته ، سوى أنى شعرتُ لأول مرة بهذه القلوب التى تتلاقى فى ملكوت لا يُشبه أبداً ملكوتات دنيانا الفانية .. فوافتنى العبرات على وشك أن تطرق أجفانى ! ، أسارير الرجل الآسية .. حركتْ شوقى لمن فارقونى " **من أين جاءنى هذا الشعور ؟!** " .

بهذه السرعة تحول كل شيئ من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، من الخوف والريبة .. إلى الحزن والشفقة ! ، فمن الناس من يجعلك تمقته برمقة .. وتأسى لأمره برمقة أخرى ! ، وطلة هذا الرجل الأخيرة .. لخصتْ فى نفسى كل شيئ ، دون أن يُذَيِّل أمره بكلمة واحدة .

شعرت بتوتر يجوس فى صدرى .. فإضطربتْ قدمى ، ركضتُ إلى شرفة السيارة .. كحال كل الصغار الشغوفين لمعرفة ما تُخبئه الأصداف ، طرقتُ البلور فى رعونة طفولية ، فتنبهتُ إلى يد الرجل تنساح إلى عينيه .. لتزيل ما إنسكب عنها من دمعات ، بدا أنها هوت من موادعها دون إرادة .. إستجابتُ لأتراح جاهد صاحبها لدفنها عبر سنوات طويلة ، غير أنها بين حين وأخر تباغته .. لتنطق بما عانى لإسكاته من موجعات .

إنفرج البلور .. فتلعثمت الحروف على شفاهى ، الرجل دون أن يقصد .. يمس فى نفسى جراح لم تندمل ، شعرتُ وقتئذٍ أنها هى ذاتها جراحه ، لشهور طوال لم أجد من يشاطرنى وجعى دون أن يفوه لى بكلمة مواساة ، إلتفتُ إلى الطريق فى حركة متوترة لا معنى لها .. سوى أنها تُلخص حال من يحاول تدارك أشياء تطفو قسراً من العمق .

تنهدتُ بصعوبة .. كان النفس يتردد فى صدرى مرتبكاً ، إستجمعتُ لباب أمرى من بين أشياء شتى متناثرة .. غير أن الحروف ظلت تتماوج على شفتى لتذهب إلى لا شيئ ، كنت بالكاد أقاوم إختلاج أجفانى المتكرر دون إرادة

.. خشية أن يلمح الرجل من فرجة بسيطة هذه الأشياء التى تنبض بصدرى ، وأخيراً تنهدت بعمق ، كمن يستجمع ثقته بنفسه .. ثم قلتُ بصوت خفيض يُهدهده الشجى ..

- **صورة من هذه ؟ .**

فتحول الرجل إلى الصورة ساهماً .. ليتشكل الحزن فى عينه ذهولاً وشروداً ، ثم نظرنى متوانياً .. تلوح إبتسامة آسية فى ركن فمه ، وتترد فى صدره لهفة من يتوق إلى عناق عزيز ، ثم قال ..

- **هى أختى ، إسمها " دِيما " .. ماتت منذ خمس سنوات .**

حينها فقط تأكدتُ أن كل ما جاس بصدرى ومزقه .. لم يكن وهماً ، تذكرت أمى ، فجهشتْ نفسى رغماً عنى .. ومن فورها إنسلتْ عينى بدمعتيها اليتيمتين ، ودون إرادة جنحتُ إلى الباب .. فأمسكتُ بالمقبض وأدرته صاعدة إلى السيارة ، وعلى عكس ما كنت فيه من وجل فى المرة السابقة .. شعرتُ بطمأنينة من يواتى ناساً يعرفهم ، حينها كنتُ فى حلٍ من أن أسأله ما بقى من أسئلة ، فأسباب الرجل واضحة .. لا تحتاج إلى تأويل أو تفسير ، غير أنى أردتُ أن أعرف مزيداً عن أخته .. " ديما " ، تلك التى ساقته فى إثرى أشواطاً مديدة ..

- **ولماذا ينشرون صورتها فى الجريدة ؟! .**

وكانت الإجابة وقتها أعمق من أن أستوعب كل تفاصيلها .. غير أنى لما كبرتْ عرفتُ حكايتها ، والتى بدا أنى كنت أخر من يعلمها .

" قال أنه من عائلة سورية .. و" ديما " هى أصغر أخواته ، ولما حدث ما حدث بسوريا من إحتلال وحرب أهلية .. دُمرتْ منازلهم تحت القصف الذى لم يكن يتوقف ليل نهار ، فنزح أهله وكثير من العوائل السورية إلى مخيمات جماعية على حدود الشواطئ والجبال ، حينها كان يعمل بمصر ،

فعلم مثل كثيرين بما جرى لأهله .. غير أنه لم يتمكن من العودة ، وتفاقم الأمر بإنقطاع كل خطوط الإتصال ، إلى أن بوغت فى صباح قاتم بصورة " ديما " تتصدر صفحات الجرائد ومواقع التواصل الإجتماعى "

وهنا تخضلت كلماته بأفياض من عبرات مقهورة ، فما جرى لـ " ديما " برغم كونه عملاً بطولياً لا يتكرر فى التاريخ كثيراً .. غير أنه كان موجعاً إلى أقصى حد .

" قال أن القائمين على أمر المخيم ، الذى نزحتْ إليه عائلته ..قد تلقوا العديد من التهديدات من قوات الإحتلال الإسرائيلى بالقصف الجوى ، وذات التهديدات كانت موجهة للعديد من المخيمات الأخرى .. المنتشرة على الحدود ، فلم يجد الأهالى سوى النزوح إلى الشاطئ ، وذلك بعدما وافتهم إستجابة من " اللجنة الدولية للصليب الأحمر " .. والتى أرسلت العديد من زوارق الإنقاذ لنقل النازحين فى دفعات .

وبينما كانت الزوارق تقل الأهالى إلى نقاط بعيدة عن بؤر القصف المحتملة .. كانت " ديما " فى جهة أخرى تحمل حاوية بنزين ، كان الوضع سيئ للغاية ، فبرغم أن الزوارق كانت تلهث على الشاطئ بكامل طاقتها .. غير أن النازحين لازالوا منتشرين بعوائلهم وأطفالهم هنا وهناك ، وهو الأمر الذى فاقم من إحتمالية أن تلتفت طائرات الإحتلال إلى نزوحهم عن المخيم إلى جهة الشاطئ .. إلا إذا سِيقت هذه الطائرات إلى الجبال فى الجهة الأخرى ، وهى الفكرة التى واتت " ديما " على حين غرة ، فحملتْ حاوية البنزين على عاتقها .. وشقتْ بها الطرق الوعرة لما يقرب من الخمسة كيلو مترات إلى أغوار شعاب جبلية عند الجهة الأخرى ، إلى أن حل الظلام .. فأوقف مسيرها عنوة ، وفى دلجة الليل تسللت إلى الجبال .. فأشعلت الكثير من بؤر النيران فى الكهوف

والمغاور المجاورة .
وما هى إلا ساعات .. حتى غشيت طائرات الإحتلال سماء تلك المنطقة المتوترة .. ونجحتْ " ديما " فى إنتهاب أنظارها ! ، فسريعاً ما أطلقتْ صواريخها بضراوة ودون سابق إنذار .. قصفت ما يزيد عن ثلاثين بؤرة نارية متناثرة بين أكناف الجبال ، نسفتْ المغاور عن أخرها .. ظناً أن الأهالى قد نزحوا إليها ، وفى إجراء إحترازى .. طفقت تحوم بالمنطقة لعدة مرات فى مناوبات مسح جوى دقيق .
حينها كانت أصداء التفجيرات قد إخترقت جحافل النازحين إلى الشاطئ .. فجمدهم الرعب ! ، يلتمسون مهرباً من هذا الجحيم الزاحف والخطر الموشك ، هرعوا إلى زوارق الإنقاذ بعوائلهم .. يتضرعون إلى الله أن يُنجيهم قبل أن تناهزهم الطائرات .
وما هى إلا ساعة زمن ، هدأ بعدها القصف لبضع دقائق ، وكأنها هدنة حرب .. لتخترق الطائرات المجال الجوى لمنطقة المخيمات ، فطفقتْ تُلقى بوابل من قذائف الهاون الثقيلة دون تمييز .. حتى حاصرت الحرائق كافة الخيام والمنشآت ، حامتْ لعدة دقائق ثم غادرتْ .. دون أن تنتبه لعجيج الزوارق الراكضة على بعد كيلو متر من تخوم الشاطئ .
حينها كانت " ديما " فى حال يُرثى لها .. فقد أصابتها الموجات الإنفجارية بسحجات خطرة وجراح غائرة ، زحفت حتى وصلت إلى نقطة آمنة .. ثم تجشمت المسير لخمسة كيلو مترات أخرى ، لتلحق بأخر ما تبقى من زوارق الإنقاذ ، غير أنها وجدت جميع الزوارق قد نفرت عن الشواطئ .. بعدما أخلتْ المخيم بأكمله ، قبل أن يحترق .
أسلمتْ نصابها إلى الشاطئ ، ولساعات ظلت تنتظر مرتجفة .. غير أن الأمر كان قد إنتهى ! ، وما من سبيل لعودة الزوارق إلى هذه البقعة الخطرة .

ماتت على الشاطئ متأثرة بجراح نافذة .. تُعزز قسوتها هجمات ضارية من الأنواء والبرد القارص ، ماتت بعدما تمكنتْ من إنقاذ مخيم يتخطى تعداد النازحين فيه الستين ألف ، فأضحتْ أيقونة صارخة لمعاناة أطفال المخيمات . "

(٢٦)

سكت الرجل عن الكلام المباح .. وما ملكتُ من كلمة أفوه بها لمواساته ، للحظات أطبق صمت رتيب .. لا يُسمع سوى نهنهة شاب يافع أمام صبيّة لم تبلغ العاشرة ، شعرتُ بإرتباك شديد فغدقتْ عينى دون إرادة ، وضربنى حينها طيف مستحيل الوقوع .. وقت أن كنتُ أهرع إلى أمى فأبوح لها بما يوجعنى ، فما أقسى أن تُلجئك الأيام لغريب .. لتبوح له بما يجيش بصدرك ، وما أصعب أن تجد من يُصغى إلى لحظات ضعفك .. دون أن يُعيبك بها .
لقد خلفتْ " ديما " فى نفسه جرحاً دامياً .. لا يقل وطأة عن تلك الجراحات التى خلفتها لى أمى ، كنا نتشاطر نفس الألم ونبكى ذات الأحزان ، ضرب الدهر بقلبينا .. فغشيهما بالهموم وذكرى فراق أليم ، وبات السؤال الحاضر الغائب .. ما هو مغزى هذه الحياة ؟! .

لحظاتٍ ، ومسح دموعه بكلتا يديه فى حركة عصبيه .. كمن يخشى أن تستفحل أحزانه فتهزمه ، ثم طالعنى بتلك الإبتسامة المحيرة .. وبقايا دموع تبرق منساحة على وجهه ..

- **لا عليكى ، أرجو ألا أكون قد آلمتُ قلبك .**
- **لا أنكر أنك فعلتْ ، ولكن ماذا عسى أن يزيدنى الأمر .. أكثر مما أنا مغترقة فيه .**

فإنزاحتْ إبتسامة ترح إلى ركن فمه .. آسية للواقع الردئ الذى نعيشه إضطراراً ، سحب شهيقاً طويلاً .. ثم مجَهُ زفيراً متردد ، إنتهى إلى أهة طفتْ من العمق رغم إرادته ، غير أنه تجاوز الأمر .. قائلاً

- **إلى الأن لم تسألينني .. لمَ أقتفى أثرك .**
- **لم أعد أرى جدوى من سؤال كهذا .. فأسبابك بادية ، أنا أذكرك بأختك " ديما " .**

- **للحق ، ليس هذا فحسب ما دفعنى لأن ألزم غرزك .. لأكثر من عام ونصف .**
- **لا تُقلقنى .. ما كادت الريبة تبرح صدرى ، ماذا تخبئ لى فى جعابك لتباغتنى به ؟! .**
- **لا داعى القلق ، فكما أخبرتك سابقاً لم أحمل لكى إلا خيراً ، كل ما فى الأمر أنى أبتغى منكى أن تساعدينى فى أمر ما .**

فإرتدتْ رأسى إلى الخلف رغماً عنى .. وفغر فاهى عن ضحكة هزء وحيدة النبرة ..

- **أساعدك ! ، أنا لا أملك أن أساعد نفسى .**
- **بل تستطيعين ، وإن فعلتى فلن أنسى لكى معروف كهذا .**
- **وفيما إذن تُريدنى أن أساعدك ؟ .**

فأطرق للحظة ، يهمهم بصوت مسموع ..

- **لا أعرف كيف أشرح لكى الأمر ؟ .**
- **ماذا ؟ ، ها أنت عدت لتُخيفنى ، أى أمرٍ هذا الذى يُضنيك شرحه على هذا النحو ؟! .**

ولا أعرف لماذا خالجنى حينها هذا الخوف .. فتقلقتُ من مجلسى ، وإنساحت يدى إلى مقبض الباب ..

- **ليس هنالك ما يدعو للقلق ، الأمر فى غاية البساطة .. غير أنه يعن لى كثيراً ، أرجو أن تُعيريننى إنتباهكِ قليلاً ..**

وتنحنح الرجل فاركاً جبهته للحظة ، للتو فقط شعر بصعوبة المهمة .. لكنه إستأنف سريعاً حتى لا يضيع خيط الحديث .

- **الأمر كله جاء بمحض المصادفة ، بدأ حين كنت ماراً بناصية ذاك الشارع .. فإصطدمت عينى بوجهك ، رأيته لأول مرة مشوباً بفجعٍ ورعب يخلعان القلب ! ، متعلقاً بشفير نعشٍ مفارق بلا عودة ،**

وهذا هو بادئ كل شيئ ، حينها ضربنى شده وذهول لم يواتيانى من قبل ! ، وطاف بخلدى هذا الشبه الصارخ بينك وبين " ديما " .. فتمنيت للحظة لو أنك أنتى هى ! .

إفتغر فاهى .. وتشكلت أساريرى ما بين حزن ودهشة وإرتباك وأشياء أخرى ، فلقد عاينتُ هذا الشده والذهول اللذان إجتاحا الرجل بأم عينى .. ضمن مشاهد كثيرة إلتقطتها عينى وقت أن غادر النعش ساحة دارنا ، مشاهد كان من المستحيل أن ألتفت إليها جميعاً وأعن بها فى آن .. فأرجأتها ذاكرتى إلى قاعها ..

- **ظللت لعدة أسابيع أتحرى عنكى بين الأهل والجيران .. حتى جاءنى أمركِ كله ، فأقسمتُ ألا أبرح ساحتك حتى يحدث هذا اللقاء .. المرتقب منذ عام ونصف .**

حينها إقترب نحوى .. يمد يده بالصورة المأطورة بالمدلاة ..

- **تُعاينين بذاتك شديد الشبه بينك وبين " ديما " .. وهنا تكمن ناصية الأمر ، فأنا بصدد إنجاز عمل ضخم يوثق بطولتها ، فيلم تسجيلى ، ومذ أن وقعتْ عينى عليكى .. لم أتخيل أن تقوم غيرك بأداء المشاهد التمثيلية التى سأدرجها بطيه ، لا يُعقل أن يكون القدر قد وضعكِ فى طريقى عبثاً .. أو لمحض المصادفة .**
- **فيلم ! .. أنا أمثل فيلم ! ، بربك هذا هراء ، أترانى بهذا البله لتعبث بعقلى بمثل هذه الترهات .. أتظن أنها يمكن أن تنطلى على عقلى بهذه السهولة ؟! ، يُخايلنى أنك تبتغى منى شيئاً أخر أجهله .. ولأجله طفت بى كل هذه الدوائر .**
- **هراء وترهات ! ..**

ثم أطرق للحظات قبل أن يرفع هامته ، قائلاً ..

- **ما عهـدتك إلا كيّسةٌ فطنـة ، ما رأيتكِ أبداً ككل الصغـار .. ولكن**

يبدو أنكى لم تستوعبين جملة ما قلت ، على كل حال إنسى الأمر .
وبدتْ عليه علائم خيبة ثقيلة .. ناوشتنى أصداءها ، تذكرتُ ما تجشم الرجل لأجلى .. فى أكثر أوقاتى حرجاً ، فبادرته قبل أن يتفاقم الأمر ..

- **ما بالك قصير النفس سريع الإذعان ؟! .. لم أقصد أبداً أن أُحزنك أو أُخيب آماك ، برغم أنى لم أعى كثيراً مما قلت .. غير أنى فهمتُ مغزاه ، لكنى لم أتوقع يوماً أن يوافينى أحد بطلب كهذا .**
- **أعلم تلك الظروف التى جعلتكِ تجهلين أن للحياة أوجه أخرى .. لا تعن بالمحاورة والمداورة ، وأفقدتك الثقة بأن ثمة فرصٍ عظيمة قد تأتى للمختارين من خلق الله ، حسبكِ أن الأمر إن لم يأتكِ بخير .. فلن يجلب لكى ضرراً .**
- **لم أعن أن فى الأمر ضرراً .. لكنه جديد على مسمعى ، علاوة على أن هذه الإنتقالات السريعة للأحداث تُوترنى ، هذا الشطط لا يستسيغه عقلى .. بل يُخيفنى ، ثم من أين أتاك أننى أجيد التمثيل ؟! .. أنا خجولة إلى حد مخيب للآمال .**
- **الأمر جد بسيط .. ولا ثمة ما هو خافٍ فيه ، هى محض بذرة ستلقينها اليوم لتضحى لكى فى الغد ثماراً عظيمة .. قد تُغير كثيراً مما قد تدور به أفلاك حياتك من تيه التشرد وغياهب الضياع ، هى الفرصة العظيمة .. إختارتكى أنتى من بين ملايين الصغار ، يبدو أنها أمكِ لم تكف عن التضرع للسماء لأجلك ..**

لسنا نأمل فقط فى فيلم وثائقى .. قد لا يأتى بكلفة صناعته ، لكنا نأمل فيما يتبع ، وهذا ما إنتويتُ إدخاره لكى .. جزاءاً لما ستُسدينه لى ، تلك الأشياء التى قد تتداعى تحت قدميكى .. بعد رواج عمل بطولى كهذا .

فلويتُ شفتىّ فى عجب **" ما باله يُعظم الأشـياء على نحو يُجافى الواقع ! "** ،

غير أنى ورغم عنادى وتشكيكى فى كل ما تمخض به .. شعرتُ بأنى وسط كل الأشياء ، على مسافة هى الأقرب من التشرد والضياع .. ومسافات من مستقبل مأمول للتو يطلبنى ، على بعد خطوة من دنيا فقدتُ فيها أهلى .. وخطواتٍ من دنيا أخرى تتلهف لأن تستقبلنى بين دفافها " **إختارتنى من بين الملايين أمثالى** " .

ولكن ماذا كنت لأفعل حيال رعونة الصغار ؟! .. التى حدتنى أن أطالعه تارة أخرى مُجادلة ..

- **هذا كله لمحض تشابه عابر بينى وبين أختك ! .. قد تجد من هى أكثر منى شبهاً .**
- **لا أعتقد ، أنتى تُشبهين " ديما " إلى حد لا يُصدق ! ، ولولا هذا الشبه اللامعقول .. ما سعيتُ ورائك طوال هذه المدة ، هذه الصدف لا تتكرر فى دنيانا كثيراً .. وإن وقعتْ فإنها ولا ريب تحمل فى طيها ما هو أكثر إبهاراً ، أشياء ملهمة .. يتوقف عندها العقل طويلاً .**
- **على كل حال هذه أختك .. وأنت الأدرى بمن تشبه ، ولا ثمة من يباريك فى هذا ، ولكن يبقى السؤال .. من أدراك بأنى سأقوم بالمهمة كما تبتغى ؟! ، أنا لا أجيد التمثيل .**

ولوهلة .. بدتْ له فِطنتى مخيفة ومربكة ، فأردف سريعاً فى حدة .. هدأتْ تباعاً مع خطو الحديث ..

- **وماذا يُضيمكِ أن نجرب ؟! .. معاناتكِ هذه أكثر إحتياجاً لفرصة عظيمة تُكللها ..**

أستحلفكِ بالله ألا توصدى أبواب الأمل فى وجهى ، هذا الفيلم هو دين فى عنقى ! ، من حق " ديما " علىّ أن أوثق بطولتها ، هذا أقل ما يمكن أن أقدمه وفاءاً لروحها الغالية .. أن يعلم الناس بتلك

التضحية العظيمة التى قدمتها لأجل شعبها ، وأنا لا أرى لديكِ ما يمنع .

- **بلى لدىّ .. عربة خربة تحتاج من يعن بها ، وحفنة من عفاريت صغار .**

فإفترّ فاه عن إبتسامة أتت عنوة ، غير أنه غضَّن أساريره بغتة ..

- **لا مجال للهزر ، فأنا جاد فى مطلبى .**
- **عذراً .. لم أقصد .**

ثم أطرقتُ للحظة ..

- **على كل حالٍ .. دع لى المجال لأفكر .**
- **تُفكرين ! .**

فأثارنى دهشه غير المبرر ، فقلت محتدة ..

- **ماذا كنت تتوقع منى أن أفعل ؟! ، بمجرد أن تعرض علىّ أمرك .. سأركض وراءك ، أريد وقتاً لأتدبر أمرى .. وحالماً سأوافيك بقرارى .**

فشبَّك أنامله وطفق يُطقطقها ، ثم مسح بيده على جبهته مطرقاً .. كمن يبحث عن برهة أناةٍ ، ورد لائق ..

- **لكى ما تريدين .. فلا حيلة لى سوى أن أصطبر ، أنتى فى الأساس لستى مُجبرة على شيئ .. ولن يكون الأمر سوى بإرادتك ، ولكن إعلمى .. أنا قائم على هذا الأمر ولن أبرحه ، ومن اليوم لن أغفل عنكِ بيد المساعدة .. كأخٍ وصديق .**

فتداركته إلى ناصية أخرى ..

- **دعك من أفانينك هذه .. أنا لم أعرف إسمك حتى الأن .**
- **إسمى مصطفى .. مصطفى سُكّر .**
- **سُكّر ! .**

وكادت أن تنطلق من فمى ضحكة مدوية .. لولا أنى تداركتُ الأمر فى جدية .

- **إذن أختك تدعى " ديما سُكّر " .**
- **يالا ذكاءك ! .. بالتأكيد .**

فهمهمت بصوت خفيض ..

- **حبة سُكّر فى بحر مالح ! .**

فند عن صدره إبتسامته الآسية ، وما كاد حتى ربت على كتفى ، ثم طأطأ رأسه للحظات .. ورفعها بغتة

- **هل لى أن أناديكى " ديما " ؟ .**
- **" يَنُّور " إسم غالٍ على قلبى ، أهدتنيه أمى ، ولا أتصور أن ينادينى أحد بغيره .**

فطفا على وجهه شيئ من حزنه الدفين ، فقلتُ فى غنج .. تشوبه إبتسامات الصغار .

- **ولكن لاضيم أن تدللنى بـ " ديما " .**
- **حسبى هذه الإبتسامة الآسرة ، سبحان من من رسم وجهيكما بذات الأسارير والتعابير ! .**

ثم شرد بعيداً فى ترحٍ وأسى ..

- **ليت الأيام تعود .. فنتدارك أشياء هى الأجمل فى أعمارنا .**

فلكزته فى كتفه .. لأتداركه قبل أن ينطوى على نفسه ، فإنتفض ملتفتاً نحوى ..

- **كفاك ضغضغة ولعب بعقلى ، وقل لى .. بإعتبار أنك كنت تباشرنى طوال عام ونصف ، كيف إستطعت أن تقف مكتوف الأيدى .. وأنت تعاين كل هذه المآسى وهى تقلبنى على كل جانب ؟ ، وكيف**

راق لك أن ترانى أتعذب بين أيدى هؤلاء ؟! .
- ومن قال لكى أنى لم أنتقم منهم .. كلٍ على حدة ، قبلاً ستعلمين أنى مزقتُ قلوبهم جميعاً .. ولكن بطريقتى .
- ولماذا إنتظرت كل هذه المدة .. لتنتشلنى من تلك الأوحال ؟! .
- كان علىّ أن أمهل هذه الحياة لتُصقل صغيرة مثلك .. مهما كانت الموجعات ! ، أتعلمين قصة " وعاء الخزف " ، ذاك الذى إحتملتْ طينته التشكيل والحرق والدهان ، ظلتْ تتألم لأيام ، لكنها حين رأت ما باتت عليه بالنهاية ، وعاء خزفى جميل .. تمنت لو أنها تحملتْ أكثر من هذا بكثير ، وهكذا تفعل بنا الحياة .. تُصقلنا بالموجعات لنفخر قدماً بما وصلنا إليه .

علاوة على أنه لم يكن من السهل أن أنسل إلى حياتك .. هكذا ودون مقدمات ، لم تكونى لتتقبلى وجودى بهذه السهولة .
- وهل ترى أنى تقبلته الأن ؟ .
- لا أعرف .

فأطرقتُ مبتسمة ..
- إذا جاءتك ديما فى أحلامك .. أخبرها أن أختاً لها تدعى يَنُّور تُذكرك بها ، أخبرها أنه من الأن بات لى أخ وأخت .

فتمطتْ على جانبى فمه إبتسامة عجب ..
- حسبكِ .. ما لى يدان لهذه المناوشة ، ما أصغر سنك وأدهى عقلك ! .. تُبارين مباراة الكبار .
- مناوشة ! .. سامحك الله ، أنا أضعف من أن أناوش نملة ، ألا ترى أنى لم أساومك .. حيال ما طلبته منى ؟ .
- وهل إبتغيتى شيئاً ولم أُلبيه ؟ .
- هكذا ، إذن فأنا أرجوك فى أرب .. هو أقصى منية لى الأن .

– **أقصى منية ! .. وما هو إذن ؟! .**

حينها طلبتُ منه أن يقتادنى بسيارته إلى حانوت ذلك العجوز الهرم ، فلم يملك فى غمرة عجبه .. سوى أن يلبى لى رغبة هى أقصى ما تمنيتُ فى هذه اللحظة ، برغم أنى لم أبد له أسبابى ! ، أو ما إنتويتُ إقترافه هناك .

جسرتْ السيارة الشارع الطويل .. حتى توقفتْ على مقربة من حانوت الأحذية ، لوهلة ظننتُ أنى سأجده موصداً .. غير أنى ألفيتُ بابه مُفرجاً كما توقعتْ ، وواجهته البلورية مشرعة بأضويتها الملونة ، لقد تفنن هذا الغليظ فى مضايقتى وإثارة رعبى .. فقط ليستنفرنى ويهضم حقى ، هددنى بعفاريت الحانوت التى سيخلى سبيلى لها لتأكلنى .. وما يعلم أن مثلى ما عاد يُثيرها ما يعن به رجل لعلاع مثله .

رمقنى مصطفى مشدوهاً ، وأنا أُدير مقبض الباب وأبرح السيارة .. غير أنه ما تمخض حيال جنونى بأكثر من الصمت والإنتظار ، ففى كل مرة طوال الطريق كان يُحاول أن يستخلص ما تُخبئه نفسى .. كنت أصد نصائحه المنمقة بعبارات مقتضبة تُنهى كل شيئ .

ترجلتُ حتى تواريتُ إلى الجانب الخلفى للسيارة حيث الرصيف .. ثم إنتقيتُ ثلاثة حِصيٍ غلاظ فى حجم راحة اليد ، ثم توجهتُ إلى شرفة السيارة وأشرت إلى مصطفى بأن يتحرك إلى منتصف الشارع .. وأن يبقى المحرك دائراً على أهبة الإستعداد .

ودون مقدمات .. هرعتُ من فورى إلى الحانوت رأساً ، وعلى بعد خطوات من واجهته البلورية .. إنتصبتُ واقفة فى تحد وعناد ، هتفتُ إلى ذاك العجوز .. فألفيته فى طرفة عين فازعاً إلى الباحة الخارجية بخطو مأزوم ، رمقنى مذعوراً ! ، وما كاد يفعل حتى رشقتُ حجارتى الثلاث تباعاً ، وبأقصى ما أوتيت من عزم ، إلى البلور مباشرة .. فإنفجر وإنتشر جميعه إلى

الشارع ، فى متتاليات دوى هائل ! ، حينها إنكب الرجل على عقبه مفتزعاً ، وما لبث أن نكص إلى حانوته .. كصرصور تُطارده النعال ! ، وهنا فقط إنزاح الخوف والقهر إلى جانب صدرى .. إلى زاوية بعيدة بالكاد ألحظها ، شعرت بأنى لأول مرة أنتصر لنفسى .. حيال هؤلاء الذين ما إبتغوا سوى قهـرى وكمدى ، شفيتُ لجاجة غليلى إلى أقصى مداه .. وما أمتعه من شعور ! .

لم تُمهلنى اللحظات كثيراً لأتلذذ بخنوع ذلك العجوز الأفاق .. كان علىّ أن أغادر سريعاً قبل أن تنالنى يده ، إنتهزتُ فرصة إنكفاءه إلى الداخل .. فهرعتُ إلى السيارة ، والتى سريعاً ما نزحت حتى ناهزتْ ناصية الشارع ، ركضتْ فى حماسة ورعونة .. كما يركض الصغار بعد كل حماقة يقترفونها ! .

(٢٧)

أنهتْ السيارة أشواطها عند سور المرفأ ، بمحطة القرية .. نزولاً إلى رغبتى ، فلقد أبيتُ أن أقبل عرض مصطفى السخى بأن يستقبلنى فى بيته .. رغم تأكيده بأنه سيكون رهن إشارتى فى كافة ما أبتغيه ، لذا لم يجد وسيلة للتواصل معى سوى الهاتف الخلوى .. فإبتاع لى واحداً جديداً ، قام بتسجيل رقم هاتفه .. وعلمنى كيف أستخدمه فى إرسال المكالمات وإستقبالها ، وحرصاً ، حتى لا يسقط منى أو يُسرق .. قمت بلفه فى وشاح ضامر .. ووثقته حول خصرى ! .

ولا أدرى حينها كيف تطورت علاقتنا إلى هذا الحد .. بمحض مقابلة واحدة ! ، كيف تعاطفت معه ، وكيف تخطى حدودى فطلب مساعدتى ، وكيف تجرأت فطلبت منه أن يقودنى إلى حانوت الأحذية .. وبالأخير قَبِلتُ أن آخذ من هاتف خلوى ! ، كيف حدث كل هذا .. لا أعرف ، وإلى اليوم لا أجد له تفسيراً .

هبطتُ من السيارة .. بعد أن أنهى توصياته لى بأن أتصل به إذا ما إحتجتُ لمساعدته ، أو داهمنى خطر ما ، وإبان ذلك ، وبينما كنت أودعه .. كان الصبية الأربعة ، عمال المقمة ، عند ناصية السور فى طريقهم إلى المرفأ .. وما لم يحتسبوه أن يوافونى هابطة من هذه السيارة الوثيرة التى رأوها لأكثر من مرة قبل ذلك ركينة بجوار سور المحطة ، وهو الأمر الذى أكد تلك الشكوك التى جاست بنفس زُهِير .. بأنى ولا ريب سليلة أسرة ميسورة ، وإلا فلماذا ينشرون صورتى فى طى صفحة كاملة بالجريدة ، خمش الشيطان لبه ، فأوعز إليه بأنه بصدد ثروة طائلة ، ربما تكون فى طريقها إليه .. إن هو لزم غرزى وتمكن من مساومة أهلى نظير إسترجاع إبنتهم المفقودة .

غير أن وجود هذه السيارة الوثيرة .. قد أربك جميع تكهناته ، فإذا كنت

بحق مفقودة .. فمن إذن صاحب هذه السيارة ، كانت كل الشواهد ترمى إلى أن أحداً قد سبقه لى .. وهو ما يقتضى تدبر الأمر والإسراع فيه قبل أن تفوته فرصة لن تتكرر ، كان زهير قد أثار الموضوع أمام رفاقه .. فعقدوا العزم على أن يرصدوا خطواتى ، حارصين على ألا يلتفت أحد لسرية تحركاتهم .

توجهتُ إلى العربة منهكة .. لما تجشمته من مشاق فى هذا اليوم العسير ، فكان من الصعوبة بمكان أن ألحظ وجودهم ، ما كدتُ أتناول هذا الطعام الذى أعطانيه مصطفى .. حتى ركنتُ إلى المقعد أستجدى نسائم نوم عميق ، حينها كان الأربعة قد أخلوا ساحة المرفأ .. بعدما تأكدوا بأنى لن أبرح العربة قبل صباح باكر ، أما أنا فقد ناوشتنى شياطين الليل .. فجالت بخلدى رحلة المدينة وما جرى فيها ،
فى السابق كنت أظن أن الدنيا محدودة بدارنا ودار خالى والمدرسة والسوق .. ببلدتنا فقط ! ، أما اليوم فقد شعرت أنها ممتدة ، ممتدة للغاية ! ، إلى حيث لا يمكن لعينى أن ترى .. أو لعقلى أن يتخيل ، وبرغم أنها كانت المرة الثانية التى أجسر فيها الطريق إلى المدينة .. غير أن هذه الزيارة تختلف ، وحسبها لقائى الأثير بمصطفى .
ذاك الذى أثار مطلبه فورات الدماء إلى رأسى ، تدفع فى ركضها الأدرينالين ليشق جبينى ، عبر شهور مضت .. كنت قد نسيتُ أن فى روحى رغبة وأمل ، وشغف لما يواريه طى الأيام ! ، حسبتُ نفسى مدفوعة مع قطيع خراف بلا إرادة ولا أهداف .. قطيع يحثه راعٍ أعمى ، للتو فقط أقلعت الدماء فى عروقٍ .. ظننتها ماتت ! ، تذكرت يومٍ أن قالت لى أمى " **ليتنى أعيش حتى أراكى تتخطين أسوار هذه الأيام** " .. ولعلها كانت أمنية من يحتضر .
بين فينة وأخرى تهمس لى نفسى " **ما لى أنا .. ومال كل هذه الأحلام**

المستحيلة ؟ " ، ما لى وذاك الذى يُعظم كل شيئ ؟! ، كلما تذكرته خايلتنى وخذة السخرية والتشكيك التى أمقتها .. وخاصة حين أسترجع قيلته **" هذه الفرصة إختارتكى أنتى من بين ملايين الصغار "** ، عبثاً يحاول أن يُحفز أحلامى .. عن أى أحلام يتحدث هذا ؟! ، ماذا يعرف عنى ؟ ..

لقد عايشتُ وطناً ينمحق .. وأرض تُباد ، وزمناً ماتت فيه فراشات أحلامى ، عض الجوع أكبادهن .. فأبادهن بموت بطيئ قاسٍ ، شيئاً رهيباً للحين لا أعرف كنهه .

إنها التجربة التى قابلتها وقابلتنى ، مفترق .. فارقتنى فيه أمى ، وحول أمى دارت كل الموجعات ، كل التحولات والمعانى والمفارقات ، ففى حين أدركت معنى الأمومة .. فقدت أثر أمى ، وبين الضحية والجلاد .. لم أستطع يوماً لومها ولا تبرئة ساحتها ، منذ أن فقدتها .. عرفت كيف يكون التيه ، فى أرض ظننتها للوهلة الأولى بل أتياه !

إنتهب النوم أجفانى .. فإنزلقتُ إلى شيئ طويل ، نهضتْ الأوهام بكامل طاقتها .. وإندك الوعى تحت نعاس ثقيل ، رأيتُ خالتى نعمات تركض نحوى فى أرض بائدة .. لتسألنى **" هل لى أن أقيم عُرس إبنتى على هذه الأرض الثابتة هناك ؟ "** ، وما كان لها أبداً أن تفعل .. ففى يوم الدين ما من أرض ثابتة ، فلقد قامت السماوات فإنشقتْ ومارتْ .. وأسقطتْ كسفاً ودخان مبين ، وإنزاحتْ الجبال وإنتسفتْ .. فإنخسفت الأراضين وإستحالت إلى عهن منفوش ، حقاً وصدقاً .. هذا يوم الدين ! ، نظرتها مفتزعة .. تنبعث من حلقى حرارة مستعرة **" لقد غضب الله اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله .. ولن يغضب بعده مثله "** ..

إنتفضتُ من نومى متوهمة .. وبقايا كلمات تطن فى أذنى ، شعرتُ بعطش شديد بالكاد أبلغ ريقى ، إلتقطتُ قارورة ماء بالجوار .. فسكبتها عن

أخرها فى حلقى حتى بردتْ أصداء ذاك اللفح المستعر ، نحيتُ برأسى إلى الشرفة .. كان قطار السابعة يدفق ما فيه إلى الرصيف ، ليتبلغ بأخرين ، برهات وعلت دبدباته .. مستشرفاً القضبان بنعير هائل ، تابعته ملياً .. حتى فقدتْ أذنى أصداءه .

تناهضتُ مترجلة إلى باب العربة .. فرمقتُ الأربعة عمال المقمة عند مدخل المرفأ ، وبينهم زُهِير ، ذاك اللص الذى إنتهب نقودى وأنا غامية ، خدعتنى جسارتى .. فكدت أن أهبط إليه لأنشب بعنقه ، لولا أنى تراجعتُ فى اللحظة الأخيرة ، غير أنى ألفيت أربعتهم يترجلون نحوى .. حاملين حقائبهم المصنوعة من خيش جاسٍ ، لبرهة فكرت فى الفرار من الباب الأخر ، وكانت فكرة غير ناجزة .. فألقيتها عن خلدى ، فحتماً سيلحقوا بى .. حينها ولا ريب سيصبون جام غلاظتهم فوق رأسى ، لم أجد أفضل من أن أثبُت فى محطى .. علّى أتمكن من إستنفارهم ، أو التملص منهم بشيئ من المراوغة واللين .

صعدوا إلى العربة .. فتراجعتُ إلى الخلف ، وقتئذٍ طالعنى زهير السارق دون خجل أو حياء ..

- **مرحباً يَنُّور ، عذراً فلقد واتتنى مشاغل عدة .. فلم يحالفنى الوقت لأطمئن عليكى ، كيف حالكِ الأن ؟ .**
- **لا شأن لك بحالى ، سأكون بخير لو أنك إنزحت عنى ، أنت وهؤلاء .**

فتدخل أحد الثلاثة الأخرين ، مقترباً منى ..

- **أهذا جزاء من جاء ليطمئن عليكى ؟ ، أعرف أننا تغالظنا معكى .. لكننا بالنهاية لا نكن لكى سوى الإخاء والمودة .**

كاد أن يحط يده على كتفى .. لولا أنى صرخت فيه

- **اغربوا عن وجهى .. لا أبتغى منكم مودة ولا غيره .**

فتقدم أخر ، وزجنى إلى المقعد ضائقاً ..

- **ما بالك تتجهمين فى وجوهنا .. وكأننا نتسول عطفك ؟ .**

فإنتفضتُ فازعة ..

- **قبل أن تفكروا فى إيذاءى .. سأصرخ وأرْكُم عمال المحطة فوق رؤوسكم .**
- **فكرة رائعة ، فلتصرخى .. وسنصرخ معكى ، هيا جميعاً فى صوت واحد .**

ثم مال بقامته نحوى ساخراً ..

- **ليتنى أعرف سر هذه النفخة والنعرة الكذّابة .. التى لا تنفكين لترعدى بها فى وجوهنا .**

وكاد أن يرفع يده ليصفعنى .. لولا أن زهير تدخل فطفق يزج ثلاثتهم إلى خارج العربة ، لا يعلم أنى إلتقطتُ غمزه إليهم **" رباه ماذا يريد منى هذا النشال ؟ "** ..

- **ها قد أزحتهم إلى خارج العربة .. لا داعى للخوف ، ألا تُفكرين أن تُعيدى الكرة .. وتشاطرينا التنقيب فى المقمة تارة أخرى ؟ .**
- **أريدك فقط أن ترحل عنى .**
- **كيف هذا ؟! .. أنا هنا لأجلكِ خصيصاً .**
- **وماذا تريد بعد أن إنتهبت نقودى .. ثم خليت سبيلى للطريق بين الحياة والموت ؟ .**
- **ماذا تقولين ؟! .. سرقوا نقودك ! ، ليتنى ما تركتك يومها .. ما كان شيئ من هذا ليحدث ، ومن هذا الفسل الذى فعلها ؟ .**

فتمطتْ إبتسامة هزء عند شفير فمى ..

- **لا أدرى بأى وجه ولسان تتشدق لى .. وأنت من فعلها .**
- **أنا ! .. سامحكِ الله ، قطع الله كَفِى وجدع أنفـى .. قبل أن تمتد يدى**

إلى نقودك ، ألم نتعاهد هاهنا على الإخوة والصداقة ؟ .. كيف أخون من أكلتُ معه خبزاً وملحاً ؟ ، أقصد شطائر محشوة .

ثم ند ضحكة سمجة لا تملك إرادة ، فلما رآنى ممتقعة تمتم " **لكى الحق .. ما أسخفها من دعابة** " ، تأملتُ مشدوهة .. هذا الكذب الذى يفوح من حديثه ، ثم أشحتُ متبرمة ..

- **لا أريد منك أخوة ولا صداقة .. وهاك ثمن ما طفحته معك .**

وأبرزتُ بضع جنيهات ثم ألقيتها بين قدميه ، فإلتقطتها فى خزى مفتعل .. وطفق ببلادة يقلبها بين يديه للحظات ، وما كاد حتى إنسل إلى جوارى .. دافساً الجنيهات إلى جيبه خلسة .

- **أتتذكرين تلك الصورة التى أريتكِ إياها بطى الصحيفة ؟ .**
- **ها .. هذه إذن ناصية الأمر ، قل لى ماذا عندك ؟ .**
- **لا شيئ ، لكن العجب يُقلب رأسى من يومها ، أتساءل .. لماذا أنكرتِ أنها صورتك ؟ ، ولماذا ينشرونها فى الجريدة من الأساس .. أقصد أهلك ؟ .**
- **أهلى ! .. بمن تقصد أهلى ؟ ، إن كنت تقصد أبى وأمى .. فهما متوفيان ، أما تلك الصورة فليست لى .. هو محض تشابه لا أكثر .**

فضحك ساخراً ..

- **محض تشابه ! ، بربك .. من ذاك الأبله الذى يصدق حديث مثل هذا ؟ .**

ثم مال بجذعه نحوى ..

- **لا تخافى .. أنا بئر للأسرار مكنون ، لن أبوح بسرك لأحد .**

فتراجعتُ للخلف مشمئزة ..

- **لا أسرار ولا غيره ، الصورة ليست لى .. وهذا كل ما عندى ، ليتك تفارق ساحتى الأن .. فلم أعد أطيق صوتك ولا حديثك .**

فقبض بيده على ساعدى متغالظاً ، ثم إنتصب فازعاً .. حتى رفعنى معه ، لأجد رفاقه الثلاثة قد إنسلوا إلى العربة كالجرذان ..

- **ضقت ذرعاً بهذه المراوغة ، إما أن تخبرينا عن آلك وبيتك .. وإما أطرحناكِ هنا جثة هامدة .**

أفزعنى تآجلهم حولى ، فنزعتُ ساعدى .. وتقلصتُ عند سفح المقعد ، طفقت أتلفت إلى بابى العربة " **أين ذاك الذى عاهدنى ألا يخلى سبيلى وأن يساعدنى** ؟ " ، تحسستُ بيدى الهاتف الموثق حول خصرى .. فلم أجدها فكرة حصيفة ، فأول ما سيفعله هؤلاء هو سرقتى .

لم يتحملوا صمتى ، فإنسل أحدهم نحوى وقبض على شعرى .. حتى أقامنى عنوة ، طفق يصفعنى على وجهى بلا هوادة ولا رحمة ، فصرختُ بملئ حلقى ، دون مجيب .. ناس المحطة صُموا أو تظاهروا بالصمم ، وكأنما تحالفوا معهم لإيذائى ! .. أو إستحالوا إلى أصنام بلا آذان ، دفعنى ذاك الغليظ فإنطرحتُ إلى الأرض .. لتصطدم رأسى بحائط العربة ، حينها شعرتُ بدوار شديد .. فإنغلقتْ أجفانى دون إرادة ، وإنسال عن رأسى خيط دماء غزير .. فما كاد حتى تسربل إلى موطئ أقدامهم .

وقتئذٍ سمعتهم يتفزَّعون إلى بعضهم البعض .. قبل أن يفروا واثبين من باب العربة ، فما لبثوا حتى جاءتنى طرقات أقدامهم على أرض المرفأ .. نافرة إلى الخارج .

مرت بضع دقائق قبل أن أنزاح عن الجدار .. وأمسح الدماء المنجبسة من رأسى ، حاولتُ الإتصال بمصطفى .. فتذكرتُ أنى لم أسأله عن كيفية إستدعاء الأرقام المسجلة بالهاتف ، غير أنى تنبهتُ أنه قال فى معرض حديثه أن أرقام الهواتف تكون ثمانية أرقام .. يسبقها مفتاح شركة الإتصال ، حينها ظننت أن أى رقم سأطرقه بهذه الكيفية سيوصلنى إليه .. فظللت

أدق أرقام عشوائية ، غير أن الهاتف فى كل مرة كان ينبو بأصوات لا أعرفها ، حاولت مراراً دون جدوى ، ويبدو أن بعض الأرقام تكررتْ دون قصد .. فطالعنى أصحابها بشتائم بذيئة ، كان وقع بعضها حاداً .. فعزفتُ عن الأمر برمته .

(٢٨)

مرتْ الأيام سريعة لا تخلو من وجع يراودنى ، زادت حالتى سوءاً ، فأنا لم أتمكن من الوصول إلى مصطفى .. ولم يأت هو لزيارتى ، لم أتصور أن يغيب عنى لأكثر من أسبوعين .. بعدما طرق آذانى وهماً بأحلامه العظيمة ، التى لا تأتى سوى للمختارين من خلق الله ، تلك التى طاحت برأسى .. وحلقتْ بها هنا وهناك ! ، لكنه فعل ، كنت كلما سمعتُ هاتفاً خلوياً يزن فى طى أحدهم .. تحسستُ خصرى ظناً بأنه مصطفى يُهاتفنى ، ومن وقت لأخر باتت تصلنى إهتزازات الهواتف كلها .. حتى صارت لا تخمد أبداً ! ، وما أكثر الأوهام فى ذلك ! .

كما لم يذهب عن بالى ما فعله الصبية عمال المقمة بى ، ذاك الأمر الذى عكر صفوى .. وجدد ألام الأيام المنصرمة ، لقد فاقم ما إقترفوه بحقى ضيقى وإحتقانى .. وسكب أخر ما تبقى فى نفسى من أناة وصبر، فزاد سخطى على البلدة وناسها .. من جملة سخطى على كل شيئ ، حتى لم يعد لهم فى صدرى معروف يشفع لهم .

بتُ كذئبة جبلية .. يتحاشنى الناس وأتحاشاهم ، تثاقلتُ .. وتثاقلتْ الأيام معى ، لتصحب فى طيها ومع كل نهاية يوم .. ليل ثقيل بالكاد ينقشع ، ومراراً بت أتذكر يوم أن قالى لى أمى " **لا تنتظرى فجراً .. لا أمل فيه** " ، حينها لم أدرك فحوى قيلتها ، اليوم كبرتُ وكبرتْ أتراحى .. فأدركت ، فلم أعد أنتظر ! .

كانت ذكرى كل شيئ تطوف أمام عينى .. فتسحق روحى بوتيرة بطيئة ، حضور وغياب على غير موعد ، إكتشفتُ أن الأحداث لا تسحقها عجلة الأيام .. كما كنت أظن ، بل تواريها وقتاً ما لتختمر .. ثم تعود فتبرزها فى هيئة أخرى أكثر وجعاً ، فلا شيئ يموت سوى الإنسان ! ، عاودتنى ذكرى

أمى وما حدث بدار خالى ودار خالتى نعمات .. والباقى تداعى مراراً ، كشريط سينما ينتهى ويعود من تلقاء نفسه ، ولا أخفيكم خبراً .. كم كانت فترة عصيبة تلك التى أمضيتها بين الذكرى والمشاهد المكرورة ، حجرى رَحَى .. ظلا يعصفان بنفسى عصفاً .

ظلتْ هذه الألام تمور بداخلى .. إلى أن باغتنى يوسف إبن خالى ذات صباح زائراً ، ليجدنى فى حال عسيرة يُرثى لها .. هزال وضعف وإضطرابات نفسية ، ما إن رمقته يلوح عند باب العربة حتى حلقتُ منكفأة إلى صدره .. كان بينه وبين السقوط أشبار ، وما كدت حتى صفعته بكفى على وجهه ..

- **كيف نسيتنى كل هذه المدة ؟! .**

فتحسس وجهه مبتسماً ..

- **حسبك من فتاة آبدة ! ..**
لاشيئ ، فقط أبى زاد شططه وجنونه .. فعيَّن خفيراً خصوصياً يلزم غرزى أينما ذهبتْ ، بعد أن كان يراقبنى فقط ، ولولا أنى إنتهبتُ فرصة نومه فغافلته .. لما تمكنتُ من المجيئ .

كنت أعلم خالى ورأسه الصلدة .. فلم أملك سوى أن أغفر ليوسف غيابه ، حانت منى إلتفاتة إلى يده .. فرمقته يحمل حقيبتان مكتنزتان ..

- **وما هذا الذى تثقل به يدك ؟ .**

ففضَّ ملؤ الحقائب أمامى ، قائلاً ..

- **جلبتُ لكى بعضاً من الأطعمة ، وهذا ثوب صيفى بدلاً من ذاك الذى بلى على جسدك .**

شعرت بحرج شديد وأنا أتلقى منه الثوب ، غير أنه تدارك الأمر بعفوية ساذجة .. فدس يده فى جيبه

- **وهذه مئتىّ جنيه .. فقد أغيب هـذه المرة أيضاً ، تعاينين بنفسكِ هذا**

الحصار الذى يحوطنى به أبى من كل جانب ، أما الآن فعلىّ أن أرحل .. قبل أن يلتفت أبى لغيابى .

أطرقت حزينة ، فإبتدرنى قبل أن أوغل فى الأمر ..

- **لا تحزنى .. هى فترة عصيبة حتماً ستنقضى ، وأنا مجبور على الغياب .. تعلمين خالكِ وضيق خلقه .**
- **حسبك .. إن وجودك معى أفضل بكثير من هذه الأشياء التى تجلبها لى ، الوحدة تقتلنى ببطئ .**
- **يعلم الله ليس لى فى الأمر حيلة .. أنا مَسوق مثلك تماماً ، تدفعنى الأقدار إلى أشياء ما أحببتها يوماً .**

ثم ساد الصمت لبرهة قبل أن ينتفض قائماً ..

- **علىّ الذهاب الأن .**
- **مهلاً ، أريدك فى شيئ أخر .**

ثم دسستُ يدى إلى الوشاح الملفوف حول خصرى .. فإلتقطتُ الهاتف الخلوى ..

- **هل تعلم كيف تعمل هذه الهواتف ؟ .**

فرمق الهاتف مريجاً ..

- **من أين لكى بهذا ؟ .**
- **الظرف ضائق .. وهذا أمر يطول شرحه ، سأوافيك به لاحقاً ، أما الأن فأريدك أن تُعرفنى كيف أستدعى أرقام الهواتف المسجلة به .**
- **أرقام الهواتف ! ، أمركِ يريبنى .. أى أرقام تلك التى ينبغى أن تكون مسجلة هاهنا .**
- **لا تشط بأفكارك ، هو رقم واحد .. غير أنه يعن لى كثيراً .**

فإلتقط الهاتف من يدى .. وطفق يكبس على أزراره إلى أن قال مشدوهاً ..

- **ومن مصطفى هذا ؟ .**

- **هو من أعطانى هذا الهاتف .**

فأطرق للحظات .. يرشقنى بنظرات تفوح منها رائحة الغيرة ، فإستدركته

- **بربك لا وقت لهذا ، أرينى كيف أستدعى هذا الرقم .. وكيف أهاتفه .**

وفى غمرة حيرته .. لم يملك سوى أن يُعلمنى كيفية الإستدعاء والمهاتفة ، ثم أدرج رقم الهاتف الأرضى لدار خالى قائلاً ..

- **لا تتوانى عن الدق إليه .. إن ضاقت بكى الظروف ، وريثما يأتيكى صوتى .. ستجديننى فوراً بين يديك ، سأدبر أمرى لهذا ، ولن يفوتنى أبداً أن أهاتفكِ كل ليلة .**

وبرغم عدم يقينى من قدرته .. لم أجد سوى الإماءة له بالموافقة ، إنتفض واقفاً ، وما هى إلا لحظات حتى أضحى خارج المرفأ .. فى طريقه إلى الدار ، وذاك بعد أن أشار لى أن أبرح العربة لساعة زمن على أقل تقدير .. حتى تستب له الأحوال بدار خالى ، تحسباً لإحتمالية أن يكون خالى قد بعث خلفه .. من يتحرى عنه قبل وصوله .

وقتئذٍ ، هرعتُ إلى مقاعد المحطة الحجرية .. أرمق العربة من بعيد ، ولعدة ساعات لم أبرح محطى .. حتى إطمأننتُ إلى أنه لا ثمة زوار جدد ، برغم أنى لمحت الصبية الأربعة عند باب المرفأ .. تناوشوا لدقائق ثم غادروا .

ركضتْ الأيام وعدت إلى حالى الأولى .. أموج بين الخوف والوحدة والجوع ، لم يُهاتفنى يوسف كما وعدنى أن يفعل كل ليلة ، ولا أعرف لماذا تافقتُ عن مهاتفة مصطفى .. ذاك الذى ذهب مع الريح فإنذرتْ خلفه وعوده وأمانيه ، شعرتُ بأن لقائه بالمدينة .. ما كان له أن ينعقد ، ما زادنى إلا يأساً وإحباطاً ، أفرج أبواب الجنة لدقائق .. ثم أوصدها فى وجهى ، لأعود أنا لجحيمى تارة أخرى .

إلى أن بوغتُ ذات ليلة ، وأنا غائصة بين زوار المحطة والراحلين .. بالهاتف يهتز فى لفافته حول خصرى ، وبقدر سعادتى وقتئذٍ .. بقدر جفولى وخوفى ، ألفيت صدرى يصطفق بعنف مع كل رنة يرسلها الهاتف إلى الأثير ، شعرتُ وكأن لصوته أصداء ورجيع .. يُقلب أول المحطة إلى أخرها ، ليعود تارة أخرى إلى المرفأ وعربته الخربة .

كبستُ زر الفتح كما علمنى يوسف إبن خالى .. غير أنى ما إجترأت أن أتفوه بكلمة إلى أن جاءنى صوته ..

- **مرحباً يَنُّور .. أنا يوسف .**

فلم أدر بحالى وأنا أعاتبه بحدة ..

- **لا أعرف من أين أتتك هذه الجفوة .. ألم تعدنى أن تُهاتفنى كل ليلة ، حسبك من مرواغ لا قلب له .**

وإنذرفت عبراتى مخنوقة ، غير أن الصوت إنقطع .. وفى إثره عدة رنات متلاحقة ، لم أفهمها ، ثم ساد صمت رتيب .

طفقتُ ضائقة أدق أزرار الهاتف بعشوائية ثم أرفعه إلى أذنى .. دون جدوى ، لقد إنغلق الخط ، فهستْ نفسى كثيراً " **ترى ماذا حدث ؟!** " ، لم أجد سوى أن أهاتفه أنا .. وأنتظر أن يأتينى صوته عبر الأثير ، كما أشار لى سابقاً ، إستدعيتُ الرقم الأرضى وكبستُ زر الإتصال .. وإنتظرت ، وقبل أن تأتينى الرنة الثالثة إنفتح الخط ، لزمت الصمت لبرهة .. إلى أن إنطلق صوتى فى حشرجة دون إرادة ..

- **ألو ..**

فجاءنى صوت رخيم غليظ ، " **رباه هذا خالى !** " ، جفلتُ وكأنه أمامى .. وإنفلت الهاتف من يدى إلى الأرض ، كان الصوت يضغضغ بعبارت تهديد لم أميز منها شيئاً ، إلتقطتُ الهاتف إلى أذنى .. فسمعته يصطخب راعداً ..

- **لا تتحدثى إلى هذا الرقم تارة أخرى ، إنسى أن لكى خال هنا ..**

وإلا وجأتُ عنقكِ بيدى ..

وذهب الصوت فى طيات رنات مكرورة .. لا تنقطع ، ظلت تتردد فى أذنى لأكثر من دقيقة زمن .. إلى أن سقط الهاتف عن يدى دون إرادة .

إستدرتُ برأسى ناظرة إلى أضوية المحطة المصفرة .. فإختنقتْ عينى ، برقتْ فى ظلال الضوء الشاحب ، وما كادت حتى طفطفتْ وثجت بدموع حارة .. دموع من نوع خاص ، إنتفضتْ من مودعها فإنتثرت على روحى .. وشَمتْها ببقاع حمراء دامية ، إلى اليوم لم تنمحى ! ، لساعات أخذ البكاء منى زفرات .. أهات مسحوقة ونهنهات من الأسى والخذى ، وبين فينة وأخرى تطالعنى نفسى بسؤالها المكرور ، المقهور " **متى تتركنى هذه الخيبات الثقلية ؟!** " .

كان تتالى الأحداث الموجعة .. يُذكى داخلى نار لا تنطفئ ، سخط عاتى وغضب عارم .. يسوقانى إلى أفكار جامحة ، ولا أعرف لماذا كانت" ديما " تقفز دواماً إلى مقدمة رأسى ، تمنيتُ لو كنت لساعة واحدة هى .. فى مثل جرأتها وجسارتها ، تلك التى حدتها أن تنتقم على نحو تشده منه عقول الرجال ، تقتُ أن أنتصر لنفسى ولأمى على نحو صارخ كذاك ، وكان ناس البلدة فى قائمتى واحداً واحداً .. وعلى رأسهم خالى ، وخالتى نعمات ، ما من أحدٍ إلا ولى فى رقبته ذنب .. ومهما إدعوا أنهم بُراء فلا أحد منزه عما جرى لى ، الكل ترك أثره على طريقته .

لعدة ليالٍ .. وهبتنى الشياطين أكثر من فكرة وطريقة إنتقام ناجعة ، غير أن واحدة منها لم تقنع بها نفسى ، لم تشف غليلى ، أردتُ شيئاً مستحيلاً تتحاكى به القرى لعدة أزمان قادمة .

وما كنت أعرف أن الأفكار مهما مارت وإضطربتْ فى وعاء العقل .. فلابد لها من يوم لتضحى حقيقة ، فلوهلة تخطى عقلى حيز التفكير إلى التنفيذ ، وبوحى شيطانى مما فعلته " ديما " .. إبتعتُ حاوية بنزين بأخر ما تبقى معى

من نقود ، تذكرتُ خالى .. ذاك الظالم الذى دفعنى فى رعونة لإضرام النار فى دارنا ، فأقسمتُ أن أحرق قلبه قبل داره .
لم يكن ليُثنى عزمى شيئ ! ، فبمجرد أن إنتصف الليل .. توجهتُ رأساً إلى داره ، وما إن ناهزت ساحتها حتى عرجتُ إلى الجهة الخلفية .. ثم تسللتُ عبر السور إلى الحديقة ، كنت أعرف أن الباب الخلفى المفضى من الحديقة إلى الدار .. لا يُغلق بمزلاج ، ترجلتُ خلسة إلى العتبة .. ثم دفعتُ الباب بهدوء .
جسرتُ الباحة الخلفية ، وعبر ممر طويل سرتُ إلى الصالة وغرفة الأضياف .. فنثرتُ البنزين إلى كافة أرجاءهما ، ومن غرفة إلى غرفة .. فاح السائل سريع الإشتعال فى كل شيئ ، قطع الأثاث والستائر والمفروشات وغيره .
أرجأت غرفة خالى إلى أخر المطاف .. تحسباً لأى طارئ ، حتى إذا ما إلتفت لما يحدث بداره .. بعود ثقاب واحد يكون كل شيئ قد إنتهى ، غير أنه كان من الصعوبة بمكان أن أفتح الغرفة وأخوض إليها ، فدوناً عن أبواب الدار كلها تمتع بابها بمزية سخيفة .. صرير مزعج قادر على إصراع فيل نائم ، وما أشبه الباب بمن يغط خلفه ! .. فما إن تمر أمام الغرفة حتى يصمك شخيره وخبخبته ، لذا إكتفيتُ بترك الحاوية تسكب أخر ما فيها عند عتبة الغرفة .
هرعتُ إلى الباب الخلفى ، وعند أقرب بقعة بنزين ألقيت عود ثقاب مشتعل .. فإستحالت الدار إلى وادٍ من وديان جهنم ، حينها حلقتُ إلى سور الحديقة الخلفية ، تسلقته ، وقبل أن أثب .. جاءنى صراخ يوسف من الداخل " **يوسف ! ، سحقاً .. كيف نسيته ؟!** " .
ما كان لى من فرصة للتراجع خطوة واحدة .. فلقد إنتهى كل شيئ وسبق السيل العرم ، وكحال طود عظيم ينهدم .. إنهزمت طاقتى الثائرة إلى ندم لا ينتهى ، فقد فاق خوفى على يوسف كل شيئ .. خشيت أن أكون قد قتلته

بيدى ، أو ألحقت به عاهة دائمة .. ندبة عظيمة سيظل ذنبها يلاحقنى طيلة ما عشت ، طاحت الأفكار السوداوية برأسى .. غير أنى بكل الأحوال لم أملك سوى أن أنتظر أول خبر ينبو عن الحادثة ، فإنتظرتْ ! .

فى صباح اليوم التالى ، وبعد ليلة مضنية حاصرتنى فيها شياطين البلدة كلها .. كانت الأنباء السيئة تموج على ألسنة المارة فى السوق والطرقات ، إنقبض صدرى عندما إلتقطتْ آذانى أن الدار إحترقتْ عن أخرها .. وما بقى منها غير الهيكل مفرغاً من الأبواب والشرفات والأثاث ، علمتُ أن النيران نشبتْ ببعض الحاويات المركومة بالمخزن .. فإشتعلتْ فى سلسلة إنفجارات هائلة ، أدت إلى تصدع الجدران وإنهدامها ، ولولا ناس البلدة للحقتْ النيران بحاويات الغاز .. فبادت الدار عن أخرها .

هرعتُ مسعورة ألتصق بكل لفيف تارة .. أستجدى خبراً واحداً عن سكان الدار ، عن يوسف ! ، إلى أن جاءتنى الأنباء على لسان صبيّتين يتساران ، سمعتهما يصطفقان أسفاً على خالى وزوجته .. اللذان أصيبا بحروق بالغة ، نقلا على إثرها إلى المشفى العام ، وذاك أن غرفة خالى كانت ملاصقة لمخزن إرتصت به عشرات من حاويات حمض الكبرتيك .. المستخدم فى تنظيف شبكات الرى والتسميد الزراعى .

، أصغيتُ للصبيّتين على مضض **" ليس هذا ما أريد سماعه أيتها الثرثارتان ، يوسف .. ماذا جرى ليوسف ؟ "** ، كدت أن أصفعهما بحذائى .. إلى أن جاءت إحداهما بالخبر المشئوم ، قالت أن النار نشبت بذراع يوسف ..فلوحتها بحروق بالغة ، بينما نجا أخويه الصغيرين ..

كادت الصدمة أن تعصف بى .. بينى وبين الجنون برهات ، شعور بالتمزق يشتتنى **" رباه .. ماذا فعلتْ ؟! ، بيدى هذه أحرقتُ ذراعاً .. لا تنفك تحمل لى الزاد والسترة ، سحقاً .. آذيت أكثر شخص عنَى لأمرى "** .

يقولون أن الأشقياء لابد وأنهم مروا بتجارب قاسية .. أصقلتْ الجريمة داخلهم ، غير أنهم لم يذكروا يوماً وصفة لمداواة أرصدة الهموم الباقية عن هذه التجارب ، أو علاج شقوتهم على أقل تقدير ، كنت يوماً ما مثل أولاء الصبايا .. أدعى أنه ما من سوءة أو نازلة قد تضرب حياتى ، حتى تصدعتْ أسوارى بأشد سوءات الحياة ، وبرغم هذا ، ومن صميم تجربتى .. أقولها بثقة ، من لم تضربه نازلة أو تُسقطه عثرة فى حياته .. لم يتعلم شيئاً حقيقياً ، ولن يتعلم ، فالحياة دوماً تختبرنا بأقسى الظروف .. فى طيها دروس لا تنتهى .

بيد أن فاجعتى التى سُقيتُ درسها ولم أعى للحين حكمتها .. هو ضياع هى ضياع دارى ووطنى ، والذى ساق معه ضياع أشياء كثيرة ! ، فى وقت مضى ، كانت أمى تتفحص أرديتى وتُقلب بين كتبى وحقيبتى .. لترى ما قد يكون ضاع عنى فى تلك الحياة ، وحين أدركتْ عينى حقيقة الدنيا .. وبدأ ذهنى يعى أمورها ويفندها ، فقدتُ تكئة أى صغيرة فى مثل سنى ، فقدت أمى ذاتها ! .

(٢٩)

أخذ الأمر منى طويلاً حتى أستعيد رباطة جأشى ، فبرغم ما جسرته من خطوب ونوازل .. غير أن ما جرى ليوسف بيدى أحالنى إلى شيئ أخر ، جعلنى أمقتُ نفسى .. وأشعر بهذه القوة الشيطانية الماكنة داخلى ، حاولت أن أطمئن عليه مراراً .. غير أن كل الطرق سُدتْ فى وجهى ، فلم يهدأ لى بال .. إلا عندما رأيته بقبيل المصادفة ماراً عند تخوم السوق بصحبة أبيه ، حينها إصطفق صدرى فرحاً ، وكدت أن أثب سروراً وأن أرمق ذراعه بارئة من العيوب .. صحيحة دون إبتقاع أو ندوب .
ما راعنى سوى خالى .. كانت حاله سيئة للغاية ، تجعد جلد وجهه على نحو لا يُطيق أحدٌ أن ينظره .. فإستحال إلى مسخ دميم ، ينم إنثناء ذراعيه وإنحناء جذعه عن جلد مشدود على غير طاقته .. مطتْ النيران بعضه وركمتْ بعضه ! ، لا أنكر أن صدرى تحرك آنها شفقة عليه ، وبرغم أنه رمقنى برمقة يملؤها الكره والضغينة .. غير أنى ما ملكتُ طاقة لأزهو بما إقترفتْ ، فبقدر ما كنت أتمنى فى السابق أن أفعل به ما يجعله يعيش معذباً ما بقى من حياته .. بقدر ما كانت مقابلة الواقع تختلف ، فبالنهاية أنا إنسانة ولست بشيطانة .. لم تسقنى الأيام قسوة القلب حتى أصب جامها على رأس من آذونى .

أخذ الأمر منى مزيداً من الوقت حتى أتماهى مع ما جرى .. كحال ناس البلدة صغيرهم وكبيرهم ، الكل تعود على طلته الجديدة .. برغم دمامتها ، ما راعهم غير زوجته التى كانت أسوأ حالاً بكثير .. فلقد صبت النار جامها فأزاحت عنها بصرها ، ورغم ذلك لم أشعر بوخذة تأنيب واحدة حيالها ، وكلما واتتنى نوبة ندم .. تذكرتُ محاولتها قتلى ، وتركى عارية أتجرع صقيع الشتاء .

فى هذه الفترة قلبتنى مشاعر بُغضٍ .. تفوق ما يجوس بصدور أقسى القاسين ، رقأت دموعى .. فلم أعد أملك حتى أن أبكى على ما آلت إليه حالى ، فى السابق كانت الدنيا تُطيح بى يميناً ويساراً .. غير أنه كانت لى برهات بينى وبين حالى .. أذرف فيها دموعاً أُبرئ بها أوجاعى ، أما اليوم فقد عصتْ .. ولم تعد تأسى مما إقترفتْ يدى ، لم أكن راضية عما حدث ، لموت خالى وزوجته .. أهون بكثير مما إستحالت إليه حياتهما ، كانت رؤيتهما بالصدفة فى طرقات البلدة .. تُربكنى أيما إرتباك ، تُذهب شهيتى لأيٍ من متاع الدنيا ، كنت فى أمس الحاجة للحديث مع أى شخص .. سوى يوسف ، فما جاءنى غيره .

رمقته مريجاً ، ذات الدموع التى رقأتْ بعينى .. لا تنفك تنبض بعينه من تارة لأخرى على نحو مؤلم لم أره فيه من قبل ، ذاك الذى ما زادنى إلا شططاً وإرتباكاً ، لم أجرؤ أن أبوح له بأنى فاعلتها .. بل أنكرتُ معرفتى بالحادث برمته ، وهو الأمر الذى جعلنى على رأس قائمة شكوكه .. وخاصة بعدما عاين بنفسه تلك التغيرات التى طرأتْ على حياتى مؤخراً ، ولاسيما ذاك الهاتف .. الذى يحمل رقماً لغريب يدعى " مصطفى " .
ومما عزز إرتيابى فيه .. ويقينى بمعرفته بالأمر ، زياراته المكرورة .. بما يجافى نهجه معى فيما سبق ، فى البداية ظننتُ أن ظرف أبيه جعله يُرخى قبضته عنه ، حتى طالعنى ذات مرة ، على نحو أسقط قلبى إلى قدمى .. قائلاً

- **ما بالكِ لا يسوءكِ ما حاق بنا .. تزيدينى يقيناً بأن يديكى غير منزهة عما جرى .**

حينها ، ودون إرادة .. إبتقع وجهى ، وماجتْ أساريرى بتعابير شتى ، حتى أنى لم أستطع أن أرد عليه بكلمة واحدة .. سوى دمعة إندرفتْ من عينى رغماً عنى ، فرمقنى آسياً ..

- **يُحزننى أن أخبركِ بأن إبنة عمتى قد ماتتْ .. زال وجودها داخلى ، إن أكثر ما زادنى تعاطفاً معكى .. هى براءتكِ وزهد حيلتك ، أما الأن وقد زال عنكى نقاءكِ .. فلن أحتمل أن أهتم لأمرك ، خاصة وأنا أعلم أنكى أنتى من دمرتى حياة أبى وأمى .**

فلم أملك أن أقبض زمامى كثيراً .. وأنا أراه يتغاضى عما إقترفاه بحقى ، خرجتُ عن طورى .. فتفجر الحديث على لسانى دون مواربة ..

- **ما بالك تُغالى فى تفتيق الحجج ؟! ، ولمَ إحتملت أن تُعاين إستنفارهم وتشريدهم لى ؟ ، ألم يدمروا كذا حياتى ؟ ، قل لى بربك أين أنا الأن من دنياكم ؟ ، كلاب الشارع يأمنون على حياتهم .. أما أنا فلا ، تتشدق بأن إبنة عمتك قد ماتت .. حقاً لقد ماتتْ منذ أكثر من عام ونصف ، منذ رحلت أمى ، ألم يسوءك موت جدتى على يد أبيك هذا الذى تبكيه ؟! .. ولا تقل لى أنك لا تعرف أنه ألقمها أقراصاً منتهية الصلاحية ، ناس البلدة جميعهم يعرفون ، إن كنت لا تحتمل أن تهتم لأمرى .. فأنا لم أعد أطيق رؤيتك ، وذهابك عنى لن يُفرغ حياتى .. الخاوية بالأساس! .**

وليته نطق بكلمة واحدة .. غادرنى فى صمت تطوى عينه حديث كثير ، تركنى عند مفترق طرق لا رجعة منه .. أبكى بمرارة دفينة على ما فات بيننا ، تُلح على عقلى خواطر محزنة لن أنساها ما حييت ، وهو ماضٍ دون إكتراث .

مرتْ الأيام تهرول ، وأكثر ما آلمنى أنه لم يبح بإعترافى لأحد .. ألقى حديثى فى بئره وردم عليه ، بعدما أقسم ألا يُزيح عنه التراب أبداً .

لم أحزن كثيراً لفراق يوسف .. كنت أعلم أنه سيضع ألف مسمار ومسمار فى نعش علاقتنا لينهيها ، يوماً ما سيشبْ ويشترى أبويه ، وإن باعنى ،

فبرغم أن مساعى الأباء تدور فى أفلاك أخرى عما يربوا إليه صغارهم .. فإن الصغار يرثون المحبة والقسوة مع لبن أمهاتهم ، ويوسف لن يختلف كثيراً عن أبويه .. وإن قنع بقضيتى ومأساتى ، هو الفراق الذى حان موعده ، وحمداً لله أنه أتى فقط بعد عام ونصف .. قبل أن يُلقم روحى مزيداً من الأوجاع .

أكثر ما راعنى هذه المشاعر التى عادت تضطرم بصدرى ، مرت الأيام .. ولم تمر رغبتى فى الثأر والإنتقام ، عزمتُ أن أكمل طريقاً بدأته .. سأحرق دور البلدة بناسها ، شعرتُ بأنى غاليتُ فى شفقتى على خالى وزوجته .. فماذا كانت ستفعل النيران فيهم بأقل مما فعلتْ ؟ ، لا ينبغى أن أغالط نفسى .. فمنذ البداية وأنا أعرف أنها لن تُخلى سبيلهم قبل أن توسمهم بما يؤلمهم طيلة الحياة ، أما يوسف .. فهو من غالط نفسه حينما ظن بأن السماء سترمق أوجاعى صامتة ، دون إنتقام .

هذه المرة لم أبتع حاوية البنزين .. بل سرقتها من مستودع خبيئ للسوق السوداء ، غير أن ما جرى بالقرية فى هذه الفترة كان غريباً وموحشاً إلى حد ظننتُ معه بأنها مأهولة بشياطين لا حصر لها ، فكلما ذهبتُ لأحرق داراً .. ألفيتُ عدة دور تحترق ، هكذا من تلقاء نفسها ودون أن أسكب فيها قطرة بنزين أو أشعل عود ثقاب واحد ، وكأن هذه الشياطين كانت تقوم عنى بإضرام النار فى هذه الدور ، حتى تحولتْ البلدة فى أيام زهيدة إلى أتون لا يهدأ .. لا ينفك الناس أن يخمدوا ناراً حتى تشتعل أخرى .

حينها ، ولا أخفيكم ، شعرتُ برهبة وخوف شديد .. وهستْ لى نفسى كثيراً " **هل تفاقمتْ شرورى إلى حد باتت فيه الشياطين تُعضد يدى ؟!** " ، غير أن هذا لم يُغير فى الواقع شيئ ، فلقد سقط فى هذه المحرقة أعداد مفزعة .. تلقفتهم النيران دون هوادة أو رحمة ، حتى ودع الراحلون الراحلين ، ومن بقى .. مكث ينتظر مترقباً دوره ، القرية فى حال عجيبة .. موتٌ

ونعوش بالنهار ونيران لا ترحم بالليل ، لم يسلم أحد من الأمر ، ما من دار إلا وفقدت أحد أفرادها .

لم تعد عربات الإطفاء تغادر البلدة ، وقوات الشرطة فى الأزقة والطرقات .. فى مناوبات لا تنقطع ليل نهار ، حتى سادتْ حالة من الطوارئ القصوى تبدأ فى عقب أذان المغرب مباشرة ، ورغم ذلك فلا زالتْ النيران على ديدنها .. أفاعٍ تتسلل من دار إلى دار ، وكأن أفراد الشرطة أنفسهم هم من يُضرمونها ، وحدى كنت أوقن أنها هى الشياطين ، تنسل فى هجعة الليل وتتدثر فى الظلمة .. لتنفث نارها فى الأجران وسقوف القش والخشب .

ساءت حالتى للغاية ، لم يجل بخاطرى أبداً بأنى سأبدأ مشواراً .. لتكمله هذه الأشباح الليلية ، لم أعد أنام فى عربة المرفأ الخربة .. فلا ريب أن الشياطين تهجع إليها بعد كل مهمة ، كنت أنام أسفل أحد مقاعد الإنتظار الحجرية بالمحطة ، حتى الإستراحة خشيت أن أنام فيها .. لكثرة ما يجوس فى رحابها ، فأنا لا أعرف إن كانت عِرس وجرذان أم عفاريت متخفية ، وأكثر ما أخافنى تلك الشجرة الملعونة ، شجرة النبق .. تلك التى ألجأتنى أن أرقبها طوال الليل خشية أن تتخطفنى أقزامها تحت الأرض .

بلغ منى الكلل أقصاه ، فقد ذهب الجوع والحزن .. وما مكث غير الخوف ، بقدر ما تمنيتُ أن تحترق البلدة بناسها ، بقدر ما طفقتُ ألعن يدى مرات ومرات لهذه الساعة .. التى جُنتْ فيها فحملتْ حاوية البنزين إلى دار خالى ، ذاك الظالم الذى ساق لعنته إلى البلدة كلها .. وكأن السماء إستفاقتْ بعد غياب طويل ، إستحتْ أن تقوم صغيرة دون العاشرة بما تحتم عليها هى فعله .. فأرسلتْ جنودها من كل حدب وصنف ، جِنان وملائكة وأشياء أخرى ، لتنتقم وتنهى الأمر ! .

رفعتُ يدى مبتهلة .. أعتذر عن تلك الدعوات التى تضرعت بها للسماء لينتقم الله من ناس القرية ، فقط لينتهى الأمر ، كنت أعلم أن لليتامى خاطر

عظيم تستجيب له كل طاقات الأرض والسماء .
ذهب ناس القرية شعاعاً وجمحتْ بهم السبل ، طاحوا فى بعضهم بعضاً .. وتعرضوا فيما بينهم بأبشع ما فى نفوسهم ، تلاسنوا وإحتربوا متكالبين فى اليوم مائة مرة .. وكأنهم على قرنى ثور معصوب العينين ، حتى شاعتْ الإضطرابات فى كل بقعة ، وأخيراً أخذ منهم الفزع مأخذاً عظيماً .. وتقلبتْ أخلادههم فى الجحيم الذى عشته من قبل ، وذلك أنه شاع بين تلافيفهم أن القرية مسكونة بعتاة من الجن .. يسيحون ليلاً فيضرمون النار فى الدور الغافلة فلم تعد الأسرجة والمشاعل تُطفا ليل نهار ، الكل يخشى أن تُباغته الجِنان .
نفرتْ قوات الشرطة عن البلدة على نحو مخزى .. بعدما طالتْ النيران عرباتهم ومقدراتهم ، ليحل محلهم الشيوخ والدجالين .. الذين إستقطبهم سادات البلدة من كل حدب وصوب ، حتى باتت الطرقات تطن بآيات القرآن والترانيم والتعاويذ والطلاسم ، على نهج يثير الرعب .. وبما يفوق تلك الأفانين التى تقترفها الجِنان والشياطين ، كان للأمر صدى مخيف فى نفوس الناس .. ينفدون من فزع ليتلقفهم فزع أكبر ، من فجيعة الحرائق إلى فجيعة الموت .. وأخيراً إلى تلك التعاويذ التى بدت وكأن الشياطين ذاتها ترددها إحتفالاً بما فعلتْ ، بات الأمر لايُطاق .. مما حدى الكثيرين للرحيل عن البلدة إلى ذويهم بالقرى المجاورة ، خوفاً على صغارهم من هذه الأجواء الجهنمية .

باشرتُ الأمر طويلاً ، إلى أن واتانى صباح فارق .. عاينتُ فيه موكباً لجنازة كانت تمر بساحة السوق فى طريقها إلى المقابر لتشيع موتى جدد ، حينها جمدنى الذهول عندما لمحتُ سارة وهند ينوحان بشدة .. فى هلع وشهقات متشنجة ، فقام الشك فى نفسى .. وألفيتُ صدرى يرقع بدقات مدوية

مرعبة " **تُرى ماذا حاق بهما ؟!** " ، ما إن رأونى حتى سقطتا .. وإستحال نواحهما إلى صراخ ، وقتئذٍ تسربل إلى أذنى حديث جانبى .. علمتُ منه أن النعوش تحمل أجساد أمهاتهن ، بعد أن حطأت النيران بهما .
هزتنى رعشة صادمة ! ، وإنفجرتْ ذاكرتى تسترجع لوعة فراق قديم بكامل مشاهده ، تذكرتُ أمى ، فى هذه اللحظة بعينها توقف الزمن للمرة الثالثة .. ولا أعرف لماذا ساورنى بأنى أنا من قتلتُ أمى بيدى ، بعدما رميتُ الكثيرين بقتلها ، أنا من أوجعتها وأزهقتُ روحها ، تآزفتْ فى نفسى ، جملة واحدة .. أوجاع كل صبايا البلدة ، إحتراق قلوبهن بعدما أودتْ النيران بأمهاتهن .
كدت أن أوغَل فى شيئ مهيب .. لولا أنى رمقتُ خالى قائماً على رأس الموكب ، ولا أعرف لماذا تغيرتْ أساريره على هذا النحو المخيف .. ما إن وقعتْ عيناه علىّ ، وما لبث أن تقلقلتْ قدميه متآجلاً نحوى .. وكأنه للتو تذكر شيئاً كان غافلاً عنه ، جفلتُ حين رأيته يفزع إلىّ .. فتقهقرتُ فى خطو دِراك ، وما لبثتُ أن إستدرتُ راكضة ، غير أنه ركض خلفى كذئب هب إلى شاةٍ شاردة ، حاولت مراوغته فتسللتُ من شارع إلى شارع .. لكنه ظل فى إثرى لا أعرف ماذا دهاه ، كلما نظرتُ خلفى .. لاح لى عن بعد ينتهب الأرض نهباً ، طوحتنى أفكـار قاسية .. ما الذى أثاره إلى هذا الحد حين رأنى ؟! ، ماذا تذكر ليخرج عن طوره ؟! .. ما الذى تطويه سريرته لى ؟! ، تمنيتُ لو مزقتُ صدره وإستخبرتُ عما يجوس فيه .. لكنى لم أملك سوى أن أركض علّى أفر ، أو ينفض عنى .

(٣٠)

تمكنتُ من الإحتجاب عنه فى حواشى دار مهجورة ، مكثتُ مختبئة لعدة دقائق .. حتى ذهبتْ عن أذنى رقعات قدميه على الأرض ، وما كدت أشرئب برأسى .. حتى لمحته عند ناصية الدار ، يأب نحوى لا يلوى إلى شيئ ، فتحجرت قدمى وإتسعتْ حدقتى .. تجمدتُ كما يتجمد الفأر حين يرى هراً يرمقه ، قدماى ثقيلتان .. وكأنهما منزرعتان فى الأرض .

جسر الرجل الجدار المنهدم الفاصل بينى وبينه ، وكاد أن يخطو خطوته الأخيرة نحوى .. غير أن طاقته تبخرت وقواه خارت بغتة ، صرعه دوىّ هائل نافذ عن شيئ بالجوار ، ما لبث أن يهم نحوى .. حتى صُمتْ أذنيه بنعير مخيف ، وكأن قطاراً سريعاً مرق بجانبه ، فإصطكتْ قدميه مرتجفة .. واثباً عن الأرض كالملسوع ، تطوح إلى الخلف فتعثر بالجدار المنهدم .

لوى عنقه مفتزعاً يتبيّن الأمر .. فرأى سيارة وثيرة تقف عند حافة الطريق ، " **مصطفى !** " قلما يأتى فى وقته .. لكنه أصاب جيئته اللحظة ، نظرته ، تتشبث عينى به دامعة .. فأماء لى صارخاً ..

- **أسرعى .**

فهرعت إلى السيارة وقفزت داخلها .. فتكوم جسدى كدُمية على الأريكة الخلفية ، وما كدت حتى إنطلقت السيارة سريعاً .. تُذرى التراب خلفها ذرياً .

أما خالى فقد تسمرتْ قدماه للحظات ، يُشيّع السيارة بأعين جاحظة .. فاغراً فاه فى ذهول ، يحاول أن يستوعب ما حدث ! ، غير أن السيارة كانت قد إنفلتت إلى الطريق العمومى المفضى إلى المدينة ، وما هى سوى هنيهة .. حتى إستفاق خالى يعض على أسنانه غيظاً .

كان مصطفى على علم كامل بما تقلبتْ فيه البلدة من حرائق وغيره ، بيد أن

ما فاجأنى به .. أنه كان يعرف هذا الشيطان الذى أثار ذلك الجحيم الوبيل ، لم يكن شيطان من الجن كما ظننت وظن أهل البلدة .. بل شيطان إنسى ، وما كنت غافلة حتى أفطن فوراً أنه خالى ، ذاك الذى صب جام إنتقامه على رؤوس ناس البلدة جملة واحدة .. ظاناً أن من أحرق داره واحداً منهم ، فما من دار إلا ولها عنده مظلمة .. وخاصة بعدما شط عقله فى الفترة الأخيرة ، فطاح فى الناس ظلماً وبغياً .

علمتنى الحياة أن الأحداث الكبيرة تأتى دوماً فى طى الأحداث الصغيرة ، ولقد إستبان هذا ، حول ما جرى أخيراً .. فى أمرين ، أولهما كان الجانب الأخر الخافى لأحداث الحريق .. والذى برز جلياً عند ظهورى بغتة أمام خالى على هامش الموكب الجنائزى ، فلقد شَدِه ولام نفسه كثيراً ، أنه غَفِل تلك المرة التى جاءه فيها إبنه مصطفى ، فى أعقاب حريق الدار بقليل .. ليبوح له بأنه ما من علاقة عادت تربطه بى ؟! ، وزيد الأمر بحديثه المشتت عن الخيانة والغدر وما شابه .

كيف شَرِدَ فلم يربط الوقائع ببعضها ؟! ، كيف لم يفطن أن سابقة حريق الدور .. لم تُوثق فى تاريخ البلدة سوى فى سِجلى ؟! ، ومن أحرقتْ دارها .. فلن يهون عليها إحراق دور الناس ، عرف من هذا كله لمن كانت اليد التى سكبتْ البنزين وأشعلتْ أعواد الثقاب ، وهو ذاته الأمر الذى حذرنى منه مصطفى .. وآثر ألا يتركنى بالبلدة ، فإنتقام خالى بات حتمياً ، والأمر هذه المرة .. ليس بمحض تكهنات أو تأويل أجوف ، بل أمراً أكيداً وخاصة فى ظلال قسوة كل ما جرى .

أما الأمر الثانى .. فكان ينطوى فى جيئة مصطفى فى هذه اللحظة بالذات ، والتى واكبت ساعتها على نحو دقيق قبل أن ينال خالى منى ، قال لى بأنه ما من مرة كان ينتشلنى فيها من خطر يحيق بى .. إلا وسبقه حُلم أو كابوس ، إستفزه من نومه عنوة ! ، وهذه المرة كان قد رأى كابـوساً غريباً بالنسبة له ،

ولى ..

ففى أجواء كتلك التى عاشتها القرية فى الفترة الأخيرة .. رأى أنه إصطحبنى إلى حانوت بقالة ليبتاع لى شيئاً من الحلوى أو ماشابه ، بغرض أن يرفع عنى وطأة موت أم صديقة لى ، غير أن صاحب الحانوت طالعه بشيئ غريب ! ، قال له أنه لا يمكن لنا الشراء قبل أن يُعلقنى من ذراعىّ فى الأعلى ، وأشار إلى حبل مدلى من منصة خشبية .. منصوبة بوضع أفقى على عمودى خرسانة بجوار الحانوت ، وكأنها مشنقة ! ، كانت المنصة على رأس شارع طويل .. يحد جانبيه سوران شاهقان ، وينتهى إلى بوابة حديدية رمادية اللون .

برغم عجبه من الأمر ، رفعنى مصطفى إلى مقعد خشبى .. ثم وثّق ذراعىّ متقابلين من راحتيهما فى الحبل المدلى ، وأشار الرجل ببنانه.. فسحب مصطفى المقعد عن قدمى ، لأتعلق كذبيحة فى عُلاقة جزار ! ، حينها بوغت بفرار الرجل وجميع زبائن الحانوت إلى وجهات شتى .. حتى تفرقوا عبابيد ، أما هو فبقى ينظرنى فى شده وحيرة ، حتى حانت منه إلتفاتة إلى البوابة البعيدة بنهاية الشارع .. إثر سماعه لصفير حاد يُنم عن إنفتاحها ، فلمح ذئباً غليظاً عظيم الخلق ، له شعر منفوش مبتقع برماديات باهتة .. يركض نحوى بكل ما أوتى من عزم فى وثبات عفيّة جامحة ، حتى أن أهدابه وذؤاباته كانت تنتثر فى الهواء ، إثر إندفاعه الشرس .. على نحو يخلع القلب .

ما إن رمق مصطفى الذئب متآزفاً .. حتى تخلخلتْ ركبتاه فسقط ، وما كاد حتى هب واقفاً .. وإنفلت راكضاً بخطو خفيف ، هارباً من هذا الوحش الضارى قبل أن يجهز عليه ، غير أنه وبعد بضع خطوات تعرقل فهوى منطرحاً ، وكلما حاول الوقوف سقط .. قدميه لا تستقران على الأرض ، تذكر تلك الصغيرة المعلقة على المنصة .. فوخذه صدره وخذة موجعة .

إستدار وقتئذٍ وأرسل بصره نحوى .. فوجدنى أئن ببكاء مكتوم ، ورمق الذئب .. فوجده قد جسر نصف الشارع ، تطرق دبدباته قاع أذنه ، فسقط مفتزعاً .. غير أنه إرتد سريعاً فارداً طوله ، هرع إلى الحانوت ، بحث فى أرجاءه عن شيئ ينافحه به .. فوجد عصى خشبية غليظة ، فإنكب إلى ناصية الشارع شاهراً عصاه بقبضة مشدودة ، وما بين رمقة لهذا الراكض فى وثبات وشهيق مخيف ، وتلك المعلقة كالذبيحة تبكى فى روع صامت .. قام من نومه مفتزعاً ، يدق قلبه بدقات عنيفة .

حينها فقط .. شعر مصطفى بأن خطراً محدقاً يحاول أن يلف أذرعته حولى ، فهرع إلى سيارته ينتهب الأرض نهباً إلى البلدة ، ليجد أن خالى قاب قوسين أو أدنى .. وينحر عنقى ! .

كان لهذه الرسائل والعلامات الربانية وقع شديد التأثير فى حياتى .. جعلتنى ألتفتُ دوماً لما تطويه الأحلام والمواقف والصدف ، وبخاصة تلك التى تأتى على غير موعد ! ، أدركتُ أن الله لم يتركنا مشاعاً لخطوب ونوازل هذه الدنيا الفانية .. بل يبعث إلينا من حين لأخر علامة تنطوى على حكمة ما ، ومن لم يلتفتْ إلى هذه العلائم ببصيرة لماحة ثاقبة .. تقاذفته دنيا الهوى إلى كل حدب وصوب ، تماماً كما تفعل الهرة بكُرة هوائية .

أعرب لى مصطفى عن قلقله حيال هذه الأخطار .. التى تتحين الفرصة لإنتهاشى ، فأبدى رغبته للمرة الثانية فى إستضافتى إلى مسكنه ، وذلك أن البلدة لم تعد بموطن يطمئن فيه على حياتى ، خاصة وأن خالى بات يعرف كل الطرقات والمواطئ التى أحل فيها أو أرحل عنها .. ولاسيما عربة القطار ، تلك القابعة هناك بالمرفأ ، غير أنى إستنفرتُ هذه الفكرة تماماً .. ليس خوفاً منه بل حرجاً وحياءاً ، فبالنسبة لى كان لقاء أضعاف هذه الأخطار .. أهون من أن أبيت ليلة واحدة فى مسكن رجل غريب ، وإن

كان مصطفى ، كانت تلك قناعاتى الراسخة .. التى أسقتنيها أمى منذ نعومة أظافرى ، والتى لا علاقة لها أبداً بِسِنى الصغيرة أو ظرفى القاسى .
رجوته أن يخلى سبيلى بأحد شوارع المدينة .. بعيداً عن ذاك الشارع الذى يطن فيه عجوز الأحذية الفج ، أردتُ أن أختلى بنفسى .. لأختلس هذه البرهات التى يمكننى فيها رؤية قاعى وما يجوس فيه ، كانت أحداث الأسابيع الماضية قاسية ومجحفة .. متسارعة إلى حد لم يُسعفنى فيه الوقت لأختبر أفكارى ومشاعرى ، فلم يملك مصطفى سوى أن يتركنى على مضض .. بعدما ذكرنى بالهاتف الخلوى ، ولزومية أن أهاتفه إن شعرتُ بخطر وشيك يحوم حولى ، وترك لى خمسين جنيهاً كانت أخر ما بحوذته .. وذاك أنه خرج ملهوفاً فنسى أن يأخذ حافظة نقوده .

كانت أجواء الإحتفالات بعيد الأم تطن فى كل مكان ، الشارع وكأنه كرنفال عظيم .. يزدان بشتى صنوف البهجة ، الحوانيت على الجانبين عامرة بنماذج زاهية من الهدايا بدءاً من العطور المحلية وحتى أثمن المصوغات ، أخذنى هذا الفارق العظيم بين عيد الأم بالقرية ونظيره بالمدينة ، وهو الأمر الذى غمرنى بسرور ، سريعاً ما إلتمع صداه فى عينى .. فسِرتُ سيراً وئيداً مطرباً ، كسائحة تطالع طقوس وأهازيج مبهجة لثقافة غريبة عن ثقافات بلادها ، أغانى الأمومة تنداح فى موجات .. صداحها يتردد فى شدو محبب للنفس من حانوت إلى حانوت .
قبل هذا اليوم بشهر أو يزيد .. كنت أدخر مصروفى كله لأبتاع هدية لائقة لأمى ، كنت أنتخبها مسبقاً وأتسلى بمشاهدتها يوم بعد يوم بمكتبة القرية ، وما واتتنى فرصة أبداً تمكنت فيها من إدخار ثمن الهدية بالكامل .. فكانت أمى تُقرضنى قرضاً لا يُرد لأكمل ثمنها ، لتتلقاها فى يوم عيدها بصدر رحب .. وعلى لسانها ذات الجملة المكرورة " **أنتى أكبر هدية أهدانى بها**

ربى " ، وما تمر أسابيع قليلة .. حتى تنتقى هى لأجلى هدية عيد ميلادى ، ذاك الذى يتبع أعياد الأمومة بزهاء شهر .

تذكرتُ هذا كله فطن سؤال ملح فى رأسى " **تُرى ماذا كانت ستهدينى أمى هذا العام ؟** " ، إبتسمتُ لدهاء الصغار المكرور ، هذا الإستباق اللئيم الذى كنت أمارسه دوماً مع أمى .. فأسألها فى أعياد الأمومة عما كانت ستُهدينى به هى فى عيد ميلادى أنا قبل ميقاته بشهر ، وكأن العادات لا تتغير .. مهما زالت الأماكن والأشخاص ، حينها ألحتْ لى فكرة أن أهدى أمى شيئاً هذا العام ، لم أشعر بغرابة الأمر ، فالأم هى الأم .. وإن كانت قابعة فى قبرها ، وما كادت الفكرة تختمر فى رأسى .. حتى تعلقتْ عينى بمدلاةٍ فضية بادية من بلور حانوت للهدايا التراثية ، فشدهتْ عينى " **مدلاة أمى !** " ، تلك التى كانت تحتفظ فى إطارها بصورة لى .. لا تُفارق صدرها أبداً ، فى البداية خال لى أنها تُشبهها .. إلى أن تذكرت يوم أن قالتْ لى أمى أن جدى صنعها لها خصيصاً عند صائغ البلدة ، بعد أن نقش إسمها على إطارها النحاسى .

لم أتردد لحظة ، دفعتُ باب الحانوت وإقتربت من الجالس هناك خلف خوان زجاجى ، قائلة ..

- **أستميحك عذراً .. بكم هذه المدلاة ؟** .

وكعادتهم معى ، قلبنى الرجل ببصره من أعلى إلى أسفل .. دون أن يتحرك عن مقعده ..

- **أى مدلاة هذه ؟!** .

فترجلت إلى البلور وأشرتُ إليها ..

- **هذه** .

فتمطى الرجل واقفاً فى أناة وكلالة ، ثم ترجل إلى البلور مومئاً ببنان منتصب .. لا يلوى لأمرى

- **هذه ليست للبيع .. هى للعرض فقط** .

- **إذن هل لى أن أراها ؟ .**
- **ومن يمنعك ؟ ، هاك هى خلف البلور .. فلترينها كيف شئتى .**

فأطرقت للحظات .. كان الرجل خلالها قد كرَّ إلى مقعده ، فعدتُ إليه على إستحياء ..

- **أرجو أن تتفهم مقصدى ، كانت لأمى مدلاة كهذه ، صنعتْ لها خصيصاً .. وكانت محتفرة بإسمها ، وهذا فقط ما أردت التحقق منه .. علّى أتمكـ ...**

فبتر الرجل عبارتى ضائقاً ..

- **وهل كففتكِ عن شيئ ! .. قلت لكى هاك هى خلف البلور .**

فنظرته فى جدية ، إذ خال لى أن الرجل يظن أنى أراوغه .. لأسرقها وأفر

- **على رسلك بى ، أنا لم أرد سوى رؤيتها عن كثب .**
- **لا جدوى من هذه المراوغة ، إن كنتى تريدين شراؤها .. فالمدلاة مرهونة وليست للبيع .**
- **سيدى أنا لا أبتغى شراؤها .. لم أرد سوى أن أتحقق من الإسم المحتفر على إطارها ، ولتتحقق من هذا بنفسك .. لن ألمسها بيدى .**

فحدجنى الرجل ضائقاً ، غير أنه بالنهاية قام عن مقعده تارة أخرى مترجلاً إلى البلور .. فنزع المدلاة فى عصبية عن المشجب ، قائلاً ..

- **وما إسم أمكِ إذن ؟ ..**
- **إسمها ذينب .**

فنظرنى الرجل مشدوهاً ، ثم قال ..

- **تقولين أنكى إبنتها ؟ ..**

حينها إصطفقتُ فرحاً .. وخايلنى أن أنزعها عن يده وأركض ، غير أنى تمالكتُ زمامى على مضض ..

- **نعم أنا إبنتها .. هى إذن مدلاة أمى .**

- **لكنها تغيبت كثيراً عن الموعد المبرم .. المدلاة مرهونة منذ ما يعدو العام والنصف .**

فشعرتُ بتوتر يجوس فى قدمىّ ، أرفع قدم وأحط أخرى .. وكأنى واقفة على جمر ، كاد الفرح أن يخلع عنى رشدى ورزانتى ..

- **حقاً حقاً .. منذ عام ونصف .**

وللحظات ظل الرجل يرمقنى .. ولسان حاله يقول فى صمت " **وماذا بعد ؟** " ، فأرسلت نظرة حائرة إلى خارج الحانوت ، ثم عدتُ سريعاً ..

- **وماذا أفعل لأستردها .. طالما أنها ليست للبيع ؟ .**
- **ينبغى أن تأتى أمكِ وتفض رهنها .. وذاك بعد أن تدفع قيمة الرهن**
- **وما هى قيمة هذا الرهن ؟ .**

فنظرنى الرجل متعجباً ، ثم ذهب إلى خوانه وبحث عن دفتر بعينه فى أحد الأدراج ، وبعد التنقيب فى عدة صفحات ، قال ..

- **رُهِنتْ المدلاة نظير ثلاثمائة وأربعون جنيهاً .**

فإفتغر فاهى للحظات ، ثم تداركت الأمر ..

- **إذن يمكننى إستردادها مقابل هذا المبلغ ..**
- **أنتى ! .. بالطبع لا ، لم تفهمى مقصدى .. الرهن لا يفضه سوى من أبرمه ، أقصد أمكِ .**

فتدبرتُ للحظات ..

- **لكنها مريضة ، منذ أكثر من عام ونصف لم تبرح مرقدها .**

فأطرق الرجل ، ثم قال ..

- **إذن يمكنكِ فض رهنها .. شريطة أن توافينى بأمارة منها ، صورتها أو بطاقة تحقيق الهوية .**

فوافقتُ وفى نيتى أن أجلب صورة لها .. دون أن أعلم كيف سأجلبها ، فجميع أغراضها وحاجياتها قد بادت مع ما إحترق بالدار .

كانت الخطوة الأولى التى أزمعتُ إتخاذها أن أهاتف مصطفى.. علّه عبثاً يقرضنى هذا المبلغ ، الثلاثمائة وأربعون جنيه ، وعليه أبرزتُ هاتفى من مودعه ، ثم كبستُ أزراره وإنتظرت .. غير أن مصطفى لم يرد ، طالعتنى رسالة صوتية بأن الهاتف غير متاح أو مغلق .. ثم بضع رنات إنتهتْ إلى لا شيئ ، أعدتُ الكرة فما كان سوى ذات الأمر ، ولعدة مرات لم يتغير شيئ .

ظللتُ نهار كامل أكبس هذه الأزرار اللعينة دون مجيب .. وكأن صاحب الهاتف قد مات أو رحل إلى بلد أخرى ، وإن كان ، فعلى أقل تقدير كان الهاتف سيجيب بصوت أخر .

كانت هذه مرتى الأولى التى أستخدم فيها هذا الهاتف لأستدعى رقم مصطفى ، بل هى المرة الأولى مطلقاً .. التى أستدعى فيها رقماً على هاتف خلوي ، لذا خايلنى أن مصطفى ربما قد أخطأ فى تسجيل أحد أرقام هاتفه ، أو أنى أنا الذى أسيئ إستخدام الهاتف ، كانت هذه الإحتمالات هى أكثر ما طاف إلى مقدمة رأسى ، ولكن بالنهاية لم أصل إلى حل " **من أين لى بهذه النقود التى أفض بها رهن المدلاة ؟!** " ، ثلاثمائة وأربعون جنيهاً .. كانت بالنسبة لى كثلاثمائة ألف جنيه ، ثلاثمائة حجر فى طريقى .. عاجزة عن إنتزاع واحداً منها .

فكرت فى أن أعود لصاحب الحانوت فأعطيه الخمسين جنيهاً ، تلك التى أعطانيها مصطفى .. كإجراء إحترازى حتى لا يفكر الرجل فى بيع المدلاة ، وخاصة بعدما علم بمرض أمى ، ماذا لو أخبرته بأنها ماتت ؟ .. حتماً لم يكن ليتردد فى بيعها لأول زبون يفد إلى حانوته ، كانت هذه المدلاة تعنى لى كثيراً .. برغم زوال صاحبتها عن صفحة الوجود ، فهو ذاته السبب الذى جعلنى أتشبث بإستردادها ، فالمدلاة أخر ما تبقى من رائحتها ، لذا عـزمتُ

ألا أتردد فى بذل أقصى ما فى وسعى .. لأحصل عليها .
طاحت رأسى فى أشياء كثيرة لا جدوى منها ، تذكرتُ النقود التى رأيتها سابقاً فى حافظة أمى .. تلك التى أكلتها النيران ، إنتهبتها كما تنتهب القطط والطيور خزين الدار ، **" ماذا لو لم تحـترق الدار ؟ .. سحقاً ليدى التى فعلتْ "** ، ماذا لوكانت جدتى على قيد الحياة ؟ .. ما كانت لتنكص أبداً عن مساعدتى ، فى هذه اللحظة بالذات كرهت الفقر والحاجة .. أكثر مما كنت أمقتهما من قبل ، ضيق ذات اليد وزهد الحيلة ، لعنت هذه الأشياء مرات ومرات ، كلما طافتْ المدلاة بمخيالى طاحتْ رأسى .. ومجن لسانى لعناً هنا وهناك .

كان علىّ أن أجد مبيتاً هذه الليلة .. فمن الصعوبة بمكان أن أقضى الليل جوالة بين شوارع المدينة وأزقتها ، فعلى عكس كل المدن .. مدينتنا فى هذه الفترة لم تكن تأوى الغرباء ، فأصداء الحرائق الناشبة هناك .. جعلتْ من مداخل المدينة وشوارعها الرئيسية ثكنات عسكرية ، يلتقط فيها رجال الشرطة كل متسكع وشريد ، وبخاصة تلك الطرق المفضية إلى قريتنا أو الناجمة عنها ، لذا فكرتُ فى النزوح إلى مكان بعيد ، بلد أو قرية لا أجد فيها خالى ، بدتْ الفكرة فى البداية مرعبة .. إلى أن إستساغها عقلى كلما تذكرتُ هذا الخطر الذى ينتظرنى هناك فى قريتنا .
إستعلمتُ المارة عن طريق " مرفأ السيارات " ، فقيل لى أنه من الصعوبة بمكان أن أوافى سيارة أجرة ، قيد السفر .. فى هذه الساعة المتأخرة ، وأشاروا لى بالتوجه إلى محطة القطار .. على بعد زهاء العشرة دقائق سيراً على الأقدام ، وذاك أن القطارات تعمل حتى الساعات الأولى من الصباح ، فبرقتْ الفكرة فى رأسى كنجم بزغ بغتة فى ليلة ظلماء ، فتوجهتُ رأساً إلى المحطة .

طوال الطريق وأنا أفكر .. رأسى تجمح إلى شطآن جمة ، تارة أفكر فى النقود المطلوبة لفض أسر المدلاة .. وتارة أخرى فى المكان الذى سأوى فيه الليلة ، بضع دقائق وكنت بساحة المحطة .. جالسة على مقعد بأحد الأرصفة ، لم تختلف المحطة كثيراً عن محطة قريتنا .. سوى أنها كانت أرحب وأكثر نظاماً ونظافة ، فضلاً عن إستقبالها للمزيد من المسافرين فى هذه الساعة المتأخرة ، لم أنتظر كثيراً حتى أتى القطار هادراً ، كان حضوره بالنسبة لى مرعباً .. جعلنى أنكص للوراء بضع خطوات ، إلى أن توقف تماماً .

وما كاد حتى هرع الناس إلى أبواب العربات فى سُعار غريب .. إلى حد شعرت معه أن المسافرين يزيدون كثيراً طاقة القطار ، فتسربلت بين أرهاطهم الصاعدة حتى ناهزت الباب .. إلى أن جلستُ بالأخير عند أقرب مقعد خاوٍ بمنتصف العربة ، برهات وتحرك القطار فى هدير متردد رتيب .. وما لبث أن إنطلق صاخباً ، كانت دبدباته أشبه بدبدبات ماكينة الطحن بقريتنا .. غير أنها أشد عزماً وأغلظ وقعاً .

كانت تلك مرتى الأولى التى أستقل فيها قطاراً ، وجدتُ كل شيئ من الداخل يختلف ، الصافرة مدوية ناعرة .. لا تعلو ولا تنخفض ، يُخايلك أن العربات مدينة تتحرك بسكانها ، المقاعد كأنها دُوراً متراصة تعج بأحاديث جانبية ، السابلة والباعة فى إصطخاب ورطن .. لايختلفون كثيراً عن هؤلاء السواحين بسوق الخميس ، رُعاع ودهماء ومتسولة .. لم يؤثر هزيع الليل فى حراكهم ووعواعهم .

فى البداية باشرت الأمر بأعين يرسمها دهش الصغار " **كيف لهذا العجيج الصاخب أن يهبط من قطار لا يتوقف ؟!** " .. إلى أن وافيته يُهدِّى من ركضه كل بضع دقائق فى أماكن محددة ، يسكب ناساً ويبتلع ناساً .. تماماً كما تفعل القطارات فى محطة قريتنا ، ينتظرها الكثيرين بين صاعد ونازل ، وهو الأمر الذى داخلنى بشيئ من الوجل .. فحتى هذا الحين لم أكن أعرف بأى

المحطات سأهبط ! ، حانت منى إلتفاتة مرتجفة إلى النافذة .. فألفيتُ العربات تنهب الأرض نهباً ، وبينما كانت تتقدم للأمام .. رأيت كل شيئ يتراجع للخلف ، الأعمدة والأشجار والدور حتى الزراعات .. وكأنها تركض للوراء ! .

لم تغفل عينى طوال المسير لحظة واحدة .. حتى وافيتُ المآذن تتلاقف نداء الفجر ، حينها كان القطار قد جسر ما يعدو العشرة محطات .. إنتشرتْ على متن أرصفتها لافتات لبلدان بأسماء مختلفة ، منها ما أعرفه من حكايا أمى وناس القرية .. ومنها ما لم أسمع به من قبل .
طالتْ جلستى لساعة أخرى .. حتى تململتْ رجلاى ، حينها وافيتُ القطار يُهدئ من خطوه .. فتقلقلتُ من محطى واقفة فى حركة عابثة ، لم أكن آنها أعرف هل ينبغى علىّ النزول من عدمه ، غير أن القطار توقف بغتة مرتداً للوراء .. فإنكببتُ إلى الجالسين على المقعد أمامى بفعل القصور الذاتى ، وما كدت حتى ألفيتُ الأيادى تزجنى متأففة .. تتلاقفنى من يد إلى يد ، فإغترقتُ فى حرج شديد .. حدانى أن أتسلل خلسة بخطو متعثر لأندس فى لُحمة الفوج الهابط ، طابور طويل من المسافرين .. يزج بعضه بعضاً إلى باب العربة ، كنت فيه كحبة إندستْ بين حبات مسبحة .. ما لبثتْ أن إنفرط عقدها على الرصيف ، لينسل بجواره طابور أخر صاعد .

ما إن حطتْ قدمىّ على الأرض ورأيتُ ساحة المحطة .. حتى هالنى المشهد ، أخذنى أخذة مباغتة ، فإتسعت حدقتى ذهولاً دون إرادة .. وشهقتُ شهقة فائضة ، ملأتْ صدرى على غير طاقته ! ، لم تكن المحطة كمحطة بلدتنا البائسة .. أو حتى تلك التى المدينة ، المشاهد هنا مبهرة .. إلى حد يصعب للعين أن تتجاوزه ، سقف شاهق تمر القطارات أسفله .. ودهاليز مشرعة تفضى إلى أروقة رحيبة ، الناس فى كثرة مرعبة .. يتدافعون أكثر مما

يتدافع السابلة فى الأسواق الشعبية ، وعلى طول الأرصفة تنتشر الأكشاك والحوانيت سابقة التجهيز ، وحقائب متراصة .. تُخايلك كثرتها أن أصحابها راحلين إلى كوكب أخر .
ظل العجيج الصاخب يدفعنى إلى أطراف الزحام .. حتى إنحسرتُ إلى حافة الرصيف ، فكدت أسقط بين القضبان .. لولا أنى تجاسرتُ فإندسستُ عنوة إلى فوج يتحرك صوب المدخل المشرع هناك ، وما هى إلا دقيقة سَيرٍ حتى ناهزتُ الباب العالى .. المفضى إلى ردهة المحطة الخارجية ، وهناك إكتشفتُ أنها تعلو عن الأرض .. ما يضاهى إرتفاع دارين من دور القرية ، خطوة واحدة نحو الدرج العريض .. ولا أدرى ما حدث لرأسى بعدها ! ، لفحتْ وجهى هبوب ساخنة ، وما لبثت حتى علتْ الأصوات وإتضحتْ على نحو ملحوظ .. وكأنى للتو خرجتُ من عنق زجاجة .
وشتان بين روعى داخل المحطة وهنا بالخارج ، جمدنى البراح والطلة الرحيبة ذهولاً ، فهستْ نفسى ، وشهقتُ شهقة بسطتْ صدرى قسراً .. حتى كادت رئتاى أن تنفجرا ، لا يختلف جفولى عن هؤلاء الذين يطالعون البحر لأول مرة .. فيشعرون أنه يدمدم نحوهم وقد إبتلع كل شيئ ، الناس والدور والأراضين ، ما لبثتْ عينى أن تنفرج على المشهد المفتوح .. حتى تعلقتْ بالأبنية الشاهقة ، وكأنها مسافرة إلى السماء ، الميدان غاص بالسيارات فى عجة مهيبة .. تتناوح أبواقها ما بين سير رتيب أو مروق خاطف .
حملقتُ مشدوهة للحظات ، الناس كأسراب النمل لا تحسب لهم عدداً .. بالكاد تحصر العين أولهم وأخرهم ، لجة وزحام خانق ، تشعر وكأنهم يزحفون إليك زحفاً ! ، وجوههم مقبضة ، جرداء كاحلة .. تتقلب بين طور الشباب والشيخوخة الواهنة ، وخصور مدقوقة ضامرة .. أو مترهلة فى إكتناز عجيب كالبالون .

كنتُ فى لجتهم كقردة ناحلة هزيلة .. بالكاد تجد موطئاً بين أقدامهم ، وهو الأمر الذى داخلنى بإنطباع مخيف .. حدانى أن أنكص على عقبى دون إرادة ، أحاول الرجوع ، وما كدت أستدير حتى تلقيتُ دفعة فى كتفى وأخرى فى جذعى وأخرى وأخرى ..وإنطرحتُ بالأخير هاوية بين أقدام الوالجين فى زخم إلى بهو المحطة ، ما تكاد قدم أن تتجاوزنى حتى تركلنى أخرى من باب الخطأ ، دون إعتذار ..

كانت حالى لهى عين الضحك والإبكاء فى آن ! .

بيد أنى إصطرعتُ مفتزعة ، فحبوتُ زاحفة أنافح إجتياحهم .. إلى أن إلتجأتُ بسفح جدار قريب ، أموج فى ذعر وروع مهول ! ، إلتصقتُ بالحائط ، وما لبثت حتى تسللتُ خلسة إلى الداخل .. فساحة المحطة أهون بكثير من خارجها ، ولاسيما ردهتها المزحومة لأنفها .

" سحقاً لبلد تستقبل زوارها على هذا النحو المهين .. بالصفع والركل " تذمرتُ محتدة ، وما كدت حتى أخذتنى مفاجأة أخرى .. هى الأسوأ من جملة ما وافانى فى هذه السفرة المشئومة ، لقد تاهت عنى علائم المحطة .. فأضحى يمينها كيسارها ، لا أعرف من أى صوب أتيت ! ، الأرصفة خالية من القطارات سوى قطار على رصيف بعيد .. يخال لى أنه ماض إلى عكس وجهتى ، حينها تذكرتُ أول يوم لى فى المدرسة .. وكيف أن الدروب والأبواب تاهت عنى بغتة بنهاية الدوام ، تحجرتُ فى محطى أحاول أن أكبت رعشة لحوحة ، ماذا لو عرف هؤلاء بأنى تائهة ؟ .. حتماً سيتلاقفوننى بين نعالهم .

وقفتُ للحظات مقبوضة ، فاغرة الفاه .. قبل أن تنبض الدموع واثبة إلى خارج عتبات عينى ، للتو فقط شعرتُ بعمق البئر الذى أوقعتُ نفسى فيه ، تلفتُ حولـى حائرة .. الناس لا يُداخلونك بالطمأنينة لتسألهم **" ولكن عما**

أسئلهم ؟! " ، ذرعتُ الرصيف عدة مرات جيئة وذهاباً ، يخال لى فى كل شوط .. أنها المرة الأولى التى أسير فيها على متنه ، وكأن الأشياء تتبدل فى كل دقيقة مرة ، تُبدل جلدها على نحو عجيب .. ما من فرصة لترى الشيئ مرتين .

خالجنى شعور عميق بالغربة .. فإنتفض جسدى راجفاً ، تلفتُ تارة أخرى ، تاه عنى طيف أمى .. فلم أعد أتبصر شيئاً ، دارتْ عينى علّى أراها هنا أو هناك .. ولا أثر ، تركتنى وحدى تائهة فى بلد لا أعرف فيها أحداً .

هرعتُ إلى المارة أسئلهم عن السبيل إلى قطار قد يمر بقريتى .. لا أحد يعرفها ، لا أحد فى الأساس يتكلم ! .. الجميع يومئ بكتفه أو ذراعه لاوياً شفتيه بالنفى ، قبل حتى أن أتم سؤالى ، تركونى خالية الوفاض واثبين بخطو دراك .. وكأن الموت يلحقهم ! ، حتى أنى سألتُ أحدهم بالخطأ مرتين .. فزج كتفى فازعاً فى وجهى

- **ألا تفهمين ؟ .. قلت لكى لا أعرف .**

وما لبث أن طفق الجميع يُزيحنى عن طريقه .. وكأن بى وباء وبيل يخشون إنتقاله إليهم ، ومن يدٍ إلى يدْ .. ضربنى سُعار مخيف ، فإنفجرتُ صارخة أنافحهم بيدى دون إرادة ..

- **ماذا دهاكم ؟ ، لماذا تزجوننى ؟ .**

وبالكاد إلتقطتْ آذان المارة صوتى .. بدا وكأنه شجار عابر على هامش مناوشة جانبية ، هدير القطار على الرصيف البعيد ، ومكبرات الصوت التى تعلن أنه على وشك الإقلاع ، فضلاً عن ضجة المسافرين وإصطخابهم .. كل هذا مجتمعاً حال دون أن يصل صوتى لأحد ، بالكاد إلتقطته شرازم متناثرة على متن الرصيف .

وهو الأمر الذى فاقم سخطى وأثار إهتياجى .. فأطبقتُ راحتىّ على جانبى رأسى ، كما يفعل الصغار حينما ينفذ معين صبرهم .. إنفجرتُ

بصرخة كمدٍ مدوية ، ترددتْ أصداؤها فى أرجاء المحطة من أقصاها إلى أدناها ، طارت فوق الرؤوس تشق التجمعات المنتشرة .. فإلتفتْ الناس صوب الصوت مشدوهين ، تشرئب أعناقهم من كل حدب فى جذع وفرق ! ، وما لبثوا أن تآجلوا فى لُمِم مشحونة حولى .. فماج اللغط والضجيج سريعاً بين تلافيفهم ، ولا أدرى ما بال هذه الهواتف برزتْ فجأة .. وطفقتْ تتوجه نحوى ! .

أقلع القطار عن الرصيف البعيد ، وهدأت الأصوات ، ليس إلا همهمات وضغضغة تموج على ألسنة الحشود المركومة .. التى أتت لتشهد هذه الصغيرة الغاضبة ..

- **ما بالكم تُزيحوننى عن طريقكم .. وتعقدون جباهكم فى وجهى ؟! ، لست متسولة أو سارقة .. لا أريد شيئاً من نقودكم ، أضاعنى الطريق ولا أعرف كيف الرجوع ، تاه عنى قطارى ، أخبرونى كيف عساى أن أرجع إلى قريتى ؟ .**

وما جاءنى غير صمت بليد .. خَرِسُوا وكأن مزاليج أوصدتْ أفمامهم ، فى هذه اللحظة .. لم أوافى غير أعين صاغرة تحملق فى بلاهة ، وأيدى تصطفق أسفاً .. فقط تورية للحرج وحفظاً لماء الوجه ، وكثيرين هم الذين لَوُوا أعناقهم .. ماضين إلى طريقهم ، غير عابئين بالأمر .

- **أغيثونى .. ما لى فى تيهتى هذه يدين ، حسبى حظى العاثر الذى أوقعنى فى سفرتى هذه بالخطأ .**

ولا جديد ، الصمت راسخ على أفمامهم .. كأنهم أصنام من الشمع ، فقط مناوشات وأحاديث جانبية .. لا تُجدى فى أمرى شيئاً .

- **فلتأخذنكم بصبية يتيمة ، أضاعها الطريق .. بعض الشفقة ، لا أبتغى منكم شيئاً .. فقط أخبرونى كيف السبيل إلى قطارى .**

فتهزهزت قلوبهم ! ، غير أن أقصى ما نَدَّ عنهم شذرات من رمقات الشفقة

والتعاطف .. مدعومة بمصمصة شفاه عابثة ، إختصاراً لأقصى ما يمكن أن تقدمه ، وجوه مُخضبة بالرتوش كهذه .. حيال ورطتى ، إختلاس بعض لحظات الأحاسيس الحارة المكذوبة ، علّها من باب الرفاهية .. تكسر حدة أيامهم الجامدة ، حينها تذكرتُ واقعة عُرى أمى فى طفولتها تحت الصقيع والمطر .. فشعرتُ وكأنى عارية تماماً ، وكانت تلك المرة الأولى التى أعرف أن هذا هو حال الغريب فى بلاد الغربة .

صرختُ فى وجوههم ..

- **كفاكم خرساً .. لمَ لا تُجيبون غوثى ؟ ، ما بال وجوهكم هكذا ممسوخة .. مغطاة بالقسوة ؟! ، سحقاً لقوم لا يُغيثون الملهوف ، ماذا يفرق هنا عن هناك .. هنا تيه وهناك مذلة ، وأنا بين الإثنين شريدة ضائعة .**

شعرتُ بإنكسار رزيح ، قتلنى الإحساس بالخيبة .. فراودنى البكاء ، تراجعتْ قدمى خطوة للوراء ، وما كادت حتى إستسلمتُ بغتة إلى سقوط حر مقهور .. بعدما تبددتْ عزيمتى ، وتخدلتْ أوصالى تحت وطأة هذا الإنهزام ..

- **اغربوا عن وجهى ، أنا المخطئة .. كنت أحسب بلادكم أرحم من هذا .. أيها تقريع وافيته مذ حطتْ قدمى على أرضها ، ما رأيت بلداً أقسى منها ، ولا ناساً أجحد منكم ، لو كانت أمى على قيد الحياة ما تركتنى ، أمى .. أين أنتى يا أمى ، أغيثينى يا أمى .. أغيثينى يا أمى .**

فما لبثتْ الجموع أن أفلتتْ ، تسربلتْ فوج تلو الأخر .. حتى لم يبق إلا نزر يسير من الناس ، حينها رفعتُ هامتى أرمق أشباحهم الراحلة فى أسى .. فتحجرتْ عينى على رجل إنبرى من الزحام النافر ، " **خالى !!** " ..

لم أصـدق عينى .." **أيُعقل أنه فى غـرزى مذ تركتُ البلـدة إلى المدينـة .. ثم**

إلـى هنا ؟! " .

لم أركن كثيراً إلى شدهى وتيهتِى ، وثبتُ واقفة فى طرفة عين .. ثم ركضتُ صارخة ، خاصة وأنه مذ رآنى لم يتوان لحظة عن ملاحقتى ، لم أعرف وقتئذٍ إلى أين قادتنى قدماى .. سوى أنى لمحتُ أحد الشرطيين من حراس المحطة فركضتُ إلية مفتزعة ، لم يفهم الرجل شيئاً مما أهذى به ، خاصة وأنا أشير إلى رجل يُطاردنى .. كان طيفه قد تبدد فى لحظات ، فقادنى الحارس إلى غرفة أحد الإداريين .. المعنيين بالأمر .

ظللت لأكثر من ساعة زمن .. أهرف بأشياء لا يكاد الموظف أن يفهم بعضها ، حتى يتبدد خيطها فى لحظات ، غير أنه فهم بالأخير أنى تائهة عن قطارى .. وأن ثمة من يُطاردنى ، لم أبتغ وقتئذٍ شيئاً أكثر من هذا .. برغم تشكيكه فى سلامة إدعائى عن خالى ، وهو الأمر الذى حداه أن يتحفظ علىّ لمزيد من الوقت .. إلى أن حانت منى إلتفاتة من فرجة الباب الموارب .. فلمحتُ خالى بجوار أحد أكشاك الجرائد ، يختلس النظرات نحوى ! ، فصرختُ بأعلى صوتى مُشيرة إليه بيد مرتجفة .. تقبض على نار لا يشعرها إلا أنا ، حينها إنتفض الموظف من مكتبة .. قبل أن يهرع الحارس إلى الداخل مقبوضاً .

ما إن لاحظ الموظف هلعى وإرتعابى حيال هذا الذى يتلصص نحوى .. حتى إستنفر الحارس فى إثره يطلبه ، غير أن خالى كان قد غادر المحطة برمتها إلى الخارج من الجهة الأخرى ، فلم يلحق به ، حينها وبعد برهات طويلة من الجدال العقيم .. لم يجد الموظف سوى يُرسلنى بصحبة الحارس إلى أقرب قطار مُقلع يمر بقريتى ، وقد عنى بى الحارس أيما عناية .. فلم يُخل سبيلى إلا بعد أن أقلع القطار عن ساحة المحطة تماماً ، وذاك بعدما إطمئن على خلـو العـربات من أى خطـر قد يُهـدد سلامتى ، وبخاصة هذا

الذى كان يتربص بى هناك .. بالقرب من حجرات الإدارة .

لم أصدق أن القطار قد أقلع عن المحطة .. تاركاً خالى لا يجرؤ أن يحط على أرصفتها ، فإضطر عنوة أن يقطع المسير بواسطة سيارة أجرة ، وما أكثرها بالمرفأ المتاخم للأسوار الخارجية .

إبان ذلك وبحلول الثانية من ظهيرة هذا اليوم .. كان القطار قد ناهز تخوم البلدة ، حينها برزتْ لى إشكالية لم أعن بالتفكير فيها طوال الطريق " **أين سأوى هذه الليلة ؟!** " ، فبعد ساعتين من التجوال بالقرية .. شعرتُ بحقيقة ورطتى ! .

فى البداية فكرتُ فى الإتصال بمصطفى ، ولا أدرى كيف تاه عنى أثناء تيهى بالمحطة .. غير أن هاتفه لازال مغلقاً ، فلم أجد مخرجاً من هذه الورطة ، بعد تفكير وأناة .. سوى أن أبيت فى المقمة ، فلا أفضل منها لهذا الظرف ، بعيداً عن خالى الذى ، ولا ريب .. قد وصل إلى البلدة منذ ساعة زمن على أكثر تقدير ، لم يُريعنى فى أمر المقمة سوى هذه الكلاب الضارية الراعية فى حشيتها ، كلما حدثتُ نفسى بإستحالة أن تكون المقمة مبيت لها أو لأى كائن من كان ، عدا الزواحف وذوات السموم .. عُدتُ لأهزأ بأفكارى " **وهل للكلاب مبيت سوى القمائم والمزابل ؟!** " ، ولكن بأى حال .. فالكلاب أهون بكثير من هذا الذى يتربص بى فى الطرقات ، بالنهاية لن تفكر فى قتلى ، أو حز عنقى .

وما أسخف ما واتتنى به رأسى ، كان من المستحيل أن أشاطر هذه الحيوانات الضالة سُكنى المقمة .. فلا فارق بينها وبين خالى سوى فى العقل والنية ، ما إن إقتربتُ من ساحة المقمة حتى طاحتْ ورائى نباحاً وركضاً .. وما ردها عنى سوى شاحنة أرسلتها السماء بأبواق راعدة ، وكأنها ملك عظيم حط حيالها مرخياً جناحيه ، خال لى أنه إسرافيل ، جاء بحقٍ هذه المرة

.. يحمل بوقه التليد ! .
إبتعدتُ إلى أقصى بقعة بالقرية ، أخر موطئ يمكن أن تحط فيه قدم خالى ، هذا الشيخ المدعى .. إلى جوار كنيسة حنا ، أو أبونا حنا كما يُنادونه ، وللحق ما إن رآنى عساكر الحراسة نائمة على رصيف الكنيسة .. حتى هرعوا إلىّ ، إستضافونى إلى غرفة الأمن وأطعمونى .. بعد أن رأوا عظيم خوفى وجوعى ، وما أزعجنى فى صحبتهم غير أسئلتهم الثرثارية .. التى لا تنتهى ، **" منْ أنتى ؟ ، وأين أهلك ؟ ، ولماذا تنامين فى الشارع ؟ ... وهلم جرا "** ، لذا ما إن أبلجتْ الشمس بنورها .. حتى تسللتُ خلسة ، قبل أن يبدأ إستجوابهم التالى .
كان من الإستحالة أن أعود إلى هذا المكان تارة أخرى ، لذا ساقتنى قدماى إلى مواطئ عدة .. غير أنها إنتهتْ بحلول الرابعة عصراً إلى الجهة الأخرى من طريق المحطة والمدرسة ، أمام باب المرفأ مباشرة ، وقفتُ كجندى فى دوام حراسته .. أرمق ساحة المرفأ من بعيد ، علّى أستوثق إن كان خالى قد أرسل من يرقب المكان من عدمه ، أمعنت النظر لأكثر من ساعة زمن .. حتى كلَّت قدمى وعوتْ معدتى ، فإشتريتُ شطيرة وجلستُ على الرصيف أنتظر ، ما كان بإمكانى أبداً أن أخطو خطوة واحدة إلى المرفأ فى وضح النهار .. خيفة أن يلمحنى راصد من بعيد ، لا أنظره .
وبينما كنت مستغرقة فى تناول الشطيرة .. إذا بصبيّتين من طالبات فصلى الدراسى يقفان حيالى ، وما كادا حتى جلسا إلى جوارى .. وطفقا يسألانى عن حالى وعن أسباب تغيُّبى عن المدرسة ، فلم أجد ما أجيب به سوى بضع كذبات منمقة ، وما لبثتُ .. حتى راحتْ الريبة تلوح فى أعينهما حول صدق ما أقول ، فرشقانى بنظرات غامزة خليسة .. تنم عن إستخفافهما بما أقول ، تلاقفاها من عين لعين ، وكلما وافيت هذا منهم .. تفاقمت ثرثرتى وتناوحت كذباتى .

ما إنتشلنى من هذا المأزق المربك سوى رجل غريب .. إقترب بغتة ، فى البداية ظننتُ أنه واحد من رجالات خالى المتربصين ، إلى أن ألفيته يمد يده لى ، دون الصبيّتين ، ببضع جنيهات مطوية ، ألقمها إلى يدى الخاوية ثم رحل ، فحملقتُ إلى النقود المطروحة بيدى .. لا أعرف ما الذى يثير شفقة الجميع حيالى ليظنوننى متسولة .

ما لبث الرجل أن خطى بضع خطوات .. حتى نفرتُ إليه لأعيد له نقوده ، حفظاً لماء وجهى أمام الصبيّتين ، غير أنه ما عنى بى .. أشاح بيده ثم إنصرف ، فألقيتُ النقود فى إثره ! ، شردتُ للحظات أنظره .. وفى الحقيقة ما كنت إلا أستجمع ما بقى من لُبابى ، وما إن إستردتُ شيئاً من ثقتى ، التى للتو أهدرتْ .. أدرتُ وجهى إليهن ، لأجدهما قد برحا مجلسى متأففتان ، إبتعدا ، وما إنفكا حتى طفقا يلويان أعناقهما نحوى من فينة لأخرى .. ليرشقانى بنظرات هزء قاسية ، جاست إلى صدرى وعينى .. ففضتْ ما كان فى السابق يلوح فيهما من كرامة وكبرياء ، ولا أدرى ما بال كرامتى هذه .. تنتثر دوماً تحت نعال شرذمة مثل هاتين ! ، اللائى تَسامَيّن علىّ بما منحتهن الدنيا سواى ، شعرتُ بإهانة بالغة وطفقتْ الغيرة تنهش فى قلبى نهشاً .. فترقرقت عينى مستعبرة .

كاد شعورى بالقهر وحقارة الشأن أن يُمزقانى ، تشنجتُ غيظاً وكمداً ، وما كدت حتى فاضتْ عينى .. فطوحت الشطيرة إلى أقصى مدى طالته يدى ، حينها غمرتنى رغبة جارفة فى سحق صبايا الدنيا كلها ، كنت كجذوة نار تأكل بعضها بعضاً .. ولا تملك أن تصيب قيد أنملة حولها .

بلغ التشرذم منى مبلغه .. فإنتفضتْ قدماى مكمودة إلى الجهة الأخرى ، دفعتْ نفسها بنفسها .. تحركها الخيبة والسنوات المبعثرة ، الخطو السريع بات هرولة .. ثم ركض دراك ، ولدقائق لا أعرف لها عدداً .. ظل صدرى يعلو ويهبط بالكاد يلتقط أنفاس ممزقة .

ما صد رعونة الأمر وحميته سوى عربة خشبية ، مرتْ .. ثم توقفتْ أمامى بغتة ، فحطتْ يدى على صدرها تفادياً لإصطدام لحوح ، إنها عربة الحلوى المثلجة ، ما كدت أستدركها .. حتى ألفيت يداً تمتد لى بقمع حلوى باردة ، رفعتُ هامتى .. ذات الوجه الذى إلتقيته قبيل موت أمى بلحظات ، تخطى عام ونصف ليلقانى الأن ، ليركم آلامها فوق رأسى جملة واحدة ! .. ساعة ساعة ودقيقة دقيقة ، غير آبه بالفارق الزمنى وما يتبعه من إنزياحات نفسية ، وقتئذٍ شعرتُ بأن العمر تقلص إلى لحظات .. بينما تمددت الآلام إلى ما لا نهاية ! .

ذات اللين والإبتسامة الشافقة ، كيف لم ألتفتُ أن الرجل ما وافانى يوماً .. إلا وقلبه ينضح شفقة ورحمة ، وكأنى حين كنت آتيه .. أستدر عطفه ليجبر خاطرى " **سحقاً .. الجميع لا يروننى سوى متسولة !** " ، أشحتُ يدى بالقمع فى ضيق ونفاذ صبر .. فتطوح منطرحاً إلى الأرض لافظاً ما فيه ، لتعرج قدمى راكضة إلى جهة أخرى .

لم أحسب أنى بهذه الهشاشة .. لتخور عزيمتى ، وينداح يأسى بغتة مستبحراً فى لج الماضى الأليم .. حيال مواقف أقل ما يُقال عنها أنها عين الواقع ! .

تاهتْ قدماى ، اليمين يدفعنى لليسار .. واليسار يدفعنى لليمين ، لم أجد سوى شاطئ البحر الكبير المتاخم للساحة .. لأقر على صخوره بعد ركض طويل ، غير آبهة بخالى ورجاله ، تمنيتُ حينها لو رآنى .. فأراحنى من هذه الأتراح التى تتجدد غير مكترثة بأن قلبى ما عاد فيه شيئ ليتمزق ، أرسلتُ بصرى إلى الطريق عامدةٌ ، علّى أراه وينتهى الأمر .. فإذا بى أرمق صبية المقمة الأربعة ، فنفختُ غيظاً وضيقاً " **ما عاد ينقصنى سواكم** " .

ظلوا يرقبوننى لعدة دقائق ، وما لبثوا حتى تقدموا نحوى بخطو متسارع ..

حينها قفز قلبى عن صدرى ، كانت أعينهم تطوى نوايا آبدة .. غاية فى السوء ! ، وهو الأمر الذى ذكرنى بما كادوا أن يقترفوه بحقى .. فى أخر لقاء بعربة القطار ، تذكرتُ أنهم كادوا أن يقتلوننى .. فقفزتُ راكضة ، الروح غالية ! ، فبرغم رغبتى الملحة فى الخلاص .. لم أئمن أبداً أن أموت على أيدى هؤلاء ، من السفاسفة وأسقاط الناس ! .

أجهدنى الركض والإختباء والمراوغة ، من طريق إلى طريق ومن درب إلى درب .. خضت أطلال البلدة كلها وخرائبها ، كدت أسقط من عِلٍ .. لولا أنى وافيتُ الأربعة فى إثرى ، يتآجلون وفى عزمهم أمر ما ، فركضتُ مجهدة ، كلما جسرتُ مسافة توقفتُ عنوة .. لأستريح ، ومرات كثيرة تلك التى إنكببتُ فيها على وجهى .. لأعود فأركض تارة أخرى رغماً عنى ، ألم فظيع ينساح فى باطن قدمى ! .. يُنم عن سحجات نافذة ، بعدما إنسل حذائى فلم أملك أن ألتقطته .
دأبٌ عجيب ، حدا الأربعة أن يتكالبوا خلفى .. مُقتفين أثرى ، ويبدو أن هذه المرة غير كل المرات ، فأصوات تراهنهم على أذيتى .. جاءتنى على أشكال عـدة ، ترامت إلى أذنى .. كخبخبة ذئاب تتنافح للنيل من شاة هزيلة .

لا أعرف كم من الوقت مر .. لولا أنى وافيتُ ليلاً زاحفاً ، وكأن الشمس لم تشرق هذا النهار ، لم يعد من مكان لأحط فيه ، تلفتُ حولى حائرة .. تاهتْ كل الطرق ، فرفعتُ هامتى إلى السماء بأعين دامعة " **من مُغيثى فى هذه الليلة الراجفة ؟** " .
ظللت أركض .. حتى ألجأتنى الطرق بالأخير إلى الزراعات ، إندسستُ إلى غيط رحيب ذى عيدان سامقة .. ثم هويتُ بجسدى إلى الأرض الموحلة ، إلتقمتُ أنفاسى ، لازالت أصداء رقعاتهم تنساح إلى أذنى ، هم بالجوار

القريب ، أصغيتُ .. فسمعتهم يخوضون الزراعات ، يدهسونها بأقدام غاشمة .. قضقضة العيدان تنم عن تفسخها وإرتخاءها على نحو مجحف ، تحروا عنى فى كل مكان .. فلم يجدوا لى أثر ، كنت مُستخبئة عند طرف الغيط .. بينما هم جاسوا فى أوسطه .

تذكرتُ الهاتف .. فأزلتُ الوشاح عن خصرى سريعاً ، وأخرجته من مودعه ، إتصلتُ بمصطفى .. ولكن دون جدوى ، لازالت الرسالة الصوتية على ديدنها .. تعلن أن صاحب الهاتف قد غفله مغلقاً ، كبستُ الأزرار عدة مرات فلم يتغير شيئ ! ، فأرجعته رغماً عنى إلى مخبئه ، لم يكن أمامى سوى أن ألزم الصمت .. علّهم يملون فيكفون عن البحث ، لعلهم يرحلون ، لحظات .. وسمعت أجسادهم ترتخى عند حافة الجسر ، كانوا على بعد خطوات منى ، مكثتُ منكفأة على صمتى وسكونى .. إلى أن باغتنى شيئ يزوم خلفى هناك عند المدق القريب ، إستدرتُ .. لأجد ثُلة من الكلاب مارة على الطرف الأخر من الجسر ، **" يالا سوء حظى ! "** .. ما أنفك أخرج عن حفرة حتى أهوى إلى أختها .

ظلتْ الكلاب تزوم وتُكشر عن أنيابها .. إلى أن تحولت زمزمتها إلى نباح لاهث ، وهو الأمر الذى سريعاً ما إنتهب إلتفات الأربعة .. فقذفوها بالحصى ثم هرعوا إلى حيث كانت تقف ، ليسفروا عِلة هذه الغضبة والصحوة المباغتة ، رأونى ، حينها ما كان لى برهة لأصطبر .. ركضتُ مصروعة بين العيدان إلى الجهة الأخرى ، فطاحتْ أنصال الزروع الناهضة فى وجهى وعنقى سفعاً وسحجاً .. حتى أصابتنى بجراحات بالغة ، وما بين الوقوف والتعثر والسقوط فى الأوحال .. جاهدتُ للوصول إلى أقرب مدق ، فما كدت أستشرف حافة الغيط .. حتى ألفيتُ جسدى ، كدمية ، مستلقياً بين أيدى الأربعة .

لم يُمهلونى هنيهة لألتقط أنفاسى .. أو أستوعب الأمـر ، إنهالتْ ركلاتـهم

ولكماتهم فوق رأسى كالسيل العرم ، ترتفع يد لتتقدم أخرى .. وتنحسر قدم لتنزاح أختها ، تقاذفونى ككرة حائرة بين أقدامهم وراحاتهم ، كنت كطائر كسير الجناح ينزف .. كلما إرتفع شوطاً إصطدم بجدار فسقط ، حينها شعرتُ أن الأرض وسمائها قد إنطبقا .. فما عدتُ أميز رأساً من عقب ، تماهتْ فى عينى رؤوسهم بأقدامهم ، وإِقْدَامِهم بإدبارهم ، كانت دفعاتهم عاتية عنيفة .. لا سبيل لصغيرة مثلى أن تتحملها ، فما بين مخرز حاد ومطرقة غشيمة .. ما تركوا لى إلا كَدْمَاً بارحاً ووجعاً أليما .
نافحتهم بكل ما أوتيتُ من عزم وهمة ، بيد أن الأمر ما صح وأتى ثماره .. إلا عندما دفعتُ أصغرهم بقدمى بين فخذيه ، فسقط صارخاً يتأوه بشده ، وما كدت أفعل .. حتى تراجع إثنان منهم وكفوا أيدهم عنى لبرهة ، حينها تناهضتُ ، مستغلة تلك الهنة .. بيد أنى ما إن أطلقتُ قدمىّ واثبة حتى طُويَتْ أسفلى ، فتعثرتُ لأصطدم بأحدهم ، دفعنى بعنف فإرتميتُ إلى الجهة المناظرة .. ليلكمنى أخر ، فإنطرحتُ إلى الأرض بقوة .. لا ينبو لى صوت ولا حراك ! .
مرت لحظات حتى تمكنت من لملمة أشلائى المبعثرة ، حينها ضممتُ رجلىّ قبل أن يستأنفوا الأمر .. ثم إنتصبتُ شاردة لا أدرى إقبالى من إدبارى ، شعرتُ بأن الأرض تدور بسرعة خرافية .. بالكاد ألتقط تفاصيلها ، وما لبثْ حتى بدأت تُبطِئ دورانها شيئاً فشيئاً .. فإنتفضتْ الدماء فى عروقى ، جثوت على ركبتى أتأهب للركض ، لولا أن يداً إلتقطت خصل شعرى .. فأردتنى طريحة إلى الخلف ، وما هى سوى هنيهة حتى شعرت بقبضة بارحة تجذبنى من شعرى إلى أعلى ، فإتكأت إلى مرفقى .. أحاول أن أرخى شعرى المشدود باليد الأخرى ، ولكن دون جدوى ، رفعتُ ناظرى لأعلى ، مكروبة ، علّى أجد فكاكاً من هذا الممسك بجمائرى .. فوجدتُ رأسى تدور دون إرادتى لليمين تارة ولليسار تارة ، كان الشقى يطوحها قابضاً

على أطراف ضفائرى ، يدفعها ويجذبها فى حركات عابثة لا وجهة لها .. كالممسك بذيل حية يُرنحها إلى كل جانب تارة .

إلى أن توقف الفتى عن عبثه بغتة .. بينما ظل قابضاً على أطراف شعرى بيده ، تنتصب ضفائرى كنخلة مشرعة لأعلى ، حينها رفعتُ حدقتى بأعين مخضلة ثقيلة ، قلبتُ سحناتهم ، فرمقتُ الأربعة يتبارون على إيذائى ، يتراشقون بنظرات خليسة ملؤها الخبث .. تطوى شيئاً مهيباً ، وما كادوا حتى إنفجرتْ حلوقهم بضحكات سمجة .. تؤكد شعورى بالغدر الوشيك ، كانت إيماءاتهم وغمزاتهم تنم أن فعلاً شنيعاً على وشك الوقوع .

فى البداية خال لى أنهم ينتون وجأ عنقى .. فرأسى المشرعة لأعلى وشعرى المشدود .. يوحيان بأن سكين حاد تستعد للمرور خلال هذه الرقبة الناهضة ، وما كادت هواجسى تتناوح فى رأسى .. حتى عاينتُ أحدهم يبرز نصل له شفرة حادة ، فجمدنى الذهول للحظات ، ظل يُشيح به فى الهواء ، يحادث رفاقه بحديث مبهم .. أحاله الخوف الذى تمكن منى إلى طلاسم وملغزات تنساب إلى أذنى ، ولا أفهم منها شيئاً ! ، تعلقتْ عيناى بالنصل وهو ينزاح فى الهواء فى فزع ووهم رهيب .. كنت أتحين اللحظة التى سيهبط فيها ليجز عنقى ، غير أنه لم يهبط ، إنزاح إلى جانب ذؤابتى فقصل خُصَل شعرى المشدودة ، لتهوى رأسى بالأخير إلى الأرض .. منغرسة فى وحولها .

حينها أقمتُ هامتى مفتزعة ، وما كدت أرفع يدى لأتحسس موضع الخصلة المبتورة .. حتى برزتْ أنصال أخرى وطفقتْ تقصل جمائرى خصلة تلو الأخرى ، وما وجدتُ وقتئذٍ فرصة واحدة لأنفجر صارخة ، فقد كمم أحدهم فاهى بخرقة .. قبل أن يلوى ذراعىّ إلى الخلف ، قابضاً عليها بيدٍ من حديد ! .

لاحت الضفائر لعينى وهى تنفصم مجتمعة وفرادى ، سقطت فى ثلال

مبعثرة ، تهادتْ .. ثم إنطرحتْ إلى الأرض فى يأس وإرتخاء ، حينها كنت غارقة لرأسى فى تشنجات وإرتعاش موتور ، جسدى يرتجف فى نبضات متقطعة .. كذبيحة للتو قُصلتْ عنقها ، تنفض أخر ما بقى فى جسدها من دماء ، العبرات تنافح صراخ مكتوم ، كلما دفقتْ .. إنفجر فى دوىّ ورعيد . مرتْ بضع دقائق حتى تخدلتْ أوصالى وسكن نعيبى ، غامتْ جوارحى ! ، لتنفض من أعماقها سخونة حادة لافحة ، فلم أدر برأسى وهى تتطوح إلى كل جانب تارة .. وركلات متفرقة تقرع باطنى وظاهرى ، فينة وشعرتُ بفيض من هبوب باردة .. يتكاثف إلى قسماتى ، فتهدلتْ ، وحان منى صمت وإذعان لبرهات .

لم يدم سكونى كثيراً ، رفعتُ راحتى إلى رأسى أتحسس شعرى ، وهنا كانت الفاجعة ! ، إستفقتُ على يدٍ خاوية .. مرتْ على تاج رأسى فوجدته قد إنحسر عنى كاملاً ، فغلى الدم فى أوردتى .. وإنفجرت داخلى طاقة قهر هائلة ! ، إندفعتُ لأعلى بقوة غاشمة ، تكاد ركبتاى أن تنغرسا فى الأرض .. كصاروخ للتو فارق مرفأه ، فرشقتْ مقدمة رأسى فى الفك السفلى لهذا الواقف خلفى يقصل شعرى .. مُحدثة كدمة نافذة ، فكَرَّ إلى الخلف صارخاً .. يُطبق راحتيه على فمه فى ألم بارح ، وما إن أزاحهما حتى ثج فاه بدفقات من دماء غزيرة .. ليجد طرف لسانه قد شُفر وفقد بعض أسنانه ! ، ولحسن طالعى فى اللحظة ذاتها .. كانت كتفى قد إكتسحت رأس القابض على ذراعىّ فى دفعة ناجزة ! ، فإرتخنا يديه وتحررا عنى ، فإنكب هو الأخر على ظهره .. يشكو بعض مما أصاب رفيقه .
حينها زمهرتْ عينى ، ودبتْ فى أطرافى فورة هائلة .. فإنتهضتُ واثبة بفيض من عزم وطاقة عجيبة ، شعرتُ بغضب جامح للتو إستعر لهيبه .. كثور فزِع بغتة بعدما تآجلتْ عليه ثلة ضباع ضارية ، فجفل الأربعة

لصحوتى الفجائية .. وبادرتى التى أتتهم على حين غفلة ، ترددوا للحظات مرتعدين .. ثم كرّوا عنى ناكصين واحداً تلو الأخر بخطو متوجس ، فأطلقتُ العنان لقدميّ لائذة بالمدق المفضى إلى ديار القرية .

لم يدم إرتياعهم كثيراً .. إنطفأت شعلته فى أعقاب ركضى هاربة ، لململوا شعثهم فى طرفة عين .. ثم إنتفضوا خلفى فازعين ، كلما تلفتُ .. رمقتُ ظلالهم تجوس فى ظلالى .

أخذ الركض منى زفرات .. قبل أن ألوذ إلى أقرب دار عند رأس الطريق ، طرقتُ الباب مصروعة ، يكاد عقلى أن يشب عن رأسى هلعاً .. فلازالت أشباحهم تنوء بلهاث دراك يأتينى تباعاً من خلفى ، كانت طرقاتى تتآزف مكروبة .. كلما لمحتهم يقتربون ، بينى وبين النزوح إلى دار أخرى برهات ، لولا أن الباب إنفرج بغتة .. فإنحسر عن سيدة أعرفها شذراً ، بالكاد أميز ملامحها ولا أتذكر إسمها ، لم أنتظر ولم أستصرخها ، إنكببتُ إليها مذعورة .. فجفلتْ مرتدة إلى الوراء ، وما كادت حتى زجت يدها إلى صدرى بعنف ، تُكفكفنى عن الدخول .. نهرتنى بغلظة ! ، وإلى اليوم لا أنسى كلماتها الجاسية التى صكتْ بها أذنى ..

- **رباه .. ما أقبحكِ من فتاة قذرة ! .**

ولها كل الحق ، فقد كانت هيئتى لتُثير الفزع والرعب .. فضلاً عن الإشمئزاز والتقزز ، رأس حليقة ووجه ممزق .. تتناوح على صفحته الدماء والعرق والدموع ، أوصدت بابها فى وجهى .. فسقطُ منطرحة على ظهرى ، ولم تكد كلماتها تختمر فى رأسى .. حتى رمقتُ الأربعة فى إثرى ينذرى الغبار فى طى نعالهم ، لا يفصلنى عنهم قيد أمتار ، ففزعتُ ناهضة ، وما بين إنطلاقى وخطوى الواثب .. لحظات تعثرتُ فيها بحجر كبير برز أمامى فجأة ، فهويتُ .. لتصطدم رأسى بحجر أخر ، وما هى سوى رمقة واحدة

.. حتى غشيتْ عينى سحابة حمراء ، شعرتُ بدوار ينزاح برأسى إلى السماء ، حتى لم أعد أر شيئاً .. دون أن ينساح لون الدم على صفحته .

بضع خفقات بجفن ثقيل ، وإنفرجتْ عينى على وجه أحدهم .. مشرعاً فى السماء ، كأنه شيطان يقف فوق رأسى ، لم أملك حينها ردة فعل تضاهى ما داهم صدرى من رعب .. جاس قاعى إلى أخر محط فيه ، فأوصدتُ جفناى مذعنة لكل شيئ ! ، وما كادا حتى إنفرجا ، إنطرحا رغماً عنى إلى أعلى وأسفل ، مصروعين ! .. فى إثر دوىٍّ عظيم طاح فى رأسى ، قبض صدرى قبضاً .. وكأنه قنبلة عظيمة للتو إنتسفتْ ! .

إتسعتْ حدقتى رامقة .. ويا لها من رمقة ! ، رأيت دفقة دماء هائلة تنبثق من هامة الصبى ، تسبقها رصاصة .. كانت قد شدختْ رأسه نافذة من الخلف إلى الأمام ! .

كانت الصدمة أقوى من أن يصمد لها رشدى ، لم أحدق كثيراً .. إنزاحتْ حدقتى إلى أعلى وثقُل جفناى ، فأغمضتْ عينى غامية .. لتؤدى كل الأوجاع دورها الذى سكتت عنه لساعات .

لا أعرف كم من الوقت مضى .. قبل أن تنزاح الغمامة عن عينى ، إنفرجتْ .. لأجد نفسى طريحة على ذات الطريق ، مغترقة فى بحر من دماء ثخينة ، كان الظلام راسخاً ، ليس إلا عمود إنارة على بعد أمتار .. يرسل نتف من أضوية غابشة ، أحسستُ بألم يموج فى قاع جمجمتى ، رفعتُ يدى إلى مؤخرة رأسى .. فغاص إصبعى فى أخدود دامى ، فإنحنيتُ بهامتى متأوهة .. لأجد فى إنتظارى مالم يخطر لى يوم على بال ، تجاوز كل حدود كوابيسى الشيطانية التى توافينى من آن لأخر ، جثة مسجاة إلى جوارى .. مشدوخة الرأس بثقب نافذ فى الهامة ، فإنتفضتُ مفتزعة ! .

إنتصبتُ واثبة ، فإنساحتْ قدمى إلى شيئ زلق .. أكبنى على ركبتىّ جاثية ، حملقتُ ، خال لى أن الأمر شذرات من كابوس رأيته فى نوبة إغمائى .. غير أن ما رأيته لم يعدو الحقيقة قيد أنملة ، إنه هو .. أخر وجه رأيته قبل أن يُثقلنى الإغماء ، أحد الصبية الأربعة عمال المقمة ، تلفتُ حولى أتحرى عن الباقين .. كان الطريق خالياً من الرجل والمطايا ، ليس إلا هذه الجثة مشدوخة الرأس ! ، لم أمكث كثيراً لأتكهن ما جرى .. إنتصبتُ قائمة على قدمين مسحوجتين ، بالكاد تحملا جسدى ، ففى لحظات كهذه لا يمكن للعقل أن يستوعب فكرة غير الخوف .. والخوف فقط ! .

فزعتُ كمجذوبة تاه عقلها .. لا أعرف إلى أين تقودنى قدماى ، ماذا يتوجب علىّ فعله تحديداً .. الإختباء أم الفرار ؟ ، فبقدر ما بدا لى ضرورة الأمرين .. بقدر ما تبصرتُ فى طى كليهما خطرين مختلفين ، فالمكوث مختبئة فى نقطة ثابتة .. لا يمنع المتربصين من مداهمتى ، كما أن الفرار يُتيح لهم المجال لملاقاتى بغتة ، وبرغم كل هذا ركضتْ ! .

كان خوفى من مداهمة خالى يعدو بكثير خوفى ممن سواه ، فإذا كان إنتقام

صبية لا تربطنى بهم سابق معرفة على هذه الشاكلة .. فما بال من أحرقتُ داره ومسختُ وجهه ؟! ، فضلاً عن تلك الرصاصة التى إنطلقتْ دون سابق إنذار .. والتى إن دلتْ فإنما تدل على أن ثمة من يحرك هؤلاء ويحدوهم خلفى ، خطر أكبر يسعى وراءهم ، وللحق لم تجد أفكارى فلكاً لتدور فيه سوى أفلاك خالى .. فمن ذا الذى يتوق إلى يوم يُضيمنى فيه سواه ؟! .

طاحتْ أفكارى .. بأسرع مما تواترتْ قدماى بين الركض والتعثر ، نهضتْ وتناوحت ، شطتْ وتهادنت .. إستهلكتنى على أقسى ما يكون ! ، وما أسوأ أن تنفذ أفكارك وكأن رأسك محض معين خاوٍ .. أو تتزاحم فلا تجد ما تُصرفها إليه ، وقد حدث الأمران فى آن ، ما يكاد عقلى أن يُتْخَم بالوساوس والهواجس .. حتى يَفرُغ فى أدنى من لحظة ، ليعود فى مثل هذه المدة .. فيمتلئ معينه طافحاً ينوء بما فيه ، لم يرفق الخوف بأفكارى .. جعلها تتلون على أشكال عدة ، فوضى عارمة صنعتها بنفسى لنفسى ! .. فتجاوزت دائرة الشك ساحة خالى إلى كثيرين ، شعرت أن الجميع يطلبوننى ليثأروا ، زوجة خالى ، وإبنها ، وخالتى نعمات ، حتى مصطفى نفسه .. أحسستُ أنه ما جاءنى إلا لأنه يحيك لى فى قرارة نفسه مكيدة عظمى ، ذاك الذى أعطانى هاتفاً .. ليُغلقه فى وجهى وقت أن إحتجتُ إليه ، إبان أحْرج لحظات حياتى .

أخذتْ الأفكار منى برهات وبرهات .. غير أنى إستفقتُ سريعاً تحسباً أن يُغافلنى أحدهم فيغتالنى برصاصة أخرى ، فما عاد من مستحيل .. بعد أن رأيتُ بأم عينى الرصاصة تمرق من رأس الصبى ، باتت كل الإحتمالات باتت أكيدة ! ، تلفتُ حولى .. فوجدتُ دربى خالياً إلى أخر بقعة جال بخاطرى أن ألوذ بها ، هناك عند جبانة القرية .. حيث ترقد أمى ، لم أجد

من ألتجئ إلى رحابه سواها .. وإن كان سبيلها إلى دنيانا الفانية قد إنقطع .
جسرتُ المدق المفضى إلى الجبانة لاهثة .. وفى رأسى حديث كثير ، كلما قطعتُ شوطاً .. توقفتُ لأزيح عن كاهلى بعض من هذه الآلام التى باتت ترفتُ عظامى رفتاً ، وياليتها إنساحتْ إلى عظامى وفقط .. بل إنزاحتْ إلى جلدى ولحمى فأخلفتْ جراحاً غائرة ، إنتثرت الدماء فيها وحولها .. خيوطٍ وبقع كثيفة .
فى حرص وألم ، وخطو واثب مأنون .. لم أكف عن العدو ، لا يخلو الأمر من رمقات متقطعة إلى الطريق خلفى من آن لأخر ، كان الدرب إلى الجبانة مرصوف بالخوف والوجل ، كلما إطمأنتْ نفسى بالنجاة .. خايلنى أن أحدهم لازال يقتفى غرزى ، وهو الأمر الذى حدانى أن أكثف خطوى بوثبات جملية .. إتكئتْ على قدمين ملهوبتين ، طُعنتا بالكثير من حصى الطريق وحجارته .. ولم أملك حتى تضميدهما بخرقة بالية .

مرتْ برهاتٌ أخرى فى هذا الليل الثقيل المقبض .. حتى كنت عند حافة الجبانة ، ولا يمكن أن تتخيل كيف أن الريف النضر يحوى مثل هذه البقاع الموحشة .. ومن لم يعرف مقابر الأرياف فهو لا يعرف شيئاً عن وحشة المقابر قط ، هنا يكمن الفزع الموروث والأساطير المنقولة من جيل إلى جيل ، من هنا خرجت كل وحوش القصص ومسوخ الحكايات .. التى ألهبتْ خيالى أنا خصيصاً دون أترابى ، ولم أجد لهذا تفسيراً ، وبرغم هذا تقدمتْ .
برغم الظلام الزاحف ، وسكون الجبانة وقتامتها ، فضلاً عن رائحة الموت التى تفوح من كل مكان تاركة بصماتها على كل شيئ .. لم تكِنُ أنفاسى ، ويهدأ تواثب قلبى سوى بإجتيازى الصف الأول من المقابر ، هنا فقط بدأتْ الطمأنينة تَطِنُ إلى صدرى ، طردتُ الكثير من الأسئلة التى أجهدتنى طوال الطريق .. وحاولتْ إقتحام رأسى ، أوصدتُ أبواب عقلى وتابعتُ

الخطى ، غير أنها ظلتْ تنفتح وتُوصَد من تلقاء نفسها ، ورغماً عنى ، وهو الأمر الذى جعلنى لا ألتفتُ إلى هذه الأصوات الزاحفة ، ثمة ما يُشبه أداة بداية تعتمل بالرمال هناك .. تغرف وتسكب ، ولهاث مكروب يتعالى متسللاً إلى أذنى .. كلما إقتربتُ الربع الأول من الجبانة ! ، حيث كان قبر أمى .

لم أتوقف ، لم أخف أو أجفل ، فقد كان ما تجرعته من الخوف فى هذه الليلة .. أقسى من أن أجزع من أى شيئ أخر ، غير أن هذه الأضوية المشرعة بين شاهدى القبر هناك .. هى ما أثارتْ ريبتى وتوجسى ، فإشتعلت داخلى حماسة مرعبة .. يدفعها النكوص والإقدام معاً ! ، حماسة من يسير درباً .. يوقن أن الموت يقبع فى أخره ، إلا أننى بالنهاية تقدمتْ ! .

إستحال سيرى الثقيل المنهوك .. إلى خطو رهيف ، إقتربتُ بحرص وتؤدة .. قبل أن أجثو إلى جانب القبر ، مددتُ عنقى لأتجاوز حافته .. فتحجرتْ عينى ، لا أصدق ما أراه ولا أفهمه ، رمقتُ خادم الضريح جاثياً على ركبتيه يُزيل التراب عن باب القبر .. بعدما نقبه فإنحسر عن هوة مظلمة ، وإلى جواره تنطرح ثلاثة جثث .. مدثرة فى أكفان بيضاء مبللة ، وكأنها للتو إنتُشلتْ من البحر الكبير ..

للحظات ظللتُ أنظر مشدوهة بما أرى .. شُلت أوصالى فلم أملك القدرة على الحركة ، حتى باغتتنى سعلة لحوحة .. فتنبه الرجل لوجودى ، وهنا بدأت أجنى ثمار حماستى المتهورة ، ما إن رآنى .. حتى جفل للحظات ! ، وكأنما رأى سعلاة القبور ، غير أنه ما تصور أبداً أن هذه السعلاة ستفر هاربة.. ما إن تقع عيناها عليه ، وكأنه أكثر ما تخشاه هذه المسوخ .. ذئب العساس ! ، حتى تنبه إلى حقيقتى .. فإلتقط فأسه فازعاً نحوى ، كاد أن يسقط بها على رأسى فيهشمها لولا أنى تفلتُ منه ، حاولتُ الفرار .. غير أن محاولتى باءت بالفشل ، فقد قبض الرجل على ردائى قبل أن أتجاوز قبر

واحد ، وما لبث أن طوى رجلىّ قبل أن يُكمم فمى بيده ، كنت بين ذراعيه كسمكة تلتاع على جمر .. بينها وبين النجاة مسافة السماء والأرض ! .
حملنى جاهداً ، يحجل مرتبكاً بقدم عاجزة .. حتى وقف قبالة القبر المفتوح ، ظللتُ أفرفس أحاول أن أتملص منه .. غير أن رجلاى تخشبتْ بغتة عندما رأيتُ وجوه الجثث المسجاة ، حينها إرتجفتْ ، وجمدنى الذهول .. قبل أن يتشكل فى عينى جحوظاً مرعباً ، فقد كانت الجثث للصبية الثلاثة الباقين .. عمال المقمة ، وبينهم زُهِير ! .
هزتنى رعشة صادمة ، وسريعاً ما جف حلقى حتى بات كهوة قاحلة .. بالكاد أبتلع ريقى ، وما لبثتُ حتى لفظنى الرجل إلى الأرض برمية عنيفة .. فتكوم جسدى متألماً ، أوغلتُ فى نوبة أنين متقطع .. بينه وبين الصراخ طرفة ، كلما نبا صوتى ركلنى فى جنبى .. حتى إخترستُ تماماً، حينها ظل يذرع الردهة أمام القبر جيئة وذهباً على نحو مُلفتْ ! ، رمقتُ الجثث المسجاة على بعد خطوة منى .. فإستفقتُ إلى الجحيم الذى ينتظرنى ، فصرختُ بأعلى صوتى .. وباءت كل محاولاته وركلاته لإسكاتى بالفشل ، فحمل فأسه بالأخير وكاد أن يهم بها فوقى .. لولا أنه تعثر فى جثة أحدهم ، فإنكفأ على وجهه .
حينها نهضتُ فازعة ، لعب الشيطان برأسى .. فخال لى أن المفر الوحيد من هذا المأزق أن أركض إلى أجمة الكافور عند الطرف الأخر من الطريق ، ثم أهبط إلى الجرف ومنه إلى الزراعات ، غير أنى ما كدت أثب راكضة حتى إلتقطنى مغتاظاً .. وأطرحنى قبالة هوة القبر مباشرة ، بعدما نفذ أخر ما فى صدره من صبر ، وبقدم جاسية ودون إمهال .. دفعنى لأتدحرج داخله ، وفى الداخل هويتُ إلى قاعٍ يهبط لما يعدو الثلاثة مترات تحت الأرض .. وكأنه حُفِر خصيصاً لأجل غرض ما ! ، فإنكببتُ على ظهرى ، شعرتُ بطقطقة قاسية ترفتُ فقراتى واحدة تلو الأخرى ، وخال لى أن ساعدى

الأيسر قد إنكسر .
طاش عقلى ، وإنفجرتُ فى صراخ مسعور .. وأنا أعاين يدا الرجل تصُف قوالب الطوب واحداً تلو الأخر لتسد باب القبر ، حتى إستحال إلى بحر أسود ثقيل ، حينها فقط تيقنتُ أن القبر لا ريب لعائلة مقطوعة النسل .. وإلا لما أصبح مشاعاً لخادم الضريح يفعل به ما يشاء ، تكهنتُ أنه ربما لم يُفتح منذ سنوات طوال .. ولا يُظن أنه سيُفتح بعد هذه المرة .

وفى لحظات زهيدة .. أسفرتُ كل شيئ ! ، الحفرة العميقة .. لم تُعد سوى لجثامين الصبية الثلاثة ، فمن ذا الذى سينقب عن قتيل فى قبر منسى ؟! .. فضلاً على أن القبور لا تحوى فى الأساس سوى أموات ، وإن حدث .. فمن أين تأتى له البصيرة لإكتشاف هذه الحفرة الماكنة فى قاع القبر ، وإستخراج الجثامين ؟ ، جريمة محكمة ، ربما لن تسنح الفرصة لإكتشاف حبائلها .. إلا بعد زوال أثار مقترفيها بسنوات طوال .
ولكن يعود السؤال .. من وراء هذا كله ؟! ، لتعود ذات الإجابة .. ليس سوى خالى ، غير أن المحير فى الأمر ، ما جدوى قتل هؤلاء وغيرهم .. إذا كنت أنا وحدى المقصودة ؟! .

فى السابق ، كنت أظن أن الوقت كفيل بمداواة أعتى الجراحات .. فعرفتُ وقتئذٍ أنها أكبر كذبة يروجها الناس ، إكتشفتُ أن تجربة الوأد حية فى قبر مظلم .. أقسى من أن تمحوها الأيام ، وجدتُ كل الأشياء فى القبر تحدث تماماً كما حدثتْ من قبل .. بل أقسى ، الجوارح تتداعى ، بصرى ، صوتى ، سمعى .. بينى وبين الوهن ثم الموت محض خطوات ، لينذ القبر بالأخير عن أصواته المرعبة ، قبل أن تلك العين البراقة .. ترمقنى فى الظلمة الدامسة من زاويته البعيدة ! .
برهات من الرعب والصراخ والإختناق .. لا أعرف كم عدد المرات التى

إنقبض فيها صدرى وإنبسط ، لا أتذكر سوى هذه الأطياف البارقة التى طفقتْ تلوح بلجة القبر .. أتية من فضاء بعيد ، كانت تنساح فأنساح ورائها مصروعة ! ، أحاول أن أوصد عينى .. غير أن هذا لم يمنعها من الإقتراب ، الإختراق ، وكأن جفناى شفيفان .

حينها تذكرتُ وقت أن قالت لى أمى ، ذات مرة ، أن الفاصل بين الموت الطبيعى والحياة الطبيعية .. شعرة بالكاد تلج من ثم الخياط ، أما موت الفجاءة .. فيمزق كل خيط قد يفصل بين هذه الحياة والموت ، أما ما كنت فيه .. فكان نوع ثالث من الموت ، موت بطيئ ، ينزع الروح عن الجسد فزعاً وفرقاً .. تاركاً ندوباً لا علاقة لها بالحياة أو الموت .

فى جهمة هذا القبر .. لا أعرف كم مكثت قابعة فى زاوية الحفرة ، كل ما أتذكره أن جفناى لم يجترءا أن ينغلقا .. وهذه العين البارقة ترمقنى هناك ، غير أنهما بالأخير إتصدا دون إرادة ، فكلما حاول العقل النهوض .. رفض جملة ما يحدث ، ربما لا يصدقه ، كان بينه وبين الوثوق .. هوة عميقة فى سرمد هذا القبر المنسى ! .

بعين ثقيلة غامية ، إستفقتُ عدة مرات .. وليس إلا ظلام دامس ، وفى مَرتِى الأخيرة جاءتنى أصوات غريبة تعتمل بالخارج ، أنين ولهاث ، وصراخ مكتوم .. يضج خلف القوالب المتراصة عند سدة القبر ، علتْ الأصوات وتفاقمت ، تناوحتْ ! ، إلى أن إنتهت بالأخير إلى أهة تتلظى بنار ناشبة فى الحشا " **ماذا يجرى بالخارج ؟!** " ، خال لى أن أصرخ علَّ أحدهم يسمعنى .. فتوجستُ أن الأصوات ما هى إلا حراك ناس القبور المجاورة ، نذيراً بأن الأمر قد إنتهى .. وبتُ فى عداد الأموات ! .

إستحال اللهاث إلى حفيف وخشخشة ، وما كاد حتى إنبثقتْ بقعة ضوء مُنبرية عن القوالب المرصوصة .. حزمة تسللت من عمود الطريق إلى

الداخل ، فحملقت مشدوهة ! ، تداعت القوالب واحداً تلو الأخر .. حتى إنزاحت عن أخرها ، وإذا بشبح رجل عند حرف الهوة .. يوجه أضوية مصباح بيده إلى جوانب عدة بأرجاء القبر ، لتتوقف بالنهاية عندى ! ، وما لبث حتى قفز إلى الداخل .. كطنطل القبور المخيف ! ، ثم هوى إلى الحفرة فى وثبة مسخ متشيطن ، فإرتجفتُ فزعاً .. وسقط من فورى غامية .

حملنى إلى خارج القبر .. كشاةٍ إنتهى أمرها ، نُحرتْ عنقها أخيراً ، بعدما سيقتْ إلى المذبح مراراً طيلة عام ونصف ، يُتِّمتْ ، ولفظتها الدور .. وطاردتها الذئاب هنا وهناك .. حتى نالتْ منها ، خايلتنى حينها هلاوس جمة .. أنها النهاية ! .
لم أكن أعرف أنه لازال فى العمر رمقات .

لم أفق ، إلا وصوت مصطفى يتسربل إلى أذنى خارج القبر .. يضرب خدى بلطمات خفيفة ..
- **يَنُّور .. أفيقى يَنُّور .**
أفرجتُ جفناى .. فوجدتُ وجه مصطفى يناظرنى تماماً ، دارت عينى فى بطئ وإرتخاء .. تنافح دوار خفيف يروغ فى رأسى ، ثم إنغلقتْ .. لتتحول جانباً دون إرادة ، فما لبثتْ إن إنفرجتْ .. مصعوقة ! ، رمقتُ خادم المقبرة مطروح بجوار الجثث الثلاثة .. وفأسه مرشوقة فى مفرق رأسه ، بين عينيه ، حينها تسمرتْ حدقتى على جثته للحظات .. أحاول ترتيب ما جرى ، غير أنها تحولتُ سريعاً إلى وجه مصطفى .. فقرأتُ فى أساريره أنه هو من فعلها ، وذاك قبل أن يحملنى بين ذراعيه .. راكضاً نحو سيارته الماكنة عند رأس الطريق المتاخم للجبانة .
وللحظة ، ما إن رمقته .. فتراتبت ملامحه فى حدقتى ، وإستجمعتُ جملة ما جرى .. حتى نزعتُ جسدى عن ذراعيه إلى الأرض ، فسقطُ مطروحة إلى

الأرض ، وما كدت حتى وثبتُ ناهضة .. وكأنه قد زال عنى كل شيئ ، نظرته مختنقة ، وبقهر ساعات الموت التى واجهتها وحدى ، دون أن أجد من ينتشلنى .. هويتُ على خديه صفعاً بلطمات متكررة ، إنهالت يدىّ لمرات ومرات .. وهو فى صمته لا يتكلم ولا يتحرك ، ترك وجهه مستباحا لراحتىّ تطيش به .. وكأنه يعترف " **إفعلى يَنُّور ما شئتى .. فأنا المخطئ حين تركتكِ لأنياب هذه الذئاب** " .

وبغتة توقف كل شيئ ، فإنطرحتُ إلى الأرض جاثية .. أموج فى سحائب أسى عميق ، إلا دمعاتى ! .. ظلت تسح مدرارة دون قياد ، مقهورة ، تقطر حزناً وتمزقاً لجملة ما جرى ، أما هو ، فرقرقة عينيه الشاخصتين بعيداً .. كانت أقسى وأشد وجعاً ، لم يتكلم .. لكن الموج الهادر فى عينيه أنذر بفيضان وشيك ، صرختْ صراخاً مفجعاً ، ولا أدرى ما باله ! .. وأنا التى كنت ، دونه ، على شفا جرف أو أدنى من الموت .

ظل للحظات واقفاً فى صمت .. لا تختلج فى صفحته جارحة ، إلى أن مد يده لى ، حينها أقمتُ وجهى إليه مغترقاً بالدموع .. ثم أطرقتُ لهنيهة أغالب وجعاً لحوحاً ، وبالأخير تنهدتُ قبل أن أُسلم يدى إليه فى إذعان ، فأقامنى برفق إلى السيارة ، وما كاد محركها أن يهدر .. حتى ركضتْ فى لحظة أو أقل ، تُذرى تراب المدق الوعر ، غير آبهة .. على ما كان من خادم الضريح ، والصِبية ، وخالى ، وزوجته .. وعام ونصف مزقوا قلبى تمزيقاً .

حكى لى مصطفى أن خالى كان قد إلتقطه من جوار سور المرفأ .. عندما أخبره الصبية الأربعة بزياراته المتكررة لى ، هؤلاء الذين جندهم خالى فيما سبق لأذيتى ، قال أنه أودعه فى قبو داره حبيساً لعدة أيام لأجل أن يخبره بمكانى .. قبل أن يقايض حياته بحياتى ، لكن مصطفى رفض هذه المساومة ، وبالأخير تمكن من الهرب ليجدنى طريحة بين براثن خادم الضريح وقبر مظلم .

وهنا بدأ شطر ثالث من رحلتى .. أكثر غرابة وإشراقاً ، وسرعة ، مضاهاة بما مضى من حياتى السابقة ..

شهر كامل فى مشفى المدينة العام .. تلقيتُ فيه العلاج على أشكال عدة ، الجلد ، العظام ، المناعة ، الباطنة .. وأشياء أخرى إتضحتُ على سرير المرض ، شهر كامل .. وافتنى فيه أشياء عجيبة ما تصورتُ يوماً أن أمر بها ! وبدأ الأمر عندما أتانى مصطفى بمشاهد مصورة فى محطة المدينة ، تلك التى تهتُ فى رحابها ، المشاهد كانت لى وأنا أستغيث طلباً للنجدة بين جمهرة من المسافرين .
قبل أن يبدو عجبى من الأمر .. تذكرتُ تلك الهواتف التى برزت لى هناك .. علمتُ أنها كانت تصورنى ، ولكن لماذا ؟! ، قال لى مصطفى بأن هذه المشاهد تم رفعها على منصات الإنترنت .. وحققت متابعات بالملايين ، " **منصات ! .. متابعات ؟!** " ، فى الحقيقة لم أفهم من الأمر شيئاً .. سوى أن كثير من الناس حول العالم شاهدونى وأنا أستغيث ، كطفلة تاهت فى المدينة ، " **وماذا كنت سوى طفلة تاهتْ بالفعل فى المدينة ؟!** " ، لم أستوعب جدوى الأمر .. غير أن شيئاً ما أثار إنتباهى ولهفتى .

أوضح لى مصطفى أنها خطوة فارقة على طريق الفيلم التسجيلى .. الذى يزمع إنجازه ، قال أنه سيحقق رواجاً واسعاً .. فى ظلال مشاهد عفوية كهذه لم يتم الإعداد لها مسبقاً ، وخاصة عندما يرى الناس" يَنُّور " وهى فى زى " ديما " .. البطلة السورية ، لن يجدوا إختلافاً بينهما .. الشبه هو هو ، والمعاناة أيضاً ! ، " ديما " الغائبة الحاضرة .. و " يَنُّور " الحاضرة الغائبة ، غير أنى لم أكترث ولم آبه للأمر برمته .. وما أخذنى سوى مشاهدى بالمحطة ، برمقات شده طويلة لاحظتُ مالم أنتبه له هناك ، ولا أدرى لمَ عنت عينى بملامحى .. أكثر من أى شيئ أخر .

رأيتُ وجهى فى طلة لم أرها من قبل .. كحال من شارف مرآة بعد سنوات طويلة ، بدت لى ملامحى وكأنها تقزمتْ .. وبشرتى دكنتْ أكثر مما كانت عليه ، إرتسم الفزع على وجهى بأشكال عدة ، هالنى أن هذه الطلات والأقنعة المتباينة تعود لى ، والأسوأ أنى شعرتُ لوهلة .. بأنى بت كحرباء تتلون لتضاهى كل بيئة تُوقع فيها ، إختفى ملمحى القديم ، ذاك الذى عهدته فى كنف أمى ، فى مرآتها وهى تصفف لى شعرى .. وكأن هذا الوجه القديم إقتُص عن صفحة الحياة ، رحل مع من رحلوا .

ساورنى حينها بأنى على مشارف شطر جديد من حياة جديدة .. بدأت بهذه المشاهد المصورة على أرصفة المحطة ، والتى إجتاحتْ المنصات كالنار فى الهشيم .. على حد قول مصطفى ، حياة لا أعرف فيها شيئاً مطلقاً سوى " يَنُّور " .. والتى تغيرت بدورها هى الأخرى ، ولوهلة تراءت لى قريتى وسنوات الصبا ، بما فيها أمى وجدتى وخالى إلى أخره .. كسطر من حكاية قديمة ، راسخة على متن كتاب تم وصده للأبد ، ولا أدرى لماذا إنتخب خلدى من طى هذا السطر .. قبو خالى ودميتى المنهوبة ، ربما لأنها كانت الدليل الوحيد أنى كنت طفلة يوماً ما ، تلك السنوات البكر من حياتى .. التى بات بينى وبينها اليوم بون عظم ، " **ولكن ماذا لو زالت الدمية هى**

الأخرى ؟ " .. عندها تذكرتُ أن دار خالى إحترقت عن أخرها ولا وجود لهذه الدمية من الأساس ، ذهبت فى غضون تلك الطفولة .. التى إحترقت فى ضرام الأيام .
لم أعن كثيراً بهذه المشاهد المصورة ، ولا بالملايين التى عاينتها .. بقدر إرتعابى من تلك الحياة الجديدة التى تكتب أولى سطورها ، حياة بعيدة عن القرية وناسها .. بقرار من مصطفى لم أملك له رداً ، وفى الحقيقة لم أبتغى رده .. فلقد كرهت كل حبة رمل فى هذا الوطن ، الذى بات هو الأخر بعيداً عنى أيما بعد ، وعلى مشارف الأوطان الجديدة ، التى لازلت أحتسبها أوطان غربة .. وقفتُ أتأمل ما ستأتينى به الأيام .

ودعتنى حياتى القديمة بثلاث لوحات أساسية .. جاءتنى على سرير المرض ، كانت مشاهد المحطة هى أولى هذه اللوحات ، أما اللوحة الثانية .. فقد بدتْ عندما ألفيتُ خالتى نعمات وإبنها طه عند باب الغرفة ، كانوا على أسوأ حال قد يبدو عليه إنسان ، طالعنى طه سقيماً مبتقع الوجه حليق الشعر عن أخره ، غور عينيه .. ينذر بمرض خطير ألم به ، عرفتُ فيما بعد أنه أصيب مؤخراً بسرطان المخ ، ولا أدرى إن كنت قد غاليتُ فى إنفعالى حينها أم أن ردة فعلى كانت هى الأنسب حيال موقف كهذا ، شعرتُ فى صدرى بوخذة قاسية .. كسيف حاد مضى من ضلوعى إلى قلبى ، وإنتُزع فجأة .
فبرغم ما بلغ حنقى وإستيائى من طه وأمه حيال ما إقترفوه بحقى .. لم أكن لأتمنى رميه بمرض عضال كهذا ، ولا أيٍ من صحبتى القديمة .. سارة وهند ووسام ويوسف ، لم أتمن أبداً أن يلحق بهم أذى .. ولا أقل من وخذة شوكة .
رمقتنى خالتى نعمات بنظرة جارحة ، قاسية برغم ما بدى بها من إنكسار ..

رمقة أحالتها إلى ضحية بعكس ما يقول الواقع ، ملؤها الحزن والضياع .. تنم عند قدر الأوجاع التى تجشمتها مذ أن إستنفرتنى من حياتها ، رمقة خلفتْ فى نفسى تمزقاً عميقاً .. حدانى أن أناظر ظرفى بظرف طه حيالها ، فمن أكثر المقارنات غير العادلة ، والمتشابهة فى آن على نحو أليم .. أن تقارن بين صغير فقد أمه ، وأخر إفترسه السرطان ، فبقدر ما تفطر آلام الوحدة والفقد من فارقتهم أمهاتهم .. بقدر ما تلتاع أمهات أخرين ، وتتمزق قلوبهن على صغارهن والسرطان يلتهمهم لهماً ، وكأنك تباشر حيواناً ضارياً يفترس إبنك .. ولا تملك قدرة لإنقاذه ، وبالنسبة لى فالأمران سيان ، مؤلمان للغاية ، فأنا لم أتخيل يوماً أن أفقد أمى أو أن أجسر هذه الآلام القاسية ، ولا أطيق أن أتصورها يوماً تتألم لمأساة تفتك بى .

أما اللوحة الثالثة فكانت أعمق من أن أصفها بأنها أدهشتنى ، كرَّتْ بى خطوة خطوة وشبراً شبراً .. إلى أخر مرة وافيتُ فيها وجه أمى ، وذاك حينما رأيت مصطفى يلج من باب الغرفة .. وفى إثره صاحب حانوت الهدايا التراثية بالمدينة .. ذاك الذى رأيت مدلاة أمى الفضية خلف بلور متجره ، دون كلمة واحدة .. جاءنى يحمل المدلاة فى علبة من الديباج الأسود ، بعد أن عرف مأساتى ، وبرغم أنى شعرتُ بأيادى مصطفى فى هذا الأمر .. قيل لى بأن الرجل طالع هو الأخر مشاهد المحطة ، وعرف بأنى إبنة صاحبة المدلاة .. التى فاضت روحها منذ عام ونصف ، حينها شعرتُ بمفعول السحر الذى تطويه تلك المشاهد ، ولو بقبيل المصادفة .. فتحول إستيائى وحرجى حيالها إلى شعور بالشده والإنبهار ، لا يخلوان من زهو وإن كان مضمراً .

كانت الحياة فى هذه الأيام تتقدم بخطو واثب .. كعادة كل الأيام الجميلة ، لا أكد أستوعب أمراً .. حتى تسبقنى الأيام بأمور أخرى ، وأحداث أخرى

أكثر إثارة ، بين يوم وليلة تحولتْ يَنُّور الشريدة إلى رمز .. أيقونة مائزة فى عالم الصغار ، ظلت الملايين على الشبكة العنكبوتية تتقافز على نحو مريب .. حينها رأى مصطفى أن الفرصة باتت مواتية للشروع فى إنجاز الفيلم التسجيلى ، غير أنى كنت لا أزال مريضة فمكثتُ فى المشفى لأسبوعين إضافيين .

مضت الأيام تزيل عن صفحتى كل هذه السطور السوداء .. التى خلفها عام ونصف ، تمحوها بعنف ودون هوادة .. فى جدية صارخة ، ما من يوم يمر إلا وتضيف لأدواتها أداة أخرى .. للمحو الناجز السريع ، وبقدر ما أزالت من سطور سوداء .. أضاءت سطور أخرى ! ، سطورى القديمة بالقرية .. وبخاصة أيام كانت أمى على قيد الحياة ، أظهرتها بصورة أكثر إختلافاً وإشراقاً .. برغم الوجع الماكن فى طيها ، غير أنها أعادت ذكرى الأيام القديمة .. لكنها بالأخير لم تُعِدْ لى أمى ! .

لم أكن أكترث للزمن حينها ، أو أشعر به ، كنت أواجه شيئاً لا أدرى كنهه ، أكثر ما كنت أخشاه أن أستفيق لفداحة الأمر ، إن كان فادحاً ! .. بعد فوات الأوان ، كانت صورتى تنطلق من موقع إلكترونى إلى أخر .. بأسرع ما يمرق البرق ، وها هى شاشات التلفاز تتلاقفها .. ككرة مطاطية ، بدى الأمر جنونياً ! ، وبرغم ما بدى لى من ثبات مصطفى .. غير أنه كاد أن يفقد صوابه فى أحايين كثيرة ، لم يتوقع أبداً أن تلك المشاهد ، التى لم يُصورها بيده .. ستجوب الدنيا ، وتحقق هذا الإنتشار السريع والتأثير منقطع النظير ، إكتشفت أن ما تمخضتُ به أثناء إستغاثتى .. كان أكثر بكثير مما تذكرته ! ، حديث لحوح ثرثار ، خاض تأثيره إلى نفوس الجميع إلا نفسى أنا ، مشاهد أصابت فيهم عقر مدامعهم .. ولازالت عينى تُباشرها فى بلادة عجيبة ، تكهنتُ أن يُثير الصراخ فى نفسى أوجاع هذا اليوم القاتم .. غير أنه لم يفعل ، لم يفعل شيئ قط ! .

أتذكر يوم أن خرجنا من المشفى هذه الجمهرة الكثيفة من الشباب والصغار ، إستقبلونى بباقات الزهور والهتاف ، وللمرة الثانية تطالعنى عيون الهواتف فى كل مكان ، حينها ودون إرادة .. أسدلتُ الوشاح على شعرى الذى لم يكن قد إنتظم نموه ، وطفقت أنسق هندامى جهة خصرى وياقتى وصدرى ، لم اشأ أن أبدو قبيحة .. كما كنت فى مشاهد المحطة ، وللحظة راودنى خاطر أحمق ، أن قبحى وقتامة بشرتى .. هما سر رواج هذا الفيديو ، فالناس يعشقون كل إختلاف .. وإن خالف معروفاتهم ، كانت بحق فكرة غبية .. لذا لفظتها قبل أن تختمر فى رأسى .

بعد هذا الإستقبال الحافل بعدة نهارات .. طار بنا مصطفى لتوه ، ودون إشعار مسبق ، إلى مواقع الأحداث السورية ، حيث كانت المخيمات قديماً ، فى رأيه .. كان لابد أن يسعى للأمر سعيه قبل أن تنطفئ شعلة هذا التأثير الرائع ، قال لى حينها بأنى بت كـ (ماسة) سوداء نادرة .. يتوق الناس لرؤيتها قبل لمسها ، وكان المنع وسيلته لإثارة شوق الناس حيالى .. فلم يسمح بأى لقاء أو محاورة لى مع أحدهم ، سواء المنصات الإلكترونية أو قنوات التلفاز ، ولم أكن أعلم سر هذا الشغف العجيب ، لم أر أنى ذات حيثية تُذكر .. لتركض ورائى الكاميرات على هذا النحو الملفت ، بينما كان يعلم هو بأن ثمة من يسعى فى إثر كل فرقعة .. دون الإكتراث بحيثية أو أشياء من هذا القبيل ، كنت له كسلعة أثيرة ، إحتكرها وقتئذٍ .. لأجد نفسى بين يديه كدمية مسلوبة الإرادة ، غير أنها مطمئنة لأفكاره ومساعيه .
أذكر أنه قال لى ذات مرة أننا لابد أن نفيد من هذه " الفرقعة " .. قبل أن يخبو ألقها وتأثيرها ، كنا فى صراع مع الوقت .. لذا شرعنا فوراً فى تصوير بطولة ديما ، كنت أفعل ما يريد دون تعليق ، ومما ساعد فى ظهور المشاهد على أقصى تأثير لها .. إنفعالى البالغ بشخصية ديما قبل بطولتها ، جسارتها

وإقدامها .. اللائى تمنيتهما فى مراحل كثيرة طوال عام ونصف ، وفى مواقف هى الأحلك فى حياتى ! ، شعرتُ أن حكايتها كانت بإنتظارى منذ أن ولدت .. لأجدد بطولتها يوماً ما ، والأكثر هذه المشاطرة العجيبة التى أحسستها .. بين ما عانته ديما فى مخيمات التشرد وما تجشمته أنا فى الدروب والطرقات من ضياع وتيه ، طفولة معذبة لم تعشها هى .. ولا أنا .

برغم كِبر هذه المعانى ، وأنى لم أتخط بعد طور الطفولة .. غير أنى شعرت بها على أقصى حدودها ومسئوليتها ، فى هذه الأيام تجاوزت شعور الصغار بالزمن كثيراً ، وكذا أفكارهم حيال ذلك ، لم يعد إحساسى يقتصر على الأمور القريبة .. بل إمتد إلى الماضى البعيد والحاضر والغد ، نضوج غير طبيعى .. رسخته مسئولية هذه الأيام ، سار على نهج غير متعسف أو مجحف ، غير أنى لم أنس يوماً شغفى لدميتى ! ، صاحبتنى واحدة مثلها تماماً .. إبتاعها لى مصطفى خصيصاً ، لم تكن تفارقنى طوال فترة التصوير ، كان يسميها " دمية يَنُّور " ، تلك التى وافيتها مراراً تتجسس لتطمئن علىّ أثناء نومى .. وشرودى فى الماضى المثقل البعيد ، كنت أسالها دوماً عن أمور عظام فتجيبنى ، أمورٍ كان من المفترض أن يُجيبنى عنها مصطفى .. لولا إنشغاله بعمليات التصوير والمونتاج .

لم يعانى مصطفى كثيراً فى تخليق مشاهد النازحين والمخيمات .. فقد إعتمدت فكرته على التصوير الحى فى إحدى هذه المخيمات القائمة بالفعل ، وفى نفس المخيم الذى عاشتْ فيه ديما على وجه التخصيص ، وهناك وافينا جحافل كثيفة من الرجال والنساء والأطفال .. وخيام ممتدة لم أر مثلها من قبل ، فكان الأمر ذا إفادةٍ عظيمة التأثير ، مشاهد واقعية لا إصطناع فيها .

ولا أنسى حين رآنى رفيقات ديما وصديقاتها للمرة الأولى .. بكاء وعناق

ونظرات نافذة إلى أخر مشهد بالفيلم ، ضربتنى مشاعرهم الجارفة بشحنة عاطفية فاقت قدرتى .. كدت فى ظلالها أن أصاب بالفصام ، إنسلخت لعدة أيام من ثوب يَنُّور المتواضع إلى أثواب ديما الجمة .. إلى أن مرت بى لحظة تمزقتُ فيها بين الشخصيتين اللتين طفقتا تتنازعانى فى عنف وألم ، كدت أوغل فى شيئ مهول .. لولا أن مصطفى وافانى فى صبيحة أحد أيام التصوير بشيئ غريب ، مشاهد أخرى تم رفعها على مواقع التواصل الإجتماعى ومنصات الفيديو ، وهذه المرة يتصدرها عنوان " ديما السورية شهيدة البطولة " ، عبارة عن لقطات مجمعة لى بين القرية والمدينة .. لا أعرف كيف ومتى تم تصويرها ، ولا من عَنَى برفعها على شبكة الإنترنت من الأساس ، وهنا فقط عرفت ، ومصطفى قبلى .. لمَ حققت مشاهدى التى إلتقطت فى المحطة كل هذه الملايين من المتابعات والمشاهدات ! ، لقد تقافزت هذه الأعداد فى ظلال بطولة ديما .. لا معاناتى ! .

لا أنكر هذا الشعور بالخيبة الذى رزح على صدرى آنها ، غير أنه سريعاً ما خبا فى طى هذه الكلمات التى ألقاها إلىّ مصطفى ، وخاصة عندما أرانى كيف أن إسمى يُزيل بعض هذه المشاهد ، وليست ديما فقط ، وفى بعضها وجدنا من ينوه لهذا التشابه الصارخ بينى وبينها ، فى الواقع لم يكن لى مطمع من وراء الأمر برمته .. غير أن إحساسى بالسطحية والتهميش كان مؤلماً ، وهو الأمر الذى حدانى أن أساله ..

- **ترى من البطلة فينا ؟! .. أم أنى محض صبية نكرة تعيش فى رداء بطلة سوريا .**

إرتعب للألم القابع فى ظل هذا السؤال الوجيع ، فترك التصوير لعدة أيام .. أمضاها فى تجميع كل اللقطات التى إنتشرت لى عبر مواقع شبكة الإنترنت ، ليضعها بين يدى بالأخير .. علَّه يزيل ما علق بصدرى من ألم وترح ، غير أنى لم أجد جدوى تُذكر من هذا كله ، فإنزويت إلى ركن غير بعيد أباشر

هذه المشاهد عن كثب ، وفى الوقت الذى فقدت فيه جملة شغفى وهمتى .. أن كان من المفترض أن نُنجز أخر مشاهد الفيلم وأهمها ، عزفتُ عن هذا كله وتأملت الأمر فى شده ، عجبتُ كثيراً لهذه الكاميرات والعيون التى كانت تتابعنى طوال الوقت .. وكأنى إحدى أولاء اللائى كنت أعاين صورهن عبر شاشة التلفاز فى دارنا ودار خالى ..

حملقت ! ، هذه دار خالى وأنا قبالتها أركض .. ويركض هو فازعاً فى إثرى ، ولقطة أخرى لفتاة تقذف بلور حانوت بالمدينة لتهرع بالأخير إلى سيارة تغادر المكان تذرى الثرى فى أعقابها ، وها أنا فى زاوية بعيدة على هامش دار تحترق .. لقطة رمقتُ فيها هند وسارة يذوبان هلعاً ، ومشاهد أخرى مؤلمة ، غير أن إثنين منها كانا الأكثر قسوة وضراوة ، أحدهما وأنا عارية تماماً .. ملتصقة بحائط يناظر دار خالى ، يضربنى صقيع جاسٍ .. وثمة حشد مركوم يحفز فى حلقى صراخ مألوم ، والثانى ، وأشدهم ألماً على الإطلاق .. وأنا بين أيادى النسوة أترنح صارخة ..

" هتوحشينى يا ماما .. هتوحشينى يا ماما " .

يعلم الله حجم الآلام التى خلفتها هذه المشاهد فى صدرى ، وهو الأمر الذى دفع مصطفى لعدة أيام إلى أن يَزُج رفقاء ديما القدامى نحوى .. علّهم يرفعوا عنى وطأة هذا الأسى الذى تملك منى ، إلى أن إستردتُ همتى بالنهاية تارة أخرى ، شاطرونى مشاهد التصوير الأخيرة ، وكانت بحق شاقة ومؤثرة .. وممتعة فى آن ، غير أنها واكبتْ أحداثاً ما توقع أيٍ منا أن تحدث ، وكان الأمر حين تم إنتخاب الكهوف والغور ذاتها التى جرت فيها الأحداث القديمة ، فى البداية كان كل شيئ يسير هادئاً وبإنتظام حسب الخطة التى أعدها مصطفى مسبقاً .. إلى أن باغتنا ذات الرعب الذى ضرب ديما فى ذاك اليوم البعيد .

فبينما كنت مستغرقة فى إشعال بؤر النيران فى الغور التى حددها مصطفى ،

وكان الظلام يغشى كل شيئ .. إذ بالسماء تنفجر بدوى عظيم شق الأفق من أقصاه إلى أدناه ، غارة من طائرات الإحتلال ما كانت فى الحسبان ! .. أسراب عظيمة قادرة على سحق كل شيئ وإبتلاعه ، إهتزتْ الكاميرات بعنف وسقط أكثرها ، وإنطرحتُ مصعوقة وأنا أريى كتلاً عظيمة تنساح من السماء إلى الأرض كالمذنبات .. لتسقط متشظية إلى كتل أعظم تحمل فى غضونها فرقعات ونيران وبيلة ، قصف جوى متتابع .. المأساة تتكرر كما حدثتْ من قبل ، الصواريخ تصطاد بؤر النيران بعينها ، حينها لم يملك أىٌّ منا أن يفعل شيئ .. فما من شيئ إلا وإختل توازنه .

إلى ذلك الحين لم أكن أستوعب شيئاً مما يحدث ، ظننته فى البداية جزءاً من إعدادات التصوير التى تعمد مصطفى إخفاؤها عنى .. تحقيقاً للمصداقية وليتلقى أكثر إنفعالاتى عفوية ، رغم أن الأمر لم يبد كذلك .. غير أنى فى طياته إصطبرت وتماهيت معه ، أثارتنى تلك الفرقعات والأصوات المدوية ، والأضوية البارقة فى كل مكان .. فمضيتُ قدماً واثقة الخطى أضرم بقية البؤر ، كنت أرى ما يحدث بعين ديما وأفكر بعقلها ، غير أن هذا كله لم يمنعنى أن أتساءل " **كيف لمصطفى أن يدبر أمر هذه الطائرات ؟!** " ، كان الأمر جنونياً إلى حد يسحق العقل ! .. فما من برهة للتفكير ، شيئ ما يمنعنى أن أتخلى عن مهمتى التى خال لى أنى أعرف نهايتها ، ويبدو أنى حينها لم أكن أعرف شيئاً البتة ! .

إلى أن جاءنى الأمر على أسوأ ما يكون عندما سمعت هذه الصرخات المزلزلة تبث الرعب فى كل شي ، المأساة تتكرر .. غير أنها هذه المرة خلفتْ ورائها الكثير من القتلى والمصابين ، رفقاء ديما الذين أصروا أن يلحقوا بنا ليعاينوا كل شيئ عانته ديما وحدها ، وبعض الرجال والنساء الشغوفين لمعرفة تفاصيل ما حدث ، الكل خرج موسوماً بتبعات الفاجعة ، الرعب يتسلل إلى صدرى رويداً ، تلفتُ حولى مذعورة .. علّى أجد عبثاً ما ألوذ به

، خيفة شيئ لا أفهمه ، حاولتُ التقدم لأشعل بقية البؤر .. فإصطكت قدماى فى إثر بضع خطوات متعثرة ، ولازال ذات الهاجس الغافل يتردد بصدرى ، يحدثنى بأنه ما من شيئ غريب .. الأمور تجرى ضمن فعاليات الفيلم المزمع تصويره ، إلى أن زال بصدرى كل يقين زائف عما حدث ويحدث ، فالإنفجارات القاسية والدماء التى صبغتْ كل شيئ ، فضلاً عن الاشلاء التى باتت ملئ عينى .. كل هذا جعلنى أوقن بأن المأساة تعيد كرتها الأولى ، تيقنتُ بحقيقة ما جسرته ديما وحدها ، تعثرتُ يميناً ويساراً ، أردتُ الهروب .. غير أن هاجساً أخر تلقف رأسى فأشعرنى بأن الهروب سيُفوِتَنى لحظات بطولية جارفة لن أعيشها تارة أخرى ، تجربة فريدة من نوعها أجسرها عن إقتناع أرعن لا أفهمه .. تحركه فى نفسى غريزة جبارة تدفعنى إليه دفعاً ، فتردد فى نفسى ولعدة مرات **" كم هى الأشياء التى فعلتها فى حياتى على غير إقتناع ! .. فياحبذا أن أفعل ما أقتنع به ، وإن لم أفهمه ، مهما كانت تبعاته "** .

ركضت إلى أحد الكهوف أحمل ما تبقى من ملئ حاوية البنزين ، وما إن ولجت إليه حتى هوتْ قذيفة ثقيلة .. فسدتْ هوة الكهف ، وكأنها مذنب إخترق الأرض قبل أن تميد وتتزلزل ، وما كاد الأمر حتى إرتكمتْ صخور عظام إلى ظهرى فأطرحتنى عنوة .. حينها شعرتُ أن أجرام السماء كلها قد هوتْ فوق رأسى ، وأخر ما تنبهتُ إليه ساقى التى إنحشرتْ بين جبلين عظيمين .. يضغطان عليها ضغطاً عنيفاً ، حينها رفعتُ رأسى المخدورة فرمقتُ الناس بالخارج من فرجة صغيرة ، صنعتها الصخور المركومة ، أشباحاً سوداء تتراكض فى الظلام .. بدت مشوهة فى ظلال النيران المائجة ، ما هى سوى دقائق من الألم والتأوه .. حتى غاب عنى كل شيئ ، إبتلعنى ظلام كثيف لا أدرى ما حدث بعده .

وقتئذٍ ظن مصطفى أننى مِتُ مسحوقة أسفل الصخور والأنقاض .. فهرع

نحوى ليجد أن الكثيرين قد ماتوا تحت القصف ، شرذمة ومتعانقين ، حينها فقط شعر أنه ما قرر أسوأ من موافقته على إصطحاب هذه الجحافل من الأطفال والعجائز والنساء .

سريعاً ، وعلى نهج غريب ، تشظتْ الأنباء إلى وكالات الأخبار .. تطايرتْ فى نصف الساعة أو أقل ، مدعومة بلقطات صاخبة لحرب دائرة هناك .. عند تخوم أحد الشواطئ السورية ، أصداء قصف قوات الإحتلال بالقرب من المخيم تعيد ذكرى القصف القديم ، غير أن الجديد هذه المرة تلك الصور التى تلاقفتها التغطيات الإخبارية الطارئة لـ " ديما " أو " شبيهة ديما " .. ينتشلونها من الأنقاض فى حالة حرجة بين الحياة والموت ، ويبدو أن ساقها قد بُترتْ !! .

(٣٤)

لم أشعر بألم ولا وجع ، لم أشعر بنصب ولا وصب ، لم يواتنى سوى غُمة من تاه عنه شيئ غالٍ ، غابتْ روحى .. كحال هؤلاء الذين يخوضون التجارب لأول مرة ، والقاسية خاصة ، من القرية إلى المدينة إلى سوريا .. وأخيراً إلى هنا ، المشفى ! ، حيث كان أخر عهدى بمصر ، وإلى ذات المكان أعود تارة أخرى .. غرفة صغيرة .

زمرات من الحاضرين ، تغدو وتروح ، لساعة زمن ظلت الغرفة تكتظ وتفض ملؤها ، ومصطفى هناك .. قابع بمقعد عند الزاوية البعيدة ، تقلقلتُ فى مرقدى قيد شبر أو أقل .. شيئ ما فى السابق كان يستجيب واليوم لا ، ساقى اليسرى ، تحسستُ أثرها .. مفقودة من الركبة إلى القدم وموثقة عند حافتها بأربطة بيضاء ، أتذكر حينها أنه لم يخالجنى حزن أو ترح .. لم ينبض فؤادى بشيئ سوى شفقة عميقة ، عزت علىّ حالى وغمرتنى رغبة جارفة فى أن أرتمى بين دفتى أحدهم وأبكى .. ما دام البكاء مستمراً ، مصطفى القابع هناك ، أو خالتى نعمات .. أو حتى خالى بكل ما فيه من جفاء وجور ، غير أنى ما تمنيتُ حينها أكثر من حضن أمى .

البكاء يشرف على أعتابى متردداً ، كلما إبتسم الزوار فى وجهى جهشتْ نفسى وهمت بالبكاء .. أو تكاد .

دنا مصطفى منى تنتفض أساريره بين حزن وحرج .. يعيق خطوه أسى عميق ، تنم عينيه عن البكاء الذى أخذ منه زفرات لساعات طوال ، إنتفاخها أنبض دمعى عنوة .. فترقرقت صفحتى لوهلتها الأولى به ، إقترب أكثر ومسح بيد متوترة على شعرى فى خجل جم ..

- **كيف حالكِ الأن ؟ .**

ركضت الكلماتُ إلى رأسى .. فلم أجد آنئذٍ ما أجيب به سوى إبتسامة هى

الأقرب إلى البكاء ، زمتْ فى ظلالها شفتىّ .. فسقطتْ عبرة تعلن عن هذا التصدع الهائل الذى قصل صدرى أو يكاد ، ليس لحزن أو قهر .. إنما هو حال من يأسى لشيئ لا يعرفه ، شيئ ثقيل ناءت به النفس .. فسقط .

مرتْ الساعات الأولى بالمشفى على هذه الحال العثرة .. إلى أن شعرتُ بأفياض من هواء بارد كالثلج ، وطمأنينة .. تتسرب إلى وشائجى تُلئم بعضاً من هذا الصدع العميق ، حينها بدأت الكلمات تجرى على لسانى ، إستبينتُ ما جرى .. فحكى لى مصطفى ما حدث دون مواراه ، الفيلم ، الطائرات ، القصف ، الإنفجارات .. وعشرات القتلى والمصابين ، آنئذٍ لم يقفز برأسى سوى سؤال واحد " **ألن أتمكن من السير على قدمى تارة أخرى ؟!** " ، وهنا عاودنى ذاك الأسى تارة أخرى ، وزيد الأمر بنبضات إهتمام وغمة أخذتْ تكبر بصدرى شيئاً فشيئاً .
حاول جاهداً أن يُهدئ روعى فأخبرنى بأنه لا حائل بينى وبين السير .. لكنه سيضحى سيراً صناعياً ، بطرف صناعى ! .
برغم ما تداول على صدرى لساعات أخرى من قلق وغمة غير أنى بالنهاية ، وبنفس سلبت الدنيا حيلتها .. قنعتْ ، إرتضيتُ وضعى الجديد كما إرتضيتُ أشياء كثيرة فى السابق رغماً عنى ، قلت لنفسى " **كم تسوى هذه الساق المفقودة حيال أمى التى فقدتها فيما مضى ؟ ، كم يسوى جسدى كله حيالها ؟!** " ، وفى ظلال هذه الفكرة أذعنتُ لكل شيئ .. مهما تجشمتْ فى طيه من مآسى وموجعات ! ، وأشياء أخرى مما تنذر به الأيام القادمة ، ففى كنف الخيبات المكرورة لا مجال للتذمر ورفاهية التفكر والإختيار .

لا أجد كثيراً مما قد أرويه عن هذه الفترة القاسية سوى أنى كنت مغمورة لرأسى ومشحونة بأشياء لا أعرف لها كنة ، أشياء مختلطة من الصعوبة بمكان أن يقر لها عقل أو قلب ، ترح وفرح وصدمة .. ضرب من الجنون

ترسمه المفاجآت تلو المفاجآت ، ففى ظلال هذا العبث وإنفعالى بما جرى جاءنى مصطفى بنبأ لم أعهد أشأم منه ، أخبرنى بأن رفيقات ديما الذين صاحبونى إلى ساحة القصف أثناء تصوير الفيلم قد فاضتْ أرواحهم جميعاً ، حينها طاشتْ رأسى لدقائق أو ساعات ، لا أدرى ، ولا أعرف بأى أرض حطتْ ، ما كانوا ليواجهوا مصير بائس كهذا .. لولا أنى برزتْ بغتة فى طريق مصطفى ، فشرعنا فى هذا العمل الجنونى .

أخذ النبأ فى طريقه أيام وأيام حتى غادرتُ المشفى إلى مسكن مصطفى ، وفى حال كهذه لم يتسن لى أن أعترض كما فعلت سابقاً ، وقبل أن أبرأ من آلام الفاجعة .. أنبأنى بأن الفيلم تم إنهاؤه وإضفاء اللمسات الأخيرة ، ورفعه إلى منصات الفيديو العالمية ، **" ما هذا الجنون ؟! "** ، تساءلت كثيراً عن قلب هذا الفتى **" ألا ينبض ؟! .. ألا يتوجع ؟! "** ، كيف تأتيه هذه الشهية والشغف للعمل دون الإنسحاق تحت وطأة كل ما جرى ، أو حتى الإغتمام به ؟! ، ويبدو أنه لفرط ما مرق به من مفجعات خلفها الإحتلال .. ما عاد يتأثر لموت أحدهم ، حاله كحال الكثير من العوائل السورية وما يشابهها ! ، كيف ألوم من فقد أماً وأختاً والكثيرين من آله وخاصته فى هذه الحرب الضارية ، تلقى الأمر بإنفعال بارد مكبوت .. مر عليه صامداً صمود طبيب تعود مبضعه على شق الجراحات .

آنها ، وبرغم تفهمى لهذه الحقيقة القاسية .. لم أقو أو أستجب لرغبته اللحوحة بضرورة أن أشاهد الفيلم بعد تمامه ، لأيام عديدة حاول كسر صمتى بهذه المشاهد المؤلفة دون جدوى ، غير أنه بالأخير وجد السبيل الذى يفتح به شهيتى للأمر .. وذاك حين أخبرنى أن الفيلم يتضمن بعض المشاهد والصور التى تم إلتقاطها لديما قبل موتها بعدة أشهر ، ومعها رفقائها ، حينها لم أقو ، لم أصمد ، إلتقطتُ هاتفه خلسة .. وغرقتُ فى المشاهد أجوبها لحظة بلحظة ، غاصتْ عينى فى أدق التفاصيل .. لأوافى

مفاجأة من نوع أخر ، لا أدرى إن كانت مفرحة من عدمه ، لقد قام مصطفى بتأليف الفيلم بلقطات مجمعة لى " تلك التى إنتشرتْ عبر مواقع التواصل الإجتماعى " ولديما ورفقائها قبل موتها ، لتنتهى بالأخير بالمشاهد التى قمنا بتصويرها هناك .. فى سوريا .

للوهلة الأولى ، ولشخص لا يعرف أن " ديما " و" يَنُّور " شخصان منفصلان .. يخال له أن الفيلم يحكى عن شخصية واحدة هى ديما ، برغم هذا لم تواتنى تلك الغيرة التى خالجتنى فيما سبق ، ففى ظلال ما جسرته ديما أثناء القصف ، فضلاً عن نبأ موت رفقائها الذى وافانى على أسوأ ما يكون .. لم يكن من الإنصاف أبداً أن أغار وأنا أجسد هذه البطولة التى أعادت أحداثها لتذكرنا بما جرى ، حتى مع فقدانى لساقى ! .. كم تسوى هذه الساق حيال من فقدوا أرواحهم وزال أثرهم ؟! ، ففى قرارتى كم تمنيتُ لو أن الله حبانى وإختارنى معهم لألقى نفس المصير .

وما هى سوى أيام حتى طالعنى مصطفى تارة أخرى ، ذات صباح ، بتلك المتابعات الخرافية التى تلقاها الفيلم عبر المنصات الجماهيرية ، بيد أن الأمر برمته كان لى غير ذا معنى ، فهذه الملايين القافزة لم تمس فى نفسى شيئاً .. لا صدى لها على الإطلاق ، وأكثر ما أحزننى محاولاته الدءوبة ليُبيّن لى أهمية مثل هذه الأشياء .. متغاضياً عن كونى طفلة لا سبيل لها لإستيعاب ما يقول ، وأن الأطفال قليلاً ما يستشعرون مثل هذه الأشياء الرمزية ، وفى هذا ألفيت منه ضرباً من الجفاء والبعد ، مسافة خطاها بعيداً عن موطئ قدمى .. دون أن يعنى بأخذ يدى كما كان يفعل فى السابق .

بقدر ما كنت خائفة فيما مضى .. غير أن خوف هذه الأيام يختلف ، جفول من شيئ مبهم .. شيئ أعيشه ولا أفهمه ، وتوقعات سوداوية أشعر بركضها نحوى دون أن يخالجنى محض تكهن أو ظن بما تخبئه الأيام ، كنت كفأر علق فى مصيدة ، لا هو هَرِب .. ولا لقى مصيره المحتوم ، غير أن

مصيراً أخر ينتظره ، مصيراً لا يعلمه ! .

فى هذه الأيام ، وبرغم مُبهِراتها ومفاجآتها اللاهثة واحدة تلو الأخرى .. سقطتْ أوراقى ورقة ورقة ، ذبلت شجرتى وجفتْ ، فكرتُ كثيراً فى العودة إلى القرية " **ولكن كيف بهذه القدم العرجاء ؟!** " ، لم أكف عن لوم حالى ، لا أدرى كيف تسربلتْ الأيام .. وبأى الاقدام ركضتْ الأحداث دونى ، ودون عادتى فى الركض معها ، كل شيئ يتغير .. وأنا هنا حبيسة جدران أربعة ، الناس فى الخارج يلوكون إسمى ويمضغون سيرتى .. وأنا لا أملك حيال ذلك غير الصمت ، والصمت فقط ! ، حتى مصطفى .. تفاقمت المسافات بينى وبينه ، بات فى درب غريب لا أعرفه ، وأجهل علائمه ، حتى أنه كل يوم يقطع شوطاً لا أدرى مداه .. بات على مبعدة منى بالكاد يسمع صوتى ، ما عاد هو الذى عَهِدته ، بات مشغولاً ليل نهار بهذا الفيلم المقيت ، وملايينه التى تتقافز على جثتى غير آبهة بأوجاعى وخوفى ، تاجر بى أسوأ متاجرة .

فبين حين وأخر يأتينى بأشياء تفوق قدرتى ، تعجزنى وتشعرن بغبائى وجهلى .. فى سن ما كانت أشيائه البائدة هذه دليلة قطعية لغباء طفل أو جهله ، ففى أحد مساءات شهر نوفمبر لهذا العام وافيته يقفز من الأرض قفزاً يكاد يُطامن سحب السماء ، يحمل نبأ غريب .. أو قل كان كذلك بالنسبة لى خاصة ، لم أستوعب منه شيئاً حينها ، ولم أفهمه إلا بإنطواء سنوات طوال ، وذلك أنه أنبأنى بأن المتابعات التى حازها الفيلم عبر منصات الإنترنت قد أتت ثمارها .. فلقد تم إنتخابه ليتصدر إحتفالية منظمة (اليونسكو) بيوم الطفل العالمى لهذا العام ، وأننا بصدد حضور محفل كبير ببلد تدعى باريس ، أبعد حتى من سوريا ! ..

" **يونسكو ! ، يوم الطفل !** " ، لم أكن أعرف ما تعنى مثل هذه الأشياء .. ولا منحنى الفرصة لأعرفها ، فقد ألقى حديثه إلى أذنى كثيفاً مرتصاً ..

مضغوطاً إلى حد لم ينفذ منه إلى رأسى سوى أنه يتوجب عليّ السفر إلى هذه البلد البعيد ، حينها أيقنت أنه لم تكن متابعات الفيلم على الشبكة العنكبوتية وحدها التى تقفز .. كنا نقفز معها بوثبات مجنونة ، وما كان علىّ سوى أن أكون على مستوى الحدث ، أن أستوعب أن المسافة الفاصلة بين عربة القطار وهذه البلد البعيد " باريس " .. تساوى لاشيئ ، وأن علىّ أن أجعل هذا اللاشيئ قائماً فى المسافات بين كل شيئ .. فربما جاءنى هذا النزق بتحليق أخر إلى ما هو أبعد ، وفى ذلك فهو فى مزيد ومزيد ! .

" أى جنون هذا ! "

كان علىّ أن أستوعب ، وأستوعب سريعاً ، فقد بدأت السماء تلقى بفرصها العظيمة للمختارين من خلق الله .. واليوم فقط أيقنت أننى قد أكون منهم ، لم يكذب مصطفى ، هذا الفتى المغمور ، حين قال لى يوماً ما " **هى الفرصة العظيمة .. إختارتكى أنتى من بين ملايين الصغار ، يبدو أنها أمكِ لم تكف عن التضرع للسماء لأجلك** " ، لم يُعظِّم الأمر بما يجافى الواقع كما ظننتْ ، صدق فيما قال .. وها هو يفى بوعده لى .

لم يمهلنى الأمر برهة تفكر أو تردد أو إستيعاب ، جاء كله جملة واحدة .. وما كان علىّ سوى أن أستوعبه جملة واحدة ، حينها ، ولن أنسى ذلك ما حييت ، تحولتْ دائرة الحزن التى إغترقتُ فيها إلى دائرة تيه وشده لا أملك فيها سبيلاً .. فما كان منى سوى أن أذعن ! ، برغم كل الظنون التى طاحت برأسى .. إستسلمت ! ، الكل يلهث وما كان علىّ سوى أن ألهث وراءهم صامتة ، فما عاد لى فى أمرى شيئ .. وبخاصة بعد أن بُترت قدمى .

بقدر هذه الأنجم التى بدأت تتلألأ فى سمائى .. طاحت فى رأسى تجوبها فى ركض مجنون ، بدت كأشباح شهب عابثة .. لا تميز لها رأساً من ذنب ، أسئلة عظيمة عادت تطن فى أذنى عن هذه الأشياء الجديدة .. تلك الحياة

التى إرتسمت فى طريقى عنوة ، برغم أنى تمنيتها فى لحظة ما .. لم أكن أعلم أن الأيام تدخر لى ما هو أعظم ، وبخاصة عندما أخبرنى مصطفى بأنى سألقى كلمة على مسرح هذه " اليونسكو " ، أخبرنى أنها فرصتنا العظيمة لإيصال رسالتنا .

" لا أذكر أنى حدثته برسالة ذات مرة ! ، أو شيئ من هذا من هذا القبيل "

بكل الأحوال الأمر يخصه ، بالكلية يخصه .. لا ناقة لى فيه ولا جمل ! ، ما أنا سوى أداة تعمل لمآربه ، فقط لوهلة رغبتُ فى تجسيد بطولة فتاة تدعى ديما .. وهذا كل الأمر ! .

حدثنى خوفى " **ولماذا لا يلقى هو هذه الكلمة ؟!** " ، صارحته بذلك .. غير أنه فى ركضه اللاهث لم يسمعنى ، حلق بى فى بضع أيام أو أقل إلى هذه البلد البعيد ، وكانت تلك مرتى الأولى التى أمتطى فيها طائرة تشدخ صدر السماء على هذا النحو المخيف ، ناهيك عما جرى لى حينها .. بكاء وقيئ ونوبات إغماء متكررة ، ولا شيئ راعنى فى ذلك أكثر من تجاهله وقلة عناءه ، تغاضى عن روعى وإرتعابى كأنه لا يرانى ، كأنه ليس هو ذاته من زج بى إلى هذه الدروب .. أكمل ركضه دون إكتراث ! .

وما هى سوى سويعات بعد إغفاءة طويلة ، أشبه بالموت ، حتى إستيقظت على شوارع أخرى ومبانٍ أخرى ، وبشر لا يمتون لهذا الكوكب التعيس بصلة ، وكأنى فى حلم ! ، أجوب بلاد العجائب .. تلك التى طالما قرعت جداتنا بحكاياها آذاننا ، أما أنا فلم أملك فيها بساطاً ولا عفريتاً .. بل ساق مبتورة تلتصق بقطعة صناعية ، بالكاد تشعر بالأرض .

سرتُ معه مشدوهة حائرة .. تقذفنى سيارة إلى أخرى ، حتى إنتهى بنا المطاف إلى بناية عتيقة شاهقة .. قال لى أنها " فندق " .

ترجلت معه عبر البهو الرحيب .. ثم صعدت ، لأخوض تجربة أخرى جاشت لها نفسى .. وكدت لصداها أن أُلقى ملئ معدتى ، إمتطينا علبة

أشبه بغرفة المرحاض .. تنسحب لأعلى وكأنها تسحب أرواحنا فى كل شوط تقطعه ، لينتهى بى الأمر إلى سرير وثير ، فإرتميتُ إليه ينوء ظهرى بمثاقيل الرحلة الطويلة ، نمتُ كما لم أنم من قبل .

(٣٥)

شيئ مدهش أو مرعب .. لا أعرف ! ، أفقتُ على عدة نهارات غريبة .. ركض هنا وهناك بدعوى إستكشاف المدينة ، والتأهب لهذا اليوم المرقوب .. يوم الإحتفال ، فى هذه الآونة كان قلبى يدق فى اللحظة الواحدة مئات المرات ، لم أكن أعرف أن هذه الفرص العظيمة تقلقل القلوب وتثيرها على هذا النحو المربك .

للحظة تذكرتُ أمى حين حكتْ لى عن يوم عرسها ، بينما هى فى طريقها إلى بيت أبى إختلطت فى صدرها أنماط شتى من الفرح .. تماوهتْ بقسوة إلى حد تحولت فيه إلى دمعات إنسابت بغزارة على وجهها ، بللت بها الممشى إلى أخره حيث عتبة الدار الجديدة ، ويبدو أنى كنت حينها على مشارف تجربة مماثلة ، حينها تساءلت .. كم من الدمعات يتوجب علىّ أن أذرفها لأصل إلى هذا اليوم المرقوب ؟! ، وهل هذه الدمعات بحق إنعكاس للسعادة المفترضة بما يضاهى أحداث هذا اليوم العظيم ؟ ، مذ أن خُلقت وأنا لا أعرف للسعادة طعم ، فإن كانت هذه الدقات اللاهثة والدمعات الراكضة هى السعادة .. فمتى إذن تعلمتها ؟ .

لم يكد عقلى وقلبى يتنافحان هذا الجدال الموتور .. حتى حان اليوم ، فوجدت حالى فى قاعة رحيبة ملأى بالمقاعد والضيوف ، إنها قاعة الإحتفال بيوم الطفل المزعوم ، وما هى سوى لحظات ، أو هكذا خال لى .. حتى سمعتُ المكبرات المدفونة فى مكان ما تطن بإسمى " يَنُّور " ، وفى ذيلها جاءت " ديما " ، وبينهما حديث رتيب لم أفهم منه كلمة ، وفى غمرة هذه الضجة وافيت مصطفى القابع فى مقعد إلى جوارى يلكزنى بيده ، أقامنى عنوة ، فوقفتُ وتحركتْ .. كحبة رمل مهملة تنزاح عن صحراء ما أكثر الرمال بها ، وما كدت حتى وجدتُ قدمىّ تنتصبان على مسرح رحيب قبالة

جمهور وثير لا حصر له .
حينها بات كل شعور فى هذه الدنيا لا يُضاهى ما شعرتُ به فى هذه اللحظة ، رهبة وإنقباض ، وفرح موتور .. كأن الروح تتصعد شيئاً فشياً ، بالكاد يلتقط صدرى بضع شهقات من هذه التى تناهبتها أفواه الجموع الغفيرة .
لوهلة تمنيت لو أن سارة وهند ووسام معى فى هذه الوقفة المربكة ، حتى يوسف وطه ، إشتقت لتعانق أيادينا وقت أن كنا نمرح بالساحة .. حتى أن يداى تعرقتا وراحتا تفتركان فى توتر ملحوظ ، تمنيتُ لو أن صغار هذا العالم حاصرونى .. فدثرونى عن هذه الأعين والكاميرات المترقبة .
مذ أن صعدت إلى المسرح وإستدرتُ إلى الحاضرين .. رأيت فى طلاتهم وجه خالى وجدتى وخالتى نعمات .. حتى أمى كانت بينهم ، كل الوجوه تقنعت بمن عرفتهم فى حياتى ، أو لربما فعل عقلى هذا ليخفف عنى حدة المشهد المهيب ! .
وما هى سوى برهة أو أقل ، من جملة البرهات المباغتة ! .. حتى حانت اللحظة المرقوبة ، لحظة إلقاء الكلمة ، هنا سقط قلبى إلى أبعد نقطة أسفل قدمى .. وبخاصة عندما أرخى مصطفى يديه على كتفى ثم دفعنى إلى منصة يعلوها " مذياع " ، هامساً فى أذنى " **إسترسلى .. بوحى بكل ما يجول فى رأسك دون خجل أو مواربة** " ، حينها نظرت إليه نظرة تموج بين الحنق والإستجداء .. فوجدت عينيه مغترقة بين الصفوف والوجوه المترقبة ، المنتظرة لما ستتمخض به فتاة الريف الحمقاء .
آنها ، ودون أن أدرى من أين يستقى لسانى الكلمات .. وجدته يثرثر هادئاً

- **" هتوحشينى يا ماما "** ..

مذ أن إرتجف لسانى بهذه العبارة وأنا أعرف أننى مقبلة على عالم غريب ، مقبض ، عالم لا يعنى أبداً بأتراح الصغار ، بيد أنى ما حَسِبتُه بهذه القساوة والصلف ، نحن الصغار كالورود ، حيثما

وجدنا من يعنى بنا .. نكبر وننمو ، ونملأ الدنيا زهوراً وإبتسامات ، وحين تستدير لنا الظهور نخبو ونخفُتْ .. وتنطفئ شُعلِنا .

اليوم ، ولأول مرة ، أشعر أننى و" ديما " خلقنا من نفس الرَحِم ، ذات الوعاء التى خرج منها آلاف الصغار الضائعين فى زحام هذا الكوكب .

بيد أن مقدورى يختلف ..

كنت طفلة محظوظة ، مات أبى منتحراً قبل أن أجمع لوجهه ملمحاً ، وماتت أمى وأنا دون الثامنة ، لفظتنى الدور وتشردت .. ونالت الطرقات من روحى قبل جسدى ، أُلقيت إلى ظلمة القبر حيّة ، عانيتُ كل ألم قد يُعانيه الصغار فى تلك الشوارع التى يُفضى بعضها إلى بعض ، ضياع وغربة وعوذ وتنمر ، وأشياء أخرى موجعة ..

لكنى بالأخير تعلمتْ ! ، وها أنذا بينكم أتحدث بلسان كل الصغار الذين إنتهبت حقوقهم على مرآى منكم .

اليوم ، وبينما لم تكن لى رسالة لأصرخ بها قبل لحظات .. جاءتنى الرسالة ! ، وكأن كل الصغار بهذه الدنيا قد تلبسوا روحى وتحدثوا بلسانى ، اليوم يوصيكم هؤلاء أن تعنوا بصغاركم ، أن تسمعوا لهم ، أن تُعلموهم بأن ثمة رفاق لهم فى أنحاء هذه الأرض إنتبهوا إلى الوجود فرأوا أنفسهم مشردين فى الشوارع والطرقات ، وأخرين تحصدهم ألة الحرب والنزاعات ، أخبروهم بأن ثمة صغار كثر حرموا مما منحتهم هم الدنيا .

اليوم أوصيكم .. وبينما هم هناك يصرخون ، فأنصتوا قبل أن يأتى يوم يباغتكم فيه صمتهم ! ، أو تجدوا فيه " ديما " أخرى مسجاة على الشاطئ .. وقد فاضت روحها متأثرة بجراح نافذة .

وهنا إستفقتُ على صمت مخيف .. كاد أن يرفت صدرى ، وعلى حين غرة وقبل أن أنكص عن المنصة ثارت ضجة حادة ، تصفيق وصراخ إهتزت لصداه القاعة ! ، ثم إنتصب الحضور على نحو هالنى وجعلنى أثب مرتجفة ، وإذا بمصطفى يتلقف يدى ويسحبنى إلى مقدمة المسرح لنصبح أمام الجمهرة الضاجة مباشرة ، والكاميرات حولنا تطوف كشهب بارقة تدور فى فلك نجم عظيم ، ولأنى لا أعرف ما ينبغى فعله فى مثل هذا الظرف .. إرتبكتْ ، فوقفت صامتة ، لا أبتسم ولا أجفل .. بيد أن إنقباض صدرى إختصر كل شيئ قد يجول فى صدر صغير يُوقع فى ورطة كهذه .

برهات ، قبل أن يهدأ الضجيج .. كرَّ بى مصطفى إلى الخلف لأتسلم شيئاً ما ، ليعود الضجيج إلى عجيجه تارة أخرى ، قيل لى حينها أنها جائزة رمزية عما أنجزته فى تجربة الفيلم ، وبرغم ما بدا لى من هذا التقدير .. لكنى لم أقنع بإستحقاقى للجائزة ، غير أنى بالأخير تصنعتُ هذا ! .

بعد الحفل كان لابد لى أن أتكلم ، أن أصرخ فى وجه هذا الفتى الذى يقودنى كعنزة فى قياد بدوى نزق ، غير أنه طالعنى بإبتسامته الهادئة ، الباردة ! .. تلك التى ما كرهتُ فيه غيرها ، قال لى ..

- **أعلم ما يجول بصدرك ، وكيف أن مشاعركِ قد تكون قد تغيرت حيالى .. لكنكِ حالماً ستدركين أنى ما أقودكِ إلا لشيئ عظيم ، ستفخرين به ما بقى من حياتك .**

وبرغم هدوءه ورزانة كلماته ، ودواعى الزهو القابعة فى حروفها .. تجهمتُ فى وجهه ..

- **ما عدت لأنقاد بين يديك دون أن تعنى برأيي ، كدت أموت اليوم من فرط الصدمة .**
- **صدمة ! ، عن أى صدمة تتحدثين ؟! ، أنظار العالم كانت تلوح إليكِ ، كم من صغير اليوم شاهدكِ وتمنى أن يقف وقفتك ! .**

- **وهل من صدمة أشد من هذه ؟! ، أرجوك لا تتعاطى معى وكأنى بلا عقل ، قليل من الكلمات .. وسأفهم ما تريد .**

فرمقنى ضاحكاً ..

- **ما قصدتُ أبداً التحقير من شأنكِ ، أنتى اليوم حققتى لى ما سعيت لأجله بضع سنوات ، بل أنا رهن إشارتك .. ألا تريدين أن نحتفل بهذا الإنجاز العظيم ؟ .**
- **نحتفل !! .**

فى هذه الليلة طفقنا نجوب الشوارع بسيارة خاصة إستأجرها لنا ، أذكر أنى رأيت ما لم أره فى حياتى ، فبرغم ما بدت لى هذه البلد غريبة متجهمة وقت أن رأيتها للمرة الأولى .. بقدر ما رأيتها فى ليلتى هذه مبهرة مبهجة ، تثير داخلك كل حلم ضاع طوال سنوات مضت من الشقاء والمعاناة .

مكثنا فى هذا الأمر ليومين إضافيين ، كان أكثر ما جال برأسى حينها **" من أين يأتى هذا الفتى بكل هذه الأموال التى ينفقها ؟! "** ، كان الأمر بحق أدعى للتساؤل والإندهاش .. فالرجل ينفق بسخاء دون العناء بغدٍ قد يأتى على جيوب خاوية ، دون أن يساوره خوف حيال المال .. هذا الخوف المقيت الذى طالما خايل لبى منذ أن خُلقت ! ، كان مجرد سؤال .

بالأخير عدنا إلى مصر وسط هالة من الحفاوة والإحتفال ، تغير وجه الأيام لعدة أسابيع ، بتنا لا نقر فى مكان ، اليوم حديث تليفزيونى وغداً فى الإذاعة وبعد غدٍ فى إحدى المنصات الإلكترونية أو جريدة معنية بالأمر .. وكل يوم هو فى شأن ، فى مهمة جديدة ! ، وبقدر ما بدأ هذا النمط من الحياة الجديدة يُبدى ملامحه بجلاء .. غير أنى ما إستطعت يوماً أن أنسى القرية وحياة القرية ، كان ما عانيته بها محفور فى ذهنى إلى حد لطالما أربكنى وأوقف الحديث فى رأسى ، تعلمت أن الإنسان مهما تقاذفته ملاهى الدنيا هنا

وهناك .. لا ينبغى أن ينسى أنه كان يوماً ما يطن فى زاوية فى رحم أم ، رحم وطن ! .

ما عدت أخجل من ساقى المبتورة تلك ، إستردت ثقتى مذ أن بدأ الناس يتعاطون معى على نحو طبيعى .. فاق أقصى ما تمنيت ، حتى أنى وفى أكثر اللقاءات الحوارية كنت أتحدث عن الفيلم ورحلة اليونسكو بثقة وإقتناع .. وكانى لم أنقاد إلى هذا كله خائفة جافلة ! ، وأن مصطفى وحده صاحب الفضل فى الدرب الذى ما توقعت يوماً أن أجسره .

وعلى حين غرة .. هدأ كل شيئ ، ونكصت الحياة لديدنها وعادياتها السخيفة ، وعدت أتساءل " **وماذا بعد ؟!** " ، إنتهى الفيلم وإنتهت أصداء اليونسكو .. وعدت أجوب الطرقات بقدم عرجاء ، بها أفاد الأمر وأنا لم أجن سواها ! ، أو قل خسرتها فى جملة ما خسرت ، حتى خايلنى أن مصطفى ما عاد له أرب فى وجودى .. وأنه حتماً سيزج بى تارة أخرى إلى عرض الشارع ، إلى تلك الطرقات المتُيهة الممتدة إلى حيث لا نهاية ، غير أن مصطفى خيّب أسوأ ظنونى ، لم يتخل عنى أو يدعنى فريسة لهذه المشاعر القاتلة ، أبقانى معه فى مسكنه ، ولطالما إصطحبنى معه فى نزهاته وجولاته .

فى غضون هذه الأيام علمت عنه كثير مما كنت أجهله ، علمت أنه فى الأساس يعمل مصوراً إبتكارياً .. وأنه أحد قلة زهيدة يتقنون فنون هذا المجال ، وأن للرجل جماهيرية عريضة ومتابعات هائلة فى أرجاء شتى بالشرق الأوسط ، حينها تساءلت " **كيف لم أنتبه للأمر ؟!** ، **كيف لم تسترعنى تلك الكاميرا التى لا تفارقه** " ، تأملت كيف أننى فى غمرة هذا الركض الحثيث أسقط حقه فى أشياء كثيرة ! .

مرت أيام أخرى وشهور أخرى .. حتى كان العام الذى يليه ، وقبل أن يهل علينا شهر سبتمبر جاءنى بركضه الموتور .. الذى كنت قد نسيته لعدة

شهور مضت ، ألفيته يقفز بوثباته النزقة المعتادة .. تكاد الفرحة أن تمزق صدره ، حينها إنقبض صدرى " **ترى ماذا يخبئ فى جعابه هذه المرة ؟!** " ، فلم أعهد وثباته هذه إلا وتجر فى أذيالها أحداثاً جلل ، لم أطق صبراً .. فسألته لتوى عن الأمر ، فأخبرنى دون مقدمات بأنه كان قد تقدم بالفيلم فى مسابقات " اليونسكو " لجائزة السلام للأفراد .. وأنه للتو تلق نبأً ساراً بهذا الشان .

تفكرتُ للحظة ، حاولت أن أستجمع لباب ما يقول فى رأسى الصغير ، غير أنى لم أحص من كلماته سوى أنه يتحدث عن جائزة ، جائزة أخرى ! ، ولكن عن ماذا ؟ " **عن فيلم !** " ، إلى حينه لم أكن قد سمعتُ من قبل عن فيلم قد يحصد كل هذه الجوائز ، ولا حتى جائزة واحدة ! ، كانت أقصى معارفى أن مثل هذه الجوائز العظيمة لا تُمنح سوى للعلماء الذين أفادوا البشرية بشيئ ما ، إختراع أو ما شابه ، أما عن فيلم .. فقد كان الأمر بالنسبة لى آنها بحق لأمر عجيب ! ، ولا داعى أن أسرد كثيراً فى هذا الشأن ، فما عرفته فيما بعد أن الجوائز الأثيرة باتت تُمنح حتى لأسقاط الناس .

كانت أولى أصداء الحديث عن هذه الجائزة أنها حركتْ داخلى شغف الصغار .. غير أن عدم إستيعابى وقتئذٍ جعلنى أصغى إليه ملياً لأستبين الأمر ، حينها قال بأن ثمة جائزة تمنحها منظمة " اليونسكو " للسلام كل عامين .. وذاك لتنبيه الرأى العام لمشكلات السلام من خلال وسائل الإعلام أو أى قنوات أخرى ، غير أنه أبدى أن هدفه الأسمى من حيازتها هو ترحيب النطاق لبطولة ديما لتجوب الأرض من أقصاها إلى أدناها ، وهى إحدى ثمار حدث عالمى كذاك ، لذا تقدم بفيلمه للفوز بهذه الجائزة فيما سبق .. عن مجمل معاناتى و" ديما " .

ولكن ماذا بعد ؟! ..

جاءته الأنباء للتو بأن الفيلم قد فاز بالجائـزة بالفعل ، وأننا بصدد السفر إلى

باريس تارة أخرى لإستلامها !! .

" **حسبك من أنباء سارة كهذه !** " .. إلا أنى إستقبلتُ النبأ هذه المرة بهدوء وأعصاب باردة ، فلا شده لقفزات بعد القفزة الأولى .. مهما كان مداها ! ، ليس إلا شعور بالإستحقاق يخالجك من آن لأخر ، كان الأمر برمته بالنسبة لى وكأنه حلم ، أيام قليلة من أيام رحلة سعيدة .. لها ساعة لابد فيها أن تنتهى ، لطالما ساورنى هذا الشعور .. فما من سعادة عشتها مهما طالت أيامها إلا وإنتهت يوماً ما ، ولاسيما أيامى مع أمى .. تلك التى ما تنفك أن تقفز إلى قشرة رأسى فى إثر كل إنجاز جديد ، لينتهى الأمر بمشهدها الأخير فى سوق الخميس ، وذاك النعش الذى فارق ساحة الدار ينوء بجسدها على مرآى منى .

لم تختلف فعاليات الإحتفال بـ (يوم السلام) عن (يوم الطفل) ، ذات الأجواء المبهرة ، الجمهور الوثير ، المكبرات الصادحة .. وبالأخير المسرح والكلمة ، إلى أن جاءت لحظة إستلام الجائزة ، وأكثر ما فيها بهرةً .. هى قيمتها ، تلك التى همس بها مصطفى فى أذنى " **هنيئاً لكى ستون ألف دولار يا إبنة عربة القطار** " ، أعرف أنه يمزح .. غير أن الرقم كان كبيراً إلى حد تصاغرتْ فيه جل قدرات عقلى أن تستوعبه أو تحصيه " **كم يُعادل ؟ كم دمية وثوب يمكنه شراؤه ؟** .. **لا أعرف** " ، هو مبلغ كبير .. وكفى ! .

إنتهتْ الرحلة بأسرع مما بدأت ! ، وكان لها أن تستمر لعدة أيام أخرى .. لولا أن قرار منى أفسد كل شيئ ، أو هكذا خال لى ، وذاك أنى وقتئذٍ طالعتُ مصطفى بغتة بعزوفى عن العودة لمصر .. ورغبتى فى السفر إلى سوريا ، وتحديداً إلى المخيمات ! ، ولا أخفيكم كم كان هذا القرار مربكاً ، فعلى إثره مكثنا فى الفندق لعدة ساعات إضافية .. حاول فيها مصطفى أن يجعلنى أحيد عن رغبتى ، أو أتريث لحين العودة لمصر .. هناك يتسنى لى أن

أفكر في الأمر على مهل ، ولا أنسى حين أثار وجعي بسؤاله ..

- **وماذا عن دارك ؟! .**

فقلت له في ثقة ..

- **أما عن داري فقد عرفتها ، دار بدون أمي .. ليست بدار ! ، ودور اليتامى لليتامى .. أوطان ودور .**

فشده لإجابتي دون أن يعلق ، ودون أن يكف عن محاولة إقناعي .

غير أن هذا كله لم يُثن عزمي .. أو يُغير من شغفي للأمر شيئ ، كانت رغبتي جارفة ! .. ولي من الأسباب ما يكفي للمضي فيه دون أناة ، فالجائزة إنما مُنحتْ في الأصل مناصفة بيني وبين ديما .. وما كنت أظن أنها لتُنفق قِسمتها في وجهة أخرى سوى الإنفاق على أطفال المخيمات ، وهذا ما كنت قد عزمت عليه .. وإنتهى الأمر ! ، وفي ذاك لم أكن جاهلة أو مُغيَّبة .. فما كنت أفقه عقلاً وأعمق فهماً في رحلتي هذه ، وطوال ما يعدو العامين ، أكثر من لحظة أن إنتويت في قرارتي هذا الأمر ، فطنتُ لأهدافه الإنسانية والفارقة .. فلم أتردد ! .

لم يجد مصطفى مناصاً سوى أن ينصاع لرغبتي .. ولكن شريطة أن يتم السفر إلى سوريا بحلول نهاية العام ، وذلك بسبب إلتزاماته التي لن ينفض منها قبل هذا الأمد ، على أن نمضي الشهور الثلاثة المتبقية بمصر .

برغم أن الرحلة قد إنتهت غير أن أصدائها لم تنته ! ، فإلى أن حلت نهاية العام لم تخل حياتنا من الجمهور والصحافيين ورجال الإعلام .. والفلاشات البارقة هنا وهناك ، وأذكر أن مصطفى باح لي حينها بأن ثمة مغالاة في الأمر .. فما إعتاد الناس الإحتفاء بنجوم هذه المحافل الرمزية على هذا النحو الفائق ، فهذا درب نجوم السينما وكرة القدم .. أما أمثالنا فلا قيمة لهم خارج أُطرهم ، هامساً في أذني " **يبدو أن أمكِ قد أطالت للسماء**

دعائها وإستجدائها ! " ، آنها فقط فهمت أن الله حبانى دون غيرى بما يفوق معروفات الناس وبديهياتهم ، حبانى بالمستحيل حدوثه من وجهة نظر كثيرين ! .

(٣٦)

فى فترة ما ، وبعد أن ناهزت طور الثلاثين .. كنت أظن أن العمر ينشطر إلى نصفين وقت أن يشارف الإنسان هذا السن ، واليوم وبعد مضى أربعين عاماً أخرى .. تيقنت أنه ما من شيئ يظنه الإنسان حول العمر والقدر ، وما يضارعهما من أمور مصيرية .. إلا كسراب بِقيعة ! ، فمثل هذه الأشياء لا تسير وفق أهوائنا وإنفعالاتنا ، ولا شيئ فى الأصل يرتسم واقعاً ملموساً كما تهيئه لنا مخيلاتنا وتصنعه تصوراتنا .

كانت فكرتى عن المخيمات فكرة هامشية ، وتصوراتى عن حياة الصغار هناك لا تعدو كونها تصورات سطحية ، محض سراب بِقيعة تماماً كهذه الأشياء التى تراودنا بعد سن الثلاثين ! .
فمذ أن حطتْ أقدامنا إلى أرض المخيم ، وعلى مبعدة من تخوم الشواطئ السورية .. طفقنا نجول بين الخيام البلاستيكية الهشة ، تلك التى توحى لك منذ اللحظة الأولى بتصور خيالى عن تلك الأرواح الهشة التى تسكنها .. تضاهيها الحال والمصير ، وهو ما إتضح لنا عكسه بمضى الوقت ، فبينما أردت فى بادئ الأمر أن أستطلع أحوال النازحين عن كثب ، وبخاصة الصغار .. طالعتنا مئات الإبتسامات برغم العوذ والأحوال البائسة ، والخيام التى لا تقى حر ولا برد ، ورغم أنها إبتسامات آسية تحمل فى طيها الكثير من القهر والإنسحاق .. غير أنها لا تمس صلابة الشخصية بشيئ .
فالنساء هاهنا رجال .. وأكثر الرجال قِتلوا تحت الأنقاض ! ، قُتِلوا بشرف ، ولولا أن القصف باغتهم .. لظلوا يدافعون عن أرضهم ما داموا فيها قائمين ، حتى من اضطر منهم للنزوح إلى المخيمات .. ما كانوا ليهجروا ديارهم لولا خيفتهم على صغارهم والعجائز والنساء ، هؤلاء الذين لا يملكون للحرب سبيلاً .

وبرغم ما يخال للرائى عن حال الصغار .. فحقيقتهم داخلهم ، قد لا يعلمها حتى خواصهم ! ، لكل صغير حلم وحقيقة .. قابعان فى صدره ، لا يشاطره فيهما سوى أترابه ، ورغم ذلك فكل صغير فريد بحقيقته وحلمه ، وكحال كل الصغار الذين تعرضوا لتجربة الإنغمار فى مخاض الحرب دون إرادتهم .. فالصغار هنا يبدون للوهلة الأولى كأسراب مهاجرة ، طيور كسيرة .. ما تنفك أن تعلو محلقة حتى تسقط فى ألم وصراخ ، هى فى حقيقتها آلام القيد لا القهر ! .

أثناء تجوالنا .. كنا نرى الواقع من قشرته ، من الخارج ! ، فلا نميز فيه سوى رتوش وهمية .. لا توحى أبداً بما يجول فى أخلاد هؤلاء من أحلام ، ففى طى كل منهم حلم برغم زهده يحمل قيمة عليا .. إفتقدها كثير ممن عاشوا فى أوطانهم آمنين ، بلا قصف ولا حرب ولا نزاعات .

لم تكن البداية مبشرة ، فأول ما طالعنى به المخيم ضجة عند الحدود .. إسترعت إنتباهى فنفرت إليها مزعوجة ، فإذا بزمرة من الصغار ، صبايا وصبية .. يركضون فى الخلاء حول المخيم ، سالتُ أحدهم ، فقال لى بأنهم يجتمعون كل صباح فى هذه الساحة للركض والتريض .. بغية شحذ الدفئ إلى أجسادهم ، وخاصة فى إثر ليالى البرد القاسية ، وما أكثرها هنا ! .

آنئذ ، ترجلت بضع خطوات حتى إقتربت من فوج واثب من الصبايا .. فإنضممت إليهن ، وطفقت أركض فى رحابهن ، ظل مصطفى حينها يباشرنى من بعيد .. وفى عينيه قرأت الكثير من الأشياء ، عاينت ماكان يفعله مع ديما فى مثل هذه الأوقات ، طوفنا المخيم لدورة كاملة قبل أن تستوقفنى صبية تهزج بأغنية شجية .. مستْ كلماتها قلبى لوهلتها الأولى ، خال لى أنها مستقاة من التراث السورى .. غير أنى أسفرت أنها مستوحاة من واقع الأحداث ، أنصتُ للحظات ..

" هنا خيمتى .. وهناك بلادى ، هنا غربتى .. وهناك بلادى ، صغيرة العمر أنا .. كبيرة بأوجاعى ، لا تسألنى من أنا .. فحالى ظاهر بادى ، أنا طفلة الخيام .. ولدت بغير بلادى .... "

كانت الصبية تصدح بترنيمتها والصبايا حولها فى مدارات شتى .. إنساحت الكلمات الملحونة فأثارت فى صدورهن ذكريات الوطن القديم ، والأهل والأتراب .

دنوت من ثلتهن على إستحياء دون أن تلحظ الفتاة وجودى .. خشية أن تخجل أو تتوقف ، ولبضع دقائق أخذتنى الكلمات إلى مديات بعيدة .. إلى حد أثار جهشى وأنبض عبراتى ، ففى حين كانت الصبية تنتحب وطنها المنهوب .. خالجنى أنها تشدو بأغانى وأمثال أمى القديمة ، وقت أن كانت تُهدهدنى وتُدللنى لأنام .. أو لأكف عن فعل سخيف من أفعال الصغار ، تلك الأغانى التى كانت بقدر ما تحمل من تدليل وهزج .. إنطوت على كثير من الوحشة والإنكسار ، وتصبغت بمسحات الأسى القابعة فى كل زاوية بقريتنا .

وفى غمرة هذا الهمس الشجى الحالم .. علا فحيح مرعب بقر بطن السماء ، فحيح يعرفنه الصبايا جيداً ! ، فقد رَبِين على أصوات هذه الغارات قبل أن ينبو إلى آذانهن غنج أمهاتهن ، ما كادت الصبيّة أن تكف عن شدوها وجلاً .. حتى هوت قذيفة هائلة بأرض الوادى خلف المخيم ، لتقصم ظهر أغنيتها عن أخره ! ، فسقطت الفتاة وسقط كثيرين ، وأنا بينهن .. قبل أن يقمن مفتزعين فى ركض موتور إلى الخيام ، وما هى سوى برهات حتى تحول الوثب لإستجداء دفقات دافئة .. إلى ركض يحدوه الخوف ويحثه إرث تليد من الوقائع المفجعة ! .

لا أخفيكم .. كم كان لهذه الواقعة أصداء سيئة ، تركت فى نفسى أثاراً

مثبطة كادت أن تجعلنى أعزف عن قرار مكوثى بأرض المخيم ! .. غير أن صمود الصغار وكرِّهم السريع إلى حياتهم العادية دون أن يخلى الحدث فى ذواتهم ندوب أو أثار سيئة .. أحرجنى أيما حرج ! ، جعلنى أستصغر كل شيئ فى هذه الحياة قد أخاف منه أو عليه ، وبرغم ما بدى من خشية مصطفى وخوفه علىّ ، لظرفى الخاص .. إلا أنه تراجع سريعاً لما عاينه من حماسى وصمودى ، وعدم عنائى للأمر برمته .

غير أن ما جرى ، ولا أعرف الرابط فى هذا ، حدا بعض رفيقات ديما القدامى ممن لم يشاركن فى تجربة الفيلم ، فضلاً عن بنات عمومتها وأخوالها .. إلى الإنضمام لى فى روحاتى وغدواتى ، ومشاطرتى الكثير من الأنشطة التى إنتويت إجراؤها هناك ، إلا أن هذا الحال لم يستمر ! .. فلقد نفر الجميع منى بغتة ودون مقدمات ، حينها تكهنت أنى لم أنجح فيما كن يرجونه منى ، لم أكن الصورة المثالية لديما .. تلك التى تمنوا أن يرونها فى طلتى وأفعالى ، إلا أنه وبرغم كل شيئ لا وزر لى فى ذلك .. فمهما جرى سأظل أنا وهى شخصين مختلفين ، لن تنصهر حيواتنا أبداً فى شخص واحد ، علاوة على أنهن رجون منى أن أتقمص شخصاً فارق الدنيا .. ولم أره فى حياتى قط ، ناهيك عما طُوى فى رجائهن هذا من إجحاف وإهمال واضح لشخصى وإعتبارى .

أما السؤال الذى هاجمنى مراراً وبضراوة " **لمَ يُخل مصطفى سبيل ذويه وأقاربه هنا .. طالما أنه ميسور الحال ويملك إنتشالهم من وحول هذه الحرب المحفوفة بالمخاطر ؟!** " ، فعرفت فيما بعد أن مكوثهم كان بقرار وإرادية ذاتية .. فلقد آثروا البقاء برغم كل شيئ لمشاطرة جيرانهم فى نوازلهم الجلل ، وأن هذا النهج إتخذته كثير من العوائل ممن تسنى لهم العيش فى أحوال أفضل ببلد أخرى ، وأنه حيال ذلك لم يملك بداً من النزول إلى رغبتـهم ، ولا أخفيكـم .. فلقد أجهضت هذه المبادرة الإنسانية

أى شعور بغرابة الأمر داخلى .
لم تنته واقعة القذيفة عند هذا الحد ، فلقد كانت حدثاً عارضاً ضمن مئات الأحداث المؤلمة التى بات المخيم يصحو ويبيت عليها كل يوم ، تضافرت كلها لتضع أيدينا على تلك الندوب والجراحات الغائرة التى خلفتها الحرب ، ولا تزال ! ، وهو الأمر الذى أعطانا صورة جلية عن إحتياجات النازحين ، وما يعانيه الصغار هاهنا ، ولا سيما حين وافيت زمرة منهم ينتقون قطع الفحم من مكبات النفاية بغية التدفئة ، وأخرون يسعون فى نهارات الشتاء وتحت أجواء القصف والإنفجارات إلى غابة مجاورة لجمع الحطب ليشعلوه ليلاً ، ليضحى البرد فضلاً عن الجوع والإنفجارات .. وحوش غشيمة عليهم وحدهم مواجهتها كل يوم ، فضلاً عن جبهات القتال التى تحاصرهم من كل ناحية .
وبرغم المعونات التى تتلقاها المخيمات من منظمات الإغاثة الدولية من طعام وأغطية وصيانة دورية للخيام المتهالكة ، ولاسيما " اليونسكو " تلك التى نفحتننى جائزتها والصغار هنا يموتون .. فإن هذا كله لا يغنى ولا يسمن من جوع ، لم تستطع هذه المعونات حماية عشرات الأطفال من الموت جوعاً ، وتجمداً .. نتيجة الظروف الجوية القاسية ، ناهيك عما يُعانونه فى ساعات الصيف القائظة تحت حرارة قد تتعدى الأربعين درجة .
وهى الأمور التى حدت الكثير من العوائل إلى الزج بصغارهم للعمل فى التهريب لتوفير لقمة العيش ، أو الفرار بهم إلى الدول المجاورة ! .
ومن أكثر الأشياء التى أصابتنى بإحباط محقق حين إنضممتُ إلى ثلة من الصغار بأحد " الكرفانات " ، التى أعدتها لجان الإغاثة كفصول دراسية .. وأصغيت إلى قصصهم وأمنياتهم ، وجدت أن الكثيرين منهم لا يعرفون عن المدرسة سوى إسمها ، فهذه الكرفانات المعدة مسبقاً لم تجمع بين جدرانها سوى زمرات مختارة من الصغار " **سحقاً .. حتى هنا فإن التمييز**

والعنصرية بمكان ! " ، كثيرين هم الذين أعربوا عن رغبتهم فى أن يتعلموا ، واكثر يتوقون للعودة إلى ديارهم .. ليلتقوا مُدرسيهم ورفقائهم القدامى ، يتذكرونهم جيداً رغم الحصار ! ، ووجدت هنا أنه من أقصى أمانيهم .. فقط أن يتخلصوا من الوحول والطين ، تلك التى تنغرس فيها أقدامهم كل صباح ، وأخرين تمنوا لو أن الحرب إنتهت .. فلقد سئموا النزوح من مخيم إلى أخر ، وكذا هذه الإنفجارات المدوية التى باتت تهاجمهم حتى فى مناماتهم ، هنا وجدت من يظن أن خلاص بلاده فى أن يصير شعبه غنياً .. بعد أن عاين كيف أن المال يشترى كل شيئ ، حتى النفوس ! .
ولا أنسى حين تجولت بينهم ذات صباح بالقرب من جرف الوادى .. فرأيت بعض الصبية يخطون على الحجارة رسوماً لطيورٍ وطائرات بقطع الفحم ، وكذا شموسٍ وإنفجارات ، دورٍ وخيام .. فى مضاهاة قاسية لواقعهم الأليم ، وعند كل ركن ألفيت صبية تشدو بأغان تبكى الأهل والديار ، ورغم هذا كله .. وافيت الأمل ينبض فى كل خط مرسوم أو كلمة شادية ، وافيت الأتراح ترسم الأفراح ، والقنوط يشدو بالصلابة والثبوت ، هنا وجدت كل شيئ ونقيضه .. غير أنى لم أجد الإنسان ! .

بعد عدة أسابيع من المباشرة والمعاينة عن كثب .. كان علينا التحرك سريعاً ، حينها كان مصطفى قد رحل عن المخيم فى سفرة قصيرة إلى القاهرة ، وما كاد أن يعود إبان عزمى المضى فى إغاثة صغار المخيم .. حتى وجد كارثة كادت أن تطيح بالأطفال الرضع عن أخرهم ، ففى غضون ساعات زهيدة تسبق قدومه مات الكثيرين منهم نتيجة جفاف ضروع أمهاتهم اللائى لم يتلقين التغذية اللائقة ، فضلاً عن قلة عبوات الألبان التى قد تفى بالحاجة .. وهو الأمر الذى أفسح المجال للبرد ليقضى على أجساد الرضع الهشة ، وذلك فى إثر إفتقادها لما قد يجلب لها الدفئ من قوت وغيره .

آنئذٍ ، كنا بإنتظار وفد من أحد منظمات الإغاثة التى أعلنت أنها بصدد القدوم بمعونتها الدورية ، حينها ، وأذكر هذا جيداً ! .. حالفنا الحظ لتدارك الكارثة قبل أن تتفاقم ، ففى مفارقة غريبة لا تتكرر كثيراً وبرغم إنقطاع خطوط الإتصال .. تمكن مصطفى من مراسلة الوفد وطلب الغوث بإمداد المخيم بعبوات ألبان جاهزة مدفوعة الأجر ، وتم تحويل الأموال حينها من أقرب نقطة مراسلة عند الجانب الأخر من قُرنة الجبل المتاخم للمخيم ، وفى أقل من ثلاثة ساعات بات المخيم يعج بعبوات الألبان التى ما كادت تصل حتى وطنت فى أمعاء الصغار .. فروت ظمأهم وأقامت أصلابهم .

وما هى سوى بضع نهارات حتى وافتنا الكارثة التالية ، فبينما حلت الرابعة من نهار يوم عاصف هبت رياح موسمية من جهة البحر .. فأخذت الكثير من الخيام فى طريقها فإقتلعتها عن جذورها ، حتى أنها بالأخير لم تترك موطئ قدم يصلح للسكنى ! ، وهنا كان المعنى الحقيقى للحدث الأسوأ من نوعه وظرفه ، ففى الأحوال الطبيعية يعد كل ما هو خارج الخيمة أو داخلها خطراً على الصغار .. وفى ظل ظرف طارئ كهذا بات الحال أسوأ مما يمكن تصوره ، تعرى ظهير المخيم عن أخره حتى تثرثر النازحين ، وخاصة الصغار .. على نحو يفطر القلوب ! .

إبان ذلك ، وكأن لجان الإغاثة والتغطيات الإخبارية على موعد موقوت مع مثل هذه الكوارث .. أرسلت الأمم المتحدة وفد من الإعلاميين والمتطوعين لمباشرة أحوال النازحين ، وما كادوا أن يعاينوا أصداء الكارثة .. حتى بادر الكثيرين لإغاثة هؤلاء الذين إكتسحتهم العاصفة ، وفى غضون ساعة زمن أو أقل كانت الكاميرات قد نقلت الوضع إلى أكثر الوكالات الإخبارية .. فإنهالت المساعدات من دول الجوار ، ولعدة أيام .

آنئذٍ ، وعلى نحو كان بالنسبة لى إنفعالاً بديهياً بالحدث .. كنت مستغرقة لأذنى فى الأمر فلم ألتفت لهذه الكاميرات التى عنت بهذه الصبيّة مبتورة القدم التى برزت على ظاهر الأحداث منذ مهدها .. تركض هنا وتصرخ هناك ! ، ليتضح بالأخير أنها ليست من صغار المخيم .. ولا من سوريا كلها ! ، أذكر أننى حينها تلقيت معاملة فيها غلاء يخالف فداحة الحدث .. وهو الأمر الذى جعلنى أظن فى بادئ الأمر أنها ما بقى من أصداء جائزة اليونسكو ، غير أنى لم أتبيّن حقيقة الأمـر إلا عندما همس مصطفى فى أذنى " **بتنا على قيد خطوة من النهاية** " ، رمقته وقتئذٍ مشدوهة " **نهاية !** " ، غير أنه أشاح لى بظهره دون أن يعنى بحيرتى .. وأنا أيضاً لم أعن بترهاته ، لكنى أدركت بالأخير أن عناية الإعلاميين بى كانت لسبب أخر .. لا يعلمه سوى هذا النزق ! .

بضعة شهور من العمل والركض هنا وهناك لإغاثة النازحين قبل أزوف الرمق الأخير ! ، من بلد إلى بلد ، ومن مخيم إلى مخيم .. تصدينا للكثير من الأزمات كان الجوع والمرض هم أبطالها الأبرز ، وفى ذلك حاول اللاجئين التمسك بتلك الحياة البائسة التى فرضت عليهم فرضاً .. يعيشون فيها ظروفاً إستثنائية وفى حالة طوارئ لا تنقطع ، تزيد ضرواتها فى إثر كل كرَّة مباغتة لهجمات البرد أو إرتفاع درجات الحرارة .. ناهيك عما يتبع ذلك من أمراض قد تؤدى بأصحابها بالأخير إلى الموت ، وما أدراك ما الموت هنا ! ، زائر ثقيل يجول دون إستحياء عند تخوم المخيمات وفى أغوارها .. وما من نهار يمر إلا وتصطدم به يرتع فى الطرقات والعطوف ، هو ضيف متربص لا يغادر تلك الأراضى مطلقاً .. ما إن تواتيه فرصة يمضى بسيفه على رقاب الجميع دون رحمة ، دون أن يعنى بصغير أو كبير .
كانت مهمتنا الأساسية آنـها هم الصغـار ، لذا تركـزتْ جهودنا للنهـوض

بأوضاعهم المزرية ، وفى ذلك كان على مصطفى أن يلبى كل ما أبتغيه من إمدادات مالية دون إعتراض ، أذكر أننا فى هذه الفترة الوجيزة تمكنا من بناء الكثير من الفصول الدراسية سابقة التجهيز ، ولحسن طالعى تمكنت من الإنتظام دراسياً بين الصغار ممن هم فى سنى أو أقل ، كما أولينا أكثر عنائنا وجهدنا لتوفير الطعام والأردية ووسائل التدفئة وأشياء أخرى .. فما عدنا نرى صغيراً ينفر إلى مكبات النفاية لأجل الفحم أو إنتقاء بضع لقيمات يقمن صلبه ، أو يتسرب إلى الغابة المجاورة ليجمع قضباً زهيدة للتدفئة ليلاً ، كما لم تعد الجباه تكتوى بِحَر الصيف كما كان يحدث فى السابق ، لعدة شهور من العمل .. تغير وجه الحياة فى عدة مخيمات .

غير أن هذا كله لم يكن كافياً ، فمن بين أكثر من ألف مخيم لم نتمكن من العمل إلا فى خمس مخيمات فقط .. يتخطى تعدادها المائتى ألف نازح ، غير أنها كانت خطوة على الطريق .. زادت رقعة العمل بها بواسطة تلك الحملات الدورية التى كانت توافينا من آن لأخر من قبل منظمات الإغاثة ، فضلاً عن مبادرات دول الجوار .

كان الجميع فى حالة شده غريب حيال شغفى وحماسى للأمر ، ومما أقوم به بالرغم من ظرفى الخاص ، بتُ معروفة بالإسم لدى أكثر الصغار هنا ، حتى الكاميرات لم تعد تجد صعوبة فى التعرف على وجهى فى كل مرة أوافى فيها زواراً من الصحافيين والإعلاميين ، وفى هذا كله كان مصطفى منغمراً فى يم من النشوة سحيق .. حالة محيرة لم أستطع يوماً إستيعابها أو كشف دواعيها ! .

كنت دوما فى حالة إنتظار أن يأتى يوم ويصارحنى بما يقوم به ولا أعلمه ، إنتظار لا أملك له تبريراً ، كل ما أعرفه أن الفتى يُخفى شيئاً لا أفهمه .. غير أنى مطمئنة إليه ، فما جاءنى مذ عرفته سوى بالخير ، والخير كله ! ، كدت

أغترق فى ذات اليم الذى إغتمر فيه منتشياً .. لولا هذا المساء القاتم ! ، ذاك الذى بغتنا بموت إحدى الصبايا ضمن أكثر من عشرين صغيراً مصاب بنوع خاص من سرطان الدم والعظام نتيجة الأحوال الجوية وسوء التغذية والسرطان هنا هو المعنى الحقيقى للموت .. يختصر كل المسافات إليه ! .

كانت تلك الحالات تتلقى علاجاً كيميائياً ضمن وحدة علاج متنقلة تتبع لجان الإغاثة بالأمم المتحدة ، والمتأخرة منها يتم إرسالها رأساً إلى مشفى البيرونى الجامعى بالعاصمة السورية تحت إشراف الصليب الأحمر .. لتتلقى جلسات دورية ثم تعود بالأخير لأرض المخيم ، وخلال عدة أيام من القصف والتراشق المسلح بين القوى النظامية وجبهات المعارضة فضلاً عن بعض التنظيمات الإسلامية التى طفت على صعيد المشهد مؤخراً .. لم يتمكن الصغار من تلقى جرعات العلاج الكيميائية ، وهو الأمر الذى جعل أكثرهم قيد الإنتظار فى قوائم الموت العاجلة ! .

حينها لم يمهلنا الوقت كثيراً حتى مات ثلاثة صغار أخرين جملة واحدة ، فنفرتُ إلى مصطفى دون أناة بعين باكية أيما بكاء .. صرخت فى وجهه بأن يتحرك ، فما كان منه إلا أن أجرى بعض الإتصالات بصعوبة حتى تمكن من جلب سيارة مصفحة تتبع قوات المقاومة ، تم نقل الصغار بها فى طريقهم إلى العاصمة ، وهنا كانت المعضلة ! .. فمن الصعوبة بمكان أن تجسر سيارة عسكرية الدروب الوعرة فى ظل هذا التراشق والإنفجارات الناشبة هناك ، حتماً ستتعرض للهجوم أو القصف ، لكنه فعلها ! ، حملت السيارة الصغار إلى أقرب نقطة آمنة .. ثم تم نقلهم إلى سيارة أخرى مضت بهم خلال الطرق التى يصعب على قوات المقاومة الخوض خلالها ، وعند تخوم العاصمة أقلتهم سيارات إسعاف مجهزة إلى مشفى البيرونى .

كانت لهذه الواقعة أصداء طيبة لدى اللاجئين ، وتناقلتها وسائل الإعلام على نطاق واسع ، ولا أعرف هذه المقادير الجذلى التى تحالفتْ معى بغتة

فباتت تذكرنى مراراً على شاشات التلفاز والمنصات الإخبارية ، حالة عارمة من الدعم الجماهيرى أحاطتنى دون أن أعلم ، حقاً كنت أخر من يعلم ! ، لم تصلنى أصداء هذه الضجة إلا عندما حدثنى بها مصطفى فى جلسة شاغرة من الهموم والإنشغالات بخلاء المخيم .
تداولتْ الأيام على هذا المنوال إلى أن إنقضى عام على مكثنا بالمخيم ، ولا أكاد أحصى ما تسنى لنا إنجازه لأجل النازحين ، مرت علينا خلالها عشرات الكوارث تذكيها الفاجعة تلو الأخرى .. ولا أذكر حينها أنى ضننتُ بجهد أو مال دون أن أغيث ملهوف لا يملك أسباب النجاة ، ولا أخفيكم كم كانت هذه الفترة قاسية .. بقدر ما أسعدتنى كل رمقة صغير تمكنت من إزاحة شعور الغربة والقهر عن صدره ، داخلتنى تلك الأيام بأن كل مصاب يهون دون أن أرى ضعيف يُقهر .. أو صغير تتنصل عنه طفولته .
فى تلك الآونة ، كان مصطفى قد أخبرنى بأن عليه السفر إلى القاهرة لبضعة أيام .. وذلك أن ثمة أعمال لديه متعطلة ولا يستطيع إنجازها فى ظل إنقطاع سبل الإتصال ، وكان قد سافر لمرتين فيما سبق غير أن هذه المرة تختلف ، وذلك أنه سألنى ، ولا أعرف داعى إلحاحه حينها .. إن كنت أرغب فى الرحيل معه ، فأخبرته بأنى باقية ، إلى أن عرفت فيما بعد أسبابه فى ذلك ! ، فقبل بضعة أيام من رحيله باغتنى بأن المبلغ – قيمة الجائزة – قد بُذل عن أخره .. ولم يتبق منه سوى ألفى دولار ، حينها أصابتنى خيبة بالغة ! ، فقد خايلنى طوال عام أو يزيد أن هذه الأموال فائقة إلى حد أستطيع به حل أزمات هذا الكوكب ، إلا أنه إتضح لى أنه لولا مساهمات مصطفى وبعض المنظمات الداعمة لقضايا النازحين والتى لاذ إليها فى إحدى سفراته ، فضلاً عن معونات لجان الإغاثة .. لما إستطعنا إنجاز ما قمنا بإنجازه ، حينها ولا أنسى ذلك قال لى فى صراحة بالغة " **أزمات النازحين .. بالوعة لا تشبع**

ولا تكتفى ! " .

وما هى سوى أيام حتى رحل .. غير أن سفرته هذه المرة دامت لأكثر من شهر ، وهو الأمر الذى أصابنى بشكٍ محقق حيال عودته ، ورغم تأكيدات ذويه ووثوقهم أنه مهما غاب فلابد له من عودة .. غير أن هذه الأشياء ما زادتنى إلا قلقاً وريبة ، لم تستطع أن تزيل عن رأسى هذا الشك الذى رسخ إلى أعماقى ، وكأنه إصطُنع لى خصيصاً ! .

نوع أخر من الإنتظار ..

إنتظار مخيف ! .

كل الأيام فى السابق كانت تمر ، مهما بلغنى من القلق والخوف .. بالنهاية كانت تمر ، مرت بى أوقات هى الأكثر والأقسى .. شعرت فيها بدنو الأجل ، بشتى ضروب الترح والقنوط ، وساعات فرح هى الأقل ، كلها مرت ما عدا هذه الأيام وهذه الساعات الرازحة ، توقفتْ ، وإن كتب لها أن تتحرك .. كان ذلك على أسوأ ما يكون .

فى هذه اللحظات تذكرت أحداث الماضى الثقيل جملة واحدة .. ما لا ينبغى فى الأساس أن أتذكره ، طافت رأسى حيث كان كل ألم ذقته وذاقنى ، تداعتْ الوقائع إلى خلدى كعقد ينفرط ، وكأن المشاهد كلها تنهار فى آن واحد ، فى هذه اللحظات بلغ منى كل شعور أقصى مبلغه .. واتتنى الأشياء بما ينذر بشيئ وخيم ، لكم مررت بهذا الشعور المخيف ! .. غير أنه هذه المرة أكثر خيفة ، يتحرك داخلى فتتحرك فى إثره أحداث كثر .

كنت أجوب المخيم جيئة وذهاباً كل صباح على نحو أثار دهش الجميع ، وكم هى الرمقات الآسية التى كنت ألقيها إلى البحر .. فتبتلعها أمواجه وتطلب المزيد ! ، قصفتْ الذكريات المؤلمة رأسى وأنا أذرع الساحة حيث كان صغار المخيم يركضون .. حتى كادت فى متتاليات دوىّ أن تنفجر ، لم

يستطع الإنتظار المخيف هنا أن ينفصل عما كان وعانيته هناك ، بالقرية ، تذكرتُ حين أضرمت النار فى دارنا ، وحين تخلتْ عنى خالتى نعمات فى أكثر أوقاتى حاجة إليها ، حين أُلقيتُ إلى ظلمة القبر حيّة ، وحين أجهض صاحب حانوت الأحذية حقى لما عاين إفتقارى لمن يقف فى ظهرى ، ويتصدى له ، تذكرت خالى .. هذا الذى كان يباغتنى فى أحايين وأمكنة ما كان لكائن ما أن يُسفرها سوى شيطان مريد سُلط أن يرقبنى .

تذكرت هذا الهدوء القاتم الذى كان يلفنى دوماً فى إثر كل حدث صاخب ، كنت أتلفت حولى آنها فلا أجد من يعنى بى .. أو حتى يفكر أين رست الأيام بهذه الصبيّة اليتيمة ، كان الجميع ينفض من حولى .. لأصفى وحدى فى عربة القطار تارة ، وفى الطرقات تارة أخرى ، حينها كانت خلوتى إجبارية .. كم كنت أشعر أننى رخيصة ! ، كنت أرمق السماء وأبكى .. فلا تستجيب ، وكم هى الأبواب التى طرقتها .. فإنقطعت الآمال على أعتابها !

تذكرتُ أشياء مختلطة مربكة .. لا رابط بينها سواى ، وكأنى أعيشها للمرة الثانية ، كلها كانت أوقات فى الماضى قاسية .. بيد أن هذه الأيام هى الأقسى والأكثر ضراوة .

وبينما أنا فى هذه الدوائر لا أعرف إن كنت أغترق فيها أم هى التى تدور حولى .. إذا بصبيّة من صبايا المخيم تركض إلى مرقدى توقظنى ، وكان ذاك فى صباح قضيت ليله بين الحمى والأرق ، باغتتنى بأن ثمة أناس بالخارج يطلبوننى .. " رجلان ذوى حيثية وهيئة وثيرة وقباعات رحيبة " .. هكذا وصفتهم ، فقلت لنفسى " **لابد وأنهم من رجال الصحافة .. ومن ذا الذى يسأل عنى منذ شهور سواهم ؟!** " .

ويبدو أنى فى غمرة هذا الأسى إكتسبتُ الحصافة والتمييز ، فمذ رأيتهما يقفان قبالة أحد الفصول الدراسية التى إنتظمت فيها مع الصغار .. عرفتُ

أنهما ليسا بصحافيين ولا من رجال الإعلام ، برغم هذه الكاميرات التى كانت تبرق فى أرجاء المخيم ، ما إن رأونى حتى ترجلا نحوى دانيين ، ولكن قبل أن ألتقيهم وأمام أحد المخيمات .. إرتخت يد على كتفى تربتُ من الخلف ، إلتفتُ .. فوجدته مصطفى ، كانت تشوبه هالة مستفزة من إبتساماته الهادئة العريضة ، أثارتنى فإستشاط غضبى ، بعد غياب شهر جاءنى بإبتسامة سمجة ، لم أدر بحالى ويداى ترتع على وجهه وصدره صفعاً وطرقاً ، أما هو فلم يقف مكتوف الأيدى .. قبض على راحتىّ ، صارخاً ..

- **إهدأى .. لقد أفسدتى الأمر .**

فدفعته بيدى ..

- **أمر ! ، أى عبث جئتنى به هذه المرة ! .**
- **حسبكِ من فتاة زلقة ، يربض الغضب عند شفير أنفها ، إهدأى ..**

فإلتقطتُ أنفاسى وأطرقتُ للحظات ، ثم أقمتُ وجهى أنتوى الحديث ، فبادرنى قبل أن أنطق بكلمة ، نظرنى دون مواربة .. وبصوت تملؤه الثقة والزهو قال ..

- **أتعرفين نوبل ؟ ..**
- **ماذا ؟! ..**

ثم تغضن وجهى وتقلصت وجنتى فى نفور ، فأطرق هامساً ..

- **كنت أتوقع هذا ..**

فنظرته ضائقة ..

- **تتوقع ماذا ؟ ، من هؤلاء ؟! .**

وأشرت إلى الرجلين الواقفين هناك .. على بعد خطوات .

فإقترب منى إلى تلك المسافة التى إعتاد فيها أن يباغتنى بحدث جلل ، قائلاً

- **قبـل أن أجيـب علـى أيٍ من هـذه التسـاؤلات .. عليكـى أولاً أن**

تشاهدى هذا الفيلم القصير .

ثم أعطانى حاسوب لوحى صغير ملأ به بَسْط راحتىّ .. وأماء لى بلحاظ عينه أن شاهدى ، فقلت فى نفسى **" فيلم ! ، ما بال هذا المعتوه ؟! "** .

بالأخير رمقت الشاشة المسطحة فإذا ببعض المشاهد تنساح إلى صفحتها ، وكعادتى لم أفهم كثيراً مما رأيت أو سمعت ، غير أنى بعدها فهمت كل شيئ .. وبعشرة أيام فقط ، كانت المشاهد لفيلم وثائقى يحكى تاريخ جائزة نوبل .. ومن فازوا بها ! .

إنتهى الفيلم ، وإنتصبت أنظره فى بلادة فائقة ! .. ولسان حالى يسأل **" وماذا بعد ؟! "** ، ولا أدرى كيف أصف ورطته معى حينها .. إغترق فى حرج وعجز حتى جسا لسانه للحظات ، فلم يعد ينطق ! .

أرسلت بصرى هناك .. فرمقت هذين الرابضين أمام الخيمة قد هموا بالإقتراب من ساحتنا ، فإذا بمصطفى يشير إليهما أن قِفَا .. فلزموا محطاتهم ! ، وقتئذٍ راعنى أنه فى نفس الفتى شيئ على قدرٍ من الأهمية ، والأهم من هذا كله .. أنه يخصنى .

فإلتفت إليه جاذبة طرف ردائه ..

- **ما الأمر ؟! .. لقد أخفتنى .**
- **لا شيئ .. لقد فزتى بجائزة نوبل للصغار .. هذا فقط .**
- **ماذا ؟! ، أهى تلك التى تحدث عنها هذا ؟ .**

مشيرة إلى جهاز الحاسوب اللوحى الماكن فى يده .

- **نعم .. هى ذاتها .**

فنظرته مشدوهة ، وإتسعتا حدقتاى إستجابة لشفتى التى تدلت بغتة ، فإنفرجا جفنيه مستبشراً .. وإفتغر فاه يشاطرنى تلك السعادة التى بدت منى ، غير أنى ما كنت فَرِحةً مطلقاً ، ولا شيئ أخر ، حاولت أن أعنى بالأمر .. غير أنى لم أستوعب منه شيئاً ، ضربتنى بلاهة الأنباء الغريبة ،

كدت حينها أن أدعوا على هذا العقل الأعرج فى رأسى الذى ما عاد يفهم شيئاً .
ربما لو أخبرونى اليوم بنبأ كهذا ، وبعد أن جاوزت السبعين حولاً .. لكنت مت فرحاً برغم دنو قدمى من الموت ، كنت سأسعد بالجائزة أيما سعادة .. حتى وإن كنت قد نلتها مرة من قبل ! ، غير أنى حينها ورغم هذه المشاهد التى أرانيها مصطفى للتو .. لم أكن قد قنعت بجدواها ! ، لم أفهمها أو أفهم ما يتبع الفوز بها ، كنت أتساءل " **وما قيمة هذه الجوائز فى الأصل .. والعالم لا زال رازحاً فى الحروب والمجاعات ؟!** " ، لم أقصد فلسفة الأمر بقدر ما كنت بحق مأخوذة بأشياء أخرى .. كانت هى الأهم ، هى الأولى بالعناء عن جائزة نوبل هذه ! .
آنئذٍ كان على مصطفى أن يتدبر الأمر قبل أن تأخذنى أوجاعى ورصيدى الهائل من المآسى إلى دروب بعيدة .. فلا أحسن تقدير الحدث ، أذكر أنه نظرنى مشدوهاً ..

- **متى كبرتى يَنُّور ؟!** .

هذا السؤال القديم يتجدد " **متى حقاً كبرت ؟!** " ، فأردف قبل أن يطول شرودى ..

- **ما بالكِ هكذا جامدة ! ، الصغار يسعدون بالأنباء السارة وإن لم يفهمونها ، أما أنتى .. فلا ، حسبكِ كل هؤلاء الذين ترنوا أعينهم وتصغى آذانهم إليك .**
- **أنا فقط مأخوذة بالأمر ، كيف لمثلى أن تنالها ؟!** .
- **فى السابق ، ومنذ ما يعدو سنواتك العشر هذه ببضع مرات .. كان شاب فقير يقطن غرفة رثة فى حى هو الأفقر من نوعه ، لا يملك من حطام الدنيا وضجتها سوى فأر يأتيه من زاوية الغرفة .. يشاطره المأوى ويُطعمه نصف ما يأكل ، مرت الأيام وأضحى هذا**

الأضحوكة مالك أكبر مدينة ملاهى فى العالم ! ، بل ونال أكبر عدد من الجوائز فى التاريخ على الإطلاق ! ، وفى عالمنا اليوم فما أكثر هؤلاء ، هى أشياء باتت عادية ، فلا تخالجكِ الريبة فى إستحقاقكِ لجائزة كهذه .. أنتى الأجدر بها بين الصغار .

حينها لم تبد منى ردة فعل مفهومة .. سوى شعور فائق بالرضا والزهو كان بالنسبة لى غريباً ، إستشفه مصطفى منى لتوه ! .. فأرخى يده إلى كتفى وحثنى برفق إلى السير نحو هذين الواقفين أمام الخيمة ، قائلاً بصوت خفيض ..

- **هما إثنين أرسلتهما المؤسسة التى تمنح الجائزة .. بُعثوا لإبلاغكِ بالأمر ، وهو أمر لا تنتهجه فى العادة مثل هذه المؤسسات .. غير أن لجنة نوبل تعنى بالصغار خصيصاً الذين قدموا إسهامات كبيرة للدفاع عن حقوق الطفل ، وبخاصة المعرضين منهم للخطر .**

وما إن إقتربنا منهما حتى إستشرفهم مصطفى قائلاً ..

- **عذراً .. كان علىّ أن أمهد للأمر ، فـ (يَنُّور) ذات ظرف خاص .**

حينها نظرته شذراً " **ماذا يقصد بظرفى الخاص ؟!** " .. وخال لى أنه يرمى إلى ساقى المبتورة ، وذهبتُ كذا إلى أنه ربما يقصد أنى يتيمة بلا أب ولا أم ، ولا عائلة ولا وطن ، ولما حاولت أن أتبيّن الأمر لم يأبه .. بل أكمل حديثه الرتيب حتى لا يُفسد ما كان قد بدأه .

حينها أذكر أنهما قدما لى باقة زهور رائعة ، وأعدا لى لقاءاً مصوراً ، وعلمت آنئذٍ أن السفرة هذه المرة ستكون إلى السويد حيث يُقام حفل وثير فى بلد تدعى ستوكهولم ، ولا أخفيكم .. دارتْ رأسى ، فما كدت أستوعب هذه التى تدعى (باريس) .. حتى جاءتنى الأخرى (ستوكهولم) .

لم يكن بمقدورنا المكوث فى المخيم لأكثر من يومين أخرين ، فقد كان علينا

الرحيل قبل الحفل بثلاثة أيام على أقل تقدير .. وذاك لما يسبق الحفل من تمهيدات وبروتوكولات ذات علاقة بالفائزين ، لذا كان هناك الكثير من الحراك والعمل ليومين كاملين بالمخيم ، كان علينا إنهاء الكثير من الأعمال المعلقة قبل السفر .. وقد كان .

إلى أن جاء يوم السفر ، وقد كان بحق يوم عجيب ! ، ودعتُ فيه رفاقى بالمخيم كأنى لن أرهم تارة أخرى .. برغم يقينى الجازم بأن عودتى حتمية بعد إنهاء تلك السفرة التى ما راقتْ لى أبداً ، وخاصة بعد ما وافيته فى أعين الصبايا من حزن عميق مزق صدرى تمزيقاً ، خيمتْ علينا أجواء الوداع دون إرادة ، أذكر أننى أمضيت الليلة الأخيرة فى الخلاء يحيط بى أكثر صبية وصبايا المخيم ، لم يكن لدينا الكثير من الحديث .. فلعدة مرات أوقفت العبرات كل شيئ ، فمن الصعوبة بمكان أن ينزاح عن ذاكرتك لأجل شيئ ما ، مهما كان مدهشاً .. شخص عرفته فى ظروف كتلك ، بالنهاية إستسلمنا للإستدفاء بالخلاء والإستدفار ببعضنا البعض .. دون حديث ، دون عتاب ، دون أى شيئ سوى صمت وجيع .

وفى تلك البلد البعيد ..

كنا على بعد خطوات من يوم الحفل الأشهر ، زهاء ثلاثة نهارات من ميعاده المحدد فى العاشر من ديسمبر من كل عام ، لم تختلف رحلتنا كثيراً عن سفرة اليونسكو الأخيرة ، أقمنا فى فندق وثير بالعاصمة السويدية ، وهناك أخبرنى مصطفى بأن نبأ الجائزة جاءه قبل شهر بالتقريب من نزوحه عن المخيم .. وجاء رحيله خصيصاً للإستوثاق من الأمر ، وما كان له أن يخبرنى قبل ذلك ، غير أن أكثر ما أثار دهشى فيما أخبرنى به أنه تم ترشيحى لنيل الجائزة قبل شهور من ميعادها وذلك بناء على ترشيحات عدة من قِبَل شخصيات ذات حيثية .. سبق لها أن فازت بجائزة نوبل ، فضلاً عن بعض

أعضاء لجنة نوبل المعنيين بقضايا السلام ، والأكثر من ذلك أن اللجنة قد تلقت خلال عام كامل ضغطاً أقوى .. وذلك عندما تماطرت عليها ترشيحات فائقة العدد من ملايين الأطفال والشباب حول العالم عبر المواقع الإلكترونية ، ولا سيما مواقع التواصل الإجتماعى ! .
لا أخفيكم ، كم ضربنى حديثه هذا بزهو عميق لا يخلو من خوف ورهبة ! ، تساءلت مراراً " **كيف نبا خبرى وسيرتى لأسماع كل هؤلاء ؟!** " ، فبصرف النظر عن ملايين المتابعات القافزة عبر شهور طوال ، والكاميرات التى باتت تعرفنى أكثر مما تعرف نجوم السينما وكرة القدم .. ما تصورت يوماً أن الأمر بهذا الحجم من الجماهيرية والإنتشار ! ، وفى هذا كله ما راعنى سوى أنى علمت بأننى أصغر مرشحة للجائزة عبر تاريخها الطويل .. ذاك بعد أن كانت الباكستانية " ملالا يوسف زى " ذات السبعة عشر حولاً حاملة اللقب لعدة سنوات .
بيد أن قيمة الجائزة تظل النبأ الأكثر روعة على الإطلاق ، قال لى مصطفى آنئذٍ أنها تعادل المليون دولار تقريباً ، وبرغم ندرة عنائى بالمال ، فضلاً عن أن الألف كرقم هو أخر ما ناهز عقلى الصغير فى عالم العد والإحصاء .. فإن قيمة الجائزة أربكتنى وأشعرتنى بهول المسؤلية ، وخاصة عندما أخبرنى مصطفى آنها بأن مبلغ كهذا أستطيع به شراء مئات الدور بناسها ! .

فاق حفل نوبل إحتفالية اليونسكو فى أشياء كثيرة ، فبمعاينة الأمر عن كثب سنلحظ هذا الحضور العظيم من شخصيات فائقة المنزلة .. قد يصيبك دوار إذا ما إغترقت فى تاريخها وإسهاماتها ، فضلا عن التغطية الإعلامية الموسعة التى ما تليق سوى بمحفل وثير كهذا ، غير أنى ما وجدت بنهاية الأمر كلمة ألقيها على منصة الحفل سوى " **شكراً** " .. وهو ما أثار ضحك الكثيرين ، ففى حين إلتفتت لى أكثر الكاميرات ، وتأهب الحضور لكلمة

عصماء تفوق كلمة حفل اليونسكو .. إرتبكتُ وتوقف الحديث فى حلقى ، مُخيبة أماهم ، وحقيقة الأمر أنى لم أتجهز لكلمة .. ولا كنت أنتوى فى الأساس أن أسترسل هناك ، فقد وقفت اللغة على لسانى عاجزة عن وصف ما يحدث للصغار فى مخيمات سوريا ، ناهيك عما جاءنى حينها مما يحدث فى بقاع متوترة أخرى على هذا الكوكب .. كان أفدح وأعظم ! .

وكما ينتهى كل شيئ ، إنتهى الحفل .. وإنتهت الرحلة ، وتسلمت الجائزة بواسطة مصطفى الذى كان قد تسلم حضانتى بطرق قانونية فيما سبق ، كان علىّ العودة .. فما قفز فى رأسى حينها سوى قريتى ، وبصرف النظر عن كونها أول ما طاف برأسى فقد كان ضمن برتوكولات نوبل ، فضلاً عن التغطية الإعلامية الموسعة .. أن يتم الإعداد لعدة لقاءات حوارية بواسطة المؤسسة المعنية بتسليم الجائزة ، ثم إتاحة المجال لرجال الصحافة والإعلام بالبلد الأم والأقطار الأخرى ، أما عن لقائى الذى أعدته مؤسسة نوبل فقد إشترطتُ أن يتم فى قريتى ، وأمام دارنا المحترقة ، ذاك برغم ترشيحات المعنيين بأن يتم هذا اللقاء فى مخيمات سوريا ، أو أحد إستوديوهات العاصمة السويدية ، غير أن ترشيح المؤسسة قد راق لى وواكب ما كنت قد عزمت عليه من قبل .. فشرعت فيه ! .

(الأخـيرة)

سوق الخميس ..

تنتهى الأشياء كما ينتهى الإنسان .. من وهن إلى قوة إلى وهن ، ثم موت ، غير أن بعض الأشياء لا تنتهى ، كلما فقدت روحاً .. أمدها الزمان بروح أخرى ، وربما أقوى تأثيراً ! .

بعد هدوء طويل خيم على أجواء القرية ، وبمرور ساعات إضافية مكث خلالها فريق التصوير يعملون على تثبيت الكاميرات وإفراد الستائر الضوئية ، وتهيئة الساحة أمام دارنا البائدة للحوار التليفزيونى الذى أُعلن عنه منذ بضعة أيام .. تجمع الأهالى فى جمهرة غفيرة حول الساحة لا يفض عقدها سوى ممر رحيب تم إعداده لإستقبال الضيوف ، وتشرذم أفراد الأمن يطوقون الحشد من أقصاه إلى أدنى نقطة فيه .

سرتْ همهمة بين الجموع المركومة .. وما لبثت أن تحولت إلى همسات دائرة ، وزيد الأمر ضجة عندما أقلتنى سيارة وثيرة إلى عمق المشهد ، وما كان ردائى الزهرى الموسوم بورود بارزة ، والذى إبتاعه لى مصطفى من أحد بيوت الأزياء الشهيرة .. إلا داعياً لإثارة المزيد من الغبطة والعجب فى آن ! ، فحامتْ الدهشة تجوب الزحام وتقلب الوجوه صغيرها وكبيرها .

وقفتُ للحظات أنظرهم ملياً .. قبل أن أتحول إلى ذاك المجلس الذى أعدوه خصيصاً لأجل إجراء الحوار ، فإستحال الهمس الدائر إلى صخب وبلبلة ، ثم إلى وجوم طويل ! ، الرجال والنساء ينظرون فى شده وإبتسام بليد .. لا يخلو من سدم وندم ، والصبية كعادتهم يركضون زمرات حول الموكب .. بينما تشبثت الصبايا بأردية أمهاتهن ، تكاد الغيرة أن تنهش صدورهن .

ترجلت بضع خطوات حتى جلست إلى مقعد وثير فى مرمى الكاميرات مباشرة .. بإنتظار مقدمة الحوار والتى لم تكن قد أتت بعد ، دارت عينى فى

أناة تتصفح هذه الوجوه التى ترزح بين الشده والوجوم .. حتى إستقرت هناك خلف الحشد حيث ساحة سوق الخميس ، الأجواء لم تختلف .. هى نفسها كما كانت منذ أكثر من عام ونصف ، الباعة والسابلة يزالون عملهم المعتاد ، بيع وشراء ومقايضة ، والنسوة تُللٍ فى أحاديث جانبية على رأس كل بساط للخضر ، والأهم أن الصبايا لا يزلن يركضن إلى عربة الحلوى المثلجة .. يمتطين قطار رحلة الخميس الممتعة ! .

خايلتنى صبيّة فى رداء كنت أرتديه يوماً ما ، أو هكذا شُبّه لى ، كانت تسير تارة وتتوقف تارة .. وكأنما يتردد فى رأسها صداح أمٍ مترقبة هناك **" لا تركضى ، لا تتسكعى ، إشترى الحلوى وعودى سريعاً .. وهأنذا أتابعك "** ، سارت تتناوح بين عَجَلٍ ومهلٍ خيفة أن تغترق بين نسوة السوق .. ففى السوق تيه الصغار ! .

شيئ ما لوى عنق الصبيّة .. فأرسلتْ نحوى نظرة عابرة ، لحظة .. كأنما هى ساعات طويلة أعادت لى ذكرى أيام خلتْ ، ذاك قبل أن يأتيها صياح الأم ، فإرتبكتْ حتى كادت أن تتعثر .. فما لبثت حتى ركضتْ على عجل صوب العربة ، تصطدم بهذه وتزجها هذه ! .

قطع المشهد بغتة .. سيارة تحمل كتابات أجنبية ، توقفت عند رأس الحشد .. لتهبط منها سيدة أنيقة موسرة وكأنها نجمة سينما ، يتقدمها فردى أمن جهام غلاظ ، مقدمة البرنامج ، كنت أعرفها جيداً .. إلتقينا قبل الرحيل من العاصمة السويدية ، وبهرنى أنها تجيد العربية على نحو مدهش ، برهات .. وإنتشر فريق العمل من المصورين وغيرهم فى أرجاء المكان كأسراب نحل ساعية .

وخذنى صدرى ، فرمقت مصطفى الواقف هناك عند الزاوية البعيدة .. فأماء لى برأسه أن **" إطمئنى "** ، غير أنى لم أطمئن سوى عندما دار حديث

قصير بينى وبين السيدة .. يتخلله الكثير من الإطراء والإبتسامات ، هنا فقط زالت رهبتى ، وتوقفت عينى عن التحول إلى أطلال الدار المحترقة من آن لأخر .. وما كادت حتى كفت رقرقتها التى أربكتنى مذ حطت قدمى إلى ساحة التصوير ، وبينما كنت أتبيّن منها عما ينبغى فعله إذا ما باغتنى سؤال لا أعرف له رداً .. إذا برجل ملتحٍ دميم الوجه يشق الصفوف مخترقاً الزحام ، يحمل شيئاً فى يده كأنه كرة من القماش ! .

" **خـالى !** " ، همستُ بها .. يختنق همسى برهبة مفعمة بخوف قديم ! .

أثارتْ هيئته المزرية ريبة أفراد الأمن فكادوا أن يطوقوه .. لولا أن مصطفى نافحهم فى اللحظة المناسبة قبل أن يصوبوا طلقاتهم ، بينما باشر هو خالى وهو يتقدم بخطو مكروب .. وكأنما أحد يزجه نحوى زجاً ، لا يدرى الرجل بأنه قبل لحظات كان سيُقتل شر قتلة ، إقترب ترتسم على وجهه مخايل إبتسام خبيث ، مردداً ..

- **إبنة أختى .. حبيبتى ، مذ عرفتُ بقدومك وأنا أتقلب على جمر .**

وهنا فقط رمقتُ ذاك الشيئ فى يده ، لم يكن كرة قماش .. بل هى دميتى ، تلك التى أسرها فى قبوه بضعة أعوام ، ما كدت ألمحها حتى إرتجفتُ من مقعدى واثبة .. ثم إقتربتُ منه فى حذر شديد نازعة الدمية من راحته ، فنظرنى ضاحكاً كذئب عجوز يتربص بشاة شاردة ..

- **إنما جئت بها لكى خصيصاً يا صغيرتى ..**

وما كاد حتى أفرج ذراعيه ليحتضنى .. فحدجته برمقة نفور وتراجعت للخلف ، فأثار تزامن إقترابه مع نفورى منه حفيظة رجال الأمن .. فتأهبوا ليصوبوا نحوه ، وذاك أنهم مُخولين بحمايتى قدر عناءهم بحماية طاقم العمل ، فما لبث أن شعر بحراكهم حتى نكص على عقبيه ، تقهقر محنى الظهر كعبد ذليل فى حضرة مالك رقبته ، يغمغم بصوت خليس متهدج ..

- **داركِ تنتظرك يا صغيرتى ..**

ثم إختفى عن الأنظار كأنه لم يكن ، حينها رمقت مصطفى فوجدت الإبتسام يكاد يشدخ شدقيه ، فإبتلج صدرى بضحكة لحوحة ! ، وقتئذٍ ، جاءنى صوت السيدة من الخلف تستدعينى لبدء الحوار .. فترجلت إلى مقعدى وجلستْ .
فى هذه اللحظة ودون إرادة ، خايلنى صوت أمى هامساً " **إلام تتطلعين؟!"** ، فألفيتُ عينى دون أن أدرى تنظر هناك .. حيث كانت الصبيّة ! ، فإذا بى أجدها تخترق تلافيف النساء وسيلهم الجارف .. كأنشوجة تهرع إلى طُعم سقط فى الماء سهواً ، فهست لى نفسى **" مابال هذه الأشياء تتكرر ؟! "** ، حينها شعرت بإرتباك شديد ولم أستطع مداومة النظر إلى السيدة ، ورغم نداءها المتكرر بأن الحوار لتوه قد بدأ .. ظلت عينى تتناوح هناك ، حيث أهازيج بائع الأيس كريم ! .
إلتفتْ مصطفى إلى هذا الشتات الذى إستحوذ على خلدى .. فلم ير شيئاً ذا معنى ، فتقدم نحوى مغتاظاً ..
- **ما بالك شاردة ؟! .. إلام تنظرين ؟ ، أفيقى .. فإن الحوار قد بدأ .**
شعرت بحرج شديد فإلتفتُ إلى مقدمة البرنامج ، وكانت حينها قد ألقت إستهلالتها بكلمات لم أسمع منها شيئاً ، طغى ذاك البوق الملحون على أذنى .. فلم أستطع أن أميز حرفاً مما قيل ! .
عرجتْ عينى تارة أخرى ، فإذا بالصبيّة منتشية تلوك الحلوى المسكرة ، حينها شعرت بوخذة أعرفها .. فإستفقتُ قبل أن ينبض فى صدرى هذا الشعور القديم ، آنئذٍ كان مصطفى ينظرنى شذراً .. يكاد الغيظ أن يطيح بلبه ، فإستدرت .. وتردد فى أذنى سؤال السيدة ..
- **والأن يَنُّور .. أخبرينى كيف بدأ الأمر ؟ .**
حينها تنهدتُ ، سحبتُ شهيقاً طويلاً قبل أن أعزم على ألا أنظر هناك ..

- **بدأ كل شيئ .. هنا ، فى سوق الخميس ، حيث كنت لا أزال على عهدى مع بائع الحلوى المثلجة .**

نعق بوق الرجل تارة أخرى .. وكأنه يعاندنى ، أو عقد العزم أن يسفر ضعفى ! ، فأغمضت عينى .. أحاول أن أزيل عن رأسى أن ثمة بائع حلوى هناك ، تلك التى لازالت لسوء طالعى تذوب حيالها صلابتى وجلدى ، ثم نظرت للسيدة

- **حينها كنا نلتصق بأذيال أمهاتنا .. للحاق بهذا القطار الممتع ، قطار رحلة الخميس .**

فخايلنى صفير القطار يدوى ويخفت .. منتهباً جلجلة عربة الحلوى فى باطنه ، فأوصدت أذنى حتى لا تصغى ..

- **فى ذاك اليوم ، وبينما كنت فى طريقى إلى عربة الحلوى المثلجة .. كان القدر قد سبقنى بركضه ورجله ، زج القطار بخطو لاهث حتى مزق لُحمة هذا السوق .. راكلاً فى طريقه كل شيء ! .**

وهنا رعد القطار بصوت مدوى .. معلناً تجاوزه تخوم البلده فى طريقه إلى المحطة ، فأرغمنا على إيقاف التصوير ، حينها نفرت السيدة عن مقعدها تنفخ غيظاً .. بينما أرسلت أنا بصرى هناك ، أبحث عن الفتاه .

كان علينا الإنتظار حتى يمر القطار .. أو يرفأ مبتلعاً صخبه ودبدباته ، غير أنه لم يقف ! ، إنزلقت عجلاته محدثة صفير وإصطخاب يخلع القلوب .. فحاد عن وجهته تاركاً القضبان تكمل المسير وحدها ، وهنا إستفقت ، إخترق القطار الساحة فى رقع عنيف .. فتصدعت أرجاء السوق ، ركضت النسوة أمامه فازعين ، تشرذموا هنا وهناك .. فإنفرط عقدهم كحبات مسبحة تنفجر صارخة ..

والصبيّة هناك فى ترهٍ تتلفت مشدوهة ، فى غمرة إفتزاعها لم تلتفت إلى تلك الأصوات الدائرة حولها .. غير أن آذانها إلتقطت عبارة " **المرأة سقطت** " ،

فإرتجفت وسقطت عن يدها حلوتها البيضاء ، جثت على ركبتيها تحاول جمع شتاتها .. لكن الأوان قد فات " **المرأة سقطت** " ! ..

نظرتُ إليها فى أسى .. حال من يعرف نهاية كل الطرق ! ، رفعت الصبيّة رأسها تائهة بين تلك السيقان الراكضة .. فلمحت وجه أمها غائماً ، مطروحاً بين ذراعىّ إحداهن .. غامضة العين ، ساكنة ، لا تختلج ، وحشد كثيف من النسوة حولها ، فقفزت واثبة لا تعرف ما عسى أن يكون قد حاق بأمها .. قبل أن تدور فى رأسها آلاف الأسئلة والإجابات ! .

حينها فقط نظرتها فى رمقة أخيرة .. فوجدتها تموج حائرة بين النسوة ، وثمة صوت قريب بعيد يتردد فى آذانها برجيع مخيف .. " **المرأة ماتت** " ! .

وهنا بدأت الرحلة ..

رحلة أخرى لا تنتهى .

* * *

تمت بحمد الله

تنتهى الأشياء كما ينتهى الإنسان
من وهن إلى قوة إلي وهن , ثم موت
غير أن بعض الأشياء لا تنته
كلما فقدت روحاً
أمدها الزمان بروحٍ أخرى
ربما أكثر قوة وتأثيراً !
وهكذا كانت رحلتى مذ رحلت أمى
كلما مزقتُ فصلاً
كتبه أخر